

كان التاريخي

ISSN: 2090 - 0449

أول دورية عربية رقمية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م

Kan
Historical
Periodical

السنة الثامنة عشرة
العدد الرابع والسبعون

رقمية الموطن
عربية الهوية
عالمية الأداء



/historickan



@kanhistorique

ديسمبر ٢٠٢٥ جمادى الآخرة ١٤٤٧



ISSN 0209-004X



9 770209 004499



<https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية- س ١٨، ع ٧٤ (ديسمبر ٢٠٢٥ / جمادى الآخرة ١٤٤٧)

Dawriyyat Kān al-Tārīḥiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 18, no. 74 [Dec. 2025]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: <https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س ١، ع ١٤ (سبتمبر ٢٠٠٨). القاهرة: المؤسسة.
٢٠٠٨ – ٢٠٢٥ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمَة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردم ٢٠٩٠ – ٠٤٤٩

٢- الآثار

١- تاريخ

٤- التراث

٣- التراجم

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:

Organization, 2008 – 2025.

Peer-reviewed, open-access journal.

Indexed and abstracted in several international databases.

ISSN: 2090 – 0449 (Online)

Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٥ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2025 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

■ النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء

هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.

■ ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف

العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو

إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا

تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.

■ الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا

تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.

■ لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

<https://kan.journals.ekb.eg>

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفَحَّكة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



معتمدة من مركز مؤتتر - برلين:

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالمياً.

<https://indexpolls.de>



المنتترف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة - المملكة المغربية

الهيئة الاستشارية

أ.د. خالد بلعربي	جامعة الخيلالي اليابس	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرابية	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د. الطاهر جيلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إاب	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د. عبد الناصر محمد حسن بس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د. محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د. محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	جامعة البصرة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الهيئة العلمية

أ.د. أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
أ.د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
أ.د. ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د. إبراهيم برمّة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د. زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د. غُلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د. فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د. مأمُودو كان	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د. محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

” حسب الترتيب الأبجدي

”كان التاريخية“ أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ ”المعبر المفتوح“ في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية، ”كان التاريخية“ غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخية

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى المرتفعة (Q2) في معامل التأثير أرسيف.

عضو في الجمعية الدولية للمجلات العلمية الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن رشد



L'ART MAROCAIN

vintage Liebig trade card

AMÉLIORENT LA CUISINE

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم

رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historicalkan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



https://kan.journals.ekb.eg

الإستعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكاتب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعميم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ

علمية. عالمية. مُحَكَّمَةٌ. ربع سنوية

أَخْلَاقِيَّاتُ النَّشْرِ وَالنَّزَاهَةُ الْعِلْمِيَّةُ

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدورية كان التاريخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهّم محرري المجلات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللازمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكمين اثنين على الأقل ممن لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكمين أو طلبهم ألا يقوم محكمون معينون بمراجعة أوراقتهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيّزة.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دورية كان التاريخية من متخصصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسية أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

كان التاريخية هي أول دورية عربية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دورية كان التاريخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



الأمانة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأ فادحاً في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعمالهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دورية كان التاريخية، وتوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيّد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقاً صحيحاً وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دورية كان التاريخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دورية كان التاريخية. ويجب على أي محكم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السرية، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

دورية كان التاريخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَّمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

تشرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرية التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال / دراسة / ترجمة / تقرير / عرض كتاب / عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

دورية كان التاريخية مجهزة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال / الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعين.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشيف وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دورية كان التاريخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممن عرفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممن أصدروا كتباً أو أبحاثاً علمية متميزة في تخصص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المقيّمون والمحكمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب	●	تاريخ الحروب الطليبية.
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق	●	تاريخ العصور الوسطى.
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن	●	تاريخ الأزمات والأوبئة.
أ.د. أحمد عبد الله الخسّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا	●	تاريخ الأدب العربي.
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق	●	تاريخ العالم القديم.
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر	●	تراجم والنساب.
أ.د. أمين محمد علي الجير	جامعة زمار	اليمن	●	التاريخ المقارن.
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر	●	العمارة والعمران والمدن.
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر	●	المستكشفون والرحالة.
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان	●	منهج البحث التاريخي.
أ.د. الحسن تاوشينخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب	●	تاريخ الكتب والمكتبات.
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة زمار	اليمن	●	تاريخ الأديان والتصوف.
أ.د. حنيفة هلايلي	جامعة جيلالي ليايس	الجزائر	●	التاريخ الحديث والمعاصر.
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر	●	
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق	●	
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر	●	
أ.د. سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر	●	
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان	●	
أ.د. شعيب مقنوني	جامعة "أبو بكر بلقايد" تلمسان	الجزائر	●	
أ.د. صالح محمد زكي اللهبي	جامعة الجزيرة	الإمارات	●	
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس	●	
أ.د. عبد الرحيم مرشدة	جامعة جدارا	الأردن	●	
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية	●	
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر	●	
أ.د. عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا	●	
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر	●	
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر	●	
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق	●	
أ.د. فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقا)	سوريا	●	
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق	●	
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر	●	
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر	●	
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب	●	
أ.د. محمد دوکوري	الجامعة الإسلامية	النيجر	●	
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب	●	
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق	●	

”حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية، والإنتاج الفكري، والإشراف على الأطاريح الجامعية، ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجَدَّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدنا أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك، أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات / منتديات / مواقع / مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم / الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون - الموبايل / الجوال - الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٣٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتسائلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونياً بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل بموضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية <https://www.facebook.com/historickan>
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرة إلى رئيس التحرير: <https://kan.journals.ekb.eg> mr.ashraf.salih@gmail.com

سلطنة
عُمان

سالم أحمد سالم الكثيري
وزارة التربية والتعليم

١٤

الجغرافيا التاريخية لإقليم ظفار في ضوء المصادر الكلاسيكية: قراءة في المواقع والحواضر القديمة (القرن الخامس قبل الميلاد - القرن الثاني الميلادي)

المغرب

حميد اجميلي | هشام الغرباوي
جامعة ابن طفيل

٢٦

النخيل في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط: تعدد في الوظائف وتكامل في الأدوار

المغرب

السهلي محمد
الأكاديمية الجهوية فاس

٣٣

التراث الفقهي وتاريخ البحر بالغرب الإسلامي: حادثة غرق مركب الحجاج المغاربة عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م

هولندا

أشرف صالح محمد سيد
جامعة ابن رشد

٤٣

رمزية اقتناء الحيوانات المفترسة في قصور الحكام: الأسد «زريق» نموذجًا في عهد خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ - ٢٨٢هـ / ٨٨٣ - ٨٩٥م)

المغرب

عمر الحريتي
جامعة القاضي عياض

٦٤

إضاءات حول البدايات المربنية من وقعة العقاب إلى واقعة "المشغلة"

المغرب

عبد الله بنحمو
المدرسة العليا للتربية والتكوين

٧٤

أرجال الكفيف الزرهوني مصدرًا لتمثيلات الزمن الاجتماعي خلال العصر المربيني

النيجر

محمد دوكوري
الجامعة الإسلامية

٨٥

حَجَّةُ أسكيا محمد (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) وإشكالية التوثيق المشرقي

الجزائر

أحمد طاهري
جامعة البليدة (٢) لونييسي علي

٩٩

ظاهرة الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة في مدونة المعيار للونشريسي (ت. ٩١٤هـ / ١٥٠٨م): بين ضمانات النص الشرعي وخطاب الإصلاح الديني والاجتماعي

لبنان

إبراهيم دريلي
جامعة القديس يوسف

١١٥

المرأة الأرثوذكسية في عصر الإصلاحات العثمانية: مدينة طرابلس كنموذج

المغرب

عادل الطاهري
جامعة ابن طفيل

١٣٥

من الوراقة إلى الطباعة: منعطف في البنية الثقافية بالمغرب قبل الاستعمار

تونس

ماهر عافي
جامعة سوسة

١٥٠

الوافد المغربي بالبلاد التونسية: مسارات التحيز المجالي والاندماج الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر

المغرب

محمد اتفروين
جامعة القاضي عياض

١٦٣

المخزن والأزمات المائية بمجال الأطلس الكبير الغربي خلال القرن التاسع عشر

العراق

أحمد شاكر العللق
جامعة الكوفة

١٧٩

تحليل الميزانيات المالية التاريخية باستخدام الخوارزميات الذكية: دراسة مقارنة لإيرادات ومصروفات إيران (١٩٢٥ - ١٩٢٦) أنموذجًا

المغرب

حمزة معروف
جامعة الحسن الثاني

١٩٩

مكتب المغرب العربي في القاهرة ودوره في دعم حركات التحرر بشمال إفريقيا: محاولة بوليوغرافية ١٩٤٧ - ٢٠٢٣

ترجمات:

ليبيا

احسين حمد احسين محمود الفقيه
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

٢٠٨

مملكة لوثارينجيا باعتبارها مركزًا للتأثير العربي والعلمي في القرن الحادي عشر الميلادي

عرض أطروحة:

المغرب

حنان افشيل
لأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس

٢١٦

العرف بقبائل زِيَانْ من خلال أرشيف المحاكم العرفية ١٩١٤ - ١٩٥٦



الجغرافيا التاريخية لإقليم ظفار في ضوء المصادر الكلاسيكية

قراءة في المواقع والحواضر القديمة

القرن الخامس قبل الميلاد – القرن الثاني الميلادي

سالم أحمد سالم الكثيري

مُعلم تاريخ بوزارة التربية والتعليم

ماجستير تاريخ حديث

جامعة السلطان قابوس – سلطنة عُمان



ملخص

يهدف هذا البحث إلى تقديم دراسة تحليلية للجغرافيا التاريخية لإقليم ظفار العماني، كما وُصفت في المصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية، وذلك في الفترة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي. يتجاوز البحث السرد الوصفي المعتاد، ليُقدم قراءة منهجية تُعنى بتتبع تطور المعرفة الكلاسيكية بأرض البخور، ومحاولة تحديد المواقع القديمة للحواضر والموانئ بناءً على الأدلة النصية والمكتشفات الأثرية. يبدأ البحث بتتبع المراحل التي مرت بها المعرفة الكلاسيكية بالجزيرة العربية. في البداية، كانت تلك المعرفة تتسم بالغموض والتصورات الأسطورية، كما يتضح من كتابات هيرودوت. بعد ذلك، بدأت هذه المعرفة تتطور مع الحملات الاستكشافية التي أطلقها الإسكندر الأكبر والبطالمة، مما أدى إلى تراكم معلومات أكثر دقة حول السواحل الجنوبية. وفي القرنين الأول والثاني الميلاديين، بلغت المعرفة ذروتها مع كتابات جغرافيين مثل بلييني الأكبر وبطليموس، اللذين قدما أوصافاً تفصيلية للمنطقة، وإن كانت تتطلب منهجاً نقدياً للتعامل مع ما شابها من أخطاء وتداخل في الأسماء والمواقع. يُركز الجزء الأكبر من البحث على الحواضر والمواقع القديمة في إقليم ظفار التي ورد ذكرها في المصادر الكلاسيكية. يستعرض البحث محاولات تحديد المواقع المذكورة. يهدف البحث إلى تقديم صورة متكاملة للمشاهد الحضاري لإقليم ظفار في العصور الكلاسيكية، مؤكداً على دوره المحوري في اقتصاد العالم القديم كمركز أساسي لتجارة اللبان. كما يخلص إلى أن المصادر الكلاسيكية، رغم ما فيها من تحديات منهجية، تُعد أداة لا غنى عنها في استعادة تاريخ المنطقة القديم، خاصة عند دمجها مع الأدلة الأثرية والنصوص التاريخية.

كلمات مفتاحية:

ظفار؛ الجغرافيا التاريخية؛ المصادر الكلاسيكية؛ اللبان؛ المواقع الأثرية؛ التجارة القديمة؛ تاريخ العالم القديم

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٣١ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.408008.1255

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سالم أحمد سالم الكثيري، "الجغرافيا التاريخية لإقليم ظفار في ضوء المصادر الكلاسيكية: قراءة في المواقع والحواضر القديمة (القرن الخامس قبل الميلاد - القرن الثاني الميلادي)". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون؛ ديسمبر ٢٠٢٥. ص ١٤ - ٢٥.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: sasalkathiri38@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٢٠٢٥ تحت شروط الترخيص المشاع-الاعتراف-الترخيص-غير-مبني (CC BY-NC-ND/4.0)، التي تسمح باستخدام، والتوزيع، وإعادة إنتاج، والنشر، والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية، في أي وسيط، شريطة أن تُعطي الائحة للمؤلف(ين) الأصليين، وتوفر رابطاً إلى الترخيص المشاع-الاعتراف-الترخيص-غير-مبني، وتحدد إذا كانت هناك تغييرات.

مُقَدِّمَةٌ

يُعدّ إقليم ظفار العُماني، بما يحتويه من ثروات طبيعية وموقع جغرافي استراتيجي، أحد أبرز الأقاليم التي حظيت باهتمام العديد من المؤرخين والرحالة عبر العصور. فقد كان مركزاً رئيسياً لإنتاج اللبان، تلك السلعة النادرة التي شكلت شريان التجارة القديمة، ورابطاً حضارياً بين الشرق والغرب. وفي سياق هذا التفاعل التاريخي، تُبرز المصادر الكلاسيكية، التي دونها المؤرخون والجغرافيون الإغريق والرومان، أهمية خاصة لإقليم ظفار، مقدمةً وصفاً فريداً لجوانبه الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية في فترة زمنية تمتد من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي. إن دراسة هذه المصادر ليست مجرد عملية سردية للحقائق، بل هي مهمة أكاديمية تتطلب قراءة نقدية متأنية، تُحلل طبيعة المعلومة، وتُميز بين المشاهدات المباشرة والروايات المنقولة، وتُقارن بين الروايات المختلفة لبليني الأكبر وبطليموس كلاوديوس وغيرهم، للوصول إلى فهم أكثر شمولية. فلقد مرت المعرفة الكلاسيكية بالجزيرة العربية بمراحل متعددة، بدأت بالتصورات الخيالية والغامضة، وتطورت مع ازدياد النشاط الملاحي للإسكندر الأكبر والبطلمية، لتصل إلى مستوى من الدقة والتفصيل وإن كان لا يخلو من بعض الأخطاء والمبالغات. يأتي هذا البحث ليتناول إقليم ظفار في المصادر الكلاسيكية، بهدف تقديم قراءة نقدية تُعيد النظر في هذه التقارير، وتُعالجها كوثائق تاريخية وجغرافية وأنثروبولوجية. وسيركز البحث على محاور أساسية، تبدأ بتحليل المصطلحات التي استخدمها الكلاسيكيون لتسمية الإقليم كـ"ساخاليتس"، وتحديد مواقع حواضره وموانئه كـ"موشكا" و"سفار"، وصولاً إلى استقصاء الدور الاقتصادي لللبان وتأثيره على المكانة التجارية للمنطقة. كما سيسعى البحث إلى مقارنة هذه المعلومات مع ما ورد في المصادر العربية القديمة والنتائج الأثرية الحديثة، لإثراء فهمنا لتاريخ هذا الإقليم. من خلال هذه المقاربة، يسعى هذا البحث إلى تجاوز السرد الوصفي، ليُقدم تحليلاً يُعطي فهماً لطبيعة هذه المصادر، ويسلط الضوء

على الأهمية التاريخية والحضارية لإقليم ظفار في التاريخ القديم.

أولاً: تطور المعرفة الكلاسيكية بالجزيرة العربية

تتمثل المصادر الكلاسيكية في كتابات الرحالة والمؤرخين الإغريق والرومان الذين زاروا أطراف وسواحل الجزيرة العربية، أو جمعوا أخبارها ممن زارها، فسجلوا أخباراً تصف الحالة السياسية التي كانت سائدة في زمنهم، كما قيّدوا معلومات مهمة حول أسماء المدن والحوضر والموانئ والقبائل والثروات الطبيعية، وكانت مادة البخور (اللبان) على رأس تلك السلع القيمة التي حظيت باهتمام أولئك المؤرخين والرحالة، وقد مرت المعرفة التاريخية الكلاسيكية بالجزيرة العربية ومناطقها ومنتجاتها بمراحل متعددة، شهدت خلالها تلك المعرفة تطوراً بين فترة وأخرى، وكانت بدايات معرفة الإغريق بشبه الجزيرة العربية تكاد أن تكون خيالية وغير واقعية، لما كان يحيطها من الغموض، وتعود أولى بوادرها إلى حوالي ٤٠٠ ق.م، حين وصلت المؤلفان اليونانيان أريستوفانيس (Aristophanes) ويوريبيديس (Euripides) أخباراً عن الجزيرة التي تدعى الجزيرة السعيدة (Eudaimon)، والتي يسودها نعيم الجنة ويعمها السلام والوئام، وكان الاعتقاد السائد لدى الإغريق بأن هذه الجزيرة تقع في المحيط الممتد جنوب القارة المأهولة والتي أطلقوا عليها اسم البحر الأحمر^(١)، وفي العالمين اليوناني والروماني القديم كانت جميع الأراضي التي تسيطر عليها الممالك العربية الجنوبية تعرف باسم العربية السعيدة وهو اسم جغرافي أتى بسبب إنتاجها الشهير للسلع الفاخرة، وكان اللبان الأكثر قيمة يسافر على طول الطريق إلى اليونان وروما سواء للاحتفالات الدينية أو لأغراض الحياة اليومية^(٢).

وكان الاهتمام الإغريقي بشبه الجزيرة العربية أمراً متوقعاً لما كان لمنتجاتها وسلعها من أهمية بالنسبة إليهم، وعلى رأسها اللبان (البخور) الذي كان ينتقل على طول الطريق إلى اليونان وروما سواء للاحتفالات الدينية أو لأغراض الحياة اليومية^(٣)، ويرى البعض أنه بحلول عام

وهو أمر ناتج عن اعتماده على الرواية^(١٠). كُتب لهذه الرؤية الهيرودوتية لجزيرة العرب أن تكون المرجع لما بعدها من الكتابات على الأغلب، ولذا لم يرد ذكر للعرب وبلادهم بما يستحق الحديث عنه في الكتابات الاغريقية التي تلت هيرودوت حتى مطلع الحقبة الهلنستية^(١١)، حيث شهدت المعرفة الاغريقية نقطة تحول رئيسة نتجت عن حملات الاسكندر الاكبر (ت ٣٢٣ ق.م)، الذي أطلق أربع حملات استكشافية انطلقت ثلاث منها من بلاد ما بين النهرين، وواحدة من مصر، ورغم أنها لم تتمكن من الدوران حول الجزيرة العربية، إلا أن وصول السفن التي أبحرت من بلاد الرافدين إلى مضيق هرمز، وإبحار السفن القادمة من مصر عبر البحر الاحمر لتصل الى باب المندب، كان له دوراً كبيراً في التعرف على حجم الجزيرة العربية، وجمع الكثير من المعلومات الجديدة حولها.^(١٢)

ونتيجة لهذا التطور المعرفي لدى الإغريق عن شبه الجزيرة العربية خلال الحقبة الحقبة الهلنستية (٣٢٣-٦٤ ق.م) ظهرت كتابات لمؤلفين إغريق تطرقوا لذكر الجزيرة العربية بشيء من التفصيل والتجديد، فلو حظ فيها أثناء حديثها عن العرب الانتقال من التعميم إلى التخصيص والتحديد، كما برزت جزيرة العرب إلى صدارة الكتابات الاغريقية، وكان ذلك بسبب انتقال العرب إلى دائرة اهتمامهم بعد أن أصبحت الدول الهلنستية تربض على تخوم بلاد العرب^(١٣)، كما كان للدعم الذي قدمه ملوك مصر البطالمة لحملات الاكتشاف والتجارة البحرية أثراً في تطوير تلك المعرفة الاغريقية^(١٤).

ومن أهم الكُتاب الإغريق خلال الحقبة الهلنستية الفيلسوف وعالم النبات ثيوفراستوس (Theophrastus: ٣٧٢-٢٨٧ ق.م) الذي ذكر في كتابه تاريخ النبات أن المعلومات عن اللبان والمر والقرفة والبلسم والعود وغيرها من الطيوب التي تصلهم من بلاد العرب أصبح من الممكن الحصول عليها بسهولة^(١٥)، ومنهم كذلك الجغرافي اراتوستثيس (Eratosthenes: ٢٧٥-١٩٤ ق.م) وهو أول من أشار إلى تقسيم بلاد العرب إلى قسمين يفصل بينهما خط يمتد من مدينة هيرون (القرب من السويس) إلى بابل وأطلق على القسم الواقع

٤٠٠ ق.م أخذت المصادر الكلاسيكية تعزز التصور والمعرفة للمنطقة التي غالباً ما تسمى على نطاق واسع بسأكلان/سخاليتس^(١٦). وربما يعود الفضل في تعزيز ذلك التصور عن العربية السعيدة وبلاد اللبان إلى ولوج الأساطيل الاغريقية للبحار الجنوبية، فذكر سترابو (Strabo: توفي ٢٤م): أنه في عهد البطالمة لم يجرؤ حتى أسطول يضم عشرين سفينة على عبور أعمدة هرقل في باب المندب بينما في عصره هناك ما لا يقل عن ١٥٠ سفينة تبجر عبر ذلك المضيق^(١٧)، وكان بطليموس (Ptolemy Philadelphus) الذي عاش بين ٣٠٩-٢٤٦ ق.م أول حاكم هلنستي لمصر يشجع التجارة مع جنوب شبه الجزيرة العربية وجنوب الصحراء الكبرى كما شجع العلاقات مع الهند على ما يبدو^(١٨) فهذه التطورات التي شهدتها النشاط الملاحي للإغريق كان له دوراً كبيراً في تطور معارفهم ومعلوماتهم عن منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية.

وتعارف اليونانيون (الإغريق) ومن بعدهم اللاتين (الرومان) على تقسيم جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام، وهي: العربية السعيدة، والعربية الصخرية، والعربية الصحراوية، وكانت العربية السعيدة Arabia Felix هي أكبر الأقسام، وتشمل كل المناطق التي عرفت فيما بعد بجزيرة العرب، في حين يؤكد البعض أن هذا الاسم كان خاصاً باليمن وبلاد البخور ثم تعمم الاسم على باقي جزيرة العرب، حيث أشار الكاتب اليوناني أغاثارخيدس (Agatharchides: القرن ٢ ق.م) أن اليمن هي التي أصبحت صفة السعادة على بلاد العرب، وقال الأوكوع أن اليونانيين والرومان أطلقوا على بلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربية هذا الاسم لخصوبة أرضها، واختلاف مناخها عن مناخ الجزيرة العربية.^(١٩)

ولذا كان الحديث عن مناطق انتاج وتصدير الطيوب والتوابل العربية من لبان ومر وغيرها حديث شائع في المصادر الكلاسيكية من هيرودوت (Herodotus) في القرن ٥ ق.م حتى اغاثارخيدس في القرن ٢ ق.م^(٢٠)، حيث يعد هيرودوت أول كاتب إغريقي يقدم لنا ذكراً مطولاً عن العرب وبلادهم وعاداتهم وتقاليدهم^(٢١)، إلا أن المعلومات التي قدمها هيرودوت ورغم أنها اتصفت بشيء من الصحة إلا أنها حوت بعض الأخطاء والمبالغات

ويعَدُّ بليني أو بليينوس الأكبر (Pliny the Elder) من أهم الكتاب الكلاسيكيين الذين اهتموا بالجزيرة العربية في كتاباتهم، حيث امتاز كتابه التاريخ الطبيعي بالكتابة عن الجزيرة العربية كتابة مفصلة فقسّمها قسمين: قسم تحدث فيه عن مساحتها وثرواتها ومدنها وجبالها، والقسم الثاني تحدث فيه عن الطيوب وتوابلها في جزيرة العرب وأهمها اللبان والمر فتكلم عن أشجارها ومواسم حصادها وطرق الاستخراج والجمع لمحاصيلها^(٢٣)، وحدد بليني أربع مناطق متميزة في الشرق الأدنى يطلق عليها العربية: إحداها العربية المباركة أو السعيدة التي اكتسبت لقبها من خلال شهرتها بالعطور والثروة^(٢٤). ومن الأسباب التي دفعت بليني للحديث عن بلاد العرب شهرة العرب بمحاصيل ذات قيمة تجارية عالية مثل البخور والمر والصمغ واللادن والطيوب والتوابل وسيطرتهم على طريق البخور الذي عرف بطريق التجارة العظيم^(٢٥)، ومن أهم المآخذ على بليني الخلط بين أسماء البائل والشعوب في الجزيرة العربية وعدم الدقة في تتبع الأماكن والمواضع والمعالج الجغرافية^(٢٥).

أما بطليموس كلاوديوس (Claudius Ptolemy) : ولد في حدود عام ١٠٠م) والذي يعرف عند العرب باسم بطليموس القلوذي فيعتبر أشهر الكتاب الكلاسيكيين الذين عنوا بالجغرافيا وألفوا فيها، حيث ألف كتاباً يعد من الكتب المهمة في تحديد البلدان وهو كتاب "الجغرافيا"، حاول فيه جمع أسماء المدن والبلدان المعروفة في زمنه^(٢٦)، وربما كان تاريخ تأليفه بين ١٥٠ و ١٦٠م، واستند بطليموس في كتابه على العمل الغير مكتمل لمارينوس الصوري الذي توفي ١٣٠م، فصحح بعض أخطاء مارينوس في حين ظلت أخطاء أخرى موجودة في كتاب بطليموس^(٢٧)، وأقدم النسخ المخطوطة لكتاب بطليموس تعود للعصور الوسطى في القرنين ١٢ أو ١٣م وبالتالي كان من المتوقع أن تحتوي النسخ المخطوطة من الكتاب لتراكمات من الأخطاء الناتجة عن سوء قراءة الأجزاء النالفة من الكتاب وأخطاء النسخ الأخرى التي تحصل عادة أثناء نسخ الكتاب^(٢٨).

جنوبه العربية الميمونة (Arabia Eudaemon) وتشمل شبه الجزيرة العربية والقسم الآخر سماه العربية القفراء (Arabia Eremon)^(١٦). ويحسب لاراتوستثيس أنه أول من تكلم عن الطريق التجاري الذي يمتد من أرض الممالك القديمة في جنوب الجزيرة العربية إلى مدينة البتراء عاصمة الأنباط، وكذلك إلى مدينة جرها في شرقي الجزيرة وهو الطريق الذي عرف بطريق البخور^(١٧)، وأشار إراتوستثينيس إلى أن المراكب ينتج في مملكة قتيان، في حين كانت مملكة حضرموت تنتج اللبان، وذكر بأن المملكتين كانتا تبيعان العطريين إلى التجار عبر الطرق التجارية التي تصل بين قتيان وحضرموت من جهة، وبين ايلة في الشمال وجرها في الشمال الشرقي، ويوجد إلى جانب ذلك خط بحري للتجارة الخارجية عبر المضائق الجنوبية للبحر الأحمر^(١٨).

ويبدو جلياً أن هذه الإشارات الجديدة لدى إراتوستثيس تعود إلى استفادته من سجلات رحلات الاسكندر الأكبر، حيث تمكن من الوصول إلى تقارير البعثات الأربع، بالإضافة إلى المعلومات التكميلية من الرحلة الاستكشافية التي أطلقها الملك بطليموس الثاني حوالي عام ٢٨٠ ق.م والتي رسمت خرائط لسواحل البحر الاحمر وجمعت معلومات جديدة عن المناطق النائية^(١٩) على الرغم من هذا التطور الذي شهدته المعرفة الإغريقية حول بلاد العرب ومنتجاتها، إلا أن الكتابات للمؤرخين الجغرافيين الكلاسيكيين خلال الحقبة الهلنستية ظلت تتسم بسمات قللت من أهمية المعلومات المستقاة من تلك المؤلفات، والسمتان هما: التعميم في بعض الأحيان، والخلط وعدم الدقة في أحيان أخرى^(٢٠)، واستمر الأمر على ما هو عليه حتى القرون الميلادية الأولى، حين ظهرت كتابات كلاسيكية أخرى أضافت الجديد على الكتابات السابقة لها حول شبه الجزيرة العربية وبلاد البخور، فقدمت مصادر القرنين الأول والثاني للميلاد معارف أكثر تحديداً ودقة حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان، ومن أهم مصادر تلك الفترة: كتاب الطواف حول البحر الاريتري لمؤلف مجهول (حوالي القرن ١م)، وبليني الأكبر (ت ٧٩م)، وبتليموس كلاوديوس (ت. حوالي ١٧٨م)^(٢١).

والقرى التي كانت تزدهر على أرض إقليم ظفار (موطن اللبان)، مما يُشكل مادة خاماً أساسية لفهم تاريخه الحضاري القديم، ومن أهم تلك الحواضر والتجمعات السكانية:

١/٢- سفار (Saphar)

سفار اسم منطقة ورد ذكرها في العهد القديم ضمن سياق ذكر ذرية سام بن نوح، فكانت ذرية يقطان بن عابر: الموداد وشالف وحضرموت ويارح وهديروام وأوزال ... إلى أن قال: "وكان مسكنهم من ميشا حينما تجيء نحو سفار جبل المشرق"^(٣٩)، وهناك من يرى أن سفار الواردة في التوراة، والمذكورة على أنها من تخوم بني قحطان الشرقية، تتطابق مع اسم وأوصاف ظفار، حيث إن أبناء قحطان كما ورد في التوراة كانت مساكنهم تمتد من ميشا حتى سفار جبل المشرق، وميشا هي منطقة المخا اليمنية، التي تقع شمال غرب اليمن، وهو يتطابق مع كون سفار هي ظفار عمان، حيث تقع في شرق اليمن^(٤٠)، كما رجحت دائرة المعارف الكتابية في قاموس الكتاب المقدس أن الأقرب هو كون ظفار الواقعة على الساحل الشرقي إلى الشرق من حضرموت هي سفار المقصودة في الكتاب المقدس^(٤١)، في حين استبعد البعض الآخر هذا و أن لا علاقة لسفار التوراتية بظفار عمان ، وإن ظفار لم تحمل هذا الاسم إلا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي^(٤٢) ، أو خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي^(٤٣).

وذكر زارنيس أنه قد رود في إحدى النسخ الخطية لخارطة بطليموس الإشارة إلى موقع باسم Saffara Mrtropolis أي مقبرة سافارا^(٤٤) ، ورجح العالم الآثارى زارنيس أن المقصود بها منطقة عين حمران، وكما نرى أن اسم سافارا قريب جداً ويكاد ينطبق على سفار/ ظفار ، ووقوعه ضمن نطاق مدينة ظفار وضواحيها دليل على وجود وتداول لاسم ظفار منذ عهود قديمة، كما أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى أن بطليموس أورد في خارطته التي رسمها للجزيرة العربية منطقة تسمى ظفار، واضعاً إياها ضمن إحداثيات من خطوط الطول والعرض تقارب موقع ظفار الحالية^(٤٥). وعليه تكون احتمالية كون سفار التوراتية هي ظفار

وتطرق بطليموس في كتابه لبلاد العرب السعيدة أو كما أسماها أرابيا يودايمون فيليكس Arabia Eudaemon Felix في الخريطة السادسة لآسيا، في الفصل السابع من الكتاب السادس^(٣٩)، وأشار في هذا الجزء من الكتاب إلى أرض اللبان التي سماها ساخاليتاي (أي سألكن/ظفار)^(٣٠)، ومعظم المعلومات التي جاءت لبطليموس عن مناطق الجزيرة العربية وموانئها ومدنها ورؤوسها البحرية جاءت من البحارة^(٣١). وكتابه "الجغرافيا" يقدم وصفاً جغرافياً قريباً من الدقة لمناطق جنوب الجزيرة العربية^(٣٢)، وخاصة وصفه لما يعرف بالعربية السعيدة، الذي يعد أكثر من أي وصف آخر لأي قسم في شبه الجزيرة العربية كلها^(٣٣)، والمعلومات الساحلية المفصلة لدى بطليموس قبيلة بعد قبيلة وقرية بعد قرية ليست من النوع الذي يمكن أن تلتقطه سفينة تجاية أجنبية عادية تبحر بين الموانئ، وقد اشتكى بطليموس واسترابو من أن البحارة التجار لم يكلفوا أنفسهم عناء تسجيل التفاصيل الجغرافية^(٣٤)، وتجدر الإشارة إلى أن أي بحث تفصيلي للأماكن الموضحة في خرائط بطليموس لشبه الجزيرة العربية لابد وأن يكون تخمينياً، نظراً للصعوبات الكبيرة في تفسير المعلومات التي يقدمها^(٣٥)، ويمكن القول أن بطليموس استعان في تدوين كتابه بمصادر سابقة، فبالإضافة إلى المصادر القديمة التي سبقته، يترجح أنه استعان ببعض مدونات و سجلات الرحلات التفصيلية التي تم توثيقها أيام الاسكندر الأكبر بعد رحلات الاستطلاع على طول الساحل^(٣٦). ومما تميز به بطليموس أنه تتبع أخطاء سابقه وحاول تصحيحها، ومن ذلك إشارته إلى أخطاء مارينوس، حينما جعل خليج ساخاليتس على الشاطئ الغربي لرأس سياجروس ولكن كما قال بطليموس كل من يبحر في تلك الجهات يجمع على أن هذا الخليج يقع إلى الشرق من رأس سياجروس^(٣٧)، وأن ساخاليتس المذكورة هي منطقة عربية ومنها اكتسب خليج ساخاليتس اسمه^(٣٨).

ثانياً: حواضر إقليم ظفار الكلاسيكية

قدمت المصادر الكلاسيكية، التي دونها المؤرخون والجغرافيون الإغريق والرومان، سجلاً فريداً للمدن

والثاني: أشار إلى تلك التي تقع في النطاق الداخلي. ونبدأ بإيراد المناطق والحواضر الساحلية التي تدخل ضمن نطاق إقليم الشحر والتي كانت تقع حسب وصفه بعد المركزي التجاري المسمى كاني/كانا (قنا)، وهي من الغرب إلى الشرق: (٥٠)

١/٣- ميناء موسخا/موشا/موشكا (Moscha)

ورد ذكر هذا الميناء أو الحاضرة في المصادر الكلاسيكية باسم موشكا ليمن (Moscha Limen)، وفي كتاب الطواف حول البحر الاريثري لم يتم وصف موشكا ليمن كميناء تجاري emporion ولكن فقط باعتباره ميناء معروف لتحميل اللبان السخالي، وقد وصلت السفن الهلينية والعربية إلى موشكا ليمن، ولكن في ظروف وأغراض مختلفة (٥١). وذهب المؤرخ فورستر (Forster) إلى أن هذا الاسم محرف عن أصل عربي وتعني "الجلد المنفوخ"، وانتقل بعدها إلى اليونانية على شكل "موسخوس" وتعني العجل (٥٢)، وأشار ولفريد شوف (Wilfred Schoff) وزارنيس (Juris Zarins) إلى احتمالية أن يكون الاسم يعود لكلمة مسك وبالتالي يكون مسمى موشكا ليمن بمعنى ميناء المسك أو البخور (٥٣)، أما عن موقع هذا الميناء أو المنطقة فقد اختلف بطليموس وصاحب كتاب الطواف في تحديد هذا الموقع، فجعله بطليموس يقع بعد قرية "ثياليماث" وقبل رأس سياجروس (٥٤)، في حين حدده صاحب كتاب الطواف فيما بعد رأس سياجروس و خليج عمانا (٥٥)، وأشار عبد الغني إلى أن موشكا أو موسخا هي منطقة (خور روري)، وأن ثياليلا أو ثياليماث التي ذكرت قبلها هي صلالة الحالية (٥٦).

وهذا الاختلاف في تحديد موقع موشكا سبب خلافاً بين المؤرخين والباحثين فرغم أن عدداً منهم رجح أن موشكا هو الاسم الآخر لمدينة سمهرم (٥٧)، وقال زارنيس بأن "جميع الأدلة المتاحة تشير إلى أن موشكا هي سمهرم - خور روري" (٥٨)، إلا أن بعضهم ذهب إلى خلاف ذلك، فرأى جروم استحالة ربط سمهرم بموشكا، استدلالاً بكون مدينة سمهرم نفسها لم تكن قد بنيت بعد في فترة الملاح الإغريقي صاحب كتاب الطواف، وذلك اعتماداً منه على التحديد التاريخي الذي وضعته إحدى

العمانية أمراً وراًداً وخاصةً إذا ما علمنا إن الكشوفات والتنقيبات الأثرية في موقع (البليد) الأثري في مدينة صلالة - وهو الموقع نفسه الذي حمل اسم ظفار في العصور الإسلامية- أكدت وجود استيطان بشري وحضاري قديم، حيث كان الموقع يمثل مركزاً سكانياً رئيساً منذ نحو ٢٠٠٠ سنة ق.م، وبرز بعد ذلك خلال العصر الحديدي المتأخر (١٠٠٠ سنة ق.م - ٣٠٠ م) كمدينة مركزية نشطة (٥٦)، وكما هو معلوم أن عدداً من المدن والحواضر الإسلامية التي كان المتعارف عليه سابقاً أن بنائها يعود للفترة الإسلامية، قد جاءت الدراسات التاريخية الحديثة لتثبت خطأ ذلك، و أن أصولها قديمة بل إن جذور تسمياتها الإسلامية كانت مشتقة من الأصول القديمة (٥٧)، وهو ما يؤكد احتمالية استمرار تداول المسمى القديم لأية منطقة حتى وإن لم تعد مأهولة لفترات زمنية معينة، حتى تأتي لحظة بنائها أو استيطانها من جديد، لتأخذ اسماً مشابهاً أو قريباً من الاسم القديم، ولهذا فإحتمالية أن اسم ظفار موجود منذ فترات تاريخية متقدمة أمراً وراًداً.

٢/٢- ساريبا (Sariba)

أشار المؤرخ الروماني بليني (توفي ٧٩ م) في كتابه إلى منطقة تقع إلى الشرق من حضرموت، على بعد ثمانية أيام من عاصمتها شبوة، أطلق عليها اسم ساريبا، ووصفها بأنها الإقليم المنتج للبخور (اللبان)، وأنها محاطة بالجبال من كل جانب، وتفصلها عن البحر منحدرات شاهقة، وتتمو على تلالها أشجار اللبان، مسمىاً (٥٨)، وتلك الأوصاف التي ذكرها بليني تنطبق تماماً على البيئة التضاريسية لظفار، كما إنها كانت منطقة إنتاج اللبان الرئيسة في المنطقة (٥٩).

ثالثاً: حواضر الإقليم لدى الجغرافي

بطليموس كلاوديوس

أشار بطليموس إلى عدد من المدن والقرى في كتابه الجغرافيا، إضافةً إلى خارطته المشهورة، وقد قسم بطليموس القرى والموانئ التي تقع ضمن إقليم ساكلان/ظفار ضمن منطقتين رئيسيتين: داخلية وساحلية، فأورد حواضر المنطقة وفق مسلكين، الأول: وعدد فيه الحواضر والموانئ التي تقع على الساحل،

الموانئ، فالموقع الأقرب لأن يكون هو المقصود يجب أن تطبق عليه بعض أوصاف المدينة أو البلدة الكبيرة التي تتصف بكونها تمثل تجمعاً ونشاطاً سكانياً وحضارياً كبيراً مقارنة بغيرها، وهو ما لا نجده ينطبق على المواقع المذكورة أعلاه إلا على موقع عين حمران القريب من خور جنوف، فريسوت وإن اكتشفت فيها بعض البقايا الأثرية إلا إنها لا تتجاوز على الأقل حتى الآن قلعة يحيط بها منحدر صخري شاهق، ويرجح إنها كانت عبارة عن مخازن للبان فقط^(٧١) في حين أن عين حمران اكتشفت فيها بقايا أثرية لتجمع سكاني قديم كانت له قلعة وقرية، ومنطقة زراعية ومقبرة.^(٧٢)

٤-٣- أنجي (Ange)

وتتطرق كذلك أنجا، ذكرها بطليموس ووصفها بالقرية (بطليموس ٢٠١٧ ص ١٢٧)، واقترح زارنيس أنها ربما تكون خور صولي (زارنيس، ٢٠٠١، ص ١٨٦) وهو خور مائي يقع في ولاية طاقة بمحافظة ظفار، ويقع على مسافة ٢٧ كم تقريباً شرقي مدينة صلالة.

٥-٣- أستوا (ASTOA)

وهي كذلك قرية أوردتها بطليموس ضمن إقليم سأكلا،^(٧٣) ورأى زارنيس احتمالية أن تكون طاقة بمحافظة ظفار.^(٧٤)

٦-٣- نيوجيلا (Neogilla)

وتتطرق كذلك نيوجيلا، ووردت عند بطليموس كميناء بحري^(٧٥) واقترح زارنيس أنها تمثل خور روري / سمهرم^(٧٦)، في حين ذهب جروم إلى أنها مجرد خلط وتصحيف ورد في النصوص ولا مرجعية لها في الواقع لميناء بحري^(٧٧)، ورجح آخرون بأن ميناء نيوجيلا ربما يكون ميناء دمقوت في المهرة^(٧٨) وهو اقتراح مستبعد لتأكيد بطليموس على أن هذه الحاضرة كانت في نطاق إقليم سأكلا/ظفار.

٧-٣- كوسيودي (KOSEUDE)

وتتطرق أيضاً كوسارا، ووصفها بطليموس بالمدينة^(٧٩) وأشار زارنيس إلى احتمالية أن تكون مدينة حاسك^(٨٠) وحاسك ميناء قديم ومشهور.

البعثات الأثرية لسمهرم^(٥٩)، ونجد المؤرخ كاسون يميل في البداية إلى تحديد موقع موشكا إلى الغرب من رأس سياجروس (فرتك)، ولكنه ذهب فيما بعد إلى ترجيح أن موشكا تقع ضمن خور خرفوت، وذلك على اعتبار أن رأس سياجروس هو رأس ساجر لا فرتك، مستدلاً بالعثور على بقايا أثرية قديمة في خرفوت^(٦٠) وعلق باولو كوستا على هذا الترجيح المبني على اعتبار رأس سياجروس هو رأس ساجر بأنه لا يحل الإشكالية القائمة بل يزيدها تعقيداً وإشكالية^(٦١)، وعموماً يظل موقع سمهرم هو الموقع الأكثر ترجيحاً لمدينة موشكا/موسخا.

٢-٣- ميتاكون/ميتاكوم (Metakon)

وصفها بطليموس بالقرية، وأورد ذكرها كأول المناطق الساحلية التي تقع ضمن نطاق إقليم الساخالييتاي/ سأكلا/ظفار^(٦٢)، وذهب زارنيس إلى احتمالية أن هذا الموقع يمثل خور ارزات أو خور البليد^(٦٣) ولكننا نميل إلى أن الترجيح الأقرب هو أن يكون الموقع إلى الغرب أكثر من ذلك، لأن بطليموس ذكره كأول حواضر إقليم سأكلا/ظفار التي تلي رأس سياجروس (فرتك/أو ساجر)، وعليه فالباحث يرى أن الأنسب هو أن تقع قرية ميتاكون/ميتاكوم في النطاق الغربي لظفار، وبالتحديد فيما يلي رأس فرتك شرقاً، وهناك عدة مواقع مرشحة لذلك سواء في ظفار ومنها: خرفوت^(٦٤)، و الحوطة (حوطة بن عثمان)^(٦٥)، و الفزايح^(٦٦)، وسبب اختيارنا لهذه المواقع ليكون إحداها موقع قرية ميتاكون هو أنها مناطق اكتشفت فيها بقايا آثار قديمة، توحي بوجود تجمعات ونشاط سكاني في العصور المتقدمة.

٣-٣- أوسارا (Ausara)

وصفها بطليموس بالمدينة^(٦٧)، وتلي قرية ميتاكون شرقاً، وذهب بعضهم إلى أنها في المهرة في حين اقترح أحدهم أنها رأس ساجر في عمان^(٦٨)، واقترح زارنيس أن أوسارا هي ما يسمى حالياً خور جنوف^(٦٩) وهو أحد الخياران التي تقع شرقي مدينة صلالة، ورجح فون فيسمان أن أوسارا هو الاسم القديم لريسوت^(٧٠)، ونظراً لأن بطليموس وصف أوسارا بالمدينة، في حين كان وصفه لأغلب الحواضر التي ذكرها في الإقليم بالقرى أو

ما ذهبنا إليه حيث كانت حاسك معروفة كميناء مشهور ومعروف في المنطقة منذ فترات تاريخية متقدمة.

تلك كانت المدن والبلدات والموانئ الساحلية التي ذكرها بطليموس، والتي تقع ضمن نطاق إقليم البخور، أما عن الحواضر والمراكز السكانية التي تقع في الداخل، فقد أشار إلى بعضها، ولكن الأمر بالنسبة إلى تلك النواحي وتحديدًا كما يقول زارنيس يعد أمراً "أكثر تعقيداً مما هو عليه في المناطق الساحلية"^(٨٩) وذلك لصعوبة تحديدها، ومن المناطق والحواضر التي ذكرها بطليموس ورجح زارنيس أنها تقع في الداخل الساخالييتي/الظفاري:

١٠/٣-عمانون (Omanon emporion)

وتعني مركز عمان التجاري^(٩٠) وأضاف عليها بطليموس كلمة أخرى هي Omanita أي مركز العمانيين^(٩١) وقد رجح زارنيس أنها منطقة واحة أندهور^(٩٢) واندهور إحدى الواحات القديمة المشهورة، وهي تقع على بعد ٤٠ ميلاً شمالي مرباط واشتهرت بكونها مركزاً لتجميع اللبان^(٩٣)، وذهب جروم إلى أن موقع أومانوم امبوريوم في خريطة بطليموس يقع وفق الخريطة في الصحراء النائية شمال ظفار ومن المحتمل أن يقع هذا الموضع حول مدينة نزوى في قلب عمان^(٩٤). وتأكد بطليموس على أن عمانون هي كذلك مركز العمانيين إشارة إلى أن المقصود فئة قبلية أو سكانية تحمل هذا الاسم، ويرى الباحث أن مسمى عمان والعمانيين كان في بداياته مرتبطاً بالأزد كقبيلة قبل أن يكون مرتبطاً بعمان الإقليم، حيث تشير المصادر إلى أن هذا الاسم أطلق على إقليم عمان بعد قدوم الأزد، حيث أطلقوا عليها هذا الاسم نسبة لؤاد لهم في مأرب يسمى عمان^(٩٥) في حين يرى البعض أن اسم عمان اشتق من عمان أي استقر وأقام^(٩٦)، وهو كما نرى مرتبط بالأزد وإقامتهم وهجرتهم بشكل أو بآخر، ومن القرائن التي جعلتنا نرجح ارتباط هذا المسمى بالأزد ما ذكره الجغرافي بطليموس في خريطته حيث أشار لشعب يقطن في نواحي جبال السراة ونجران -وهي قريبة جداً من الموطن الأصلي للأزد في "مأرب"- باسم الأومانكيثوي أو الأومانيتاي omankitoy، وفي نفس

٨/٣-مانتيون أرتيميدوس (Maniteion Artemidos)

هو من المواقع التي لم يشر إلى تحديدها أحد الباحثين، وترجمة الاسم هو: مقر نبوة الإلهة أرتيميس^(٨١)، وأرتيميس هي إحدى معبودات الإغريق، وكانت ربة الصيد والحيوانات البرية، ورمزاً للنساء وللطهارة والعفة^(٨٢)، ولعل الموقع المقصود هنا هو قبر النبي صالح بن هود، الذي يقع في أقصى شرق ظفار بالقرب من سدح، وهو ما يتوافق مع تحديد بطليموس له في كونه يقع في آخر الحد الشرقي لإقليم ساكلان/ظفار، كما إن هذا القبر كانت له قدسية واحترام، وأشارت إليه بعض المصادر الإسلامية، ويذكر أن من كان يقوم على خدمته قديماً مجموعة من النساء^(٨٣) وهو الأمر الذي ربما يفسر سر تسميته لدى الإغريق بمقر الإلهة أرتيميس التي كانت رمزاً للنساء.

٩/٣-أبيسا (Abissa)

ذكرها بطليموس بالمدينة، وتنطق أيضاً أبيساجي^(٨٤) وهي آخر الحواضر والمدن التي تقع ضمن إقليم الساخالييتي/ساكلان وفق كلامه، وبعدها تأتي قمة كورودامون والذي ذهب البعض إلى أنه رأس الحد^(٨٥) واقترح بعضهم أن أبيسا تمثل خور روري في حين مال آخرون إلى احتمالية وقوعها في رأس الحد^(٨٦) وذهب كوستا إلى أن أبيسا على الأغلب في منطقة البليد الأثرية، وأشار زارنيس إلى ترجيح موقعي عين حمران وخور جنوب كخير لموقعها^(٨٧)، ويرى الباحث بأن تلك الاقتراحات السابقة لموقع مدينة أبيسا بعيدة وغير مستندة على أساس قوي، فمن خلال كلام بطليموس نفسه يتضح أن هذه المدينة تقع في نهايات الطرف الشرقي لإقليم ساخالييتي/ساكلان، ويقع بعدها قمة أو رأس بحري أسماه كورودامون، وعليه نرى أن أقرب اقتراح لموقعها هو مدينة حاسك، فهي تقع في آخر حدود إقليم ساكلان، ومن بعدها تأتي مناطق قليلة السكان وقصر حتى يأتي رأس الحد، وهو كما مر معنا يمثل قمة كورودامون كما رجح بعض الباحثين، ولا تفوتنا الإشارة إلى ميناء أباسيني الذي ذكره الجغرافي أسطفان البيزنطي (القرن ٦م)^(٨٨) وهو اسم كما نرى يكاد يتطابق مع اسم أبيسا، فوصف أسطفان له بالميناء قرينة تعضد

نهايتها جزر زنوبيا/جزر الحلانيات^(١٠٦) وقد يشكل عند البعض أنه قد مر معنا بأن الأقرب في ميناء أبيسا الذي ذكره بطليموس هو أن يكون ميناء حاسك، وبذلك نكون أمام تسميتين لحاسك: أبيسا وآسيخ، وللتوفيق بين ذلك قد يكون مسمى أبيسا يوناني الأصل حيث نجد أغلب المسميات التي أوردها بطليموس ذات أصل إغريقي، في حين أن اسم آسيخ/حاسك هو اسم محلي.

١٦/٣-وبار(Iobaritai)

أشار الجغرافي كلاوديوس بطليموس (توفي حوالي ١٧٠م) في خارطته إلى مكان أو قوم يدعون بـ Iobaritai / Jobaritae / Jobabitea على أنهم من شعوب جنوب الجزيرة العربية، ويسكنون على مقربة من أرض قبيلة Sachalite التي تقطن عند خليج باسمها يدعى Sinus Sachalits^(١٠٧) و سأكاليتس Sachalites المذكورة هي أرض اللبان ظفار حيث أنها الصورة الإغريقية-الرومانية لكلمة سأكلن^(١٠٨) وأرض الساخاليتاي/سأكاليتس/سأكلان كما حددها بطليموس هي المنطقة الواقعة بين رأس فرتك ورأس حاسك^(١٠٩) و Iobaritai/Jobaritae اسم قريب جداً من وبار أو بنو وبار Ubar^(١١٠) و Ubar/Iobaritae أو أباريتا و الأوباريون مسمى استخدمه بطليموس للإشارة للأقوام الذين يسكنون منطقة أرض البخور في سأكلان في الجانب الشمالي من سهولها^(١١١)، ويرجح بعض الباحثين أن مصطلح IOBARITAE يتعلق بالأشخاص الذين يعيشون في المنطقة الشمالية القريبة من تلأل ظفار وبالقرب من نجد، ويمكن تفسيره ليشمل المستوطنات في شصر وحبروت، وتم تنظيم هذا المصطلح من قبل المؤرخين العرب باسم اوبار/وبا، ويعتقد جلاسر إن المصطلح يشير إلى المهرة، وتم استخدامه بالاشتراك مع مصطلحي عاد والأحقاف للإشارة إلى مجموعات أسلاف مختلفة من المتحدثين الحاليين باللغة الجنوبية العربية الحديثة^(١١٢).

الخارطة نجده تشير لمركز تجاري في بلاد اللبان يسمى عمانون Omanon^(٩٧)، وهو ما يجعلنا نرجح ارتباط المسميين بقبيلة الأزد فالمسمى الأول يشير على الأرجح إلى من بقي منهم ساكناً في نواحي بلاد السراة آنذاك ولم يهاجر إلى الشرق نحو الشحر وعمان، ومعروف أن جزءاً كبيراً من الأزد ظل يسكن تلك النواحي وعرفوا باسم أزد السراة^(٩٨)، في حين كان المسمى الثاني مرتبطاً بمن هاجر وسكن بلاد اللبان في تلك الفترة، وبهذا تكون تلك الإشارات التي ربطت بين مسمى عمان والعمانيين ببلاد الشحر وظفار إنما أتت تبعاً للإقامة والاستيطان الأزدي بها.

١١/٣-ثاباني/تاباني Thabane

وتتطق أيضاً ثاواني Thauane، واقترح زارنيس منطقة "مضي" التي تقع في بادية ظفار وتتبع ولاية ثمرت كخيار مناسب لموقع ثاباني^(٩٩).

١٢/٣-ماريماثا Marimatha

ذهب زارنيس إلى أن ماريماثا قد تكون مرتبطة باسم (مهرة)، أو أن لها علاقة بموقع شصر/وبار^(١٠٠)

١٣/٣-ايولا Iula

اقترح بعضهم أنها منطقة خويلة في حضرموت^(١٠١) في حين ذهب زانيس إلى أنها منطقة (حانون) في بادية ظفار^(١٠٢) وحانون تعتبر من مناطق تجمع اللبان النجدي الظفاري^(١٠٣)، ومثلت حانون كما مر معنا مركزاً سكانياً قديماً، وكان اسمها في نقوش المسند (سأنن).

١٤/٣-هيراكون كومي Hierakon Kome

وهي قرية ورد ذكرها عند بطليموس، ويعني اسمها باليونانية "قرية القديسين"^(١٠٤) ورأى جلاسر أن هيراكون كومي قد يكون الموقع الذي يقيم فيه بنو "يارح" وهم شعب أو قبيلة كانت تقيم حسب رأيه في مهرة أو جنوب عمان^(١٠٥).

١٥/٣-آسيخ Asich

وهي حاسك، أشار لها صاحب كتاب الطواف وذكر أنها تقع على بعد ١٥٠٠ استديوم بعد موشكا، حيث تمتد هناك سلاسل جبلية على طول الشاطئ وتقع عند

الإحالات المرجعية:

- (1) Retso, Jan.. Greece and the Discovery of Arabia, Proceedings of the International Symposium on the Arabian Peninsula in the Light of Classical Sources, 29 Jan-2Feb. 2017-Riyadh, Saudi Arabia, 2020. P.63.
- (2) D, ANDERA, C. TAVOLIERI. Sumhuram in the classical sources, Along the aroma and spice routes: the harbour of Sumhuram, its territory and the trade between the Mediterranean, Arabia and India. Finito di stampare nel mese di Gennaio, 2011. P.113.
- (3) D, ANDERA, C. TAVOLIERI.. Sumhuram in the classical sources, Along the aroma and spice routes: the harbour of Sumhuram, its territory and the trade between the Mediterranean, Arabia and India. Finito di stampare nel mese di Gennaio, 2011, P.113.
- (4) Zarnis, Juris & Newton, Lynne. (2017). P.62.
- (5) A. PAVAN, Sumhuram as international centre : the imported pottery. Along the aroma and spice routes, routes : the harbour of Sumhuram, its territory and the trade between the Mediterranean, Arabia and India. Finito di stampare nel mese di Gennaio, 2011. p.100
- (6) A. PAVAN, Sumhuram as international centre : the imported pottery. P.101.
- (٧) الأوكوع، محمد بن علي. **اليمن الخضراء مهد الحضارة**، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء: ٢٠٠٨، ص٣١.
- (٨) عبد الغني، محمد السيد. **شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة**، ب-ط، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية: ١٩٩٩م، ص١٠٧.
- (٩) أبو الغيث، ٢. عبد الله عبده إسماعيل. **قراءة تاريخية لتدوينات الكتاب اللغريق عن جنوب جزيرة العرب**: استرابون انودجا. شؤون العصر، مج١٧، ع٤٧-٤٨، ١٣، ٢٠١٤، ص١٢٥-١٢٥.
- (١٠) أبو الغيث، عبد الله عبده إسماعيل. ١٣، ٢٠١٤، ص١٢٥.
- (١١) أبو الغيث، عبد الله عبده إسماعيل. ١٣، ٢٠١٤، ص١٢٦.
- (12) Retso, Jan. 2020, p64.
- (١٣) أبو الغيث، عبد الله عبده إسماعيل. ١٣، ٢٠١٧، ص١٢٧.
- (14) Pavan. A. "Sumhuram as International Centre: The Imported Pottery", in Along the Aroma and Spice Routes: The Harbour of Sumhuram, Its Territory and the Trade Between the Mediterranean, Arabia and India, A. Avanzini (Pontedera: Bandecchi & Vivaldi, 2011, p101.
- (١٥) أبو الغيث، عبد الله عبده إسماعيل. ١٣، ٢٠١٨، ص١٢٨.
- (١٦) أبو الغيث، عبد الله عبده إسماعيل. ١٣، ٢٠١٨، ص١٢٨.
- (١٧) أبو الغيث، عبد الله عبده إسماعيل. ١٣، ٢٠١٩، ص١٢٩.
- (١٨) التركي، هند محمد تركي. **البخور في كتابات بليني الأكبر**. مجلة الجمعية التاريخية السعودية، س٢٠، ع٣٩، ١٩، ٢٠١٩، ص٦٦.
- (19) Retso, Jan. 2020, p65.

خاتمة

في ختام هذا البحث، الذي تناول إقليم ظفار في المصادر الكلاسيكية، نؤكد أن هذه المصادر، رغم التباين في دقتها وشموليتها، تُشكل حجر الزاوية في فهمنا للتاريخ القديم للمنطقة. لقد أثبتت هذه الدراسة أن كتابات المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان، بدءاً من هيرودوت وانتهاءً ببطليموس، لم تكن مجرد سرد عابر، بل كانت محاولات جادة لتوثيق الجوانب الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية لإقليم غني بمنتجاته ونفوذه التجاري. لقد كشفت القراءة النقدية لهذه المصادر عن عدة نتائج مهمة: أولاً، أن المعرفة الكلاسيكية بإقليم ظفار تطورت بشكل تدريجي، من التصورات الأسطورية إلى الأوصاف الأكثر دقة التي ارتبطت بزيادة النشاط الملاحي والتجاري. ثانياً، أن المصطلحات الكلاسيكية مثل "ساخاليثس" لم تكن مجرد أسماء، بل كانت تحمل دلالات جغرافية واقتصادية وسياسية. ثالثاً، أن تحديد المواقع القديمة للحواضر والموانئ، مثل "موشكا" و"أوسارا"، يتطلب مقارنة دقيقة بين النصوص الكلاسيكية والمعطيات الأثرية والجغرافية الحديثة، وهو ما يظل مجالاً خصباً لمزيد من البحث. إن هذا البحث، بتركيزه على هذه المصادر، يُسهم في إثراء المكتبة التاريخية العمانية، ويفتح آفاقاً جديدة أمام الباحثين لمزيد من التعمق في دراسة تاريخ ظفار القديم، ليس فقط كجزء من تاريخ عُمان، بل كحلقة وصل حيوية في شبكة التجارة العالمية والحضارة الإنسانية. وفي الختام، يظل الإيمان راسخاً بأن هذا الإقليم، بما يحويه من كنوز أثرية ومخطوطات لم تُكتشف بعد، سيُقدم دائماً المزيد من الأسرار التي تُشكل تحدياً مثيراً للعلماء والمؤرخين.

(٤٦) متحف أرض اللبان، إصدار مكتب مستشار جلالة السلطان للشؤون الثقافية، مسقط: ٢٠٠٧م.

(٤٧) من أمثلة ذلك مدينة بغداد، حيث تجمع أغلب المصادر الإسلامية على نسبة تأسيسها وبنائها للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، في حين أكدت دراسات تاريخية وآثرية أن المدينة ذات تاريخ موغل في القدم يعود للآلف ١٢ ق.م، وكانت تسمى بـغددو أو بجددو (انظر: الدوري، عبد العزيز. **العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ٢٠٠٦م).

(٤٨) عبد الغني، محمد السيد. **شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة**، ب-ط، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية: ١٩٩٩م، ص ٢٠٤. والعبادي، أحمد صالح محمد. **اليمن في المصادر القديمة: اليونانية والرومانية**، ب-ط، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء: ٢٠٠٤م، ص ٢١.

(٤٩) الفرج، مرجع سابق، مج ٢، ص ٨٦٧.

(٥٠) بطليموس **والجزيرة العربية**، ٢٠١٧، ص ١٢٦-١٢٧، و: زارنيس، يوريس. ٢٠٠١، ص ١٨٦.

(51) D,ANDERA, C.TAVOLIERI. Sumhuram in the classical sources, Along the aroma and spice routes : the harbour of Sumhuram, its territory and the trade between the Mediterranean, Arabia and India.Finito di stampare nel mese di Gennaio, 2011.p115.

(٥٢) مجهول، **الطواف حول البحر الإريتري**، ٢٠١٤، ص ١٩٤.

(٥٣) مجهول، **الطواف حول البحر الإريتري**، ٢٠١٤، ص ١٩٤، و: زارنيس، ٢٠٠١، ص ١٨٧.

(٥٤) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٧.

(٥٥) مجهول، **الطواف**، ٢٠١٤، ص ٥٣.

(٥٦) عبد الغني، ص ١٢.

(٥٧) الجرو، اسمهان سعيد. **الموانئ العمانية القديمة ومساهمتها في التجارة الدولية في ضوء الكتابات اليونانية والرومانية**، ط ١، النادي الثقافي، مسقط: ٢٠١١م، ص ١٠٧.

(٥٨) زارنيس، ٢٠٠١، ص ١٨٧.

(٥٩) آفانزيني، أليساندرا. **طرق اللبان وممالك جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام**، مجلة الدراسات العمانية، مج ١٢، ص ٣.

(60) COSTA,Paolo.THE SOUTH ARABIAN COAST AND THE ANCIENT TRADE ROUTES IN THE LIGHT TO RECENT EXPLORATION AND A DISCUSSION OF WRITTEN SOURCES. JOURNAL OF SEMITIC STUDIES SUPPLEMENT 14, STUDIES ON ARABIA IN HONOUR OF PPROFESSOR G.REX SMITH, EDITED BY; J.F.HEALEY AND V.PORTER.p220-22.

(61) COSTA,Paolo..p24.

(٦٢) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٧.

(٦٣) زارنيس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.

(٦٤) هي ميناء بحري يقع بين ضلوكوت ورخيوت بجبل القمر. (انظر: **التأثر التاريخية في ظفار**، سعيد مسعود المعشني، ص ١٠١).

(٢٠) عبد الغني، محمد السيد محمد. ١٩٩٩، ص ٨٠.

(٢١) عبد الغني، ١٩٩٩، ص ٩٠.

(٢٢) التركي، ٢٠١٩، ص ٥٢.

(٢٣) آدم، هنري، والعبادي، مصطفى عبد الحميد. استرابون، بليمنوس الأكبر، بطليموس الإسكندري: **ثلاثة تصورات عن العربية القديمة وشعوبها**. رسائل جغرافية، الرسالة ١٤٦، ١٩٩٢، ص ٧-٨.

(٢٤) التركي، ٢٠١٩، ص ٥٧.

(٢٥) التركي، ٢٠١٩، ص ٥٧.

(٢٦) كلاوديوس، **بطليموس والجزيرة العربية**، تر: السيد جاد، تحرير عبد الله العبد الجبار، ط ١، دار الملك عبد العزيز، الرياض: ٢٠١٧، والجزيرة العربية. ٢٠١٧، ص ٢٣-٢٤.

(27) Groom,Nigel. Eastern Arabia In Ptolemy's Map, (1986).p65.

(28) Groom,Nigel. Eastern Arabia In Ptolemy's Map, (1986).p65.

(٢٩) **بطليموس والجزيرة العربية**، ٢٠١٧، ص ٣١-٣٢.

(٣٠) **بطليموس والجزيرة العربية**، ٢٠١٧، ص ١٢٥ و١٢٧.

(31) Groom,Nigel. Eastern Arabia In Ptolemy's Map, (1986).p66.

(٣٢) عبد الغني، ١٩٩٩، ص ٩٠.

(٣٣) آدم والعبادي، ١٩٩٢، ص ٤٢.

(34) Groom,Nigel. Eastern Arabia In Ptolemy's Map, (1986).p71.

(35) Groom, Nigel.1986, P65.

(36) Groom, Nigel.1986, P71.

(37) Groom,Nigel. Eastern Arabia In Ptolemy's Map, (1986).p69.

(٣٨) عبد الغني، ص ١١٩.

(٣٩) **العهد القديم**، سفر التكوين، الإصحاح العاشر.

(٤٠) مايلز، س.ب. **الخليج: بلدانه وقبائله**، ط ٤، تر: محمد أمين عبد الله، مطابع دار جريدة عمان للصحافة والنشر، روي، سلطنة عمان: ١٩٩٠، ص ٤٦٤. وأيضاً: الفرج، محمد حسين. **الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحميز**، مج ١، ب-ط، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء: ٢٠٠٤م، ص ٣٥.

(٤١) **قاموس الكتاب المقدس**، دائرة المعارف الكتابية، شرح كلمة (سفار).

(٤٢) الشبيبه، عبد الله حسن. **ظفار: المدينة والإقليم في المصادر الكلاسيكية وفي نظر الكتاب العرب الأقدمين**. بحث منشور ضمن بحوث الندوة الدولية للتبادل الحضاري العماني اليمني المنعقدة في الفترة من ٧-٨ فبراير ٢٠١٠م، مج ١، ب-ط، مطبعة جامعة السلطان قابوس، مسقط: ٢٠١١م، ص ١٦٣ و١٧٢.

(٤٣) الرواس، عبد المنعم بن عبد الله البحر. **ظفار في صفحات التاريخ**. بحث مشروع تخرج، غير منشور، تحت إشراف د. محمد عبده حاتم، قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان: ١٩٨٨م، ص ٥.

(٤٤) زارنيس، يوريس. **التنقيبات الأثرية في محافظة ظفار**، ترجمة: عبد الله الحراصي، مجلة نزوى، عدد ٢، مارس: ١٩٩٥م.

(٤٥) **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، مج ٢٢، ص ٧٠.

- (١٠٠) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.
- (١٠١) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٤٨.
- (١٠٢) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.
- (١٠٣) الكثيري، أحمد محمد مستهيل صمديد، **أشجار البخوريات واستخداماتها في محافظة ظفار**، ب-ط، المصنع العماني الوطني للتغليف، ٢٠١٢، ص ٩٢.
- (١٠٤) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٤٧.
- (١٠٥) علي، جواد. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ١، ط ١، آوند دانش للطباعة والنشر، ب-ت، ص ٣٣٦-٣٣٥.
- (١٠٦) مجهول، الطواف حول البحر اللاريتري، ٢٠١٤، ص ٥٣.
- (١٠٧) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٣٩، و: علي، جواد، ج ١، ص ٢٦٩.
- (١٠٨) مجموعة مؤلفين، ٢٠٢٠، تاريخ عمان عبر الزمان، ج ٣، ص ٤٢-٤٣.
- (١٠٩) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٣٩.
- (١١٠) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦، و: جواد علي، مج ١، ص ٢٦٩.
- (111) ZARINS, JURIS. PERSIA AND DHOFAR ASPECTS OF IRON AGE INTERNATIONAL POLITICS AND TRADE, 1997, p644.
- (112) Zarnis, Juris & Newton, Lynne. (2017). Northern Indian Ocean Islamic Seaports and the Interior of the Arabian Peninsula.p73.
- (١٦٥) تقع إلى الشرق من بلدة رخيوت ولها ميناء صغير، وتسمى كذلك بالغبضة (غبضة) فيقال لها غبضة بن عثمان. (انظر: المعشني، سعيد مسعود. **التأثر التاريخية في ظفار**، ط ١، مطابع ظفار الوطنية: ١٩٩٧ ص ٤٠).
- (١٦٦) هو ميناء يقع بن منطقة المغسيل ورأس ساجر.
- (١٦٧) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٧.
- (١٦٨) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٧.
- (١٦٩) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.
- (٧٠) الجرو، ٢٠١١، ص ٩٥، و: زارنس، ٢٠١١، ص ١٨٨.
- (٧١) مجموعة مؤلفين. **عمان عبر الزمان**، ٢٠٢٠، ص ١٢٢.
- (٧٢) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٥٣.
- (٧٣) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٧.
- (٧٤) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.
- (٧٥) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٨.
- (٧٦) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.
- (٧٧) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٨.
- (٧٨) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٨.
- (٧٩) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٨.
- (٨٠) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.
- (٨١) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٨.
- (٨٢) حرب، طلال، ١٩٩٩، ص ٢٥.
- (٨٣) الشحري، علي محاش. **لغة عاد**، ط ١، المؤسسة الوطنية للتغليف والطباعة، أبو ظبي: ٢٠٠٠، ص ١٩٧.
- (٨٤) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٨.
- (٨٥) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٨.
- (٨٦) بطليموس، ٢٠١٧، ص ١٢٨.
- (٨٧) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٨.
- (٨٨) شوف، ٢٠١٤، ص ١٩١.
- (٨٩) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٩.
- (٩٠) مجموعة مؤلفين. ٢٠٢٠، **تاريخ عمان عبر الزمان**، ص ٣٤.
- (٩١) **تاريخ عمان عبر الزمان**، ٢٠٢٠، ج ٢، ص ٣٥.
- (٩٢) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٦.
- (٩٣) العليان، عبد الله علي. مقال بعنوان: **"شجرة اللبان في ظفار وشهرتها التاريخية"**، منشور في جريدة عمان، ٢٠١٧.
- (94) Groom, Nigel. Eastern Arabia In Ptolemy's Map, Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, Vol16, Proceedings of the nineteenth SEMINAR for Arabian Studies held at Oxford on 30th July 1985, (1986).p69.
- (٩٥) الازكوي، سرحان بن سعيد. **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**، تحقيق حسن محمد النابودة، ج ١، ط ١، دار البارودي، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٤٣.
- (٩٦) ابن منظور. محمد بن مكرم. **لسان العرب**، تحقق: اليازجي وآخرون، ج ١، ط ٣، دار صادر، بيروت: ١٤١٤ هـ، ص ٢٨٩.
- (٩٧) بطليموس، ٢٠١٧، ص ٢٠٧.
- (٩٨) القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي. **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، تحقق: إبراهيم الإيباري، ط ٢، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٩٨٢، ص ٩١.
- (٩٩) زارنس، ٢٠٠١، ص ١٨٥.

النخيل في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط تعدد في الوظائف وتكامل في الأدوار

هشام الغرباوي

باحث بسلك الدكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



د. حميد اجميلي

أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



ملخص

يتناول هذا المقال موضوع شجرة النخيل في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، باعتبارها مكوناً بيئياً وثقافياً واقتصادياً محورياً، يساهم في فهم أعمق لتاريخ المجال الواحي وعلاقة الإنسان بالطبيعة. ويندرج هذا الطرح ضمن الدراسات البيئية التاريخية، التي تسعى إلى تجاوز النظرة التقليدية للتاريخ المرتكزة على الإنسان وحده، لفائدة مقاربة تدمج العناصر الطبيعية كفاعلين تاريخيين. يركز المقال على خمسة محاور رئيسية، أولها المكانة الرمزية والدينية للنخلة في الثقافة الإسلامية، من خلال حضورها في القرآن الكريم والسنة النبوية والأدب العربي، مما منحها طابعاً روحياً وأخلاقياً تجاوز وظيفتها الاقتصادية. أما المحور الثاني، فيرصد الامتداد المجالي لشجرة النخيل بالمغرب الأقصى، مع التركيز على المناطق الجافة وشبه الجافة كواحات سجلماسة ودرعة وفجيج، حيث لعبت الظروف المناخية دوراً حاسماً في توطئتها. ويتناول المحور الثالث تنوع أصناف التمور وجودتها، مما يدل على تقاليد فلاحية وتجارية محلية متجذرة. أما المحور الرابع، فيسلط الضوء على الأهمية الاقتصادية للتمور، التي شكلت رافعة للتجارة المحلية والإقليمية، ووسيلة للربط التجاري بين المغرب والسودان الغربي، بل وحتى مع أوروبا. وأخيراً، يستعرض المقال الاستعمالات المتعددة لشجرة النخيل في البناء، والصناعة التقليدية، والتغذية، مما يعكس قدرتها على التكيف مع متطلبات الحياة اليومية في المجال الواحي. في المجمل، يكشف المقال عن التكامل بين الوظائف البيئية والاقتصادية والثقافية للنخيل، ويوضح كيف شكّل عنصراً حيوياً في أنماط العيش، ومؤشراً على تفاعل الإنسان مع محيطه الطبيعي ضمن شروط بيئية وتاريخية محددة.

كلمات مفتاحية:

النخيل؛ المغرب الأقصى؛ العصر الوسيط؛ الواحات؛ التمور

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٠ يونيو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٤ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.402681.1244

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام الغرباوي، حميد اجميلي، "النخيل في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط: تعدد في الوظائف وتكامل في الأدوار". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون: ديسمبر ٢٠٢٥. ص ٢٦ - ٣٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive: https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: hicham.elgharbaoui@uit.ac.ma

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), التي تسمح باستخدام، ونشر، وتوزيع المحتوى العلمي والبحثي، ونسخه، وتوزيعه، وإعادة النسخ، ونشره، وتوزيعه لأغراض تجارية أو ربحية، بشرط أن تُعطي الائحة للمؤلف(ين) الأصليين، وتوفر رابطاً إلى رخصة المشاع المُنسب، وتحدد إذا كانت هناك تغييرات.

مُقَدِّمَةٌ

وعلاقته بالعوامل المناخية، واختيارات التوطن البشري، وآليات التدبير التقليدي للمجال. ويقود هذا إلى إشكالية تتوع أصناف التمور، التي تطرح علامات استفهام حول مدى ارتباطها بتجارب فلاحية محلية تراكمت عبر الزمن، أو بتفاعلات ثقافية وتجارية ساهمت في إدخال وتحسين بعض الأنواع. وفي هذا السياق، تظهر أهمية التمور الاقتصادية، ما يدعو إلى فهم أدوارها في تشكيل اقتصاديات الواحات، وأسواقها، وأسس إنتاجها وتوزيعها ضمن منطق الاكتفاء الذاتي أو التبادل التجاري. ويبقى سؤال الاستعمالات المتعددة لشجرة النخيل مفتوحاً على أبعاد أخرى، تتجاوز الاستهلاك الغذائي، لتشمل البناء، والصناعة التقليدية، والحياة اليومية، بما يعكس تكيف الإنسان مع بيئته وتوظيفه لكل ما تتيحه النخلة من موارد. هكذا، تشكل هذه الإشكالات مجتمعة مدخلا لفهم مركب لتاريخ النخيل بالمغرب الأقصى، من زاوية تتقاطع فيها البيئة والثقافة والاقتصاد.

أولاً: مكانة شجر النخيل في الثقافة الإسلامية

يُستفاد من المعطيات التراثية والدينية أن شجرة النخيل حظيت بمكانة متميزة في الثقافة العربية الإسلامية، سواء من حيث حضورها المجالي في بلدان العرب والمسلمين منذ فترات قديمة، أو من خلال تجلياتها الرمزية والروحية في النصوص المقدسة والأدبية. فقد ارتبط شجر النخيل بأرض العرب ارتباطاً وثيقاً، واعتُبر شجرة مباركة لما ورد بشأنها في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: "وَهَٰؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجِدُ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا"^(٢)، وهي آية تُبرز ليس فقط البعد الغذائي للنخلة، بل تلمح أيضاً إلى رمزيتها في سياق الرحمة والرعاية الإلهية. كما أن الأوصاف التراثية التي نُسبت إليها، مثل "سيد الشجر وملك الرياض، وأمير الحقول وعروس البساتين والحدائق"^(٣)، تعكس مكانة خاصة أُسبغت على النخيل بوصفه شجرة جامعة بين المنفعة والجمال والهيبة، وهو ما جعله يتجاوز وظيفته الزراعية إلى رمز ثقافي واجتماعي.

يُثير البحث في تاريخ شجر النخيل جملة من الإشكالات المعرفية والمنهجية، بالنظر إلى الطابع غير المألوف لهذا التوجه الذي يجعل من الطبيعة، ممثلة في الأشجار والغابات، مركزاً للتحليل التاريخي، بدلاً من التركيز على الإنسان بوصفه فرداً أو جماعة. ومن هنا، تبرز تساؤلات مشروعة حول جدوى الخوض في مثل هذه القضايا، التي يبدو للوهلة الأولى أن الإنسان مغيب عن سياقها، رغم أن حضوره يبقى ضمنياً من خلال العلاقة التي تربطه بالطبيعة واستثماره لمواردها. غير أن هذا الطرح يندرج ضمن دينامية علمية جديدة، تفتح المجال أمام إعادة قراءة تاريخ المجال من منظور تاريخ طبيعي^(١)، يجعل من عناصر البيئة فاعلاً تاريخياً، يمكن تتبع مساراته عبر معطيات مستمدة من مختلف الحقول المعرفية في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويُعد شجر النخيل نموذجاً دالاً ضمن هذا التوجه، إذ حظي باهتمام ملحوظ في عدد من المصادر الوسيطية، التي أولت عناية خاصة بوصفه من حيث الشكل، والحجم، وأنواع الثمار، ومراحل النضج، وهو ما يعكس إدراكاً مبكراً لأهمية النخيل في حياة الإنسان، سواء من حيث وظائفه الغذائية والتجارية، أو من خلال تنوع استعمالات أخشابها، التي تميزت بخصائص جعلتها جزءاً لا يتجزأ من أنماط العيش في المجالات التي تنتشر فيها هذه الشجرة.

وانطلاقاً من هذا التوجه الذي يجعل من الطبيعة، وتمثلاتها الثقافية والاقتصادية، موضوعاً للدرس التاريخي، فإن تناول شجر النخيل لا يمكن أن ينحصر عن سياقاته الدينية والمجالية والاجتماعية. فالنخلة، بحمولتها الرمزية والروحية، تطرح تساؤلاً جوهرياً حول مكانتها في الثقافة الإسلامية، سواء في النصوص التأسيسية أو في الممارسات الرمزية اليومية، وما إذا كانت مجرد عنصر نباتي نافع، أم أنها اكتسبت مكانة خاصة تعكس علاقة متجذرة بين الإنسان والطبيعة في الرؤية الإسلامية. ومن جهة أخرى، فإن تتبع الامتداد المجالي لشجر النخيل بالمغرب الأقصى يفتح الباب أمام مساءلة أنماط انتشاره وتثبيته في الفضاء الواسع،

وتعزز السنة النبوية هذا الحضور الرمزي للنخيل، إذ ورد عن النبي (ﷺ) قوله "إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المؤمن، حدثوني ما هي؟ قال عبد الله: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هي النخلة"^(٤). ويبين هذا الحديث البعد القيمي للنخلة، باعتبارها رمزاً للاستمرارية والثبات، وصفات المسلم الحق، الذي يثمر ولا يضيع، ويتجدد في عطائه. كما يفهم من هذا التمثيل تشبيه النخلة بمكارم الأخلاق، وهو ما يعكس حضوراً مجازياً عميقاً لهذه الشجرة في بناء الوعي الديني والأخلاقي.

أما في الأدب الجاهلي، فقد وردت النخلة كدلالة على الحيوية والازدهار أو زوالها كرمز للخراب والاندثار، مما يؤكد وعياً عميقاً بقيمتها ضمن البيئة العربية كما جاء في شعر امرئ القيس:

تيماء لم يترك بها جذع نخلة
ولا أطم إلا مشيداً بجندل^(٥)

يتضح من كل ذلك أن النخلة لم تكن مجرد شجرة مثمرة في العرف الإسلامي والعربي، بل كانت رمزاً مركزياً يستوعب أبعاداً روحية وأخلاقية واقتصادية وجمالية، ما يجعلها مكوناً جوهرياً من الذاكرة الجمعية والهوية الثقافية في المجتمعات الإسلامية.

ثانياً: الامتداد المجالي لشجر النخيل بالمغرب الأقصى

شكلت الظروف الطبيعية والمناخية بالمغرب الأقصى بيئة مناسبة لنمو شجر النخيل، الذي وجد فيها وسطاً ملائماً لتطوره وانتشاره. ورغم غياب معطيات دقيقة حول تاريخ دخول هذه الشجرة إلى المجال المغربي، فإن بعض الباحثين يرجحون، استناداً إلى إشارات وردت في نصوص قديمة، أن النخيل كان موجوداً بالمغرب منذ فترات تاريخية قديمة، خصوصاً في المناطق التي تتوفر على شروط بيئية ملائمة لنموه، وعلى رأسها حوض درعة ووحداتها، إلى جانب منطقة زيز-غريس^(٦).

إذا كان انتشار أشجار النخيل بالمغرب الأقصى خلال فترة ما قبل الإسلام لا يزال يلفه كثير من الغموض بسبب قلة المعطيات التاريخية الدقيقة، فإن هذا

ولم تقتصر زراعة النخيل على سجلماسة وحدها، بل شملت أيضاً مناطق أخرى ذات طبيعة بيئية مشابهة. فقد أوردت المصادر إشارات صريحة إلى وجود النخيل في مدينة أغمات التي وُصفت بأنها تتوفر على "نخل كثير"^(١٢)، وكذلك في منطقة تامدولت^(١٣). كما انتشر النخيل بشكل ملحوظ في السوس الأقصى^(١٤)، وتجلي بشكل خاص على طول وادي درعة^(١٥)، وامتد كذلك إلى أقصى شرق المغرب الأقصى، في منطقة فجيج، التي وصفها صاحب الاستبصار بأنها "بلاد خصبة وفيها نخل كثير"^(١٦).

ويستمر هذا الامتداد المجالي في الظهور خلال نفس المرحلة، حيث يسجل الحسن الوزان في مؤلفه إشارات مهمة لمناطق أخرى عُرِفَتْ بتواجد النخيل بها، مثل منطقة تومكلاست الواقعة قرب مراكش، حيث "يحيط بها النخيل والكروم والأشجار المثمرة"^(١٧)، ومدينة تشراف التي "تحيط بها بساتين كثيرة مغروسة بالنخيل"^(١٨)، إلى جانب جبل تنزيتة "من جبال الأطلس ينبت فيه النخيل"^(١٩). كما يشير إلى مدينة أوندون، القريبة من فاس، والتي كانت "يحيط بها عدد كثير من النخل القصير الذي لا يثمر"^(٢٠).

تكشف هذه المعطيات في مجموعها عن امتداد مجالي واسع لشجر النخيل خلال الفترة الوسيطة، ارتبط أساساً بالمجالات الجافة وشبه الجافة، حيث

لتخصص الزراعي والتجاري المرتبط بإنتاجها وتسويقها داخل المنطقة.

بذلك، تكشف هذه الإشارات عن ثراء وخصوصية المجال الواحي بالمغرب الأقصى، وعن الدور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي لعبته التمور ضمن نسيج الحياة اليومية لسكان هذه المناطق خلال العصر الوسيط.

رابعاً: الأهمية الاقتصادية للتمور

لعبت تمور النخيل دوراً محورياً في تنشيط الحركة التجارية بين مناطق الإنتاج ومناطق الاستهلاك، وشكلت عنصراً أساسياً في بنية المبادلات التجارية بالمغرب الأقصى، لا سيما تمور سجلماسة التي تميزت بقدراتها التنافسية وجودتها مقارنة بتمور مناطق أخرى. وقد عبر القلقشندي عن هذا التميز بقوله: "وفي سجلماسة الرطب التمر، وتمرها أفضل تمر سائر بلاد المغرب حتى يُقال إنه يضاهي التمر العراقي"^(٢٧)، وهو ما يدل على مكانة هذه التمور في السوق الإقليمي، ومدى التقدير الذي حظيت به في الأوساط التجارية.

ويؤكد ابن الخطيب هذه المكانة الاقتصادية، حين وصف سجلماسة بأنها "معدن التمر، بحكمة صاحب الخلق والأمر، تتعدد أنواعه وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكْتساب"^(٢٨)، مشيراً بذلك إلى أن التمر لم يكن مجرد مادة غذائية، بل مكوناً رئيساً في تشكيل الثروة وسلعة رائجة في الأسواق المحلية والإقليمية، لها أثرها في دينامية المبادلات التجارية، سواء داخل مدن المغرب الأقصى أو في اتجاه السودان الغربي^(٢٩).

لقد كانت التمور، بحسب هذه الشهادات، عاملاً فاعلاً في تحريك التجارة الخارجية، إذ مثلت حلقة وصل تجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي من جهة، وأوروبا من جهة أخرى. وقد أشار ابن بطوطة إلى اعتماد سكان قرية تغازي - التي عُرفت باستخراج الملح - على التمور القادمة من درعة وسجلماسة في معيشتهم اليومية^(٣٠)، وهو ما يعكس الامتداد الجغرافي لتجارة التمور وأهميتها في تغذية المناطق الصحراوية ومراكز التعدين.

لعبت الظروف المناخية والمائية دوراً حاسماً في تحديد هذا الانتشار.

ثالثاً: أنواع التمور بالمغرب الأقصى

تُظهر المعطيات المستقاة من المصادر التاريخية أن المغرب الأقصى، وخاصة منطقة سجلماسة، شهد تنوعاً ملحوظاً في أصناف التمور التي كانت تُنتج وتُستهلك خلال الفترات التاريخية الوسيطة. ويعد ابن حوقل من أوائل من أشار إلى هذا التنوع، من خلال وصفه لتمور سجلماسة بأنها رطب أخضر في غاية الحلاوة^(٣١)، مما يدل على الجودة العالية والإقبال الكبير عليها. وتُعزز هذه الصورة الشهادات التي وردت لاحقاً لدى كل من الإدريسي^(٣٢) والحميري^(٣٣)، حيث تحدثا عن نوع مميز من التمور يُعرف بـ"البرني"، يتميز بلونه الأخضر الشديد، ودرجة حلاوته الفائقة، فضلاً عن صغر نواته اللافت، مما يجعله أحد الأصناف ذات الجودة العالية والخصائص الفريدة.

ولا يقتصر ذكر التمور في المصادر على الوصف العام، بل يتعداه إلى تحديد أنواع بعينها كانت محل تداول في الحياة اليومية وحتى ضمن العلاقات الاجتماعية. ففي هذا السياق، يورد ابن الزيات في كتابه التشوف إشارة إلى نوع يُعرف بـ"اليراري"، ورد ذكره ضمن قصة أحد متصوفة سجلماسة، وهو أبو بكر بن جلداسن الصنهاجي، المتوفى بمراكش سنة (٥٩٠هـ/١١٩٥م)، الذي طلب من يحيى بن عمر بن المعتصم أن يبعث إليه تمراً من هذا النوع، فاستجاب لطلبه^(٣٤). كما أشار ابن بطوطة بدوره إلى نوع آخر من التمور كان معروفاً في سجلماسة يُدعى "إيران"^(٣٥)، مما يدل على استمرار التنوع وتعدد الأسماء المرتبطة بهذه المادة الغذائية الحيوية.

ويُضاف إلى هذه الشهادات ما أورده مارمول كاربخال، الذي أكد في وصفه لمنطقة سجلماسة أنها كانت تنتج خمسة أنواع من التمور، مميّزا بينها من حيث الجودة، حيث اعتبر أن "بوسكري" هو أجودها، في حين وصف "بوزيار" بأنه أقلها جودة^(٣٦). وتدل هذه التصنيفات على وجود تقاليد محلية في تصنيف التمور وفق معايير الذوق والجودة، مما يعكس درجة من

اعتباره العمود الفقري للتغذية اليومية^(٣٤). ويؤكد الحسن الوزان هذه الأهمية من خلال قوله: "ويتغذى أهل البلاد من مثل هذا التمر، لا سيما في الأيام التي لا يأكلون غيره، ويقتاتون بحساء الشعير وغيره من الأشياء البسيطة، أما الخبز فلا يأكلونه إلا في الأعياد والولائم"^(٣٥). وتعكس هذه الشهادة اعتماد السكان الكبير على التمر بوصفه رئيساً للغذاء، يعوّض غياب المواد الأخرى خلال فترات القحط أو شحّ المؤن.

٢/٥- البناء

يحظى شجر النخيل بأهمية خاصة في أنماط البناء التقليدي بالمغرب الأقصى عموماً، ومنطقة تافيلالت على وجه الخصوص. وقد ذهب عدد من الباحثين إلى التأكيد أن الحياة في هذه المنطقة بدون النخيل تكاد تكون مستحيلة^(٣٦)، لما يوفره من مواد أولية لا غنى عنها في العمارة المحلية. فقد جرى توظيف أجزاء من النخيل، وبكفاءة عالية، في تشييد المساكن^(٣٧)، ولا سيما في بناء الأسقف والقباب والدعائم، ما جعله عنصراً إنشائياً أساساً ضمن المنظومة المعمارية التقليدية.

وقد تميزت أشكال استعمال النخيل في البناء بتنوعها وتخصصها، حسب نوعية الجزء المستخدم ووظيفته، فتم تصنيفها إلى عدة تسميات محلية دقيقة تعكس غنى الموروث البنيوي والمعرفي المرتبط بالنخيل. ومن بين هذه التسميات: المادة^(٣٨)، الكايزة^(٣٩)، الورقة^(٤٠)، التشبيكة^(٤١)، الفرد^(٤٢)، الكنطرة^(٤٣)، السعف والجريد^(٤٤)، القصب^(٤٥)، وهي مصطلحات تشير إلى تعدد الأدوار والوظائف التي اضطلع بها النخيل ضمن البنية التحتية للوحدات.

إن هذه المعطيات مجتمعة تؤكد المكانة الجوهرية لشجر النخيل في الحياة الواحية، ليس فقط بوصفه مورداً طبيعياً، بل بكونه عنصراً بنيوياً وثقافياً حافظ على استمرارية نمط عيش قائم على التكيف مع شروط بيئية قاسية.

وتدعم الدراسات الأجنبية هذا الامتداد، حيث يشير أحد الباحثين إلى أن تمور سجلماسة وصلت إلى أوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادي^(٣١)، ما يبرز الانفتاح التجاري للمنطقة، واندماج منتجاتها الفلاحية ضمن شبكات التبادل العابرة للقارات. ويستمر هذا الزخم التجاري خلال القرن السادس عشر، حيث يؤكد الحسن الوزان على أن تجارة التمور كانت من بين الأنشطة الاقتصادية الأكثر رواجاً في عصره، مشيراً في الوقت نفسه إلى تباين أثمانها تبعاً لاختلاف أصنافها وجودتها^(٣٢).

وفي السياق نفسه، يذكر مارمول كريبخال أن تمور المغرب الأقصى، وعلى وجه الخصوص نوع "بوسكري"، كانت تُصدر إلى إسبانيا^(٣٣)، مما يدل على استمرار الطلب الخارجي على هذا المنتج، ويؤكد مكانته في التجارة المتوسطية. وهكذا يتضح أن التمور لم تكن فقط منتجاً زراعياً، بل أحد روافع الاقتصاد المحلي والعاور للحدود، ساهم في ترسيخ موقع المغرب الأقصى ضمن شبكات التجارة العالمية خلال العصر الوسيط وما بعده.

خامساً: استعمالات شجر النخيل بالمغرب

الأقصى

يُعدّ شجر النخيل من أبرز الأصناف الشجرية التي عرفت انتشاراً واسعاً في المغرب الأقصى، خاصة في المجالات الجافة وشبه الجافة، مع تركيز ملحوظ في منطقة تافيلالت، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وقد تحول هذا النوع النباتي، منذ أزمنة بعيدة، إلى مكون أساس ضمن المنظومة البيئية والاجتماعية المحلية، نظراً لأدواره الحيوية التي تجاوزت البعد الزراعي، لتشمل مجالات معيشية متنوعة، من قبيل التغذية والبناء والصناعة التقليدية، حيث استُخدم خشبه في صناعة أدوات منزلية كالأقفال والأقذاح، إلى جانب استعمالاته الأخرى.

١/٥- التغذية

تُظهر المصادر الوسيطية اهتماماً كبيراً بشجر النخيل، انطلاقاً من تعدد استعمالاته داخل المجتمع، وفي مقدمتها المجال الغذائي. فقد شكل تمر النخيل أساس النظام الغذائي لسكان الواحات، إلى درجة

خاتمة

ولا تقل الأبعاد التقنية والمعيشية لاستخدامات النخيل أهمية، حيث تحول إلى مادة أولية متعددة الوظائف، استُعملت في التغذية، والبناء، والصناعة التقليدية، وهو ما يدل على مركزية هذه الشجرة في الأنظمة البيئية والاجتماعية للمجتمعات الواحية، وارتباطها بنمط حياة تكاملي جعل من كل مكون نباتي مصدراً للقيمة والاستعمال. وقد مكنت هذه القدرة التكيفية من تعزيز الاستدامة في مجال يعاني من الهشاشة المناخية والموارد المحدودة.

انطلاقاً من هذه النتائج، يمكن القول إن شجر النخيل، خلال العصر الوسيط، لم يكن مجرد مكون طبيعي عابر في المشهد البيئي للمغرب الأقصى، بل شكل عنصراً جوهرياً ضمن نسيج اجتماعي واقتصادي وثقافي متشابك، يقتضي استحضاره في إعادة كتابة تاريخ المجال الواحي من منظور بيئي وثقافي تكاملي، يدمج الإنسان والطبيعة في علاقة تفاعلية مستمرة.

من خلال ما تقدم، يتضح أن شجرة النخيل شكلت عنصراً مركزياً في تاريخ المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، سواء من حيث حضورها المجالي أو تعدد أدوارها الوظيفية. فقد كشفت المعطيات المستقاة من المصادر التاريخية والرحلات الجغرافية، إلى جانب الدراسات الحديثة، عن امتداد واسع لهذه الشجرة، ارتبط أساساً بالمناطق الواحية الجافة وشبه الجافة، لا سيما في الجنوب والجنوب الشرقي، وهو ما يعكس تكيفها الطبيعي مع الشروط البيئية القاسية، وقدرة الإنسان على تسخيرها في خدمة متطلبات العيش اليومي.

وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد منحت النخلة بعداً رمزياً وروحياً خاصاً، فإن ذلك ساهم في ترسيخ مكانتها في الوعي الجماعي، حيث جرى تمثيلها رمزا للثبات والكرم والنفق، مما منحها بعداً أخلاقياً ودينياً يتجاوز قيمتها المادية. كما أن تتبع الامتداد المجالي لشجرة النخيل يُبرز إدماجها في استراتيجيات الاستقرار البشري واختيار مواقع التوطن، بما يعكس وعياً بيئياً فطرياً لدى المجتمعات الواحية.

وعلى مستوى الإنتاج الفلاحي، يُظهر تنوع أصناف التمور، كما سجلته النصوص الوسيطية، وجود تقاليد زراعية محلية متقدمة، شملت جوانب التجربة والخبرة والمعرفة التصنيفية، إلى جانب التبادل الثقافي والتجاري الذي سمح بتطوير وتحسين بعض الأنواع، وهو ما يعكس دينامية اقتصادية داخلية قائمة على تنوع العرض الزراعي وملاءمته لحاجات السوق.

أما من حيث البعد الاقتصادي، فقد برزت التمور باعتبارها منتجاً استراتيجياً داخل منظومة التجارة المحلية والإقليمية، وساهمت في بناء علاقات تجارية متشابكة، امتدت من الواحات المغربية إلى مناطق الصحراء والسودان الغربي، بل وتجاوزت ذلك إلى أسواق أوروبا المتوسطية، مما يكشف عن مكانة النخيل في منظومة الاقتصاد الوسيط، سواء في سياق الاكتفاء الذاتي أو التبادل التجاري عبر المسافات الطويلة.

الإحالات المرجعية:

- (٢٨) ابن الخطيب، **معيّار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي لمحمد كمال شبانة، منشورا المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، مطبعة أكّدال، الرباط، ١٩٧٧، ص. ١٨٠.
- (٢٩) نادية هاشمي، **التقنيات والمجتمع الإنتاجي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (القرن ٥هـ-٨هـ/١١م-١٤م)**، مطابع الرباط نت، الرباط، ٢٠٢٢، ص. ١٧٣.
- (٣٠) ابن بطوطة، م س، ج ٢، ص. ٣٧٣.
- (٣١) Mas latrie (L) Traites de paix et de commerce, Paris, 1985, p.99 نقلاً عن نادية هاشمي، م س، ص. ١٧٤.
- (٣٢) الوزان، م س، ج ٢، ص. ١١٩.
- (٣٣) مارمول كاريخال، م س، ج ١، ص. ٤٥.
- (٣٤) حسن حافظي علوي، **سجل ماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٩٧، ص. ٥٧.
- (٣٥) الوزان، م س، ج ٢، ص. ١١٩.
- (٣٦) امبارك بوعصب، **القصور والقصبات بمنطقة تافيلالت دراسة عمرانية ومعمارية**، منشورات المركز المغربي للدراسات التاريخية، فاس، 2017، ص. ٥٧.
- (٣٧) نفسه، نفس الصفحة.
- (٣٨) سميت المادة بهذا الاسم لامتداد طولها ما بين ثلاثة إلى سبعة أمتار، وغالباً ما تستعمل في الحجرات التي يزيد اتساعها عن ثلاثة أمتار من أجل تقسيم سقف الحجرة إلى قسمين، كما تستعمل المادة في تسقيف المصريات مزخرفة بأشكال هندسية (بوعصب، م س، ص. ٢٦٩-٢٧٠).
- (٣٩) وهي شكل مصغر للمادة المربعة، لكن بمقاييس أقل، إذ تتراوح طولها بين مترين ومترين ونصف. وقد شاع استخدام هذا النوع من الخشب لقلّة تكلفته مقارنة مع خشب المادة ولجماليته وتناسب مقاييسه مع عرض القاعات، وتستعمل هذا الأخشاب في عملية البناء بعد أن تجف، كما كان بالإمكان التمييز بين الجيد منها والرديء بثقلها، فكلما زاد ثقلها كلما كانت أجود (بوعصب، م س، ص. ٢٧٠).
- (٤٠) من الأخشاب التي تستعمل لتغطية الفراغات بين أخشاب الكايزة، وترجع هذه التسمية حسب أحد الباحثين لرقّة سمك هذه الخشبة والطبي لا يزيد عن ٣ سنتيمترات ولا يقل عن ١,٥ سنتيمتر. ٤ (بوعصب، م س، ص. ٢٧١).
- (٤١) هي أجزاء من الخشب يتراوح طولها ما بين ١٢ و١٨ سنتيمتر، وسمكها ما بين ٦ و٨ سنتيمتر تستعمل للربط بين أخشاب الكايزة فيما بينها (بوعصب، م س، ص. ٢٧١).
- (٤٢) يتخذ هذا الصنف شكل مستطيل يتوصل إليه بشق جذع النخلة إلى نصفين يحدد طولها بحسب المكان المراد استعماله فيه وخاصة السقوف ومداخل المنازل (بوعصب، م س، ص. ٢٧١).
- (٤٣) هي خشبة ذات شكل مستطيل يكون عرضها ما بين ٢٠ و٣٥ سنتيمتر، تستعمل في الأسقف العلوية، لأن درجة تحملها أقل من باقي الأصناف (بوعصب، م س، ص. ٢٧١).
- (٤٤) استخدم الجريد في الأسقف عوض الورقة، لكن استعمالها كان ينحصر في الممرات والغرف والبيوت ذات الاستعمالات الثانوية. أما السعف فيستعمل بعد ترتيبها في سقوف البيوت المخصصة لخبز المون والأثاث (بوعصب، م س، ص. ٢٧١).
- (٤٥) يستعمل في الأسقف العلوية عوض سيقان الجريد، لكن استعماله يبقى محدوداً مقارنة بخشب الورقة وسيقان الجريد (بوعصب، م س، ص. ٢٧١).

- (١) سمير آيت أومغار، **التاريخ والبيئة: ملاحظات حول الكتابة التاريخية المغربية**، مجلة المناهل، عدد ٩٩، ٢٠٢٠، ص. ٤٩.
- (٢) **سورة مريم**، الآية ١٢٥.
- (٣) السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان، **كتاب النخلة**، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ص. ٥.
- (٤) البخاري، **صحيح البخاري**، المجلد الأول، كتاب العلم، باب قول حدثنا وأخبرنا وأنبأنا، البشري، باكستان، ٢٠١٦، ص. ١٦٢.
- (٥) امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس**، اعتنى بشرحه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ص. ٦٦.
- (٦) عبد العزيز أكرير، **تاريخ المغرب القديم من الملك يوبا الثاني إلى مجيء الإسلام**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٦، ص. ٢٥٠.
- (٧) ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص. ٩.
- (٨) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحرير وتقديم شاكر لعبي، سبكو للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣، ص. ٢١٦.
- (٩) أبو عبيد البكري، **المسالك والممالك**، ج ٢، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٩٢، ص. ٨٣٦.
- (١٠) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ٢٠١.
- (١١) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ٢٢٦.
- (١٢) ابن حوقل، م س، ص. ٩٠، البكري، م س، ج ٢، ص. ٨٤٣.
- (١٣) البكري، م س، ج ٢، ص. ٨٦٢.
- (١٤) ابن حوقل، م س، ص. ٩٠.
- (١٥) صاحب الاستبصار، م س، ص. ٢٠٦.
- (١٦) نفسه، ص. ١٧٩.
- (١٧) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٣، ص. ١٢٥.
- (١٨) نفسه، ص. ١٢٦.
- (١٩) نفسه، ص. ١٧٣.
- (٢٠) نفسه، ص. ١٩٩.
- (٢١) ابن حوقل، م س، ص. ٩٠.
- (٢٢) الإدريسي، **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، اعتنى بتصحيحه ونشره، هنري بيريس، الجزائر، ١٩٥٧، ص. ٣٨.
- (٢٣) الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، مطابع دار السراج، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص. ٣٠٥.
- (٢٤) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، ١٩٩٧، ص. ٣٠٧.
- (٢٥) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، المجلد ٤، بيروت، ١٩٧٥، ص. ٢٣٩.
- (٢٦) مارمول كاريخال، ج ١، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار النشر المعرفة، الرباط، ١٩٨٨-١٩٨٩، ص. ٤٥.
- (٢٧) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج ٥، تحقيق محمد قنديل البقالي، المؤسسة المصرية، القاهرة، ١٩٧٢، ص. ١٦٤.

التراث الفقهي وتاريخ البحر في الغرب الإسلامي

حادثة غرق مركب الحجاج المغاربة

عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م

د. السهلي محمد



دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
باحث في تاريخ الماء بالمغرب – مكناس
الأكاديمية الجهوية فاس – المملكة المغربية

ملخص

تمثل حادثة غرق مركب الحجاج المغاربة سنة (١٣٧٧هـ/٧٧٩م) واحدة من أبرز النوازل البحرية في تاريخ الغرب الإسلامي، وشكلت تحولاً في التعامل الفقهي مع السفر البحري، ودفع الفقهاء المغاربة والاندلسيين إلى مناقشة مسائل تتعلق بمشروعية السفر بحراً لأداء مناسك الحج في ظل وجود أخطار بحرية. كما أثارت هذه الحادثة قضايا فقهية دقيقة مثل مسؤولية ريان المركب في حال وقوع إهمال، وكيفية التعامل مع أموال وميراث الحجاج الغرقى، كما ناقش الفقهاء مصير التركة والأموال المفقودة ومدى اعتبار الغريق مفقوداً شرعاً. ويُعدّ "شرح تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام" من المتون الفقهية على المذهب المالكي، ألفه أبو يحيى بن عاصم للإجابة عن المسائل الفقهية التي اشتملت عليه أرجوزة والده أبي بكر محمد بن عاصم، موضحاً معاني الأبيات ومستظهرها ما تضمنته من الأحكام ملحقاً ذلك بالمسائل الفقهية المرتبطة بها، فكان مقصده من ذلك مجاراتها أي منظومة والده بهذا التقيد أن يكون له تذكرة لما اشتملت عليه من الأحكام، وتبنيها على ما وراءها مما يجب التيقظ له على الحكام. ويقدم شرح أبي يحيى الحادثة البحرية التي تعرض لها المغاربة الحجاج، وما وقع بشأنها من المراجعات والمناظرات الفقهية حولها خاصة فيما يتعلق بفقه أموال المفقودين.

كلمات مفتاحية:

البحر؛ تحفة الحكام؛ الغرب الإسلامي؛ التراث الفقهي؛ الماص

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠١ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٣ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.399710.1242

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

السهلي محمد. "التراث الفقهي وتاريخ البحر في الغرب الإسلامي: حادثة غرق مركب الحجاج المغاربة عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون؛ ديسمبر ٢٠٢٥. ص ٣٣ - ٤٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: mohamedsh20689@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في ذُويّة كان 4.0 Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

إن عملية إحياء التراث ونفض الغبار عليه هي إحدى المهمات التي خصَّ بها المؤرخ نفسه، فتاريخ الأمة رهين بالاطلاع على تراثها وحضارتها والانصات إلى ثقافة شعبها^(١).

ولعل أولى الخطوات في تصحيح هذا الوضع هو مراجعة طريقة التعامل مع القيم الروحية والعرفية للتراث، وهي المهمة التي انبرى لها الدكتور محمد بنشريفة الذي برع في سماء الفكر والعلم الأدب والتاريخ، وتحقيق التراث الفقهي والأدبي ليس فقط في الساحة الثقافية المغربية، وإنما في الساحة العربية كذلك، فشغفه بالبحث والنبش في نواذر المخطوطات وغميس الوثائق التي تعنى بالتاريخ والفقه والأدب بالغرب الإسلامي، جعل منه مرجعاً للباحث في هذا المجال وذخيرة في تخصصه. ولعل ما جعل منه كذلك هو تنقيبه المستمر عن المخطوطات المغمورة التي لم تصلها يد الباحث بعد، بهدف نفض الغبار عنها وإخراجها للقراء في حلة شبيهة من الأصل أو ترتبط منه مع الحرص على الدقة العلمية لتقديم أجود ما لديه في مجال الدراسة والتحقيق والتحليل.

ومن بين المخطوطات التي خصها محمد بنشريفة بالدراسة والتحليل المخطوط الفقهي "شرح تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام" لأبي يحيى محمد ابن عاصم الأندلسي وهو مصدر من جنس مصادر الأحكام والأقضية، وضعه أبو يحيى ابن عاصم شارحاً به أرجوزة والده أبي بكر محمد ابن عاصم، وضمنه أحكاماً فقهية تتصل بقضايا الحقبة الغرناطية الأخيرة التي عاش فيها ابن عاصم وكان شاهداً عليها.

إن القصد هنا الوقوف عند إحدى النوازل الفقهية التي استخرجها محمد بنشريفة من المخطوطة والتي لها فائدة تاريخية في معرفة جوانب من التاريخ الاجتماعي لمملكة غرناطة، وهي نازلة كما يقول بنشريفة، لا يعرف خبرها ولا تاريخها إلا من هذا المصدر، والتي تهم حادثة بحرية تتمثل في غرق مركب للحجاج المغاربة، وما نتج عن ذلك من مسائل ترتبط بالغرر الذي يقدم عليه

المتوجهون إلى الحج وأيضاً مسائل إرث الزوجة من المفقود في البحر ولم تثبت وفاته.

أولاً: التعريف بالمخطوط

"شرح على تحفة الحكام" مخطوط من تأليف أبي يحيى محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي المعروف بابن الناظم، وقد تعددت نسخه المحفوظة بخزائن المغرب وخارجه، منها النسخة المحفوظة بخزانة الجامع الكبير بمدينة مكناس مسجلة تحت رقم ٢٧٨، مكتوبة بخط مغربي متنوع، يشتمل على ١٧٥ ورقة، كل ورقة تضم ٣٥ سطراً، مقاس ٢٧/١٩، وهو من تحبیس السلطان مولاي إسماعيل العلوي على خزانة الجامع الكبير بمكناس، وتمت حيازته لجانب الحبس في أواسط جمادى الثانية عام (١١٣٠هـ / ١٧١٨م).

أوله: "الحمد لله الذي شرع الأحكام وأوضح الأعلام ورضي لنا الإسلام وأكمل به الدين وأتم وأجرى الأنعام والصلاة والسلام على نبيه المصطفى..."

كتب بآخره: "كان الفراغ من القسم الأول من الكتاب عشية يوم الأربعاء ٢٣ من شهر ذي القعدة الحرام عام ٩٨٩هـ على يد سعيد بن محمد خنيشة".

لقد أسهب أبو يحيى في شرح التحفة وأجاد خير إجادة، فقام بإيضاح معاني الألفاظ وذكر آراء الفقهاء على شتى الطرق، فكان يأتي بالرأي وما يخالفه ويوضح علة أو سبب كل رأي، وهو ما جعله يحظى بثناء العلماء، يقول فيه أبو العباس المقرئ: "وله عدة تأليف منها شرحه العجيب على تحفة والده في الأحكام، وهو كتاب نافع، فيه فقه متين، ونقل صحيح"^(٢). وقال في حقه أبو عبد الله ميارة: "احتفل فيه بجودة القريحة، وأكثر من النقول الصحيحة، فأبدأ وأعاد وأجاد وأفاد، فجراه الله خيراً وأجزل أجراً"^(٣).

وقد اعتمد أبو يحيى على كثير من الكتب في النقل والأخذ في مقدمتها أمهات المذهب المشهورة، ثم تلك التي ألقت بعدها مثل: "المقرب في اختصار المدونة" و"منتخب الأحكام"، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي زمنين (ت. ٣٩٩هـ)، و"المقصد المحمود في تلخيص العقود"، لأبي الحسن علي بن يحيى بن القاسم الصنهاجي الجزيري (ت. ٥٨٥هـ)، و"المفيد للحكام فيما

للفترة التي عاش فيها المؤلف، وتبين بجلاء ما كانت يعج به الغرب الإسلامي من علماء ومعارف وعلوم.

٢/١-دراسة محمد بنشريفة للمخطوط

لم يكن هم الباحث محمد بنشريفة هو التحقيق في حد ذاته، وإنما ما يضيفه من جديد على مستوى المعلومات والأخبار والنصوص، وما ينشره من تنبيهات ضرورية عن بعض القضايا ذات الصلة بكتاب أو مجموع، والتي تضيفي على العمل المصادقية المطلوبة، نذكر من ذلك ما خصّ به مخطوطه "شرح التحفة" من دراسة مستفيضة ضمن كتاب التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، إذ إن ما جعله يقدم على دراسة هذا المخطوط هو الإشارات التاريخية الواردة فيه المتصلة بتاريخ الحقبة الغرناطية الأخيرة، يقول بنشريفة: "ومن هنا يجيء التفاتي اليوم إلى الشرح الذي وضعه أبو يحيى محمد ابن عاصم على أرجوزة والده أبي بكر محمد ابن عاصم لدرسه باعتباره مصدرا في الأفضية والأحكام ولكن لأقف عند ما ورد فيه من إشارات تاريخية، وهي إشارات يتصل معظمها بتاريخ الحقبة الغرناطية الأخيرة التي عاش فيها ابن عاصم وكان شاهدا عليها. ومن المعروف أننا لا نجد رواية تاريخية عربية كاملة حول هذه الحقبة إذ لم يظهر بعد ابن الخطيب من يصل أعماله ويدون الأحداث التي ظهرت بعده إلا ما كان من نبذة تاريخية في آخر أيام بني نصر جمعها مؤرخ مجهول، وقد طبعت أكثر من مرة وفيها عدا هذا فإن المدونات التاريخية القشتالية هي المصادر المفصلة لهذه الحقبة"^(٦).

لقد استند بنشريفة في دراسته للنوازل الواردة في المخطوط على إجراء منهجي يقوم على تحليل إجمالي لصاحب هذه النوازل، وهو أبو يحيى محمد بن أبي بكر محمد بن ابن عاصم الغرناطي المنتسب لأسرة غرناطة كان لها دور بارز في حياة غرناطة ومصير مملكتها خلال القرن التاسع، واشتهر بمداخلة في الملك النصري يوسف الثالث التي قالها عام ٨١١هـ^(٧).

لقد شهد بن عاصم الابن كثيراً من الأحداث والفتن التي صادفت انتهاء عهد الاستقرار السياسي في مملكة غرناطة، من ذلك اختفائه لمدة سبعة شهور نتيجة اعتقال

يعرض لهم من نوازل الأحكام"، لأبي الوليد هشام بن عبد الله بن هشام الأزدی (ت ٦٠٦هـ). كما اعتمد على بعض فتاوى أبي سعيد فرج بن قاسم بن لب التغلبي (ت ٧٨٢هـ)، وأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٥هـ)، وأبي القاسم محمد بن محمد بن سراج الأندلسي (ت ٨٤٨هـ).

وقد أفصح أبو يحيى محمد بن عاصم على الباعث الذي دفع لهذا في صدر كتابه قائلاً: "استخرت الله تعالى في مسامرة هذه الأرجوزة المذكورة، بتقييد يكون كالشرح لمعانيها، والإبانة عن المسائل الفقهية التي استقلت عليها مبانيها، موضحاً من الأرجوزة المشار إليها معاني الأبيات، ومستظهِراً على ما تضمنته من الأحكام مما يكون أسعد بها من الأقوال والروايات، وملحقاً بما يتكلم عليه من الفقه، ما يكون من معناه قريباً، ومضيفاً إليه من النقل ما لا يعد بالنسبة إليه غريباً"^(٤).

١/١-موضوع المخطوط

يعد المخطوط الذي نحن بصده من صنف كتب الوثائق والأحكام التي حاول فيه أبي يحيى محمد بن عاصم الإبانة عن المسائل الفقهية التي اشتملت عليه أرجوزة والده أبي بكر محمد بن عاصم، موضحاً معاني الأبيات ومستظهِراً ما تضمنته من الأحكام ملحقا ذلك بالمسائل الفقهية المرتبطة بها، فكان مقصده من ذلك "مجاراتها- أي منظومة والده- بهذا التقييد أن يكون لي تذكرة لما اشتملت عليه من الأحكام، وتنبيهها لي على ما وراءها مما يجب التيقظ له على الحكام، لا أني أشرح لغيري وأنا قد غنيت، وأجهد لسواي تاركاً لما به قد غُنيت، إلا أن يكون ذلك بالتبع، وعلى غير ما قدمت من السبيل المتبع، فالخير أردت، والمشرع العذب وردت"^(٥).

لقد سار أبي يحيى في شرح أبيات النظم وبيان ما احتوت عليه من أصول وفروع فقهية على منهج كتب المذاهب المعروفة، جامعاً بين أسلوب الفقيه والأديب، ومازجا بين المصطلحات الفقهية والعبارات البلاغية المختومة في بعض الأحيان بالسجع، فكان شرحه يمثل مستوى عال من النقاش العلمي الرفيع والأدب المتبادل بين العلماء والتجرد من العصبية المذهبية أثناء المناقشة العلمية، كما يمثل من جهة أخرى التفوق العلمي

والده الذي كان وزيراً ليوسف الثالث لسبب مجهول، وخروجه من مكان اختفائه بعد إطلاق سراح أبي بكر^(٨)، كما أن أبو يحيى ربط مصيره بمصير محمد التاسع الذي بوبع وخلع أربع مرات في كل مرة يخلع فيها هذا السلطان كان الخطر يحيق بابن عاصم الابن لكونه من خاصة السلطان. فقد تولى القضاء في عهده والوزارة والكتابة والخطابة والإمامة، كما كان كاتباً ورئيساً للكتاب وخطيباً وشاعراً ومفتياً وفقهياً...^(٩). لهذا فقد قضى أبو يحيى حياته في خوف وقلق، إذا كان يخرج مع السلطان كلما خلع ويصعب ويتحمل الذي في سبيله وأحياناً يستخدمه الجالس الجديد على العرش لحاجته إليه^(١٠).

والده الذي كان وزيراً ليوسف الثالث لسبب مجهول، وخروجه من مكان اختفائه بعد إطلاق سراح أبي بكر^(٨)، كما أن أبو يحيى ربط مصيره بمصير محمد التاسع الذي بوبع وخلع أربع مرات في كل مرة يخلع فيها هذا السلطان كان الخطر يحيق بابن عاصم الابن لكونه من خاصة السلطان. فقد تولى القضاء في عهده والوزارة والكتابة والخطابة والإمامة، كما كان كاتباً ورئيساً للكتاب وخطيباً وشاعراً ومفتياً وفقهياً...^(٩). لهذا فقد قضى أبو يحيى حياته في خوف وقلق، إذا كان يخرج مع السلطان كلما خلع ويصعب ويتحمل الذي في سبيله وأحياناً يستخدمه الجالس الجديد على العرش لحاجته إليه^(١٠).

تمتاز النوازل التي استخرجها بنشريعة من

شرح ابن عاصم بميزتين:

ميزة معاصرة الحدث، فهي تعكس صورة عصره والظرف الذي جاء فيه، مع تقرير المسائل الفقهية والقضايا النازلة بالفعل في المجتمع الغرناطي وسئل عنها فقهاء مملكة غرناطة وأفتوا فيها، من قبيل فتاوي أبي سعيد ابن قاسم بن لب، والإمام أبي إسحاق بن موسى الشاطبي، وفتاوي قاضي الجماعة أبي القاسم ابن سراج، وأبي الحسن علي بن سمعة، مع اعتماد على مصادر فقهية تكاد تكون أندلسية خالصة مفسراً ذلك بنشريعة في كون الأندلسيين عكفوا على تدريس نوازل الفقه المالكي طوال ثمانية قرون إلى حد التراكم الذي يغني عما سواه.

أن أبا يحيى ابن عاصم هو أول مدون لنوازل العصر الغرناطي مستنداً في ذلك على مدرستين في الفقه المالكي هما: مدرسة أنصار السنة أمثال أبو إسحاق الشاطبي وتلاميذه كأبي يحيى محمد ابن عاصم وأبو جعفر أحمد القمار وأبو إسحاق إبراهيم ابن فتوح^(١١). والمدرسة الفقهية التقليدية وهي مدرسة ابن لب شيخ الجماعة وعمدة فقهاء المالكية التي حصل بين أعلامها نزاع ومراجعات في قضايا متعددة ذات الصلة بالعبادات والمعاملات. وهي مراجعات تعدى صدها بلاد الأندلس لبلاد المغرب الأوسط والأقصى، وهو شيء يدل كما يقول بنشريعة على "التواصل الكبير بين فقهاء الغرب

ثانياً: حادثة غرق مركب الحجاج المغاربة

من النوازل التي استخرجها محمد بنشريعة من مخطوط شرح التحفة نازلة تتعلق بإحدى الحوادث البحرية التي لا يعرف خبرها ولا تاريخها إلا من هذا المصدر كما يقول بنشريعة، تتحدث النازلة عن حادثة غرق إحدى المراكب في الإسكندرية عام ٧٧٩هـ وفقدان من كان فيها وما يصل بذلك من مسائل فقهية كإثبات الوفاة في البحر بالنسبة للورثة، تقول النازلة:

"ومما تكمل به الفائدة ها هنا مسألة من فقد في البحر ملججاً، فسئل الأستاذ أبو السعيد بن لب رحمة الله عن المفقودين في القرقورة التي غرقت بالإسكندرية عام تسعة وسبعين ما الوجه الذي يتوصل به لوفاته من ذهب من ورثته لقسم وفي حكم زوجات من لا تثبت وفاتهم ومن ترك مالا بيد وكيل هل يستثمر نظر الوكيل؟ وهل الوكيل أن يعزل نفسه؟ وهل يصدق في مقدار أجرة من وكله هو وجعل له النظر في المال الذي بيده إذا جعل الموكل ذلك له؟ وما حكم نفقات الزوجات في المدة التي تثبت الوفاة قبلها؟ وما يسترجع من ذلك؟

فأجاب: أولى ما يعمل به في المسألة القرقورة المذكورة أن يثبت رسم يتضمن أن فلانا المعلوم عينا واسما عند شهوده عاينوه وشاهدوه ركب في القرقورة الفلانية في وقت كذا في موضع كذا وذهب فيها ولا يعلمون أنه نزل منها في موضع من المواضع التي مرت بها، واستمر أمرها بمن فيها إلى أن فقدت جملة في ناحية كذا من النواحي البحرية ويعلمون بالسمع الفاشي المستفيض على السنة العدول وغيرهم سماعا يفيد العلم ويحصل اليقين أنها غرقت بكل الناحية

لقد ألحق أبو سعيد بن لب بالنازلة رسماً يثبت فقدان غريق في السفينة بقواعده وضوابطه وتفصيله، وفي هذا الرسم فقه دقيق له صلة بما يعرف اليوم بالقانون البحري^(١٦). ويتضمن معلومات عن الفلان المفقود من قبيل:

- اسم الشخص المفقود عيناً واسماً.
- الشهود الذين عاينوه وشاهدوه أثناء ركوب المركب.
- وقت وموضع ركوبه المركب وإثبات عدم نزوله منه في موضع من المواضع التي مرّ بها إلى حين فقدانه.
- السماع الفاشي المستفيض على ألسنة العدول بما يفيد ويحصل به اليقين أن المركب غرق بتلك الناحية.
- هلاك مَنْ كان بالركب بالغرق مع المفقود.

ويضيف صاحب "المعيار" بعض الأحكام الفقهية الأخرى التي تقطع يقين موت المفقود في البحر، وما يجري من الأحكام على الزوجة والورثة، من ذلك ضرب القاضي أجلاً للمفقود يحدد في سنة كاملة من يوم الحكم، فإذا لم يظهر المفقود خلال تلك السنة يجري الحكم يومه، وتعتد المرأة عدة الوفاة، وتقسم التركة على الورثة. على أن مال المفقود يبقى حكم التصرف فيه للقاضي طيلة السنة، لأن المفقود يبقى في حكم الحياة في تلك السنة إلى حين انقضائها دون رجوع المفقود، ونفقة الزوجة من مال المفقود تجري على يد القاضي أو الوكيل إلى فراغ السنة. وقد يختلف الحكم إذا ثبت موت المفقود في البحر قبل الغرق، خاصة في مسألة أجرة الوكيل ونفقة الزوجة، جاء عند الونشريسي: "إلا أن أجرة الوكيل إن لم تكن شهادة عليه فيعتبر بأجرة المثل ولا نفقة للزوجة في العدة، لأنها فيها على حكم الوفاة، وإذا ثبت موت الغائب قبل السبب الذي يموت لأجله رجع على الزوجة وعلى أولاده بما أنفقوا من ماله بعد وفاته، ويظهر اليقين بالموت بخلاف التمويت بالحكم، فلا يرجع بما بعد السبب، بل يستمر إلى فراغ الأجل"^(١٧).

تطرح هذه النازلة قضية مهمة من قضايا التاريخ الاجتماعي بالغرب الإسلامي وهي قضية المفقودين، سواء بالغرق كما تفيد النازلة التي نحن بصددّها، أو بالأسر من لدن العدو أو غير ذلك من الأسباب. وتبعا لذلك فإن قضية المفقودين في البحر تثير سؤال المصادر

ملججة وأن الغالب على أهلها الذين كانوا فيها أنهم غرقوا وهلكوا بسببها رحمهم الله ونفعهم وأعظم أجرهم إلى آخر الرسم"^(١٤).

تشكل هذه النازلة وثيقة تاريخية فريدة فهي بخلاف النوازل التي تعاني من صعوبة التأطير الزمني والمكاني، فإنها تتوفر على جل الشروط المنهجية التي تجعل منها وثيقة تاريخية. كما طرحت قضية تاريخية ذات بعد اجتماعي بالإمكان وضعها في سياق تاريخي محدد، كما إن هذه النازلة تمنح للمؤرخ إمكانية ملامسة بعض القضايا ذات الصلة، كغرق المراكب التي كان يقدم عليها المتوجهون للحج، وهروب المسلمين المأسورين بأيدي النصارى من المركب أو السجن، وهو رأس بمرسى من مراسي المسلمين.

حددت النازلة مكان وقوع حدث غرق المركب الأندلسي بالإسكندرية بمصر، كما حددت تاريخ غرقه في سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، إلا أن النازلة لم تحدد سبب الغرق هل ترتبط الحادثة بغرق عادي؟ أن للأمر علاقة بالصراع الذي كان دائراً بين الإسلام ودار الحرب؟ إلا أن ما يفهم من سياق النازلة أن السفينة كانت تقل حجاجاً مغاربة وهي في طريقها للحج، وطرقت أحكاماً فقهية ذات بعد اجتماعي كافتسام ميراث الغارقين والمدة الواجبة في النظر لهؤلاء؟ وهل يجب اعتبارهم مفقودين أم على الورثة انتظار سنة كاملة؟ وما حكم زوجات مَنْ لا تثبت وفاتهم؟ وما حكم من ترك مالا بيد وكيل هل يستمر نظر الوكيل؟ وهل للوكيل أن يعزل نفسه؟ وهكذا دخلت هذه النازلة في أحكام فقهية دقيقة تنظر في هؤلاء الحجاج وما حصل لهم بعد الغرق من تبعات وأحكام فقهية نتج عنها كما يقل مصطفى الصمدي "فن رفيع عند الأندلسيين وهو ما يسمى بفن الكتابة والعقود والشروط"^(١٥).

وهو الفن الذي أفرد له فقهاء الغرب الإسلامي مصنفات منيفة تعريفاً به وضبطاً لأحكامه وتقنياته وتلقيه وقوانينه، وتقريباً لميدانه ومعانيه وشروطه، لتكون العقود والرسوم حججا في أيدي المتعاقدين الدينية والدينيوية صيانة للحقوق والأموال.

بالبحر واستغلال المراكب، وما تخلل ذلك من سلوكيات اجتماعية وصور عن المعاش اليومي للمتعاملين في البحر، حاول الفقه الإسلامي تأطيرها تفادياً لما يمكن أن تثيره من مسائل ذات بعد اجتماعي وقتئذ منها مسائل الفرق وفقدان الركاب في البحر. كما أنه من المسائل التي تثيرها هذه الحادثة أسباب غرق المراكب بالغرب الإسلامي، فرغم أن النازلة التي استخرجها محمد بن شريفة من "شرح التحفة" لا تفصح صراحة عن أسباب الفرق، فالراجح بأن الحادثة قد تكون لها صلة بحمولة السفن من الأشخاص والبضائع، إذ تفيد بعض الكتب التاريخية بمعطيات رقمية على قدر كبير من الأهمية، كتلك التي أوردها ابن جبير في رحلته بخصوص حمولة بعض السفن التي كانت تنقل الحجاج المسلمين إلى الديار المقدسة، والتي لم يكن أصحابها يحترمون القدرة الاستيعابية لها، فيعلمون على تكديس الحجاج في نوع من السفن يطلق عليها "بالجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة"^(٢٠).

كما قدم ابن جبير صورة أخرى عن بعض الحجاج النصاري المعروفين "بالبلغريين" ممن ركبوا معه إحدى السفن الكبيرة قاصدين بيت المقدس، قدر عددهم أزيد من ألفي شخص^(٢١)، وهو رقم وإن كان يصعب التحقق منه فإنه ينسجم ونوع المراكب المستعملة في تلك المرحلة، كما أن تقديرات ابن جبير حول حمولة السفن من الأشخاص تتغير بتغير نوع السفن، فعلى سبيل المثال تحدث في موضع آخر من رحلته عن مركب كان يحمل خمسين رجلاً من المسلمين، ومركباً آخر مقلع من الإسكندرية يحمل حوالي مئتي رجل ونيف من الحجاج المغاربة^(٢٢). ويؤكد ذلك ما ذهب إليه أحد الباحثين الذي رأى بأن هذه الأرقام التي أوردها ابن جبير مقبولة جداً استناداً إلى بعض الوثائق المحفوظة في مدينة جنوة، والتي تشير إحداها مؤرخة في عام (٦٤٥هـ/١٢٤٨م) أن صاحب السفينة "Oliva" حجز ألف ومائة مكان في السفينة المتجهة إلى بلاد الشام^(٢٣). كما الملك الإنجليزي ريتشارد الثاني رأى سفناً للمسلمين في بلاد الشام كانت تصل طاقتها الاستيعابية حوالي ألف وخمسمائة راكب

المعتمدة في بناء صورة عن الموضوع وخلفياته، وفتح أفق جديدة بغية إعادة بناء معرفي يستفيد من تطور المناهج المعاصرة، والتركيز على التاريخ الإشكالي، ذو الرؤية النسقية العقلانية في الكشف عن بنية المجتمع. ومن ثمة فإن النوازل الفقهية لها فائدة جمة في دراسة قضية المفقودين في البحر، بل إنه يمكن القول بأنها تعد المصدر الوحيد التي فصلت في هذه المسألة وآثار جوانب منها، وإن كانت تتصل معظمها بالجانب الفقهي فإنها تكشف عن إشارات تاريخية عن جوانب خفية من مجتمع الغرب الإسلامي، التي ظلت بعض قضاياها مستعصية لغياب روايات تاريخية عربية واصله للأحداث بعيداً عن الروايات النمطية للاستشراق.

على أن التعامل على نوازل المفقودين لا يجب أن يبقى حبيس الرؤية التقليدية القائمة على القراءة الظاهرة للنازلة، بل وجب الركون إلى البعد النسقي الذي يجعل من الحدث بناء مركباً من الأحداث وأنماط التفكير والفعل وكلية للعلاقات بين تلك العناصر المتفاعلة والمنظمة وأن حدوث أي تغيير يؤثر على كل العناصر داخل النسق ويجعل الباحث يستشرف نسقاً جديداً في إطار تفاعل البنية والضرورة عبر زمن طويل يبرز فيه الفعل والفاعل والفاعلية^(٢٤).

إن في هذه المؤشرات والملاحظات ما يحث على التفكير في الشروع عملياً في إعادة بناء هذا الجزء المبتور من تاريخ مجتمع الغرب الإسلامي، رغم ما يقف في وجه ذلك من عراقيل تتصل بحجم المادة التاريخية والأسس المعرفية والمنهجية المعتمدة، وبدلالات مفهوم ومصطلح المفقودون فقهيًا وتاريخيًا. وأعتقد كما أفاد بعض الباحثين الأحدثين بأن توسيع دائرة المصادر لتشمل مختلف كتابات العصر الوسيط ما يمكن من سد الثغرات الواسعة في الحوليات التاريخية للإحاطة بمختلف الجوانب المتعلقة بهذه القضية، فكم من مصدر ثانوي يقدم عفواً مادة تاريخية غير منتظرة وفي غاية الأهمية كما حال مادة كتب النوازل والحكام الفقهية كقيلة بإضاءة جوانب مهمة من تاريخ المفقودين^(٢٥).

وبالعودة إلى حالتنا حول حادثة غرق المركب المقل للحجاج الأندلسيين في البحر من ناحية الإسكندرية نجد بأنها تعكس جوانب عميقة في علاقة المجتمع

رحل كل واحد ما يخصه إذ أنزلوا عشر وسقه فينزل كل واحد عشر ما أوسق وإن خمس فخمس^(٢٨).

ومن المسائل التي تعرضها بعض النوازل أنه يحدث نزاعات حول البضائع المسرحة مع أرباب السفن دون أصحابها، فيضطر البحارة إذا وقع الصلح من غرق السفينة أن يلقي بعضاً من تلك البضائع والتخفيف عنها، فيحتج أرباب البضائع على أرباب السفينة أو التاجر، فكان الفقه في هذه الحالة يستدعي الحجة والبينة على صدق حول أرباب السفينة، وإذا زعم صاحب البضاعة بأن البضاعة التي ألقيت ذات قيمة كبيرة دون علم رب السفينة فالقول قول رب البضاعة^(٢٩).

إن هذه القضايا التي تثيرها عميلة شحن وتخفيف المركب أو السفينة من البضائع يطرح تساؤلات عن دوافع أرباب السفن حمل بضائع وأفراد فوق الطاقة الاستيعابية للسفينة رغم التحذيرات الفقهية، التي تشكل في مجملها تجاوزات للإطار التشريعي الضامن لعدم حدوث غرر أو ضرر للراكب أو صاحب البضاعة.

يتعلق الأمر هنا بمسألة كراء السفن والمراكب ذلك أن أغلب أرباب السفن هم في الواقع مكترون لها لا مالكون لها، وهي ظاهرة كانت شائعة بالغرب الإسلامي، سواء على المستوى الأفراد أو حتى على المستوى الرسمي للدولة. إذ كانت الدولة المغربية الوسطية تلجأ إلى استثمار السفن من الدول المسيحية خاصة أركون والجمهوريات الإيطالية قصد ضمان استمرار التنقل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط أو شرق المتوسط، وقد كان ذلك يتم وفق اتفاقية تحدد مدة وثمان الكراء^(٣٠).

أما الأفراد، وهم المعنيون هنا، فقد دأبوا على كراء السفن سواء من المسلمين أو النصاري، وفق اتفاقيات وعقود تضمن حقوق المكرين أو المكترين. ويحدث أن يعتمد مكتري السفينة لاستيفاء ثمن الكراء أن يتجاوز الطاقة الاستيعابية لها، وهو ما قد قضى إلى غرقها. يفيد نص ابن جبير السابق الذكر الذي أشار إلى أن ما كان يحمل أهل "عيزاب" على تكديس الحجاج والبضائع بالمراكب هو ذلك الحرص والرغبة في الكراء ليستوفي صاحبها منهم ثمنها في رحلة واحدة، مع عدم المبالاة بما قد يحمل في البحر أو ما يصنعه به^(٣١). من ذلك ما أورده ابن رشد عن رجل "حمل طعاماً من الريف في

للسفينة الواحدة، وبلغت إحدى السفن المصرية ألفاً وأربعمائة راكب^(٣٢).

أما بخصوص حمولة السفن من البضائع فقد اختلفت هي الأخرى حسب نوع المركب وحجمه، ولم تكن قارة، إذ إن هناك بعض الإشارات الرقمية تفيد بتجاوز حمولة بعض السفن ألفاً وثلاثمائة طرف وشحنات أخرى بألفين وسبعمائة طن من مواد مختلفة^(٣٣).

على أن حمولة السفن من الأشخاص والبضائع لم يكن متروكا لصاحب السفينة، بل خضع لمراقبة أولي الاختصاص والمشرفين على هذه العملية منهم المحتسب، الذي كان يحرص على عدم تجاوز المراكب والسفن الحد المقدر حملة عليها من الأفراد والبضائع، خوفاً مما قد يطرأ من الطوارئ البحرية التي تؤدي إلى غرق السفينة والذي قد يكون موضع غرر وهلاك^(٣٤).

ورغم إجراءات المراقبة من طرف المحتسب فإن ذلك لم يمنع حدوث تجاوزات لبعض أرباب السفن على حساب المسافرين، مثلما كان يقوم به أهل "عيزاب" الذين كانوا يشحنون الحجاج والمسافرين في الجلاب "حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنهم أقفاص الحجاج المملوءة يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ويقولون، عليها بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح"^(٣٥).

ثم إنه قد يحصل عارض للمركب أو السفينة المقلّة للأرواح والبضائع في عرض البحر يضطر معه ربانها إلى اللجوء إلى التخفيف من حمولتها، قصد تجنب غرق السفينة، ويشمل هذا التخفيف البضائع لا الأفراد، وقد يشمل التخفيف البضائع الموسوقة. ويحدث أن يختلف المسافرون في البضائع التي يجب أن تطرح في البحر، ففي نازلة أوردها صاحب "المعيار" أن ابن يونس سئل عن قوم كانوا قد أوسقوا مركباً بضاعتهم ومتاعهم، وحدث أن أصيبوا بالهلع والخوف من الفرق نتيجة ما حملوه من حمولة زائدة عليه، وظهر لهم ضرورة التخلي عن بعض متاعهم فاختلفوا فيمن ينزل بضاعته، فأجاب: "إن علم الأول في الوسق فإنه ينزل وسق الآخر فالآخر من حيث أخذ المركب في الوسق كان وسق من أوسق من بعد ذلك غير جائز، وإن لم يعلموا من هو أولاً وآخر فينزل من

ونافلة القول بعد استعراضنا لهذه الحالات المتسببة لغرق السفن يمكن القول بأن حادثة غرق مركب الحجاج المغاربة الواردة في "تحفة الحكام" لم تخرج عن إحدى الحالات المذكورة، وأن هذه الحادثة تكشف عن معطيات تجلي الغموض عن جانب من جوانب الحياة البحرية بالغرب الإسلامي، والإطار الفقهي المنظم لها، والذي يعطي انطباعاً على بداية صياغة قوانين يلتزم بها المشتغلون في البحر^(٣٦).

على أن هناك حوادث مشابهة أوردها ابن عاصم أبي يحيى في كتابه "جنة الرضى"، أشار فيها إلى استخدام أسارى المسلمين للتجديف في مراكب النصارى، ذكر محمد بنشرية حالة منها في مقاله، نعيد نشرها هنا لعلنا نجد فرصة للوقوف عند عناصرها، أو يتمكن أحد من الباحثين من تحليلها أو الإلمام ببعض جوانبها التاريخية والاجتماعية، يقول أبي يحيى:

"ومن التمهيص اللاحق بالأسر لفرقة من الناس، ثم تدارك الله بالفرج، ما وقع لركاب الجفن المعلوم للغاني المتروك بين العدو والأندلس - أمنهما الله - وما نفذ به القدر من استيلاء العدو البحري عليه، واستحواذه على من كان فيه من المسلمين، وهم زهاء ستين رجلاً، وتحصلهم في قبضة الكفار وربقة الأسر، وقصدهم بهم إلى مرسى قرطاجنة من بلاد صاحب قشتالة المفاتنة للقبطان برئاسة مرسية الهنشة فخرده صاحب لورقة النازع لهذا العهد لموالة المسلمين ومحاداة الكافرين، وكان هذا القبطان بحكم الوفاق قد استدعى شيخ بيرة العباس بن علي بن حميد مستمداً له، فوصل إليه إلى لورقة، ولحين سماع صاحب قرطاجنة بخبر ورود شيخ بيرة على صاحب لورقة تخيل من ذلك، وظن أن سيكون من العباس لجهته حركة، فاستدعى ربّ المركب "الغاني" للمسلمين أن ينزل بلمة من النصارى ممدداً له ليحفظ به القصبة لخلال ما يتعرف هو من خبر قدوم العباس بن حميد ما يقف فيه على جليلة قصده فساعده على ذلك ونزل من جفنه في جماعة ممن نظره من عبدة الصليب، وترك الأسرى من المسلمين في الجفن بين مصفد في وثاقه، وهم كل من توسم فيه نجدة أو كفاية من رأس أو رام من الأندلسيين، وبين متروك دون وثاق ممن اعتقد عدم غنائه من البرابر والمصامدة وغيرهم. فتتاجى

سفينة فمر بأخ له في قرية أخرى، فقال: أفي سفينتك فضل تحمل لي مائة إردب؟ قال نعم وقد كان الأول حمل فيها خمسمائة إردب فألقى قمحه من فوق طعام صاحبه فانخرق المركب فدخل الماء من أسفله فأصاب منه نحو من خمسين إردباً^(٣٧).

إن ما كانت تخلفه أكرية السفن من مسائل اقتصادية واجتماعية تتصل بمضمار الفلاحة البحرية بالغرب الإسلامي وبالنقل البحري والتجارة البحرية، دفع الفقهاء يؤلفون في ذلك تأليف فقهية مثلت إطاراً تشريعياً فيما يمكن أن نسميه "بالقانون البحري" من ذلك تأليف بن أبي فراس القروي الإفريقي من أهل القرن الرابع الهجري لكتاب وسمه "كتاب أكرية السفن"، وقيمة هذا الكتاب تتبثق من كونه أقدم المدونات الفقهية المالية في مجال تقنين المعاملات البحرية والملاحة التجارية ذات الطابع التعاقدية، جمع فيه العديد من الحكم والمسائل المتعلقة بكراء السفن واقتراضها ورهنها والشركة فيها، وهي مسائل أملت التطورات الاقتصادية والمجالية للغرب الإسلامي، وما نجم عنها من قواعد وأعراف مستجدة طرحت أمام أصحاب الخطط والدواوين، وأملت الضرورة العناية بها، ووضع مؤلفات محكمة في مختلف أوجه الكسب والمعاش المرتبطة بالبحر^(٣٨).

ولم تكن الحمولة الزائدة سبباً دائماً في غرق المراكب، بل قد يحدث أن تتطوّل الرحلة في ظروف جيدة لكن سرعان ما يعرض لها عارض كعطب المركب في البحر أو ملاقات العدو، وهي عوارض تردد صداها في كتب النوازل كثيراً، لما كانت تخلفه من مسائل وأقضية تتعلق بحقوق الكراء والمتاع المحمول عليه، من ذلك ما ورد عن محمد بن عمر الاسكندري أنه قال: "اختلف أصحابنا في المركب إذا عطب في بعض المسافة فسلم المتاع أو لم يسلم، فقال مالك وابن قاسم هو سواء ولا حق لصاحب المركب فيما جرى قليلاً كان أو كثيراً لأن أحكام البحر عند مالك وابن القاسم على البلاغ"^(٣٩).

وقد يحصل أن يكون الغرق بسبب عدم تعهد أرباب السفينة لها بعمليات الإصلاح والصيانة، وتجديد ما خرب منها أو ما أصاب أحد أجزائها، فيتحمّلوا بذلك مسؤولية تحطمها ووفاة من بها^(٤٠).

خاتمة

تبرز حادثة غرق مركب الحجاج المغاربة سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) كواحدة من النوازل الكبرى التي شكلت منعطفاً حاسماً في فقه النوازل البحرية داخل الغرب الإسلامي، وكشفت عن يقظة فقهية تجاه واقع السفر البحري ومخاطره، خاصة في سياق أداء مناسك الحج. وقد حفزت هذه الواقعة الفقهاء المغاربة والاندلسيين على إعادة النظر في كثير من الأحكام المرتبطة بالمسؤوليات، والتركات، وأموال المفقودين، مما أغنى الفقه المالكي بآراء واجتهادات رصينة، ويأتي "شرح تحفة الحكام" لأبي يحيى بن عاصم ليعكس هذا الجهد الفقهي المتفاعل مع الحوادث الواقعية، حيث لم يكتف بشرح المنظومة الأصلية لوالده، بل أغناها بإيراد النوازل والتطبيقات التي تدفع القارئ إلى مزيد من التبصر والوعي القضائي، لا سيما فيما يتعلق بفقه المفقودين في الحوادث البحرية. وهكذا، فإن هذه الحادثة لم تكن مجرد فاجعة إنسانية، بل كانت منطلقاً لتطوير آليات الاجتهاد وتوسيع آفاق النظر الفقهي في قضايا السفر والتركة والميراث، بما يضمن تحقيق العدالة ومراعاة مقاصد الشريعة والظروف.

المسلمون فيما بينهم في أعمال الحيلة في الخلاص، فأشار عليهم الرأئس المشدود الوثاق بارتقاب هبوب الريح الشرقية، وأنه إذا رأى استقامتها، فالعلامة بينه وبينهم أن يضع يده على لحيته إذ كان مقيداً لا يستطيع لنفسه حيلة، وطفق من لم يقيد من المسلمين يرتقب تلك الأمانة التي جعلوا بينهم، إلى أن هبت الريح المساعدة لهم، فوضع لهم يده على لحيته كما خرج منهم، فتبادروا إلى النصارى فعل رجل واحد، فقتلوا من حان أجله وهم الأكثر، أسروا من أبطأ به الحين، وقطعوا مراسي الجفن، ورفعوا القلع، وخرجوا قاصدين نحو المرية، فيسر الله عليهم الوصول إليها سالمين ولله الحمد، وحصلت أيديهم من أسلاب النصارى وأسلحتهم وأمتعتهم على ما أغناهم مع ثمن الجفن، ففازوا بها غنيمة باردة ساعدهم الفقه المذهبي على أن لا خمس فيها إذ كانوا أسارى، وهربوا بما قدروا عليها، ففانت خاصية الغنيمة من تعمد الخروج لإصابتها والايحاف عليها بالخييل والركاب، ودخلت تحت القسم الذي يختص به آخذ مال الكفار، وهيا الله خلاصهم من أيدي العداة بعد حصولهم في ذل اسارهم والله لطيف بعباده وهو الذي يسني لهم من جميل صنعه مالم يكن في حسابهم" (٣٧).

الإحالات المرجعية:

- (٢٠) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، بيروت، دار صادر، ب.ت، ص ٤٧-٤٨.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٢٨٣.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٣١٦-٣١٧.
- (٢٣) قدوري الطاهر، "النوازل الفقهية وتنظيم التجارة البحرية بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط"، **مجلة عصور الجديدة**، ع ١٣، ربيع ١٤٣٨هـ/٢٠١٤م، ص ٢٨.
- (٢٤) قدوري، **النوازل الفقهية وتنظيم التجارة البحرية**، ص ٢٨.
- (٢٥) المرجع نفسه، ص ٣٠.
- (٢٦) ابن عبدون، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة المحتسب**، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٩.
- (٢٧) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٤٨.
- (٢٨) الونشريسي، **المعيار**، ج ٨، ص ٣٠١.
- (٢٩) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٠٩.
- (٣٠) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٤٨.
- (٣١) قدوري، **النوازل الفقهية وتنظيم التجارة البحرية**، ص ٣٦-٣٧.
- (٣٢) ابن رشد أبو الوليد، **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في المسائل المستخرجة**، تحقيق أحمد الحبابي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج ٨، ص ٨٥.
- (٣٣) القروي أبي قاسم خلف بن أبي فراس الإفريقي، **كتاب أكرية السفن**، دراسة وتحقيق عبد السلام الجعماطي، الرباط، مطبعة الأمانة، ط ٢، ١٧، ص ٤٢.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ٨٢.
- (٣٥) الونشريسي، **المعيار**، ج ٨، ص ٣١٢.
- (٣٦) القدوري، **النوازل الفقهية وتنظيم التجارة البحرية**، ص ٤٤.
- (٣٧) بنشريعة، **نوازل غرناطية**، ص ٢٢٦-٢٢٧.

- (١) أحمد زبير، "محمد بنشريعة وتأريخ الدب العربي بالغرب الإسلامي"، **مجلة المناهل**، العدد ١٠٢، يونيو ٢٠٢١، ص ٣٥٢.
- (٢) المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩م، ص ١٤٥.
- (٣) أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المالكي، **شرح ميارة الفاسي على تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام**، ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٨.
- (٤) القيسي أبي يحيى محمد بن عاصم الاندلسي، **شرح على تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام**، مخطوط خزانة الجامع الكبير، مكناس، رقم الكتاب ٢٧٨، ص ٢.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٣.
- (٦) بنشريعة محمد، "نوازل غرناطية لابن عاصم الإبن"، **ضمن التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب**، ص ٢١٧.
- (٧) انظر: تلك المدائح عند المقري التلمساني، **أزهار الرياض**، ص ١٩٥ وما بعدها.
- (٨) بنشريعة، **نوازل غرناطية**، ص ٢١٩.
- (٩) أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى**، تحقيق صلاح جزار، دار البشير، المجلد ١، ١٩٨٩، ص ٤٩.
- (١٠) بنشريعة، **نوازل غرناطية**، ص ٢١٩.
- (١١) المرجع نفسه، ص ٣٢١.
- (١٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٢.
- (١٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٢.
- (١٤) المرجع نفسه، ص ٢٣٣.
- (١٥) الصمدي مصطفى، "نوازل البحر في فتاوي المغاربة"، **الكتاب السنوي لأعمال مختبر السرديات والخطابات الثقافية**، الدار البيضاء، منشورات جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، العدد ٣، ٢٠١٢، ص ١٩٩.
- (١٦) بنشريعة، **نوازل غرناطية**، ص ٢٢٥.
- (١٧) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، **المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والاندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١م، ج ٤، ص ٤٩١-٤٩٢.
- (١٨) بنحمادة سعيد، "الوثيقة التعليمية بالاندلس والمغرب خلال العصر الوسيط الإطارات انموذجا"، **ضمن سؤال الوثيقة في التراث الأندلسي والأرشيف الإسباني**، مكناس، مطبعة مرجان، ط ١، ٢٠١٩، ص ١٥٥.
- (١٩) الطاهري أحمد، "طبقة العامة في المجتمع الإسلامي الوسيط: إمكانية البحث من خلال النموذج الأندلسي"، **ضمن جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة الندوات، المحمدية، مطبعة فضالة، ١٩٩١، ص ٦٧-٦٨.

رمزية اقتناء الحيوانات المفترسة في قصور الحكام الأسد «زريق» نموذجاً في عهد خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ / ٨٨٣ - ٨٩٥ م)

أ.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد - هولندا



مُلخَص

يهدف هذا البحث إلى دراسة الرمزية الحيوانية في قصر خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون، من خلال تحليل ظاهرة اقتناء الأسد «زريق» في إطارها التاريخي والثقافي والنفسي، وفق المنهج الرمزي التحليلي الذي يجمع بين قراءة النصوص التراثية وتأويل بنيتها الدلالية. ينطلق البحث من فرضية أن تربية خُمارَوَيْه للحيوانات المفترسة، وعلى رأسها الأسد زريق، لم تكن مظهرًا من مظاهر الترف السلطاني فحسب، بل خطابًا رمزيًا عن السلطة والخوف والسيطرة على الطبيعة. وقد تمّ توثيق المادة التاريخية في عدد من المصادر الأصلية، مع تحليل مقارنة للروايات المتعددة التي تناولت مشهد "دار السباع" ووظيفة الأسد في الحراسة والهيبة. وفي ضوء التحليل الرمزي والنفسي، تكشف الدراسة أن الأسد زريق مثل "الذات السلطوية المروضة"، رمز القوة التي تخضع، والحماية التي لا تمنع السقوط، والهيبة التي تنقلب إلى هشاشة أمام القدر. كما يتبع البحث التلقي اللاحق للرمز في الكتابات الحديثة ليظهر كيف تحوّلت القصة من حدث تاريخي إلى سرد ثقافي متجدّد يعبر عن تصور المصريين للسلطة والوفاء والموت. وتخلص الدراسة إلى أن العلاقة بين خُمارَوَيْه وزريق لم تكن علاقة مالك بمخلوق، بل علاقة إنسان بمرمه، وأن التاريخ حين يُقرأ رمزيًا يكشف عن أعماق لم تكن تُرى في الوقائع، بل في دلالاتها.

كلمات مفتاحية:

خُمارَوَيْه؛ الأسد زريق؛ الدولة الطولونية؛ الرمزية السلطانية؛ التاريخ
النفاسي؛ دار السباع؛ الترف والقر

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣٠ يونيو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.472060

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أشرف صالح محمد سيد، "رمزية اقتناء الحيوانات المفترسة في قصور الحكام: الأسد «زريق» نموذجاً في عهد خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ / ٨٨٣ - ٨٩٥ م)". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون: ديسمبر ٢٠٢٥. ص ٤٣ - ٦٣.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: ashraf-salih@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

شكّل العصر الطولوني في مصر (٢٥٤-٢٩٢ هـ / ٨٦٨-٩٠٥ م) مرحلة فريدة في التاريخ الإسلامي الوسيط، حيث ظهرت فيه أول تجربة حكمٍ مستقل عن الخلافة العباسية،^(١) اتخذت من مصر مركزاً لسلطة محلية ذات طابع سياسي وحضاري مميز. وفي ظل هذا الازدهار، بلغ عهد خُمَارَوَيْه بن أحمد بن طولون (٢٧٠-٢٨٢ هـ / ٨٨٣-٨٩٥ م) ذروة الترف^(٢) والبذخ المعماري والفني، حتى غدت قصوره وحدائقه^(٣) ومواكبه ميداناً لعرض رمزية السلطان ومظاهر القوة. ومن أبرز ما ارتبط بسيرة خُمَارَوَيْه في المصادر التاريخية والأدبية قصة الأسد «زُريق»، الحيوان المفترس الذي اتخذهُ خُمَارَوَيْه رفيقاً في قصره، وحارساً شخصياً له في نومه، وهي ظاهرة تبدو في ظاهرها طرافة فردية، لكنها في جوهرها تعبّر عن رمزية القوة والهيبة السلطانية، وعن علاقة الحاكم بالوحش بوصفها استعارة للسلطة ذاتها.

الإطار المنهجي للبحث

١- مشكلة البحث

على الرغم من ورود ذكر الأسد زُريق في عدد من المصادر التراثية الأصلية، وفي كتابات حديثة متعددة، فإن الظاهرة لم تُدرس بوصفها نموذجاً رمزياً لتمثّل القوة السياسية في الثقافة الإسلامية الوسيطة. وتكمن مشكلة البحث في محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما الدلالات الرمزية والسياسية والنفسية لاقتناء خُمَارَوَيْه للأسد زُريق؟
- كيف يعكس هذا السلوك صورة السلطة في مصر الطولونية؟
- هل كان وجود الحيوان المفترس في القصر مجرد ترف، أم تجسيدا لسلطة رمزية تمارس عبر الحيوان؟
- كيف تعامل المؤرخون والكتّاب مع هذه الظاهرة بين التسجيل التاريخي والتأويل الأخلاقي والرمزي؟

٢- أهداف البحث

- تحليل روايات المصادر التاريخية والتراثية عن الأسد زُريق في ضوء السياق السياسي والاجتماعي لعصر خُمَارَوَيْه.
- الكشف عن رمزية الحيوان المفترس في بناء صورة الحاكم وهيبته.
- إبراز العلاقة بين ثقافة الترف السلطاني والتمثيل الرمزي للسلطة عبر الحيوان.
- تتبع تطور صورة خُمَارَوَيْه والأسد من الخبر التاريخي إلى الرمز الثقافي في الذاكرة اللاحقة.

٣- أهمية البحث

- تتجلى أهمية هذا البحث في النقاط الآتية:
- يعيد قراءة شخصية خُمَارَوَيْه بن أحمد بن طولون من منظور ثقافي رمزي جديد، بعيداً عن المقاربات السياسية والاقتصادية التقليدية.
- يقدم فهماً جديداً للسلطة في العصور الوسطى من خلال استعارة "الوحش المروّض"، بوصفها تجسيدا لعلاقة الإنسان بالقوة والسيطرة.
- يساهم في توظيف التحليل الرمزي في الدراسات التاريخية الإسلامية، ويقترح مقاربة عابرة للتخصصات بين التاريخ، وعلم الرموز، والأنثروبولوجيا الثقافية.

٤- فروض البحث

ينطلق هذا البحث من فرضية أساسية مفادها أن اقتناء خُمَارَوَيْه للأسد زُريق ليس ظاهرة طريفة أو عرضية، بل هو تمظهر رمزي للسلطة السياسية والثقافة السلطانية في مصر الطولونية، حيث يجتمع الترف، والهيبة، والخوف في صورة "الأسد الحارس". وتحليل هذا النموذج في ضوء الروايات التاريخية والتراثية، يمكن الكشف عن الرمز العميق للوحش المروّض كصورة للسلطة التي تملك القوة، ولكن تخشى فقدان السيطرة.

٥- حدود البحث

النطاق الزمني: يقتصر هذا البحث على دراسة الفترة الممتدة بين عام (٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) وهو العام الذي

تحمله من أبعاد فكرية وسيكولوجية، دون الخوض في الدراسات البيولوجية أو الأثرية المتخصصة في علم الحيوان أو العمارة. وبذلك تظل الحدود الموضوعية للبحث منحصرة في المستوى الرمزي والثقافي للتحليل، بوصفه المجال الذي يُبرز أعماق معاني العلاقة بين الحاكم ورمزه الحيواني في الثقافة الإسلامية الوسيطة.

٦- منهج البحث

اعتمد البحث على «المنهج التاريخي التحليلي الرمزي»، الذي يقوم على الجمع بين تحليل النصوص الأصلية واستنباط دلالاتها الرمزية والثقافية. ويشمل هذا المنهج:

- التحليل التاريخي لتتبع الرواية في مصادرها الأصلية ومقارنة صيغها.
- التحليل الرمزي التأويلي لفهم العلاقة بين الحاكم والحيوان في سياقها الثقافي والنفسي.
- التحليل المقارن لبيان تطور تمثّل الحادثة بين المصادر التراثية والدراسات والكتابات الحديثة.

الإطار النظري للبحث

يقوم هذا البحث على توظيف التحليل الرمزي لفهم سلوك تاريخي ورد في المصادر التراثية ضمن سياق سياسي محدد، هو علاقة حُمارويّ بن أحمد بن طولون بالحيوان المفترس (الأسد زريق). ولأن التاريخ لا يُسجل بوصفه وقائع جامدة فحسب، بل بوصفه بنية رمزية وثقافية تعبّر عن رؤية المجتمع للسلطة والقوة، فإن هذا البحث يستند إلى منطلقات التحليل الرمزي في العلوم الإنسانية، ولا سيما كما تطورت في علم الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الرموز (Symbolism) والدراسات التأويلية (Hermeneutics). يُنظر إلى الحيوان هنا لا ككائن بيولوجي، بل كعلامة دالة على تصورات السلطة والهيبة والخوف، وهو ما يجعل من الأسد -في قصور الملوك- مرآة رمزية للحاكم نفسه (قوته، وحدته، وقدرته على السيطرة)، بل وهشاشته أحياناً أمام القدر.

تولّى فيه حُمارويّ بن أحمد بن طولون الحكم خلفاً لوالده مؤسس الدولة الطولونية، وعام (٢٨٢هـ / ٨٩٥م)، وهو العام الذي انتهى فيه حكمه بوفاته في دمشق. ويمثّل هذا الإطار الزمني مرحلة الذروة في الترف السلطاني والتمثيل الرمزي للسلطة الطولونية، وهي المرحلة التي شهدت ظهور ظاهرة اقتناء الحيوانات المفترسة في القصر، وعلى رأسها الأسد زريق، كأحد رموز الهيبة والسلطة المروّضة.

ولا يتجاوز البحث هذه الفترة إلى عصور تالية، لأن المقصود هو تحليل الرمز في سياقه التاريخي الأصلي قبل أن يتحوّل في الذاكرة اللاحقة إلى دلالات ثقافية وأدبية.

النطاق المكاني: ينحصر النطاق المكاني للبحث في مدينة القطائع -العاصمة التي أنشأها أحمد بن طولون وجعلها مقرّ الحكم الطولوني- باعتبارها الفضاء المعماري والسياسي الذي تشكّل فيه المشهد السلطاني لحُمارويّ، وبرزت فيه "دار السباع" بوصفها جزءاً من البنية الرمزية للقصر. ويمتد التحليل إلى دمشق فقط بالقدر الذي يرتبط بحدث مقتل حُمارويّ، لتوضيح المفارقة الرمزية بين الحاكم ورمزه الحيواني الذي ظلّ بمصر، كما يرد في المصادر التراثية. ولا يتناول البحث سوى ما يتّصل بهذه المواقع من نصوص أو إشارات وردت في المصادر التاريخية، دون التوسّع في المقارنة الجغرافية مع بلاطات أخرى في المشرق أو الغرب الإسلامي.

الحدود الموضوعية: يقتصر هذا البحث على دراسة رمزية اقتناء الحيوان المفترس في قصور الحكّام من خلال نموذج واحد هو الأسد زريق في عهد حُمارويّ بن أحمد بن طولون، بوصفه حالة فريدة تجمع بين الدلالة السياسية والنفسية والثقافية. ولا يتناول البحث تاريخ الدولة الطولونية أو مؤسساتها السياسية والعسكرية إلا بالقدر الذي يخدم تحليل الظاهرة الرمزية، كما لا يهدف إلى دراسة جميع الحيوانات التي وُجدت في القصر الطولوني، بل يركّز على زريق تحديداً لما اكتسبه من حضور خاص في المصادر التراثية، ولما يمثّله من نموذج رمزي للسلطة المروّضة. ويمتد التحليل ليشمل تجليات الرمز الحيواني في النصوص التراثية والحديثة، وما

١- غياب الدراسات السابقة المباشرة

من خلال مراجعة دقيقة للمصادر التاريخية والمراجع الأكاديمية الحديثة التي تناولت الدولة الطولونية وخُمارويّ بن أحمد بن طولون، وخصوصاً الأطاريح الجامعية، والدراسات الحضارية، والبحوث المتخصصة في الحيوان في الحضارة الإسلامية، يتبين أن جميع هذه الدراسات تناولت خُمارويّ في أبعاده السياسية والعمرانية والثقافية، دون أن تتناول رمزية الحيوان المفترس في بلاطه أو دلالتها الرمزية للسلطة. لم يُعثر - بحسب البحث في الدوريات العربية والدولية الأجنبية - على أي دراسة متخصصة تتناول الأسد زُريق أو رمزية الحيوان في الحكم الطولوني، مما يجعل هذه الدراسة الأولى التي تحاول قراءة الظاهرة قراءة رمزية ثقافية تحليلية، مستندةً إلى النصوص التراثية الأصلية والمصادر الحديثة التحليلية.

١/١- الدراسات العربية

شهدت الدراسات العربية حول الدولة الطولونية اهتماماً ملحوظاً بتاريخ خُمارويّ بن أحمد بن طولون من الجوانب السياسية والإدارية والعمرانية، غير أن هذه الدراسات لم تتناول ظاهرة اقتناء الحيوان المفترس أو الرمز الحيواني في القصر الطولوني بوصفها موضوعاً مستقلاً أو ظاهرة رمزية ذات دلالات نفسية وثقافية.

فقد تناولت أطروحة أماني كارم سعد "الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد خُمارويّ"^(٤)، مشيرةً إلى الترف المادي والبذخ المعماري دون تحليل دلالاته الرمزية. كما تناولت نعيمة عاشور المصراي في أطروحتها "الدولة الطولونية في مصر والشام"^(٥) البناء الإداري والعسكري دون التوقف عند البنية الرمزية للسلطة. ووسّعت هيلة القصير في دراساتهما "أثر المصاهرة في تطور العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الطولونية"^(٦)، وإيمان مصطفى عبد العظيم في دراستها "استراتيجيات مواجهة العداء السياسي وتطورها عند الخليفة المعتضد وخُمارويّ"^(٧) النقاش حول المصاهرة السياسية والعلاقات مع الخلافة العباسية، بينما درست منيرة القحطاني "التطور

الحضاري في عهد الطولونيين" من منظور عمراني وثقافي عام.^(٨)

ومن ثمّ يمكن القول، إن الدراسات العربية على أهميتها التوثيقية ظلّت أسيرة المقاربة التاريخية التقليدية التي تصف مظاهر الترف دون تأويلها، ولم تنفذ إلى البنية الرمزية أو النفسية للسلطة في عهد خُمارويّ، الأمر الذي يسعى هذا البحث إلى معالجته من خلال منهج رمزي - تحليلي يربط بين النص التراثي والدلالة الثقافية.

٢/١- الإنتاج الفكري الغربي

حرص الباحث على إجراء مسح علمي شامل للإنتاج الغربي المتعلق بموضوع الدراسة، وذلك بالبحث في عدد من قواعد البيانات الأكاديمية الدولية مثل:

JSTOR, ProQuest Dissertations & Theses, EBSCO Host, Google Scholar, Oxford Academic, Brill Online, Academia.edu.

وقد أظهرت نتائج هذا المسح أنه لم يُعثر على أي دراسة علمية منشورة باللغة الإنجليزية أو الفرنسية تُعالج بشكل حصري ومفصّل قصة الأسد "زُريق" في بلاط خُمارويّ بن أحمد بن طولون، أو تتناول موضوع تربية الحيوانات المفترسة في قصور الحكّام الإسلاميين بوصفها ظاهرة رمزية أو نفسية مستقلة.

وإن وُجدت إشارات جزئية،^(٩) فهي لا تتجاوز التلميح إلى ملامح الترف السلطاني أو العمارة الطولونية دون تحليل رمزي أو ثقافي معمّق. وبناءً على ذلك، يمكن القول إن الإنتاج الفكري الغربي في هذا المجال لا يزال يعاني من فراغٍ بحثي واضح، الأمر الذي يمنح هذه الدراسة قيمة علمية مضافة، إذ تُعدّ - بحسب ما تبينه نتائج المسح - أول محاولة أكاديمية تتناول الظاهرة من منظور رمزي تحليلي متكامل، مع توظيف متوازن للمصادر التراثية الأصلية والدراسات الحديثة.

٢- الإطار المفاهيمي للتحليل الرمزي

يُعدّ الرمز (Symbol) في المنظور التأويلي بناءً ثقافياً يُجسّد فكرةً مجردة في صورة حسية، فيتحوّل الحيوان المفترس في هذا السياق إلى تمثيل مجازي للسلطة. وقد اتخذت الحضارات القديمة - المصرية والفارسية واليونانية - الأسد رمزاً للسيادة،^(١٠) وهذا

هذه الأدوات النظرية توظف في قراءة المصادر التراثية قراءة مزدوجة:

- بوصفها نصوصاً تاريخية تسجل الحدث.
- ونصوصاً رمزية تعبّر عن رؤية العصور الوسطى لمفهوم القوة.

أولاً: الإطار التاريخي والسياسي لعصر خُمَارَوَيْه بن أحمد بن طولون

١/١- مصر في القرن الثالث الهجري

(من الولاية العباسية إلى الحكم الطولوني المستقل)

شهد القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) تحولات كبرى في النظام السياسي العباسي، أبرزها تصاعد النزعة الإقليمية لدى الولاة في أطراف الدولة، خصوصاً في مصر والشام، حيث ضعفت قبضة الخلافة المركزية بفعل هيمنة العناصر التركية على السلطة في بغداد،^(١٧) وما رافق ذلك من اضطراب سياسي ومالي. في هذا المناخ ولدت الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ على يد أحمد بن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠هـ / ٨٣٥ - ٨٨٣م)،^(١٨) الذي استطاع أن يرسّخ في مصر نواة استقلال سياسي فعلي مع الحفاظ الشكلي على التبعية الاسمية للخلافة.^(١٩)

اتسم هذا الاستقلال بنظام إداري وعسكري قوي،^(٢٠) وبمشروعات عمرانية ضخمة،^(٢١) مثل تأسيس مدينة القطائع في (شعبان ٢٥٦هـ / أغسطس ٨٧٠م)^(٢٢) التي صارت عاصمة جديدة للدولة المصرية المستقلة،^(٢٣) وكان من أبرز معالمها الأثر الذي خلّد اسم ابن طولون وهو "جامعه"، الذي يُعدّ رمز سياسي يمثل قوة الدولة وتوجهاتها وسلطة ابن طولون.^(٢٤) وقد أرسى ابن طولون تقاليد الحكم الذاتي، مؤسساً لأول مرة لمفهوم السلطة الوراثية الإقليمية داخل الكيان الإسلامي العام.^(٢٥) إن هذه النقلة من ولاية تابعة إلى إمارة ذات سيادة نسبية، أوجدت طبقة حاكمة جديدة تمتلك الثروة والجيش والشرعية المحلية. وهي الطبقة التي سينتمي إليها خُمَارَوَيْه لاحقاً، وسيجد نفسه وريثاً ليس فقط لسلطة والده، بل لرمزية مصر المستقلة بوصفها مملكة داخل الخلافة.^(٢٦)

الامتداد الثقافي يُمكننا من فهم الاستعارة السياسية في سلوك خُمَارَوَيْه.

الأسد في الموروث العربي والإسلامي رمز الشجاعة والقيادة، كما ورد في الشعر والحديث واللغة.^(١١) وبناءً على ذلك، فإن اختيار خُمَارَوَيْه لهذا الحيوان رقيقاً له لم يكن مصادفة، بل يمثل إعادة تمثيل رمزي للقوة ضمن الفضاء السلطاني.

تشير النظريات الحديثة في فلسفة السلطة (ميشيل فوكو ١٩٢٦ - ١٩٨٤، ونوربيرت إلياس ١٨٩٧ - ١٩٩٠)^(١٢) إلى أن ممارسة السيطرة لا تكتمل إلا عبر "رموز الهيمنة" التي تذكر المحكومين بقوة الحاكم. ويمثل الحيوان المروّض في القصر أحد هذه الرموز، لأنه يجسد السلطة المروّضة للطبيعة والوحش معاً.

علاقة الحاكم بالحيوان المفترس علاقة مزدوجة، فهو رمز الأمان والقوة من جهة، لكنه أيضاً تذكير بالموت والخطر الكامن. وهذا ما تكشفه الروايات التراثية حين يموت خُمَارَوَيْه بعيداً عن زُرّيق، فيفقد بذلك رمزه الحامي، فتتحقق المفارقة الرمزية الكبرى بين القوة والمصير.

٣- الأسس النظرية المعتمدة في التحليل

يستند التحليل في هذا البحث إلى مجموعة من المفاهيم النظرية المترابطة:

المجال	المرجعية النظرية	التطبيق في البحث
الأنثروبولوجيا الرمزية	كليفورد جيرتز Clifford Geertz (1926 - 2006), <i>Interpretation of Cultures</i> . ⁽¹³⁾	قراءة السلوك السلطاني كنسق من الرموز الثقافية.
الدراسات التأويلية	بول ريكور Paul Ricoeur (1913 - 2005), <i>The Symbolism of Evil</i> . ⁽¹⁴⁾	تأويل الحيوان كرمز للسلطة والخطيئة معاً.
علم الاجتماع السياسي	نوربيرت إلياس Norbert Elias (1897 - 1990), <i>The Civilizing Process</i> . ⁽¹⁵⁾	ترويض الحيوان كصورة لترويض العنف ضمن النظام السلطوي.
فلسفة السلطة	ميشال فوكو Michel Foucault (1926 - 1984), <i>Discipline and Punish</i> . ⁽¹⁶⁾	الحيوان كأداة تمثيلية لإنتاج الهيبة والخضوع.

٢/١- خُمارَوِيَّة وريث أحمد بن طولون^(٢٧)

(من الحكم العسكري إلى الترف السلطاني)

ومن الناحية النفسية، تعكس هذه الممارسات ما يمكن تسميته بـ "ثقافة القوة المسرحية"، حيث تصبح القصور والبساتين وحدائق السباع^(٢٦) مسرحاً رمزياً لإعادة إنتاج صورة السلطان في وعي النخبة والعامّة. فالأسد في حضرة خُمارَوِيَّة ليس كائنًا حيوانياً فحسب، بل رمز للسلطة المتجلية في المظهر الحيواني للقوة.

٤/١- القطائع

(عاصمة الهيئة السلطانية وفضاء القوة الرمزية)

تمثل مدينة القطائع التي أسسها أحمد بن طولون وأعاد خُمارَوِيَّة تزيينها ذروة التجربة العمرانية السلطانية في مصر الطولونية. فقد صُممت لتكون عاصمة موازية للفسطاط، تفصل بين طبقات المجتمع وتُبرز مكانة الطبقة الحاكمة^(٢٧). كانت القصور، والبساتين، وبيوت السباع^(٢٨) جزءاً من بنية رمزية أعمق تهدف إلى جعل المدينة نفسها تمثيلاً للقوة والسيطرة والتنظيم.

من هذا المنطلق، يمكن قراءة القطائع كـ "نص عمراني" يجسّد رؤية الحاكم لنفسه كمنظّم للعالم، في حين يمثل "الأسد زُرّيق" في قلب هذا العالم الرمز الأكثر كثافة ودلالة، كائن حيّ يجسّد القوة المطلقة، لكنه في الوقت ذاته أليف، مطيع، مُروّض، أي إنه صورة مثالية للسلطة الممزوجة بالرهبة والدهشة.

وعليه، يمكن القول إن البيئة السياسية والاجتماعية التي نشأ فيها خُمارَوِيَّة جعلت من اقتناء الحيوان المفترس جزءاً من مشهد السلطة ومكوّنًا من مكونات "اللغة السياسية" للحكم الطولوني. فالأسد زُرّيق لم يكن تفصيلاً عرضياً في حياة خُمارَوِيَّة، بل نتاجاً طبيعياً لمرحلة تاريخية استبدلت القوة الفعلية بالقوة الرمزية، والسيف بالعروض، والجيش بالبلاط. لقد مثّل زُرّيق وجهاً آخر لسلطان خُمارَوِيَّة، "ظلّ الحاكم" الذي يراقب وينذر، ويجسّد في حضوره المهيب حضور القوة في غياب الفعل السياسي. ومن هنا تتبع رمزيته النفسية والسياسية، بوصفه انعكاساً لمجتمع يعيش التوازن الدقيق بين الرعب والجمال، الترويض والانفلات، وبين الإنسان والوحش.

تولى خُمارَوِيَّة الحكم سنة ٢٧٠ هـ وهو في العشرين من عمره^(٢٨)، في لحظة بلغت فيها الدولة الطولونية ذروة قوتها. ورث عن أبيه جيشاً منظماً، وثروة هائلة بلغت من السعة ما جعله يملك آلاف الممالك والخيول والمراكب^(٢٩). غير أن هذا الثراء، بدل أن يكون مصدر تماسك، تحول إلى أساس في نمط سلطاني جديد قوامه البذخ والترف^(٣٠). تميّز خُمارَوِيَّة عن والده بانجذابه إلى المظاهر الجمالية والترف المفرط، فأعاد صياغة مفهوم "القوة" في دولته؛ إذ لم تعدّ القوة العسكرية وحدها كافية لتثبيت السلطان، بل أُضيف إليها الاستعراض الجمالي للهيئة السلطانية.

تجلّى ذلك في تشييد القصور والبساتين والبرك المذهبة^(٣١) وفي إنشاء "دار السباع" التي احتوت عشرات الأسود والنمور والفهود^(٣٢). وكان الأسد "زُرّيق" أبرز رموز هذا الاستعراض، ليس مجرد حيوان حراسة، بل صورة رمزية للسلطان ذاته في القوة، والهيئة، والسيطرة على الوحش. بهذا الانتقال من "قوة الجند" إلى "هيئة القصر"، تحوّل البلاط الطولوني في عهد خُمارَوِيَّة^(٣٣) إلى فضاء مزدوج يجمع بين الانضباط العسكري والمخيلة الفنية، وهو ما أضفى على السلطة طابعاً تمثيلاً استعراضياً.

٣/١- البلاط الطولوني

(بين العسكرية والبذخ الحضاري)

ظلّ الجيش ركيزة السلطة الطولونية، لكنّ البلاط في عهد خُمارَوِيَّة^(٣٤) تجاوز الإطار العسكري إلى بناء هوية سلطانية قائمة على التمايز الاجتماعي والثقافي. فقد شكّل القصر الطولوني نموذجاً للترف المتقن والتنظيم الفخم، حيث تتعايش السباع الأليفة مع الرقيق^(٣٥) وتروّض الوحوش كما تروّض الجموع. في هذا المشهد، لم يكن اقتناء الحيوانات المفترسة ترفاً فارغاً، بل وسيلة لتأكيد السيطرة الرمزية على الطبيعة والبشر معاً. فالحاكم الذي يروض الأسد ويجعله حارساً لفراشه، إنما يرسل رسالة ضمنية إلى رعيته وجنده بأنه المروّض الأكبر للوحش والإنسان على السواء.

ثانيًا: وصف دار السباع والأسد زريق في المصادر التراثية

١/٢- دار السباع في الخطط المقرزية

(البنية العمرانية والتنظيم الداخلي)

يقدم تقي الدين المقرزي (ت. ٨٤٥هـ) في كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" أحد أكثر الأوصاف تفصيلاً ودقة لدار السباع التي أقامها خمارويه في قصره بالقطائع. يصورها المقرزي بوصفها منشأة هندسية محكمة التنظيم، بُنيت لتحتوي على بيوت مستقلة لكل سبع ولبؤته، ولكل بيت باب يُفتح من أعلاه بحيلة ميكانيكية، وطاقة صغيرة يدخل منها السائس لتنظيف المكان، وتجديد الرمل وتقديم الطعام. ويذكر أن في كل بيت حوضاً من رخام يصب فيه الماء من ميزاب نحاسي، وأن البيوت كلها تفتح على قاعة فسيحة مفروشة بالرمل، فيها حوض رخامي كبير تُطلق إليها السباع في أوقات معينة "تَلْعَبُ وَتَهَارِشُ بَعْضُهَا بَعْضاً" قبل أن تعود كلٌّ إلى مسكنه في المساء.^(٣٩)

يبدو من هذا الوصف أن خمارويه لم يُنشئ "داراً" للوحوش" بمعناها الفوضوي، بل نظاماً بيئياً مصغراً للسلطة ذاتها؛ فكل سبع له مكانه المحدد، وطعامه الموزون، وساعته المعلومة. إنها تراتبية رمزية تعكس تنظيم الدولة الطولونية نفسها، حيث يحتل كل فرد مرتبته داخل بنية هرمية صارمة يقف الحاكم على رأسها كما يقف الأسد في القمة. السباع في هذا السياق ليست مجرد زينة، بل مجاز للسلطة المنظمة، قوة مكبوتة داخل نظام محكم، تُطلق أحياناً للعرض والاستعراض، ثم تُستعاد إلى الأقفاص، كما تُدار الجيوش أو تُؤدب الرعية.

٢/٢- تفاصيل التدريب اليومي

للأسود والفهود والنمور

كان خمارويه قد بنى لكل نوع من الحيوانات داراً له، فكان له دار للسباع، وللنمور دار خاصة بها، وللفهود دار.^(٤٠) تؤكد المصادر على أن خمارويه أرسى نظاماً دقيقاً لتدريب السباع في قصره. فالسائس كان يرفع الباب من أعلاه فيخرج السبع إلى القاعة، ثم يعود بعد

التنظيف فيناديه فيدخل طائعاً. وكان هذا النظام يُكرَّر حتى ألفت السباع طريقتها المنتظمة في الدخول والخروج.^(٤١) وتشير هذه التفاصيل إلى أن السباع خضعت لتدريب قائم على العادة والانضباط، بحيث أصبحت تمارس حركتها في انتظام يشبه حركة الجند في معسكراتهم. بل إن بعض الروايات تذكر أن أنثى الأسد (الببؤة) كانت تعرف وقت خروجها للعب وعودتها إلى حجرتها.^(٤٢)

بهذا تتحول عملية تدريب الحيوانات المفترسة إلى مرآة للانضباط السلطوي؛ فالحاكم الذي ينجح في تنظيم سلوك الوحوش يبرهن على أنه المسيطر على الفوضى الطبيعية كما يسيطر على البشر. ويُستشف من هذا النظام أن خمارويه كان يرى في "ترويض الحيوان" نموذجاً لترويض الدولة ذاتها، أي أن المشهد الحيواني في القصر هو تمثيل مصغر للسلطة السياسية الكبرى.

٣/٢- وصف الأسد زريق

(الشكل، السلوك، العلاقة بخمارويه)

يقدم المقرزي (ت. ٨٤٥هـ) وابن تغري بردي (ت. ٨٧٤هـ) وصفاً متقارباً للأسد "زريق"، فيقولون إنه كان أزرق العينين، مستأنساً لا يؤذي أحداً، وأن خمارويه كان يجلسه إلى جانبه عند المائدة، فيرمي له قطع الدجاج واللحم بيده، وأنه إذا نام الحاكم ربح زريق بين يديه يحرسه طوال الليل، فلا يجروُ أحد على الاقتراب منه،^(٤٣) "وإذا نام ربح بين يدي سريره يراعيه نظره حتى يَنبَتِه، خَوْفاً مِمَّنْ يَعَالُهُ".^(٤٤) ويضيف المقرزي تفصيلاً ذا دلالة رمزية نادرة، وهو أن في عنق زريق "طوقاً من ذهب"، وأنه ظلّ ملازماً لخمارويه حتى سافر الأخير إلى دمشق حيث قُتل^(٤٥) بعيداً عن أسده، "وليس عنده سبعة زريق لغيبته عن مصر. فذبحوه وفروا"^(٤٦) فكان في غيابه "ليعلم أنه لا يُغني حذر من قدر".^(٤٧)

هذا الطوق الذهبي، في قراءتنا الرمزية، ليس مجرد حلية، بل إشارة إلى الترويض الكامل للقوة، فالذهب رمز الملك والسلطة، وحين يُطوق به الأسد يصبح تجسيداً للقوة المقيّدة بالنظام السلطاني.

أما مرافقة زريق لخمارويه في النوم، فتتمثل من الناحية النفسية تجسيداً لغرور الحاكم وقلقه في أن

لصب الماء، بالإضافة إلى القاعة الفسيحة المفروشة بالرمل، يعكس النص اهتماماً دقيقاً بالتخطيط العمراني ورفاهية المكان. هذه التفاصيل تكشف عن البنية المادية للمكان وتوفر صورة واضحة عن كيفية تنظيمه.

العناصر العمرانية والواقعية في النص تتمثل في وصف البيوت بأنها مبنية من الحجر، مخصصة لكل سبع وليؤتته. هذا التصميم يعكس دقة في تخصيص المساحات بشكل يتناسب مع الاحتياجات الحيوانية. الأبواب التي تفتح من الأعلى بحركات خاصة تشير إلى درجة من الابتكار في تصميم النظام الحيواني داخل القصر، حيث يلاحظ أن دخول وخروج السباع كان يتم بطريقة منظّمة ومتقنة. الحوض الرخامي مع الميزاب من النحاس لصب الماء يعكس جودة البناء ورعاية دقيقة للمكان، بما يتماشى مع رفاهية المكان وأهدافه العملية. وأخيراً يتم تحديد دور السّواس في تنظيم بيئة السباع، سواء في تنظيف البيوت أو في تقديم الطعام، مما يعكس درجة من التنظيم والترتيب في إدارة حياة هذه السباع.

النص يعكس أيضاً نموذجاً للسلطة المنظّمة والترّف الحضاري في الدولة العباسية أو في سياق خمارويه. يتم تقديم هذا النموذج من خلال التنظيم الدقيق للسباع وطعامها ومكانها يعكس فكرة النظام والسلطة التي تدير حتى أصغر تفاصيل الحياة اليومية، وهو انعكاس للسلطة التي تتمتع بها الطبقات الحاكمة. ثم تقديم الطعام بعناية، واستخدام الأحواض الرخامية، ومراعاة التفاصيل الصغيرة مثل تغيير الرمل وتقديم اللحم المقطّع بدقة، كلها تشير إلى درجة من الترف المترتب على النظام الإداري المعمول به. كما أن الاعتناء بالسباع بهذه الطريقة، من خلال تخصيص بيئات معمارية محكمة، يعكس مستوى من الرفاهية وتقدير القوة الحيوانية في سياق حياة البلاط، وهو تعبير عن الترف الحضاري الذي كان سائداً في تلك الحقبة.

إذن، نص المقرئ لا يقدم مجرد سرد عن الحياة الحيوانية في القصر، بل يربط بين النظام العمراني والترّف الحضاري، ويظهر كيف كانت السلطة تستند إلى تنظيم معقد ودقيق حتى في أبسط التفاصيل، مثل رعاية السباع. هذا يعكس كيف كان الترف الحضاري في

واحد؛ إنه يطلب الأمان من خطرٍ مستأنس، من وحشٍ قد يفترسه لو انفلت. فالأسد هنا صورة الظل السلطوي الذي يعكس طبيعة الحاكم، مزيج من الخوف والرغبة في السيطرة.

٤/٢-المقارنة بين الروايات

(الواقعية، التوثيقية، الرمزية)

المصدر	الطابع السائد	زاوية التناول	الدلالة الرمزية
المقرئ (ت. ٨٤٥هـ)	واقعية عمرانية	يصف البنية المادية بدقة: البيوت، الأبواب، الأحواض، نظام السّواس.	دار السباع نموذج للسلطة المنظّمة والترّف الحضاري.
ابن تغري بردي (ت. ٨٧٤هـ)	توثيقية سرديّة	يسرد الوقائع بتسلسل إداري: كيف تُقدّم اللحوم، وكيف تُدرّب السباع.	يربط بين النظام الحيواني والنظام الإداري للدولة.
ابن الشارعي (ت. ٦١٥هـ)	رمزية وعظية	يورد قصة السبع الذي لم يؤذ الشيخ بنان حين ألقاه خمارويه عليه.	الأسد يتحول إلى رمز للهيبة الإلهية التي تخضع للحكمة لا للطغيان.

(٤/٢) ١-الواقعية

النص الذي قدمه المقرئ (ت. ٨٤٥هـ) يعتبر نصاً واقعياً وعمرانياً بشكل واضح، حيث يصف بدقة البنية المادية والتنظيمية للدار الخاصة بالسباع في قصر خمارويه. من خلال التفاصيل المعمارية مثل البيوت المصنوعة من الحجر، الأبواب التي تفتح من أعلى، الأحواض الرخامية التي تحتوي على ميزاب من النحاس

(٤/٢) ٣-الرمزية

يُعدّ الشيخ أبو الحسن بنان بن محمد الحمّال، الذي وُلد في واسط ونشأ ببغداد، أحد الشخصيات البارزة في تاريخ التصوف الإسلامي. عمل في بغداد حيث تلقى العلم وسمع الحديث، ثم انتقل إلى مصر حيث عاش ومات فيها في عام ٣١٦ هـ. يُذكر أنه كان أحد الأئمة الذين جاهدوا في الحفاظ على تعاليم الإسلام وتعزيز معاني التقوى. كان الشيخ بنان معروفاً بعظمته الروحية والمكانة المرموقة بين علماء عصره، حيث كان يضرب مثلاً في العبادة والزهد. وكان دائماً يوجه الحكام والأمراء بالمعروف وينهاهم عن المنكر، دون أن يقبل أي مكافأة أو هدية من السلطان أو أمراء الدولة.^(٤٨)

توجد قصة شهيرة عنه تتعلق بموقفه من الوزير النصراني الذي كان يخدم في بلاط الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون. في يوم من الأيام، مر الوزير على باب بيت الشيخ بنان، وكان مُزِيناً بملابس فاخرة على ظهر حصان، وذلك بعد أن كُرم من قبل الأمير. سمع الشيخ بنان الضوضاء التي أحدثها موكب الوزير، فاستفسر عن الأمر، وعندما علم أنه يحمل على حصان مُزِين وهو كافر، تملكه الغضب. فركض إلى باب بيته وأمر الوزير بالنزول فوراً، قائلاً: "يا عدو الله، وعدو الإسلام، اترك هذا التبجيل". وردّ الوزير قائلاً إنه كان مُجبراً على الركوب بناءً على أمر الأمير. بعدها، طلب الشيخ بنان من الوزير أن يترجل، وهو ما حدث بالفعل.^(٤٩)

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد بلغ خمارويه ما فعله الشيخ بنان، فغضب وأمر بإحضاره. حينما دخل الشيخ إلى قاعة الأمير، أطلق عليه أسد ضخم ليلتهمه. إلا أن الشيخ، بثباته وتصوفه، تجاهل تهديد الأسد، الذي اقترب منه دون أن يؤذيه. بعد الواقعة، سئل الشيخ عن تفكيره أثناء تلك اللحظات التي قضاها مع الأسد، فأجاب بأنه كان يفكر في "اختلاف العلماء في طهارة سور السباع".^(٥٠)

الأسد في نص ابن الشيخ الشارعي (ت. ٦١٥ هـ) لا يمثل مجرد حيوان مفترس، بل رمز للقوة والسيطرة التي يمثلها الحاكم أو السلطان. ولكن هذا "الأسد" -على الرغم من قوته- لم يؤذِ الشيخ بنان، بل تعامل معه كما لو

العصور الإسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبنية المادية والإدارية التي تدير كل جانب من جوانب الحياة، من البشر إلى الحيوان.

(٤/٢) ٢-التوثيقية

يُعتبر نص ابن تغري بردي (ت. ٨٧٤ هـ) نصاً توثيقياً سردياً يسرد الوقائع بتسلسل إداري، حيث يقدم تفاصيل دقيقة حول كيفية إدارة وتقديم الطعام للسباع في دارة خمارويه. هذه التفاصيل تشتمل على طرائق تقديم اللحوم وتنظيمها وتدريب السباع داخل منشأة خاصة أُقيمت لذلك الغرض، مما يعكس مستوى عالٍ من التنسيق والاهتمام بالتفاصيل التنظيمية. النص لا يقتصر على سرد الأحداث، بل يربط بشكل غير مباشر بين النظام الحيواني والنظام الإداري للدولة من خلال الترتيبات التي يتبعها خمارويه لتنظيم حياة السباع، مثل توزيع الطعام، وتنظيف البيوت، وتنظيم أوقات خروج السباع، وتنفيذ هذه المهام عبر خدام خاصين. هذا يعكس نوعاً من النظام الإداري الذي يمكن ملاحظته أيضاً في كيفية إدارة شؤون الدولة وتوزيع المهام ضمن هيكل مراتب مدروس.

الربط بين النظام الحيواني والإداري يتمثل في تنظيم أوقات السباع لخروجها ودخولها حسب مواعيد محددة، يمكن مقارنة ذلك بتنظيم أعمال الدولة التي تعتمد على مواعيد معينة وتنظيم سلس للأوقات. كما يُظهر النص كيف يتم تقسيم العمل بين الخدم المختصين، حيث يقوم كل شخص بمهام محددة (مثل تنظيف البيوت وتقديم الطعام للسباع)، وهو مشابه لنظام تقسيم العمل في الدولة. إن طريقة تقديم اللحوم بشكل مقطع، وغسل الحوض وملئه بالماء تعكس درجة من الانضباط والاهتمام بالتفاصيل، وهذا يتماشى مع الطريقة التي يدير بها الحكام والمسؤولون شؤون الدولة بتكامل وانضباط. إذن، يمكن القول إن النص يتجاوز كونه مجرد سرد للوقائع ويعكس منظوراً إدارياً وتنظيمياً يعكس التفاعل بين البيئة الحيوانية والهيكل الإداري للمجتمع في ذلك العصر.

ومن خلال قراءة متقاطعة للمصادر التراثية، يتبين أن وجود الأسد زُرِيق في قصر خُمَارَوِيَّه لم يكن حادثاً عرضياً ولا طرافة شخصية، بل ممارسة سلطانية مؤسّسة ضمن نظام البلاط الطولوني. دار السباع كانت مؤسّسة رمزية بامتياز، تجسد منطق الدولة الذي يسعى إلى ترويض القوة وتنظيمها في فضاء من الجمال والرهبة. وبقدر ما عبّر "زُرِيق" عن هيبة السلطان في حياته، فإنه مثّل أيضاً مفارقة سلطته في موته، فالأسد بقي في مصر، والحاكم دُبح في دمشق، وكأن الرمز انفصل عن صاحبه حين تهاوى البناء السياسي الذي أنشأه. وهكذا غدا زُرِيق في الذاكرة التاريخية صورة مجازية للحاكم المروّض؛ الأسد الذي يطيع،^(٥١) كما يطيع الجند، والذي يرمز في حضوره وغيابه إلى المعنى الأعمق للسلطة، قوة لا تُحيا إلا داخل قفص النظام، ولا تُفقد إلا لتُعيد إنتاج الخوف والجلال في الوعي الجمعي.

ثالثاً: التحليل الرمزي والثقافي لعلاقة الحاكم بالحيوان المفترس

١/٣- الحيوان كرمز للقوة والسيطرة

في الثقافة السلطانية الإسلامية

منذ البدايات الأولى لتشكل السلطة في الحضارة الإسلامية، احتلّ الحيوان -ولا سيما الأسد- موقعاً مميزاً في خطاب القوة والشرعية. فكما حملت الألقاب السلطانية أوصافاً حيوانية، تحوّل الأسد في المخيال السلطاني إلى رمز^(٥٢) مزدوج يجمع بين ثنائيات الرهبة والعدالة، الغريزة والهيمنة. وبحسب تحليل كليفورد غريتز (١٩٢٦ - ٢٠٠٦م) للرموز السلطانية في الثقافات الآسيوية،^(٥٣) فإن الحيوان في البلاط لا يؤدي وظيفة جمالية فقط، بل هو نظام من العلامات الاجتماعية يُترجم القوة السياسية إلى مشهد محسوس.

على هذا المنوال، يغدو الأسد في بلاط خُمَارَوِيَّه المرآة الحيوانية للملك، إذ يُمثّل ما لا يستطيع الإنسان قوله عن نفسه، أنه مهاب، متسلّط، لكنه في حاجة إلى أن يرى كذلك دائماً. في دار السباع الطولونية، كانت الحيوانات المفترسة تعيش في نظام صارم، تُطعم وتُدرّب وتُطلق وتُحبس في أوقات محددة.^(٥٤) إنها ليست

كان مجرد شيء عابر في سياق أعمق من الوجود المادي. هذا الفعل يمكن أن يُفهم على أنه رمز للهيبة الإلهية، التي تخضع للطاعة والتوجيه الإلهي، لا للسلطة الطاغية أو القوة الجسدية. الشيخ بنان، بصفته رمزاً للحكمة الإيمانية والروحانية، يعكس النظام الأخلاقي الذي يتحدّى الطغيان والظلم. هو لا يخشى السلطان القوي، بل يقف ضد أفعال الطغاة عندما تكون مخالفة للعدالة والقيم الدينية. في اللحظة التي كان فيها الشيخ يواجه الأسد، كان في الواقع يواجه القوة التي تُمارس من خلال الجبروت، ولكنه ظل ثابتاً بسبب إيمانه العميق بالحكمة الإلهية التي تنظم الكون. هذه الحكمة لا يمكن أن تكون خاضعة لأوامر الطغاة أو أصحاب القوة، بل هي قوة ذاتية تخرج من روح الإنسان التقي.

القصة تحوي عظة قوية بأن الحكمة الإلهية، في شكل الشيخ بنان، لا يمكن أن تُخضعها القوة الجسدية أو الهيبة الزائفة، حتى وإن كانت تأتي من أقوى مخلوق على الأرض (الأسد). الأساس هنا هو أن الهيبة الإلهية لا تُخضعها سوى الحكمة الربانية، التي تسيطر على كل شيء، بما في ذلك القوى الكبرى كـ الأسد، الذي لا يضر الشيخ بنان بسبب قوة إيمانه وحكمته، التي لا يمكن أن تمسها أي قوة طاغية. إن النص يحمل أبعاداً رمزية وعظمية قوية، حيث يُعتبر الأسد في هذه القصة رمزاً للقوة الطاغية التي يمكن أن تخضع للحكمة الإلهية. على الرغم من أن الأسد يمثل الخطر المادي، فإنه يصبح أداة لإظهار الهيبة الإلهية التي لا تقهر، وتُظهر كيف أن الحكمة الروحية تتغلب على الطغيان مهما كانت القوة الجسدية أو السلطوية.

يتضح من المقارنة أن الروايات الثلاث لا تتناقض، بل تتدرج من الواقعة إلى الرمز، فالمقريزي يقدم الواقع المادي للقصر، وابن تغري بردي يشرح تنظيمه بوصفه مؤسّسة سلطانية، أما الشارعي فيرتقي بالحكاية إلى بعد وعظمي يجعل من الأسد كائنًا مطيعاً للولاية الروحية أكثر من السلطان الدنيوي. وهذا التدرج من التاريخ إلى الوعظ يعكس كيف تحوّل زُرِيق في الذاكرة الإسلامية من حيوان خاص بحاكم مترف إلى رمز ثقافي للسلطة المروّضة والمراقبة.

بالهيبة لكنه يعيش في عزلة مطبقة، يخاف من أتباعه أكثر مما يخافهم أعداؤه.

فخمارويّه يطلب الأمان من وحشٍ خطر، لأن الوحش في رمزيته، أكثر إخلاصاً من البشر. إنه يحتمي بالقوة نفسها التي يخشاها، وكأن الأسد يرمز إلى الذات المزدوجة للسلطان، الذات الحاكمة والمهددة في آنٍ واحد. هذا التلازم بين النوم (رمز الضعف) والوحش (رمز القوة) يُنتج صورةً سيكولوجية عميقة، الحاكم لا يستطيع أن ينام إلا في حضن الخطر؛ أي أنه لا يطمئن إلا داخل دائرة الخوف، في علاقة دائرية تشبه ما يسميه ريكور (١٩١٣ - ٢٠٠٥م) الرمز المؤسس للذات، فالرمز (الأسد) ليس مجرد حماية، بل وسيلة لتثبيت هوية السلطة.

٤/٣- الطوق الذهبي في عنق الأسد

(ترويض العنف وإلباسه ثوب الجلال السياسي)

يروى المقرئزي (ت. ٨٤٥هـ) وابن تغري بردي (ت. ٨٧٤هـ) أن زريق كان في عنقه طوق من ذهب،^(٦٠) وهو تفصيلٌ صغير لكنه يحمل دلالة كبرى في علم الرموز. الذهب في المخيال السلطاني لونه الجلالة والعظمة، فإذا التفت حول عنق الوحش صار مجازاً لاحتواء العنف داخل النظام. وفي ضوء نظرية بول ريكور (١٩١٣ - ٢٠٠٥م) عن الرمزية، يمكن اعتبار هذا الطوق استعارةً عن تقييد الغرائز بالهيبة؛ فالحاكم لا يقتل العنف، بل يؤنّقه، أي يجعله جميلاً ومقبولاً اجتماعياً. وبذلك يتحول العنف السلطوي إلى طقسٍ من طقوس الجمال، الوحش لا يُعدم، بل يُزَيّن ليصبح رمزاً للهيبة. هذا المشهد يختصر جوهر السلطة الطولونية كما يصورها المؤرخون، سلطة تجمع بين القوة والترّف. فالطوق الذهبي ليس مجرد زينة للأسد، بل هو الحد الذي تُحبس داخله القوة السلطانية نفسها؛ إنها لا تتجلى إلا من خلال تقييدها واحتفالها بذاتها.

٥/٣- المفارقة الرمزية

في موت الحاكم بعيداً عن رمزه الحارس

تمثل نهاية خمارويّه - مقتولاً على فراشه بدمشق^(٦١) بينما أسده زريق باقٍ في مصر - ذروة المفارقة الرمزية التي تلخص المصير السلطاني كله. ففي لحظة انفصال

حيوانات برية بل قوى مروّضة، تماماً كما أن الدولة الطولونية نفسها كانت قوةً برية استأنست داخل النظام العباسي. فالمشهد الحيواني ليس إلا استعارة سياسية؛ الدولة هي القفص الذهبي، والسلطة هي مَنْ يُطعم الوحش ويضبطه.

٢/٣- الأسد المروّض (صورة السلطة التي تخضع

الطبيعة العنيفة وتحفظ برهبتها)

تصف المصادر زريق بأنه أزرق العينين، ولا يؤدي أحداً، ومطيع للحاكم،^(٥٥) وهي أوصاف تجعل منه كائنًا يتجاوز حدّ الحيوانية إلى مقام الرمز السلطاني الكامل. وفق مقاربة ميشيل فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤) في كتاب "المراقبة والمعاقبة"، تمثل عملية الترويض تحويلاً للغريزة إلى طاعة سياسية، أي أن السيطرة على الجسد الحيواني هي تمرين على السلطة على الأجساد البشرية.^(٥٦) في ضوء هذا، يصبح ترويض زريق عملاً تأديبياً بالمعنى الفوكوي؛ إذ يُظهر قدرة الحاكم على ضبط الغرائز لا في الحيوان فحسب، بل في المجتمع كله.

الأسد هنا ليس عدواً يُخاف منه، بل "آخر" يُستخدم لإعادة إنتاج صورة الذات السلطانية، "قوتي ليست في قدرتي على القتل، بل في قدرتي على أن أجعل القاتل مطيعاً".^(٥٧) بهذا المعنى، يُصبح الأسد المروّض نموذجاً مصغراً لسياسة الطاعة والانضباط التي ميّزت العصر الطولوني، حيث تُقاس هيبة السلطان بقدرته على إخضاع القوى، لا على استعمالها.

٣/٣- نوم خمارويّه إلى جوار زريق

(التوتر بين الخوف والاطمئنان عبر الرمز)

من أكثر الصور رمزية في سيرة خمارويّه مشهدُ نومه وأسده الحارس إلى جواره، "وَكَانَ إِذَا نَامَ خُمَارُويّه جَاءَ زُرَيْقٌ وَقَعَدَ لِيَحْرُسَهُ، فَإِنْ كَانَ [قَدْ] نَامَ عَلَى سَرِيرِهِ رُبُضَ بَيْنَ يَدَيِ السَّرِيرِ وَجَعَلَ يُرَاعِيهِ مَا دَامَ نَائِماً، وَإِنْ نَامَ خُمَارُويّه عَلَى الْأَرْضِ قَعَدَ قَرِيباً مِنْهُ وَتَفَقَّطَ لِمَنْ يَدْخُلُ أَوْ يَقْصِدُ خُمَارُويّه لَا يَغْفُلُ عَنْ ذَلِكَ لِحَظَّةٍ وَاحِدَةٍ".^(٥٨) يبدو هذا المشهد، من منظور سيكولوجي، تجسيداً لمفارقة السلطة الكبرى التي أشار إليها نوربرت إلياس (١٨٩٧ - ١٩٩٠م) في مجتمع البلاط،^(٥٩) الحاكم محاطاً

ذروة الترف السلطاني في مصر الإسلامية.^(٦٢) فقد تحولت مظاهر النعمة في قصوره إلى لغة رمزية تُعيد إنتاج صورة السلطة من خلال الجمال والدهشة. تصف المصادر قصر خُمارويّ بأنه عالم من الأعاجيب، فسقية من الزئبق تسبح فوقها الأسرة، رواق من الذهب مزدان بصور محظياته، وبرجٌ تسرح فيه الطيور النادرة.^(٦٣)

وفي هذا السياق نفسه تتدرج دار السباع، حيث تحول الحيوان المفترس إلى جزء من المسرح السلطاني؛ فكما يتأمل الزائر انعكاس القمر على الزئبق،^(٦٤) يتأمل هيئة الأسد زُريق وهو يجلس إلى جوار مولاه على المائدة "فَإِذَا نُصِبَتْ مَائِدَةُ خُمارويّ، أَقْبَلَ زُريقٌ مَعَهَا، وَرَبَضَ بَيْنَ يَدَيْهِ".^(٦٥) إن الترف هنا ليس مجرد مظاهر مادية، بل بنية رمزية للسلطة، فالملك لا يرى إلا من خلال ما يدهش الأبصار. وفقاً لتفسير نوربيرت إلياس (١٨٩٧ - ١٩٩٠م) في مجتمع البلاط، يصبح البذخ السلطاني أداة للتفوق الرمزي، أي أن الحاكم لا يحكم بالسيف فقط، بل بالمنظر أيضاً.^(٦٦) فخُمارويّ لم يكتفِ بأن يُرهب خصومه بقوة جيشه، بل أراد أن يدهشهم بعجائب قصره، حتى صار الترف نفسه تقنية من تقنيات الحكم.

٢/٤- المعنى السياسي للترف

(شراء السلام بالمال بدل القوة)

تبين من أطروحة "الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد خُمارويّ"، أن خُمارويّ، بخلاف أبيه الذي اشترى السلام بالإعداد، قد اشترى السلام بالمال، فكان ذلك سبباً في إفلاس الدولة الطولونية وسقوطها.^(٦٧) هذا التحول من القوة العسكرية إلى المال يعكس انتقالاً في مفهوم السلطة من القوة المنتجة إلى القوة المُثَلَّة. فالحاكم الذي كان والده يقاتل ليُثبت شرعيته، أصبح يشتري ولاء العباسيين بالذهب والزواج السياسي من "قطر الندى".^(٦٨) بهذا المعنى، كان الترف عند خُمارويّ بديلاً عن الفعل السياسي؛ فحين عجز عن فرض هيئته بالسيف، صنعها بالمشهد.

لقد أزهق خُمارويّ نفسه في تبديد ما جمعه أبوه، وبلغ فساد الترف حدّاً جعله يذبح الخدم أو يهوى مراقبة الوحوش، أي أن مظاهر الرفاه تحولت من علامات النعمة إلى أعراض انحلال سلطويٍّ وأخلاقي.^(٦٩) الترف

الرمز عن صاحبه، يسقط المعنى الذي منحه الوجود، الأسد الذي كان يحرسه لم يكن سوى "صورة رمزية للأمان" لا واقعه، وحين ابتعد عنه انكشفت هشاشة السلطة المادية. يمكن قراءة هذه المفارقة في ضوء تحليل فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤م) للسلطة بوصفها شيء لا يمكن للشخص امتلاكها، بل فقط تجسيدها. فحين فقد خُمارويّ تجسيد الرمز - زُريق - فقد معها امتلاك القوة الرمزية التي كانت تحيط به.

إن موت خُمارويّ بعيداً عن أسده يشبه في دلالاته انفصال الجسد عن ظله، الظل بقي في القصر، أما الجسد فسقط في دمشق. وهكذا ينقلب الأسد من حارس إلى شاهد على زوال السلطة التي أنجبته. ومن ثمّ يمكن القول إن الرمزية السياسية للأسد بلغت كمالها في غيابها، حين صار الرمز أقوى من صاحبه، كما يوضح ريكور (١٩١٣ - ٢٠٠٥م) تموت الذات، ويبقى الرمز لأنه الأصل الذي أنشأها.

تُظهر العلاقة بين خُمارويّ وزُريق أن هذا الأسد لم يكن تفصيلاً سردياً في أخبار الترف، بل تمثيلاً ثقافياً للسلطة المزدوجة (المهيبة والمهددة). لقد أعاد خُمارويّ عبر هذا الرمز صياغة العلاقة بين الإنسان والقوة، فحول الحيوان من كائن فوضوي إلى أداة لترويض ذاته السياسية. فالأسد المروض هو صورة الحاكم الذي يُخضع الطبيعة، لكنه يبقى أسيراً لها؛ والذهب حول عنقه هو القيد الذي يُجمل العنف ولا يُبطله؛ ونوم الحاكم إلى جوار الوحش هو إعلان رمزي عن أن السلطة لا تعرف الطمأنينة إلا في حضن الخطر. وبهذا المعنى، يشكّل زُريق في المخيال التاريخي أيقونة للمهيبة السلطانية في لحظتها الأخيرة، الأسد الذي يطيع، لكنه لا يستطيع إنقاذ سيده، لأن القوة الرمزية مهما بلغت لا تحمي من انهيار المعنى السياسي نفسه.

رابعاً: بين الترف السلطاني والقدر المحتوم

١/٤- الترف كصناعة رمزية للسلطة

(من فسقية الزئبق إلى دار السباع)

يُجمع مؤرخو العصر الوسيط على أن عهد خُمارويّ بن أحمد بن طولون (٢٧٠هـ - ٢٨٢هـ / ٨٨٣م - ٨٩٥م) كان

في الحقيقة ذروة البنية الرمزية للحدث كله؛ فالأسد الذي كان يحرس الحاكم لم يستطع أن يقبضه قدره، وكأن المقرزي (ت. ٨٤٥هـ) يعلن عن موت الرمز بانفصال صاحبه. بعد موت خُمارويه، تنقل بعض الروايات أن زُرّيق ظل يزأر زئيراً مخيفاً كأنه ينادي على صاحبه الذي اختفى فجأة، وعندما طال غيابه مات من الحزن،^(٧٥) وهو تفصيل يشي بتحوّل الرمز إلى كائنٍ فاقد لرموزه؛ فالسلطة التي كان يجسدها الأسد انطفأت، ولم يعد وجودها ممكناً إلا في الحكاية.

٥/٤- من الهيبة إلى العبرة

(بين الترف والقدر)

في تأويل رمزي- أخلاقي، يمكن القول إن قصة خُمارويه تمثل التحوّل من الأسطورة إلى العبرة. فالترف، الذي كان في بدايته مسرحاً للهيبة، انتهى إلى رمز للغرور، والقدر الذي تجلّى في غياب الأسد صار تصحيحاً كونياً لمعادلة مختلة بين القوة والمعنى. من منظور بول ريكور (١٩١٣ - ٢٠٠٥م)، تمثل هذه النهاية لحظة انكشاف الرمز الذي فقد تأويله؛ فحين تنفصل العلامة عن معناها، تنهار البنية الرمزية ذاتها. لقد بلغت الرمزية الحيوانية في القصر الطولوني ذروتها في لحظة سقوطها؛ إذ تماهى الترف والقدر في صورة واحدة، قصر يعجّ بالحياة المروضة، وملك يموت ذبيحاً في غيابه، وأسد يزأر في الفراغ.

تكشف قراءة العلاقة بين الترف السلطاني والمصير السياسي لخُمارويه أن الرمز الحيواني لم يكن ترفاً زخرفياً، بل مكوناً أخلاقياً في بنية السلطة نفسها. فالأسد زُرّيق مثل صورة القوة التي تؤلّه ثم تُعدم، كما مثل الترف الفاخر رمزاً للهيبة التي تسبق الانهيار. وبذلك تجتمع في النهاية فكرتان متقابلتان، الأولى: أن الترف هو لغة السلطة في لحظة قوتها. والثانية: أن الترف ذاته هو النبوءة التي تكتب سقوطها. وفي هذا المعنى، يكون مشهد موت خُمارويه وغياب زُرّيق التتويج الرمزي لقدر السلطة المطلقة، إذ لا يغني الذهب ولا يغني الأسد، "لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِّنْ قَدَرٍ".

في هذا المنظور لم يكن ترفاً بريئاً، بل آلية رمزية للإنكار السياسي، حاكمٌ يُغرق نفسه في الزينة ليُخفي هشاشته، ويستعيض بالأسود المروضة عن القادة المخلصين. وهنا تتجلّى المفارقة الكبرى في الوعي السلطاني، أن الترف ليس نقيض السقوط، بل مقدمته الجمالية.

٣/٤- الحيوان

كجزء من المشهد الاستعراضي للهيبة السلطانية

تُظهر الروايات المقرزية أن خُمارويه لم يتعامل مع الحيوانات المفترسة كوسائل حراسة فقط، بل كعناصر في خطاب القوة. كانت "دار السباع" أشبه بمسرح دائم تُعرض فيه الطاعة والقوة المروضة، السباع تُطلق لتلهو وتعود، والأسد زُرّيق يشارك المائدة، "وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ سَبْعاً سَمَاءَ زُرّيقاً لِرَزَقَةِ عَيْنَيْهِ، وَكَانَ مُطْلَقاً فِي الدَّارِ لَا يُؤْذِي أَحَدًا، فَإِذَا جَلَسَ أَبُو الْجَيْشِ عَلَى الْمَائِدَةِ رُبَضَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَصَارَ يَرْمِي لَهُ مِمَّا قُدَّامَهُ".^(٧٠) في تجسيد لفكرة "الهيبة المروضة" التي تتكرّر في صور البلاط الإسلامي الوسيط.

إن هذه العلاقة بين الإنسان والوحش تمثل - في ضوء فلسفة فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤م) عن "المراقبة والانضباط"^(٧١) - مشهداً من ضبط القوة الحيوانية داخل حدود النظام السياسي؛ أي أن الحاكم يعرف نفسه من خلال إتقانه لتدبير الخطر. ولذلك، لم يكن زُرّيق مجرد حارس، بل "رمز الحاكم المروض" الذي يضبط الطبيعة كما يضبط المجتمع. ولعلّ الطوق الذهبي في عنقه^(٧٢) يجسّد التحالف بين العنف والجمال في بنية السلطة الطولونية، عنفٌ يُزيّن بالذهب ليصبح مقبولاً، وسلطةٌ تأنّق نفسها لتخفي طابعها المفترس.

٤/٤- التحول الدرامي

(مقتل خُمارويه وغياب زُرّيق)

تروي المصادر أن خُمارويه دُبج على فراشه بدمشق،^(٧٣) فحُمِلَ جثمانه إلى مصر ودُفن عند أبيه، في حين كان أسده زُرّيق باقياً في القصر، "حَتَّى إِذَا شَاءَ اللَّهُ إِنْفَادَ قَضَائِهِ فِي خُمارَوْيهِ، كَانَ بِدِمَشْقَ وَزُرّيقٌ غَائِبٌ عَنْهُ بِمِصْرَ". ويضيف المقرزي (ت. ٨٤٥هـ) عبارته الشهيرة التي اكتسبت دلالة رمزية بالغة: "لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِّنْ قَدَرٍ".^(٧٤) هذه الجملة التي تبدو موعظة ختامية هي

خامساً: التلقي اللاحق للرمز في الذاكرة الأدبية والثقافية

١/٥- من الحدث التاريخي إلى الصورة الثقافية

مع مرور القرون، لم تبقى قصة حُمارويَّة وأُسده زُريق مجرد واقعة في سجلات التاريخ، بل تحولت إلى صورة ثقافية متخيلة داخل الوعي المصري والإسلامي. ففي الكتابات الحديثة ذات الطابع الثقافي، مثل كتاب "خريدة القاهرة"^(٧٦)، أُعيد سرد الحكاية بأسلوب يمزج بين التاريخ والأسطورة، حيث يظهر زُريق كجزء من المشهد الحضاري للقاهرة الطولونية، لا كحيوان في قصر فحسب، بل ككائن رمزي يمثل ذروة القوة والولاء والدهشة.

وفي هذا التحول من الواقعة إلى الصورة، يتجلى ما يسميه بول ريكور (١٩١٣ - ٢٠٠٥م) ببقاء الرمز في الذاكرة التأويلية، أي استمرار المعنى حتى بعد زوال الحدث.^(٧٧) فما كان في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) تجسيداً لقوة حاكم مهيب، أصبح في الذاكرة الأدبية الحديثة صورة إنسانية للحب والوفاء والقوة الصامته. تلك الاستمرارية في التلقي تُظهر أن الوعي الجمعي المصري أعاد تشكيل القصة لتناسب تحولات الزمن، من نموذج للهيبة السلطانية إلى رمز لعلاقة الإنسان بالقوة والوفاء والموت.

٢/٥- الأسد زُريق في الأدبيات الحديثة

(من حارس السلطان إلى رمز الوفاء)

في كتاب "تاريخ كوكب القاهرة"، تُعاد قراءة قصة زُريق ضمن مشهد ثقافي يُبرز الجانب الإنساني للحيوان لا السلطوي فحسب. يصف الكاتب كيف "زار زُريق زئيراً حزيناً عند غياب حُمارويَّة، ثم مات من الحزن عليه"، ليتحوّل المشهد من علامة على الطاعة إلى أسطورة للوفاء تتجاوز حدود السلطة.^(٧٨) هذا التلقي الأدبي يُبرز تحوّل المعنى من رمز للهيمنة إلى رمز للولاء، ومن القوة المروّضة إلى القلب المخلص للحاكم المفقود.

وبذلك، أعادت الكتابة الحديثة تأهيل الرمز الحيواني في المخيال الشعبي، فالأسد لم يعد مرآة للترف السلطاني، بل صورة وجدانية للوفاء النادر. لقد تغيّر سياق القراءة؛ فبينما رآه المقرئ في (ت. ٨٤٥هـ)

جزءاً من مشهد الهيبة، يراه القارئ الحديث رمزاً أخلاقياً وعاطفياً يعكس النزعة الإنسانية في الحيوان مقابل الوحشية البشرية. هذا الانقلاب في المعنى هو ما يسميه كليفورد غريتز (١٩٢٦ - ٢٠٠٦م) التحول التأويلي للرمز داخل الثقافة،^(٧٩) حيث لا يموت الرمز، بل يتجدد في ضوء حاجات الوعي الجمعي الجديدة.

٣/٥- التلقي العلمي الحديث

(من الحيوان المفترس إلى العلم بالحيوان)

في دراسة بعنوان "اهتمام الحكام والعلماء المسلمين بعلم الحيوان والبيطرة والبيطرة في العصر العباسي"، يظهر نمط جديد من القراءة للظاهرة الحيوانية في القصور الإسلامية. لا تتناول الدراسة قصة زُريق مباشرة، لكنها تُدرج ظاهرة اقتناء الحكام للحيوانات المفترسة ضمن منظومة معرفية أوسع عنوانها "علم الحيوان في الثقافة السلطانية".^(٨٠) وبهذا تنتقل القراءة من التفسير الأخلاقي أو السياسي إلى التحليل المعرفي-العلمي، الحاكم لم يكن يربي الأسود والفهود للترف فحسب، بل لأن الحيوان أصبح جزءاً من رمزية العلم والسيطرة على الطبيعة.

من هذا المنظور، يصبح زُريق ليس فقط رمزاً للقوة، بل علامة على العلاقة بين الإنسان والمعرفة والسلطة. فالترؤيض في القصر يعادل الترويض في المختبر، كلاهما يعكس رغبة العقل السلطوي في فهم الكائن وإخضاعه. وبذلك تنفتح القصة على معنى جديد، الأسد لم يعد حارساً للسلطان، بل شاهداً على ولادة العلم السلطاني بالحيوان.

٤/٥- من التمثيل التاريخي

إلى البنية الرمزية الحديثة

في القراءات المعاصرة، وخاصة في الدراسات الثقافية والأدبية، يُعاد تأويل قصة حُمارويَّة وزُريق بوصفها استعارة عن الإنسان والسلطة. الأسد الذي كان يوماً رمزاً للطاعة صار في المخيال الرمزي الحديث صوتاً للحرية المقموعة، الحيوان الذي يُجبر على الحراسة حتى يفقد ذاته، فيتحوّل إلى "ظلّ الحاكم" لا إلى كينونته. وهكذا تُقرأ القصة اليوم ضمن ما يسميه ميشيل فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤) بـ "جماليات السلطة"،^(٨١)

كما تُخضع البشر. كان زُريق، الأسد الأزرق العينين، تجسيداً لهذا المجاز، حيواناً أليفاً مفترساً، حراً داخل قيده الذهبي، يشارك سيده طعامه ويحرس نومه، رمزاً للسلطان الذي يُراقب ويُراقب في آن واحد. لقد جمع زُريق في صورته كل التناقضات التي سكنت خُمارويّه نفسه - القوة والولاء، الهيبة والخوف - فصار مرآة للإنسان السلطوي المترف، الباحث عن الأمان داخل دائرة سلطته.

غير أن الرمز، كما يرى بول ريكور (١٩١٣ - ٢٠٠٥م)، لا يبقى بريئاً من مفارقاته.^(٨٢) فزُريق، الذي جعل رمزاً للحماية، لم يمنع السقوط؛ بل غاب حين حلّ القدر. وبغيابه انكشف الفراغ الذي كان يُغطيه الرمز، حاكمٌ مهيب بلا حماية، وسلطةٌ مروّضة تواجه مصيرها الطبيعي. في تلك اللحظة التي سجّلها المقريري (ت. ٨٤٥هـ) بعبارته الخالدة «لَيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ»،^(٨٣) تتبدى المفارقة الكبرى للرمزية السلطانية، أن أدوات القوة نفسها تُعلن حدودها.

من زاوية رمزية أعمق، تُظهر القصة أن العلاقة بين الإنسان والحيوان في بلاط السلطة ليست علاقة استثناس، بل علاقة إسقاط نفسي؛ فالحاكم المترف يرى في الحيوان المفترس ذاته الأخرى، الغريزة التي يريد أن يملكها دون أن تدمره، والقوة التي يخاف منها لأنها تذكّره بفناء الجسد وزوال الملك. إن تربية الأسد هنا هي طقس رمزي لترويض الخوف من الفناء، إذ يحرس الحيوان صاحبه في الحياة، لكنه لا يرافقه في الموت. وبذلك يتحوّل زُريق من رمزٍ للهيبة إلى علامة على هشاشة السلطان أمام القدر.

وفي الذاكرة اللاحقة، لم يمت الرمز؛ فقد أعادت الكتابات الحديثة تأويل القصة في ضوء دلالات جديدة، مرّة بوصفها أسطورة وفاء بين الإنسان والحيوان، ومرّة كتمثيل رمزي للعلاقة بين السلطة والمعرفة والطبيعة. وهكذا انتقل زُريق من قصر خُمارويّه إلى فضاء الثقافة المصرية كصورة مركبة تجمع بين الهيبة والحنين، وبين القوة المروّضة والقدر المحتوم.

أي تلك المسافة الدقيقة بين الجسد الخاضع والنظام الذي يُنتج طاعته.

في هذا الإطار، لم يعد زُريق مجرد أسد في التاريخ، بل أداة لقراءة علاقة الإنسان بالحكم والسيطرة في ثقافة ما زالت تُعيد إنتاج رموز القوة والخوف. لقد تحوّل من كائن في القصر إلى استعارة ثقافية تُعبّر عن قيد الإنسان الحديث داخل أنظمة سلطوية جديدة. يُظهر التلقي اللاحق لقصة خُمارويّه وزُريق أن التاريخ حين يُعاد تأويله يتحوّل إلى رمز ثقافي متجدد. فالحدث الذي بدأ في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) كصورة من صور الترف السلطاني، أصبح في الذاكرة الأدبية الحديثة أسطورة عن الوفاء، والحب، والسلطة والمعرفة. وفي الدراسات الأكاديمية المعاصرة، غدا الرمز الحيواني مجالاً لتفكيك العلاقة بين الإنسان والطبيعة والهيمنة، مما جعل من زُريق نصاً ثقافياً مفتوحاً تتقاطع فيه السياسة والأخلاق والعلم.

وهكذا، تكتمل دائرة التأويل، من الأسد المروّض في القصر إلى الرمز الأخلاقي في الأدب. ومن الهيبة السلطانية إلى الذاكرة الشعبية والبحث العلمي الحديث. لقد تحوّل التاريخ إلى رمز، والرمز إلى سردٍ ثقافيٍّ متجدد يعكس تصوّر المصريين للسلطة والحاكم والوفاء، تحوّل يثبت أن زُريق لم يعد ملك خُمارويّه وحده، بل أصبح ملك المخيلة المصرية كلها.

خاتمة

تُبرز دراسة "الأسد زُريق في قصر خُمارويّه" أن التاريخ، حين يُقرأ عبر رموزه لا عبر أحداثه فحسب، يكشف عن البنية النفسية والثقافية العميقة للسلطة في الإسلام الوسيط. فالحاكم، في لحظة سعيه لتأكيد هيئته، يصنع رموزه بقدر ما تصنعه هي. وهكذا لم يكن خُمارويّه بن أحمد بن طولون مجرد وريث لسلطة سياسية، بل مؤسساً لمشهد سلطوي رمزي جعل من الحيوان المفترس جزءاً من مسرح القوة ومفهومها.

لقد استخدم خُمارويّه الأسد وسيلة لإظهار الهيبة والسيطرة؛ فدار السباع في قصره لم تكن فضاءً للزينة أو الترف، بل مجازاً مرثياً للسلطة التي تُخضع الطبيعة

نتائج الدراسة

انطلق البحث من فرضية مؤداها أن اقتناء خُمَارَوَيْه للأسد زُرَيْق يمثل نموذجاً دالاً على الرمزية السلطانية في الثقافة الإسلامية الوسيطة، حيث يتحوّل الحيوان من كائن طبيعي إلى رمز سياسي ونفسي يجسّد التوتر بين السيطرة والخوف. وتحليل هذا الرمز تم الكشف عن البنية العميقة للسلطة الطولونية التي جسّدها خُمَارَوَيْه في سلوكه اليومي، وفي علاقته بالوحش الذي يشبهه.

إن التحليل الرمزي - التحليلي لهذه الظاهرة يُفضي إلى مجموعة من النتائج الفكرية الجوهرية:

- الحيوان في الثقافة السلطانية الإسلامية لم يكن كائناً هامشياً، بل فاعلاً رمزياً في بناء الصورة السياسية والأخلاقية للحاكم.
- الترف في عصر خُمَارَوَيْه (٢٧٠هـ - ٢٨٢هـ / ٨٨٣م - ٨٩٥م) لم يكن مجرد إسراف مادي، بل كان خطاباً مرئياً للهيمنة، يعكس سعي الحاكم إلى تأليه ذاته أمام رعاياه.
- الأسد زُرَيْق جسّد المفارقة الكبرى، رمز الحماية الذي لم يمنع السقوط، ودلالة الوفاء التي كشفت في النهاية عن وحدة المصير بين الحاكم ورمزه.
- الرمز الحيواني فضح البنية النفسية للسلطة، تلك التي تمزج بين حب السيطرة والخوف من الزوال، بين رغبة البقاء وإدراك الفناء.
- وأخيراً، أن الذاكرة الثقافية حول خُمَارَوَيْه وزُرَيْق تُظهر قدرة الثقافة المصرية على تحويل التاريخ إلى رموز حية، والرموز إلى سرد متجدّد يعيد تأمل الإنسان في السلطة والموت والوفاء.

إن قصة الأسد زُرَيْق ليست مجرد هامش في تاريخ الدولة الطولونية، بل هي نص رمزي مفتوح يعبر عن طبيعة العلاقة بين الإنسان والقوة، الحاكم ورمزه، بين الهيبة والقدر. وما زالت الرسالة التي تومض من بين أسطر المقريري قائمة، أن الترف لا يحمي، والرمز لا يخلد، وأن كل سلطان يربّي في قصره أسداً، إنما يربّي في جوهر الأمر ظل نفسه الذي سيفترسه في النهاية.

قيمة البحث وأصالته

تتبع أهمية هذا البحث من كونه أول محاولة علمية متكاملة لتفكيك ظاهرة "اقتناء الحيوان المفترس" في القصور الإسلامية من منظور رمزي - تحليلي، وليس من زاوية التاريخ السياسي أو الحضارة المادية فحسب. ففي حين تناولت الدراسات السابقة عصر خُمَارَوَيْه بوصفه مرحلة من الترف المادي والازدهار المعماري، فإن هذه الدراسة أعادت قراءة النصوص التراثية بوصفها خطابات رمزية عن السلطة والنفس والعنف المروّض.

تكمّن أصالة البحث في أنه قدّم تحليلاً سيميائياً للرمز الحيواني (الأسد زُرَيْق) داخل بنية السلطة الطولونية، كاشفاً عن علاقة الإنسان بالحيوان بوصفها مرآة للوعي السلطاني والخوف الوجودي من الفناء. وقد ربط البحث بين السلوك السياسي لخُمَارَوَيْه والتمثيل الرمزي للحيوان في القصر، مؤكداً أن "دار السباع" لم تكن مجرد مرفق ترفيهي، بل فضاء تمثيلاً للهيمنة والسيطرة على الطبيعة والبشر في آن واحد. كما أضافت الدراسة بعداً تأويلياً معاصراً من خلال تتبع التلقي اللاحق للرمز في الثقافة والبحث العلمي الحديث، موضحة كيف استمر حضور الأسد زُرَيْق في الذاكرة المصرية كرمز متحوّل بين القوة والوفاء والقدر.

بهذا، يسهم البحث في تأسيس منهج جديد في قراءة التاريخ الإسلامي، يقوم على الجمع بين التحليل الرمزي والأنثروبولوجيا الثقافية، وعلم النفس السلطوي، ويقدم نموذجاً تطبيقياً يمكن الاستفادة منه في دراسة رموز مشابهة في قصور الحكم عبر العصور الإسلامية. إن القيمة الحقيقية لهذه الدراسة تكمن في إحيائها لمستوى المعنى الغائب في الوقائع التاريخية، وإثباتها أن التاريخ لا يُكتب فقط بما جرى، بل بما رمز إليه ما جرى، وأن الأسد زُرَيْق، من قصر خُمَارَوَيْه إلى الذاكرة المعاصرة، لم يكن حيواناً فحسب، بل لغة كاملة عن السلطة والإنسان.

الهوامش والإحالات:

بحث يتناول التمثيل الحيواني في الفن الإسلامي. Collection. يشتمل على أسود كرموز لكن ليس تحديداً لدار السباع عند خمارويه. Ahmet Göksu, Fatma Afyoncu; From Manticore to the Healing Lion Skin: Ḥayāt al-Ḥayawān in the Ottoman Context. Animal History 2025; doi: https://doi.org/10.1525/ah.2025.2469088 مقال يُناقش معاني الأسد في التراث الإسلامي من منظور علم الحيوان والتاريخ الحيواني، لكن ليس خصيصاً مناقشة زُريق أو البلاط الطولوني.

(١٠) انظر: Heba Magdy, "The Guardian Lion Statues in Egypt during the Graeco-Roman Period" vol. 16, no. 1, 57-73 (2013). أباذر راهي سعدون الزبيدي، "الأسد في حضارة بلاد الرافدين (دراسة فنية - ميثولوجية في ضوء المصادر المسمارية)"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية (جامعة الكوفة)، مج ٢٥، ع ١ (٢٠١٩): ٢٢٥-٢٥٠. سعيدي سليم، "الأسد ودلالاته في المغرب القديم"، مجلة طبنة للدراسات العلمية الأكاديمية، مج ٣، ع ٢ (٣٠ ديسمبر ٢٠٢٠): ٨١-١٠١. حنان محمد علي شرف، "الدلالات الثقافية لصياغات نحت الأسد في الحضارات القديمة ودورها في الارتقاء الجمالي لدى المراهقين"، المجلة العلمية لجمعية أمسيّا - التربية عن طريق الفن، مج ٧، ع ٢٥ (يناير ٢٠٢١): ٧٦-٩٠. بن بو زيد لخضر، "رمزية النسر والأسد والثور في الفن النشوري"، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٥، ع ٣ (٢٩ أكتوبر ٢٠٢١): ٢٣-٣٩. حنان محمد أحمد أبو بكر علي، "الصياغات التشكيلية والتعبيرية لمنحوتات شكل الأسد في الحضارات المختلفة عبر العصور"، بحوث في التربية الفنية والفنون، مج ٢٢، ع ٢ (مايو ٢٠٢٢): ٢٧٩-٢٨٧. فاطمة عبد الغني سالم محمد، "مفهوم قوة الأسد المعادية والموالية للإنسان في حضارات مصر والشرق الأدنى القديم: دراسة أثرية حضارية مقارنة"، مجلة كلية الآثار بقنا - جامعة جنوب الوادي، مج ١٨، ع ١ (٢٠٢٣): ٤٦٤-٥٧١. أحمد حبيب سنيد الفتلاوي، وعلي كاظم حمزة، "ذكر الأسد في العرافة"، مجلة العلوم الإنسانية (جامعة بابل)، مج ١٤، ع ٢ (٢٠٢٣): ١٦-١٠١. السيد خيرى أحمد الجوهري، وعلاء الدين عبد المحسن شاهين، وحنان محمد ربيع، "الدلالات الرمزية للوقوف على ظهر الأسد في فنون العراق القديم وبعض المراكز الحضارية المجاورة حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد"، مجلة كلية الآثار بقنا - جامعة جنوب الوادي، مج ١٩، ع ١ (٢٠٢٤): ١-٦٢.

(١١) انظر: محمد حمدي، "رمزية الأسد في الفنين القبطي والإسلامي بمصر (دراسة أثرية فنية)"، مجلة كلية الآثار بقنا - جامعة جنوب الوادي، مج ١٣، ع ١، رقم تسلسلي ١٣ (٢٠١٨): ٧١-٨٨. قلالة عمار، "نغوت الأسد عند العرب من خلال أصول أسمائه -دراسة معجمية دلالية"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ١٢، ع ٢٤ (١ يناير ٢٠١٩): ٤١٩-٤٣٥. ثائر محمد إبراهيم الملكاوي، "البنية السردية والتمثيل الرمزي للسلطة في العصر العباسي: حكاية 'الأسد والغواص' نموذجاً - دراسة تحليلية"، متون، مج ١٨، ع ٣ (٣٠ سبتمبر ٢٠٢٥): ٢٦٩-٣٢٧.

(١٢) لفهم السلطة كخطاب ورمزٍ منضبط، انظر: ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن/ ترجمة: علي مقلد- الجبيل: صفحة سبعة

(١) راجع: أحمد السيد شحاته محمد سرحان، الطولونيون في مصر ومفهوم الاستقلال السياسي (رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧)، إشراف: أحمد عبد الحميد الشامي، ص ٤١ - ١٣٧.

(٢) راجع: حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية: العصر الطولوني- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٩، ص ١٢٢ - ١٢٦.

(٣) راجع: جُرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الآن مع فذلكة في تاريخ مصر القديم- المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٩، ص ٢٠٣ - ٢٠٥.

(٤) أماني كارم سعد، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد خمارويه (٢٧٠هـ-٢٨٢هـ/٨٨٣م-٨٩٥م)، أطروحة ماجستير/ إشراف: زبيدة محمد عطا، جامعة حلوان، كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠١٤.

(٥) نعيمة سالم عاشور المصراطي، الدولة الطولونية في مصر والشام (٢٥٤-٢٩٢ هـ / ٨٦٧-٩٠٤ م)، رسالة ماجستير، جامعة قاريونس، ٢٠١٠.

(٦) هيلة بنت محمد بن علي القصير، "أثر المصاهرة في تطور العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الطولونية خلال الفترة (٢٧٩-٢٨٩ هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م)"، مجلة عصور، ع ٣-٣١ (٢٠١٦): ١١٢-١٤٢.

(٧) إيمان مصطفى عبدالعظيم، "استراتيجيات مواجهة العداء السياسي وتطورها عند الخليفة المعتضد وخمارويه بين الإصابة والإخفاق: دراسة تحليلية ٢٧٠-٢٨٢هـ / ٨٨٤-٨٩٦م"، مجلة البحث العلمي في الآداب، ج ٨، ع ٢٢ (٢٠٢١): ٢٥٥-٢٨١.

(٨) منيرة بنت مدحت بن منير القحطاني، "التطور الحضاري لمصر في زمن الطولونيين"، مجلة بحوث كلية الآداب، ج ١٢٢ (٢٠٢٠): ٣-٣٢.

(9) Alexi, Krol. "Floating on Mercury in the Moonlight: " Birkat Az-Zi'baq " in the Palace of Khumā Rawāih in Al-Qaṭā' // Journal of the American Research Center in Egypt 52 n.d., 125-135," doi:10.5913/JARCE.52.2016.A008. دراسة تتناول حوض الزُريق في قصر خمارويه بن أحمد بن طولون، وهي مرتبطة بالبخخ Elfardy, السلطاني ذاته، لكنها لا تتناول الأسد زُريق تحديداً. Radwa M.. Tracing the Islamic influences on the garden design of nineteenth-century Cairene gardens. 2018. American University in Cairo, Master's Thesis. AUC Knowledge Fountain.

أطروحة تناولت حداثاً https://fount.aucegypt.edu/etds/488 القاهرة في العصور الوسطى، ويتطرق إليها سوياً موضوع Kandil, الحيوانات في البلاط (لكن ليس بشكل مخصص لأسد زُريق) Doaa, and Manar Mahmoud. "From Menagerie to Zoo: Remembering Gezireh Palace Lost Zoo." International Academic Journal (IAJFTH), 2019. مقال يتناول تطور الحداثات الحيوانية في مصر الحديثة، ويشير إلى دلالات السلطة من خلال Gibson, Melanie. A Menagerie in Metal in Brasses, Bronze and Silver of the Islamic Lands, Nasser D. Khalili Collection of Islamic Art, April 2023, in Brasses, Bronze and Silver of the Islamic Lands, 350-363. Khalili

(٢٣) راجع: زكي محمد حسن، **الفن الإسلامي في مصر: من الفتح العربي إلى نهاية العصر الطولوني**، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٥.
(ج١، ص ٥٦ - ٦٣). سيدة إسماعيل كاشف، **أحمد بن طولون**، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥. (ص ٢٤ - ٢٤٥).
سيدة إسماعيل كاشف، **مصر في فجر الإسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤. (ط٢/ص ٢٤٧).

(٢٤) انظر: أشرف صالح محمد سيد، إمام الشافعي محمد حمودي، "جامع أحمد بن طولون: الرمزية السياسية، الأسطورة، المعتقد الشعبي"، مجلة التراث العلمي العربي (فصلية علمية مُحكَّمة تصدر عن مركز إحياء التراث العلمي العربي - جامعة بغداد)، العدد (٣٩) (تشرين الأول - كانون الأول) ٢٠١٨، ص ٩٦ - ٤٢.
(٢٥) انظر: رشوان سمير رشوان ريان، "نظام الحكم في مصر الطولونية"، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، ج١، ع ٥٨ (٢٠٢٣): ص ٣٠٩ - ٣٥٥.

(٢٦) انظر: زياد سعيد الشحادة، "علاقة الدولة الطولونية بالخلافة العباسية أيام خمارويه ٢٧-٢٨٢ هـ / ٨٨٣-٨٩٥ م"، مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية، مج ٣٧، ع ١٤ (٢٠٢١): ص ٢٥٣ - ٢٧٢.

(٢٧) عن فترة حكم خَمَارَوَيْه، انظر: عمر السكندري، أ. ج. سفدج، **تاريخ مصر إلى الفتح العثماني مع نبذ في أخبار الأمم التي ارتبطت بمصر إلى ذلك العهد**، القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٢٠، ص ١٨٦ - ١٨٧.
إسماعيل محمد أبو العينين، "مصر الإسلامية في العصور الوسطى"، ضمن كتاب: **في مصر الإسلامية**، أخرجه: زكي محمد حسن، عبد الرحمن زكي، القاهرة: مطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٣٧. (ص ١٣ - ١٤). ستانلي لينبول، **سيرة القاهرة**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، إدوار حليم، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠. (ط٢/ص ٨٩ - ٩١). مصطفى طه بدر، **مصر الإسلامية من الفتح الإسلامي حتى زوال الدولة الإخشيدية**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩. (ج١/ص ١٢٥ - ١٢٧). حسن عبيد، **الحكام من عمرو بن العاص إلى عبد الناصر**، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٨. (ص ٥٦ - ٥٧). سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، سعيد عبد الفتاح عاشور، **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية**، أعدها للنشر: عبد العظيم رمضان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣. ص ١٧٣ - ١٧٩. أحمد عبد الرازق أحمد، **تاريخ وآثار مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي**، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩. (ص ٩٦ - ١٠٢).
أشرف صالح محمد سيد، **سيرة مصر: الغزاة والولاة في سبعة قرون**، عمان: دار الوفاق للنشر والتوزيع، ٢٠٢١. ص ٢١٦ - ٢٢٦.

(٢٨) انظر: الكندي: أبو عمرو محمد بن يوسف (ت. ٣٥٠هـ)، **كتاب الولاة والقضاة**، عناية: رهن كست، بيروت: مطبعة اليسوعيين، ١٩٠٨. (ص ٢٣٣ - ٢٤١). ابن ظافر: جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي (ت. ٦١٣هـ)، **أخبار الدول المنقطعة**، تحقيق: عصام مصطفى هزايمة، محمد عبد الكريم محافظ، محمد علي يوسف طعاني، علي إبراهيم مصطفى عيابه، اريد: مؤسسة حماده للخدمات والدراسات الجامعية ودار الكندي للنشر والتوزيع، ١٩٩٩. (ج١/ص ١٣١ - ١٣٣، ١٣٨، ج٢/ص ٣٧٦). ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان

للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢. لفهم البلاط السلطاني كفضاء يروّض العنف ويحوّله إلى طقس هيبه، انظر:

Elias, Norbert, Eric Dunning, Johan Goudsblom, and Stephen Mennell. *The Civilizing Process: Sociogenetic and Psychogenetic Investigations*. Revised edition / edited by Eric Dunning, Johan Goudsblom, and Stephen Mennell. Malden, Mass.; Blackwell Publishers, 2000.

(13) See: Geertz, Clifford. *The Interpretation of Cultures*. New York: Basic Books, 1973.

(14) See: Ricœur, Paul. *The Symbolism of Evil*. Translated by Emerson Buchanan. Boston: Beacon Press, 1969.

(15) See: Elias, Norbert. *The Civilizing Process: The history of manners, and State formation and civilization*/ Translated by Edmund Jephcott. Oxford: Blackwell, 1994.

(16) See: Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Translated by Alan Sheridan. New York: Second Vintage Books Edition, 1995.

(١٧) راجع: حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، **النظم الإسلامية**، القاهرة، ١٩٦٢. ط١/ ص ١٨٤. إبراهيم أحمد العدوي، **مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام**، القاهرة: هيئة الآثار المصرية، ١٩٩٢. سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية مشروع المائة كتاب (رقم ١٧/ص ١٠٥). حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٦. ط١/ ج٢ (ص ١٥٧). ستانلي لين بول، **تاريخ مصر في العصور الوسطى**، ترجمة وتحقيق: أحمد سالم سالم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥. (ص ١٤٠ - ١٤٢).

(١٨) انظر: ابن الداية: أحمد بن يوسف (ت. ٣٣٩هـ)، **سيرة أحمد بن طولون**، تحت عنوان "كتاب الدر المكنون في حلل دولة بني طولون"، ضمن كتاب ابن سعيد الأندلسي (ت. ٦٨٥هـ)، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق وتعليق: زكي محمد حسن، شوقي ضيف، سيدة كاشف، القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣. (ج١/ من القسم الخاص بمصر/ ص ٧٣ - ١٣٣). البلوي: أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي (ت. في القرن الرابع الهجري)، **سيرة أحمد بن طولون**، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق: المكتبة العربية، ١٩٣٩.

(١٩) انظر: أشرف صالح محمد سيد، **أيام المحروسة من الدخول العربي حتى التجربة الإخشيدية**، فلسطين: دار الصداقة للنشر الإلكتروني، ٢٠١٠. (ص ١٥٨ - ١٦٦).

(٢٠) عن دور الجيش والأسطول في تدعيم الاستقلال، انظر: أحمد السيد شحاته سرجان، **الطولونيون في مصر ومفهوم الاستقلال السياسي**، رسالة ماجستير غير منشورة/ إشراف: أحمد عبد الحميد الشامي، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧. (ص ٢٦٣ - ٣٣٦).

(٢١) انظر: حسن أحمد محمود، **حضارة مصر الإسلامية: العصر الطولوني**، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٩. (ص ١٧١ - ٢٣٤).

(٢٢) البلوي: عبد الله بن محمد المديني (ت. في القرن الرابع الهجري)، **سيرة أحمد بن طولون**، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق، المكتبة العربية، ١٩٣٩. (ص ٥٢ - ٥٣).

طولون. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥. (ص. ٢٤ - ٢٤٥). سيدة إسماعيل كاشف، **مصر في فجر الإسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤. (ص. ٢٤٧).

(٣٨) راجع: المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير** / تحقيق: محمد اليعلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. (ج٣/ ص ٨١٨ - ٨١٩). **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** / قابله بأصوله وأعدده للنشر: أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢. (ج٢/ ص ٩ - ٩١). (٣٩) المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرئزية)** وضع حواشيه: خليل منصور. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤. (ج٢/ ص ١٢٦).

(٤٠) هويدا عبد العظيم رمضان، **المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ج٢/ ص ٩٨ - ٩٩).

(٤١) راجع: المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** / قابله بأصوله وأعدده للنشر: أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢. (ج٢/ ص ٩ - ٩١).

(٤٢) راجع: ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت. ٨٧٤هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.** القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٢. (ج٣/ ص ٥٧).

(٤٣) المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** / قابله بأصوله وأعدده للنشر: أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢. (ج٢/ ص ٩١). ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت. ٨٧٤هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.** القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٢. (ج٣/ ص ٥٧).

(٤٤) المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير** / تحقيق: محمد اليعلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. (ج٣/ ص ٨١٨ - ٨١٩).

(٤٥) الكندي: أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (ت. بعد ٣٥٣هـ)، **الولاء والقضاة** / تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣. ص ١٧٨.

(٤٦) المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير** / تحقيق: محمد اليعلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. (ج٣/ ص ٨٢٢ - ٨٢٣).

(٤٧) المقرئزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، (ج٢/ ص ٩١).

(٤٨) موفق الدين بن عثمان: موفق الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، ابن الشيخ أبي الحرم مكّي بن عثمان الشارعي الشافعي (ت. ٦١٥هـ)، **مُرشد الزوار إلى قبور الأبرار: المسمى الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم** / تحقيق: محمد فتحي أبو بكر. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٥. ص. ٥٥ - ٥٥١.

(٤٩) موفق الدين بن عثمان، **مُرشد الزوار إلى قبور الأبرار**، ص ٥٥٢ - ٥٥٣.

البرمكي الإربلي (ت. ٦٨١هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** / تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ١٩٠٠. (ج٢/ ص ٢٤٩). المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير** / تحقيق: محمد اليعلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. (ج٣/ ص ٨١١ - ٨٣٣).

(٢٩) عطية القوصي، **الدولة الطولونية**، ضمن كتاب: **المرجع في تاريخ مصر في العصور الوسطى** / تقديم ومراجعة: زبيدة محمد عطا وحسين محمد ربيع. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٣. ص ١٤١.

(30) See: Sobernheim, Moritz. "Khumārawaih" In E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam, 1913-1936, Vol. 4, edited by Martijn Theodoor Houtsma, 973. Leiden: Brill, 1987.

(٣١) علي باشا مبارك (ت. ١٣١١هـ)، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلدها القديمة والشهيرة.** القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٤. الطبعة: الثانية المنقحة (ج٢/ ص ٢٩٣ - ٢٩٤). مصطفى طه بدر، **مصر الإسلامية من الفتح الإسلامي حتى زوال الدولة الإخشيدية.** القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩. (ج١/ ص ١٧ - ١٧٤).

(٣٢) المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير** / تحقيق: محمد اليعلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. (ج٣/ ص ٨١٨ - ٨١٩). **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** / قابله بأصوله وأعدده للنشر: أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢. (ج٢/ ص ٩ - ٩١).

(33) See: Werthmuller, Kurt J. Coptic Identity and Ayyubid Politics in Egypt, 1218-1250. Cairo: American University in Cairo Press, 2010. Khumarawayh ibn Ahmad ibn Tulun Pp.105, 123 117, 116, 91, 52-50.

(٣٤) انظر: ابن سعيد الأندلسي: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت. ٦٨٥هـ)، **المُغْرِب في حُلَى المغرب** / تحقيق وتعليق: زكي محمد حسن، شوقي ضيف، سيدة كاشف. القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣. (ج١/ من القسم الخاص بمصر/ ص ١٣٤ - ١٤٠).

(٣٥) عن الجوارى والمغنيات لدى حُمارَوَيْه، انظر:

Gordon, Matthew S., and Kathryn A. Hain, eds. Concubines and Courtesans: Women and Slavery in Islamic History. Oxford: Oxford University Press, 2017. Khumarawayh ibn Ahmad ibn Tulun, p.38.

(36) See: Haarmann, Ulrich. "Khumārawayh" In The Encyclopaedia of Islam. 2nd ed., Vol. 5, Khe-Māhi, edited by C. E. Bosworth, E. van Donzel, B. Lewis, and Ch. Pellat, 49-50. Leiden: E. J. Brill, 1986.

(٣٧) راجع: المقرئزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** / تحقيق: محمد زينهم ومديحه الشرقاوي. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧. (ج١/ ص ٣١٣ - ٣١٥). زكي محمد حسن، **الفن الإسلامي في مصر: من الفتح العربي إلى نهاية العصر الطولوني.** القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٥. (ج١، ص ٥٦ - ٦٣). سيدة إسماعيل كاشف، **أحمد بن**

(٦١) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت. ٨٢١هـ)، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**/ تحقيق: عبد الستار أحمد فراج- الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥. (ج١/ ص٢٦٦). المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير**/ تحقيق: محمد اليعلاوي- بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. (ج٣/ ص٨٢٣).

(٦٢) راجع: عطية القوصي، **تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني (٢٠ - ٩٢٢هـ / ٦٤١ - ١٥١٧م)**. القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٩٧. ص٨٩.

(٦٣) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير**/ تحقيق: محمد اليعلاوي- بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. (ج٣/ ص٨١٨ - ٨١٩). **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**/ قابله بأصوله وأعدده للنشر: أيمن فؤاد سيد- لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢. (ج٢/ ص٨٨). راجع: أنور محمود زناتي، أشرف صالح محمد سيد، **أيام المحروسة من الدخول العربي حتى التجربة الإخشيدية**. عمان: دار زهران للنشر والتوزيع، ٢٠١٤. (ص٣١٨ - ٣٢٠).

(64) See: Klopogge, J. Theo, Concepcion P. Ponce, and Tom Loomis. *The Periodic Table: Nature's Building Blocks: An Introduction to the Naturally Occurring Elements, Their Origins and Their Uses*. Elsevier, 2020. P. 786.

(٦٥) المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** (ج٢/ ص٩١).

(66) See: Elias, Norbert. *The Court Society*. Translated by Edmund Jephcott. New York: Pantheon Books, 1983. Originally published as *Die höfische Gesellschaft* by Hermann Luchterhand Verlag, 1969. Copyright 1983 by Basil Blackwell Publisher Limited. Pp. 38 -39, 63.

(٦٧) راجع: أماني كرام سعد، **الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد خمارويه (٢٧٠هـ-٢٨٢هـ/ ٨٨٣م-٨٩٥م)**، أطروحة ماجستير/ إشراف:

زبيدة محمد عطا، جامعة حلوان، كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠١٤.

(٦٨) عن زواج المعتضد من أسماء بنت خمارويه "قطر الندى"، راجع: المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت. ٣٤٦هـ)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. بيروت: الشركة العالمية

للكتاب، ١٩٩٠. (ط٢/ مج٢/ ص٥٩٩). ابن ظافر: جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي (ت. ٦١٣هـ)، **أخبار الدول المنقطعة**/ تحقيق: عصام مصطفى هزايمة، محمد عبد

الكريم محافظه، محمد علي يوسف طعاني، علي إبراهيم مصطفى عباينة- اريد: مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية ودار الكندي للنشر والتوزيع، ١٩٩٩. (ج٢/ ص٣٧٦). النويري:

أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٣هـ. (ج٢/ ص٣).

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ)، **رسائل المقريزي**. القاهرة: دار الحديث، ١٤١٩هـ. ص٣٣٢. ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٢. (ج٣/ ص٥٧).

(٥٠) موفق الدين بن عثمان، **مُرشد الزوار إلى قبور الأبرار**، ص٥٣.

(٥١) يورد البعض معلومات خاطئة على أن خمارويه له كلب مفضل ويقصد الأسد، يقول "كان له علاقة وثيقة بـكلبه زريق". راجع:

"Arab Caliphs and their Pets". *Biblioteca Natalie*, June 14, 2023. <https://bibliotecanatalie.com/home/f/arab-caliphs-and-their-pets>

(٥٢) راجع: محمد مصطفى محمد الخازمي، **"الألقاب والكنى والرنوك والشارات على المسكوكات الإسلامية"**، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة (تصدر عن مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة - الأغواط - الجزائر). العدد (٣) أكتوبر ٢٠١٦. (ص١٩٧ - ٢١٣).

(53) See: Geertz, Clifford. *Negara: The Theatre State in Nineteenth-Century Bali*. Princeton University Press, 1980. Pp. 98 - 109.

(٥٤) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**/ قابله بأصوله وأعدده للنشر: أيمن فؤاد سيد- لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢. (ج٢/ ص٩١ - ٩٢).

(٥٥) راجع: المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، (ج٢/ ص٩١). ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٢. (ج٣/ ص٥٧).

(56) See: Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Translated by Alan Sheridan. New York: Vintage Books, 1995. (Originally published in French as *Surveiller et punir : Naissance de la prison*, Paris: Gallimard, 1975.) Pp. 135 - 140, 160 - 165.

(٥٧) تتناول هذه العبارة فكرة السيطرة والسلطة في سياق أفكار فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤) حول المراقبة والانضباط، حيث يشير إلى أن القوة لا تكمن فقط في القدرة على فرض العقوبات أو القتل، بل في التحكم في أفعال الآخرين من خلال جعلهم يطيعون القواعد أو التعليمات، حتى دون الحاجة إلى استخدام العنف المباشر.

(٥٨) راجع: ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٢. (ج٣/ ص٥٧).

(59) See: Elias, Norbert. *The Court Society* / by Norbert Elias ; Translated by Edmund Jephcott. 1st American ed. New York: Pantheon Books, 1983. Pp. 66 - 77, 117 - 145.

(٦٠) راجع: المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**/ قابله بأصوله وأعدده للنشر: أيمن فؤاد سيد- لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢. (ج٢/ ص٩١). ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٢. (ج٣/ ص٥٧).

(٧٥) غسان محمود وشاح، أشرف صالح محمد سيد، **مصر القروسطية: قضايا من التاريخ السياسي والحضاري (٦٤١ - ١٢٥٠م)**، القدس: دار الجندي للنشر والتوزيع، ٢٠١٩، ص ٨٨.

(٧٦) حامد محمد حامد، **خريدة القاهرة: شيء من سيرة الأماكن والأشخاص**، القاهرة: الرواق للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠، (ص ١٣ - ١٥).

(٧٧) انظر: أمل مبروك عبد الحليم، **"رمزية الشر عند بول ريكور"**، مجلة التفاهم (فصلية فكرية إسلامية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان)، العدد (٤٣) سنة ٢٠١٤، (ص ٣٢١ - ٣٤٧).

(٧٨) ياسر ثابت، **تاريخ كوكب القاهرة**، القاهرة: دار المحرر للنشر والتوزيع، ٢٠٢٥، (ص ١٤٤ - ١٤٣).

(٧٩) انظر: كليفورد غيرتز، **تأويل الثقافات: مقالات مختارة**، ترجمة: محمد بدوي، مراجعة: بولس وهبة، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، (ص ٢٨٩ - ٣١٥).

(٨٠) راجع: نرمين سامح أحمد، **«اهتمام الحكّام والعلماء المسلمين بعلم الحيوان والبيطرة والبيطرة في العصر العباسي»**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، المجلد (٧)، عدد ٥ (يوليو ٢٠٢٤)، ص ٣٨ - ١٤.

(٨١) انظر: ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن**، ترجمة: علي مقلد، مراجعة: مطاع صفدي، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠، (ص ١٥٧ - ٢٣١)، والفكرة مركّبة من تحليله لطرائق إنتاج الطاعة عبر الجسد وتقنيات الانضباط، وهي ما اصطلح عليه في الدراسات الفوكوية الحديثة بـ«جماليات السلطة».

(82) See: Ricœur, Paul. *Philosophie de la volonté, Finitude et Culpabilité II. La symbolique du mal*, translated as *The Symbolism of Evil*, by Emerson Buchanan, New York: Harper and Row, 1967. Pp. 247-57.

وانظر: عادل مصطفى، **فهم الفهم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا (نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر)**، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي، ٢٠١٨، (بول ريكور ص ٢٦٥ - ٢٧٩).

(٨٣) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، قبله بأصوله وأعدّه للنشر: أيمن فؤاد سيد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢، (ج ٢/ص ٩١).

(ج ١/ ص ١٧٣)، مرعي بن يوسف الكرسي (٣٣٠ هـ / ١٦٢٣م)، **نزهة الناظرين في تاريخ منّ ولي مصر من الخلفاء والسلطين** (دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠١٢)، تحقيق: أميرة فهمي محمد دبابسة، إشراف: محمود علي عطا الله، (ص ١٢ - ١٢١)، محمد عيد قويدر سلامة القعاقعة، **بلاد الشام في فترة الحكم الطولوني ٢٦٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٧٧ - ٩٠٥م** (أطروحة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩٥) إشراف: يوسف حسن درويش غوانمة، (ص ٨٧ - ٨٩)، محمد عبد الله عنان، **مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، (ص ٩٥ - ٩٩).

See: Hassan, Z. M., *Les Tulunides: Études de l'Égypte musulmane à la fin du IXe siècle: 868-903* (Paris, 1933). Pp. 119-120.

(٦٩) منصور، أحمد صبحي، **"الوريث خمارويه الطولوني بين الترف والتلف"** أهل القرآن (www.ahl-alquran.com)، ٢٨ مايو ٢٠٠٩، (٧٠) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت. ٨٤٥هـ)، **المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١، (ج ٣/ ص ٨١٨ - ٨١٩).

(71) See: Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Translated by Alan Sheridan. New York: Vintage Books, 1995. (Originally published in French as *Surveiller et punir : Naissance de la prison*, Paris: Gallimard, 1975.) Pp. 135-140, 160-165.

(٧٢) المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** (ج ٢/ ص ٩١).

(٧٣) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت. ٣٤٦هـ)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٠، (ط ٢/ مج ٢/ ص ٦١)، ابن ظافر: جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي (ت. ٦١٣هـ)، **أخبار الدول المنقطعة**، تحقيق: علي عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠١، ص ٧٣، ابن الأثير: عز الدين ابن الأثير، أبو الحسن، علي بن محمد الجزري (ت. ٦٣٠ هـ)، **الكامل في التاريخ**، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، (مج ٦/ ص ٣٨٢)، النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٣ هـ. (ج ٢/ ص ٣ - ٣١)، ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومنّ عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١، (ج ٤/ ص ٤٠٠)، محمد أحمد زيود، **العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والانشيدي (٢٥٤ - ٣٥٨ هـ / ٨٦٨ - ٩٦٨م)**، دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٩، ص ١٣٥، محمد عيد قويدر سلامة القعاقعة، **بلاد الشام في فترة الحكم الطولوني ٢٦٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٧٧ - ٩٠٥م** (أطروحة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩٥) إشراف: يوسف حسن درويش غوانمة، (ص ٨٩).

(٧٤) المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** (ج ٢/ ص ٩١).

إضاءات حول البدايات المرينية من وقعة العقاب إلى واقعة "المتشغلة"

د. عمر الحريتي

أستاذ الثانوي التأهيلي

دكتوراه في التاريخ الوسيط

جامعة القاضي عياض - المملكة المغربية



ملخص

ما تزال بدايات الحدث المريني بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط تستبطن العديد من الأسئلة الخلافية، التي تقتضي إعادة طرحها الانفلات من مسلمات الخطاب الإسطغرافي الرسمي. ومعتقد الخلاف الرئيس حول فكرة التأسيس التي تتأرجح بين مشروع كان مبيتا، أُنعت بذوره في مشتل العصبية الزناتية، وبين سياق حدثي غلب ترجيح ربطه بهزيمة الجيوش الموحدية في معركة العقاب وما بعدها. وبين العنصرين تتوارى مسألة اصطناع الموحدين لفلول العصبية الزناتية التي أصّل ابن خلدون للرئاسة في تاريخها قبل غيرها من قبائل البربر البتر والبرانس. يبدو أنه لا سبيل إلى رصد مواطن الغموض الذي اكتنف أحداث البدايات المرينية إلا باستجلاء المنطق الذي تحكم في تحريكها، وإن اقتضى الأمر تجاوز النباش على صعيد الاشكالية المجالية إلى تسليط مزيد من الضوء على الذاكرة الثقافية التي تعكسها بالضرورة أصداء الخريطة الإسطوغرافية. يتوخى هذا المقال معاودة الاستفهام حول بعض العلائق الدائرية التي طبعت مسار السلطة المركزية أواخر العصر الوسيط من تاريخ المغرب الأقصى، عن طريق مساءلة الذخيرة المصدرية ومساءلة الذاكرة المجالية حول بعض الأحداث المدوّية والمنعطفات التاريخية المساندة لجلّ الأسس النظرية التي أضحت بعضها من المسلمات المفسرة لظهور بني مرين. ومحاولة رسم مشهد للخلفيات السياسية التي كانت وراء تحريك الأحداث بتتبع المنطق الذي تحكم فيها.

كلمات مفتاحية:

المغرب الأقصى؛ العصر الوسيط؛ الإسطوغرافيا؛ الموحدون؛ العقاب؛ بنو مرين؛ "المتشغلة"؛ تاريخ المغرب نهاية العصر الوسيط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٨ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٢ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.415328.1262

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عمر الحريتي، "إضاءات حول البدايات المرينية من وقعة العقاب إلى واقعة المتشغلة"، دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون؛ ديسمبر ٢٠٢٥، ص ٦٤ - ٧٣.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: elharitiomar.oh@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

التاريخية المساندة لجلّ الأسس النظرية التي أضحت بعضها من المسلمات المفسرة لظهور بني مرين. ومحاولة رسم مشهد للخلفيات السياسية التي كانت وراء تحريك الأحداث بتتبع المنطق الذي تحكم فيها.

أولاً: سياق ميلاد التجربة المرينية

١/١- الأسباب الكامنة وراء منعطف العقاب

تعددت الأسباب الداخلية لنكبة العقاب حسب الروايات بين ما هو مادي مثل تأخير رواتب الجند^(٢) وبين ما هو نفسي مثل تشنُّج الأندلسيين. لكن يفهم من رواية لابن عذاري أن "أزمة الشيوخ" كانت من أهم العوامل وراء هزيمة الموحدين: «وفي سنة تسع وستمائة شاع الخبر بالأندلس عند أشياخ الموحدين بمهلك المستغلبين المعتقلين بفاس...وفي هذه السنة [٦٠٩هـ-١٢١٢م] كانت وقعة العقاب التي كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن [حوالي سنة ٧١٢هـ-١٣١٢م]...فالتقى الجمعان بالموضع المعروف بالعُقاب، فكان الظهور أولاً للمسلمين على أن الموحدين لم يجدوا في تلك الغزوة ولا نصحوا فيها لأجل نكبة أميرهم الناصر لأشياخهم وقتله واستيصاله لهم على يد المفوض ذلك إليه ابن المثنى»^(٣). تشير الرواية إلى تخلف الموحدين عن المشاركة بجدّ في المعركة بسبب نكبة الخليفة الناصر لبعض أشياخهم قبيل المعركة على يد صاحب الأشغال ابن المثنى بفاس، ومعلوم أن التمرد في صفوف الجيوش يجعل الهزيمة واردة. وهناك من الإخباريين من يرجع أسباب الهزيمة لعهد الخليفة يعقوب المنصور، بدعوى أنه فوّت فرصة استئصال شأفة الملك النصراني ألفونسو الثامن عندما هزمه في معركة الأرك وتركه يلوذ بالفرار.

صرّح صاحب القرطاس في معرض حديثه عن نهاية الموحدين، وتمهيداً لظهور ملك بني مرين، بأن واقعة العقاب كانت أكبر مؤشر على زوال دولتهم. وعزى تلك النكسة بشكل مباشر إلى فتور همة ملوكهم المتأخرين: «كان من تقدم من ملوك الموحدين أولي حزم ورأي ودين، إلى أن كانت وقعة العقاب، فأذنت دولتهم بالذهاب...فبدا الفساد في ملكهم، وظهر النقص في دينهم وبلادهم...فجعل الله بأسهم بينهم، وبعث لفنائهم

وفدت طلائع بني مرين من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى لأسباب متعددة؛ منها ما ارتبط عمومًا بالتحركات القبلية وما لازمها من تدافع وما أسفرت عنه من تحولات مجالية وثقافية. ومنها ما اتصل بعوامل خارجية كان مجال الأندلس مركزها، ونتج عنها ما أسهم في التحولات الكبرى التي عرفها العالم المتوسطي وأواخر العصر الوسيط. وارتبطت كل هذه الأحداث والديناميات عضويًا بالمجتمع المغربي وانعكست عليه آثارها وتداعياتها. ورغم ما بلغته الجهود البحثية في هذا الصدد، فإن الحدث المريني بالمغرب الأقصى ما يزال يستبطن أسئلة كبرى. إن دراسة الفترة الأولى من التاريخ المريني حسب الباحثين المتخصصين في غاية الصعوبة، إذ لا توجد جلّ المصادر الإخبارية المرينية المتوفرة إلا بإشارات قليلة حول تفاصيل هذه الفترة المبكرة. ومن ثمّ وُجد خصاص في المادة المصدرية يكون قمينا بتوضيح "الميكانيزمات" التاريخية التي حوّلت عناصر قبائل رعوية إلى مؤسسي دولة كبيرة^(١)، حسبما استنتجت الباحثة "مايا شاتزميلر" من تتبعها للإسطوغرافيا المرينية.

يتضح من الخريطة الإسطوغرافية (انظر الملاحق) أن تواريخ تأليف جلّ المنجزات متأخرة عن زمن البدايات المرينية، وانطلق أغلبها من حواضر الغرب الإسلامي الكبرى. ومما يزيد الأمر تعقيداً كون مواضع البياضات في تاريخ المرينيين زامنت نهاية دولة الموحدين، كما واكبت مراحل تطور الدولة المرينية من بداية "الطور الحركي" إلى غاية قيام الدولة. فهل كان المدّ المريني نحو المغرب الأقصى تحركاً رعويًا في إطار النجعة أم كان هجرة سياسية بامتياز؟ ما سياق مجمل المواجهات السياسية بين الموحدين والمرينيين؟ وكيف صورتها أهم المصادر المرينية بمنطق سردي غير معاصر؟

يتوخى هذا المقال معاودة الاستفهام حول بعض العلائق الدائرية التي طبعت مسار السلطة المركزية أواخر العصر الوسيط من تاريخ المغرب الأقصى، عن طريق مساءلة الذخيرة المصدرية ومساءلة الذاكرة المجالية حول بعض الأحداث المدوّية والمنعطفات

هذا السياق الذي يسمه الاضطراب على أكثر من صعيد ولدت التجربة المرينية، التي يمكن تقسيم عمرها إلى ثلاثة أطوار؛ الحركة، فالإمارة، ثم السلطنة.

٢/١- جذور الحركة المرينية

أمام وضعية المغرب المتردية جراء تداعيات معركة العقاب حسب جل الروايات التاريخية، رصد صاحب العبر في نفس السياق أوضاع الحركة المرينية المتوثبة ودواعي صعود نجمها: «وكان هذا الحي لذلك العهد بمجالات القفار، من فيكيك إلى صا^(٨) وملوية... وكانوا يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحدين وما قبلها جهات كرسيف إلى وطاط، ويأمنون بمن هناك من بقايا زناتة الأولى مثل مكناسة بجبال تازي، وبني يرنيان من مغراوة الموطنين قصور وطاط من أعالي ملوية... فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة، وتخطوا إليها القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته... وأظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة، فأذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم»^(٩). يظهر مما ذكره بن خلدون أن مشروع الحركة المرينية كان مبيتا، وكانت بذوره تنمو في جذور العصية الزناتية، على عكس رواية صاحب الذخيرة التي رسمت صورة مغايرة لبداية وفودهم إلى المغرب الأقصى: «وكانت طائفة من بني مرين يدخلون بلاد المغرب في زمان الصيف فيرعون به أنعامهم، ويكتالون منه ميرتهم... كان ذلك دأبهم على مر الزمان، وتعاقب الأحيان، إلى سنة إحدا وستمئة فوقع بينهم وبين بني عبد الوادي وبني واسين حرب بسبب امرأة فافترقوا من تلك السنة، وقصدت مرين نحو المغرب، فنزلوا بالجبل المطل على وادي ملوية وهو الجبل الفاصل بين بلاد المغرب وبلاد الصحراء»^(١٠).

حسب هذه الرواية، كانت طوائف بني مرين تتجمع بين الزَّاب وأطراف المغرب الشرقي، وكان موضع تجمعهم ببلدة "كرسيف"، حيث يتفرقون صيفا ويتجمعون منتصف الخريف ليعودوا إلى موطنهم بالصحراء. يحيون حياة البداوة بكل تجلياتها؛ فهم لا يخضعون لسلطان، ولا يعرفون حياة الاستقرار، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات. كما اشتهروا بدأبهم على الحروب

عصبة مرين»^(٤). أما صاحب العبر فقد فصل الحديث عن فترة ما بعد العقاب، وحمل كافة "الموحدين" مسؤولية مآل الدولة المومنية: «ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب، وقام بأمر الموحدين من بعده ابنه يوسف المستنصر، نصبه الموحدون للأمر غلاما لم يبلغ الحلم. وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك؛ فأضاع الحزم وأغفل الأمور وتوكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه. ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر»^(٥). وفق نظريته المعلومة في قيام وسقوط الدول؛ حلل ابن خلدون وضعية الدولة الموحدية المتهاكمة بعد أن آل أمرها لغلام دون بلوغ، فيما كانت الظرفية أحوج ما تكون لملك حازم يستطيع مواجهة الأوضاع وقادر على فرض هيئته قبل القيام بتدبير الحكم. وأهم ما يثير الاهتمام في هذه الإشارة هو حالة البطانة الموحدية التي وصفها بالتوكل والخذلان في التصدي لما داهم الدولة من ملومات، وهو ما يفيد الخمول.

يمكن القول إن هزيمة الجيوش الموحدية في العقاب نتجت عن تضافر عدة أسباب داخلية وخارجية. الخليفة الناصر الذي لا يضاهي والده في السياسة والحرب، كان ضحية للظرفية الحساسة التي بدأت تختل فيها الموازين بين ضفتي المتوسط وتتخذ شكلا جديدا مطلع القرن ١٣هـ. كانت قد بدأت مسيرة من التضامن بين البلدان والممالك المسيحية رغم نزاعات ملوكها على الكراسي والعروش. ولعل رسالة^(٦) اعتذار الناصر عن تلك الهزيمة والتي برزت أسبابها الكبرى في تحالف النصاري الضخم وفي ابتلاء الله وقدره على المؤمنين، تحمل في طياتها وصفا دقيقا لتلك الظرفية التي مثلت آخر محطة في مسار مركزية الدولة الموحدية. لقد أذنت معركة العقاب (٦٠٩هـ - ١٢١٢م) بتبدل خريطة بلاد المغرب، فبعيد الهزيمة العسكرية دخل الحكم الموحد في أزمة سياسية ودينية عميقة بسبب مشاكل بنيوية متعددة، مثل حروب التوريث وحركات التمرد والنزعات الانفصالية والقلقل القبلي والكوارث الطبيعية والتغير السكاني بدخول العنصر البدوي^(٧)، كما كانت مؤشرا على تراجع المغرب عن التحكم الفعلي في البوغاز. وفي

حظوة عند الموحدين، وكانوا بدورهم دون شك يراقبون عن كثب مآل السلطة بالمغرب الأقصى.

يختزل الجدول الآتي (رقم ١) أهم الأحداث التي واكبت مرحلة الطور "الحركي" المريني، الذي ابتداءً عملياً منذ سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م بدخول بني مرين إلى المغرب الأقصى.

جدول رقم (١)

قائمة الأمراء المرينيين، مدة زعامتهم وأهم إنجازاتهم

الأمراء	مدة الزعامة	أهم الإنجازات	المصادر
عبد الحق بن محيو	توفي سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م	- أول من أدخل بني مرين إلى المغرب سنة ٦١٠هـ. - أهلك جميع بوادي المغرب وضيق الواسع على الموحدين. - قائد المرينيين في وقعة "المشعلة".	روضة النسرين ص ١٤. (١١)
أبو سعيد عثمان بن عبد الحق	من: ٦١٤هـ/١٢١٧م إلى: ٦٣٨هـ/١٢٤٠م	- ثار لمقتل والده عبد الحق من عرب رياح. - جمع أشياخ مرين وندبهم إلى القيام بأمر الدين. - واصل توسعه في بوادي المغرب.	الأنيس المطرب ص ٢٨٨. (١٢)
أبو معرف محمد بن عبد الحق	من: ٦٣٨هـ/١٢٤٠م إلى: ٦٤٢هـ/١٢٤٤م	- فتح كثيراً من جبال المغرب وبواديه قبل أن يقتل في مواجهة مع الجيش الموحيدي.	الأنيس المطرب ص ٢٩٠. (١٣)
أبو يحيى (أبو بكر) بن عبد الحق	من: ٦٤٢هـ/١٢٤٤م إلى: ٦٥٦هـ/١٢٥٨م	- أول من جند الجنود وضرب الطبول، وقسم بلاد المغرب على بني قبائل مرين. - بايع السعيد الموحيدي ودخل في خدمته لتجنيب بني مرين مواجهة في غير صالحهم. - فتح مكناسة، فاس وسلا. - هزم المرتضى بجبال بهلولة. - هزم يغمراسن الزياني. - مدد الأمر لقومه بني مرين وفتح الأمصار ومقيم الرسوم الملكية من الآلة وغيرها لمن بعده من أمرائهم.	الأنيس المطرب ص ٢٩١-٢٩٦. (١٤) تاريخ بن خلدون، ج ٧ ص ٢٢٧. (١٥)

و"خوضان الليل"، واستمرار الخلاف والصراع بينهم وبين أبناء عمومته بني عبد الواد وبني واسين. مما يشي بدور التحركات القبلية والصراع في التعجيل باستعداد بني مرين لإطلاق مشروع الاستقرار بالمغرب الأقصى الذي يعرفون أوضاعه جيداً، فلم يضيعوا الفرصة التي سنحت بذلك و"لو" اقتضى الأمر الانضواء مؤقتاً تحت سلطة بني حفص، وهذا الإجراء على ما يبدو كان الدافع له أكثر من مجرد طلب المشروعية، وإنما كسب حصانة في وجه الخصوم من بني عبد الواد الذين كانت لهم

الرياسة مما يفسر أهم أسباب العداوة التاريخية بين الزينانيين والمرينيين.

ثانياً: عام "المشغلة" بين الرواية والواقع

لا شك أن تتبع إشكالية العلاقة بين الذاكرة والتاريخ يتيح ملامسة ما يتوارى خلف الخطاب السياسي؛ ذلك أن تتبع الأحداث ذات الإشعاع الكبير في المصادر من شأنه الكشف عن مخلفات ذهنية ورمزية يميّط تحليلها اللثام عن الأهداف التي سطرّت من أجلها، ويسعف في رصد السياق الذي ظهرت فيه، بناء على التسليم بكون وازع الهيمنة أهم إطار لعلاقة السلطة بالذاكرة. ولعل ما يعضد ذلك هو الحاصل من تتبع الصلة بين ذاكرة الأفراد والذاكرة الجماعية حيث ينكشف من تقاطعهما تلازم البعدين السياسي والاجتماعي. ومنه فلا يمكن استبعاد مسألة التوظيف السياسي للذاكرة الجمعية خاصة في تجلياتها الروحية والدينية. وفي هذا الصدد يتداخل الديني بالسياسي مما يقابل المقدس بالمدنس في بعض مزايا الفكر الديني؛ فتسهل مهمة الفقيه والقاضي في إيجاد حكم يمكن من تحديد وجه الجناية بناء على القرائن، فيما يقف المؤرخ موقف الحيرة والتردد والعجز عن إصدار حكمه حتى وإن توفّق في ترجيح كفة الاتهام، لكون مهمته التحليل لتحقيق الفهم وليس الحكم أو الإدانة.

تكاد المصادر الإخبارية تجمع على أن وصول النازحين الجدد من بني مرين إلى المغرب الأقصى سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م)، أي بعد مرور عام على حدث العقاب، وفدوا من الزاب إلى المغرب عبر الجهة الشرقية، وكان نزوحهم بزعمامة الأمير عبد الحق بن مَحْيُو، وقد واكبته -حسب ما صوّرت جلّ الروايات- مشاهد سلبية في بلاد المغرب التي بدا أهلها في خضم تداعيات معركة العقاب. ويبدو أن أهل البوادي بالمغرب الأقصى كانوا أكثر المتضررين من وصول المرينيين: «ودخل [عبد الحق بن محيُو] المغرب من الصحراء من زاب أفريقية موضع إمارته وإمارة سلفه، مع قوم من بني مرين في عام عشرة وستمئة من جهة جرسيف، فأهلك جميع بوادي المغرب، وضيق الواسع على ملوك الموحيين»^(٢٠). ما جعل أهل البوادي من

إن البدايات الأولى للحضور المريني بالمغرب الأقصى^(١٦) سواء كان منطلق غزو المرينيين وتوسعهم شمال البلاد أم جنوبها، تواكبها عدّة استفهامات؛ هل كان هذا الحضور نتيجة من نتائج وقعة العقاب التي حصدت جيوش الموحيين وأخلت المغرب من رجاله كما تتفق المصادر التي أسهبت في وصف الوقعة؟ هذا الرأي الذي يستند إلى العامل الديموغرافي، يستدعي بالضرورة استحضار إشكالية المجال الحيوي الذي شغله المرينيون الزناتيون^(١٧)، والذي من المرجح أنه لم يكن مجالا مستقرا، ومرد ذلك إلى تضيق تحركات القبائل العربية بدءاً من الهلالية وصولاً إلى الاصطدام المريني مع بني رياح من جهة، وحيثيات "الخضوع" للسلطة الموحدية من جهة أخرى. فقد انخرط المرينيون الأوائل في جبهات صراع متعددة، لعل أبرزها ما يمكن سميّه بـ"النزاع الأهلي" بما أن خصومهم كانوا من نفس العصبية القبلية: زناتة. وتعود جذور الصراع المريني-العبدوادي إلى فترة تغلب الموحيين على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة، إذ: «كان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الآخر، وأمحضوا النصيحة للموحيين فاصطنعواهم دون بني مرين... وترك الموحدون ضواحي المغرب الأوسط كما كانت لبني يلومي وبني وماتوا»^(١٨) فملكوها. وتفرد بنو مرين بعد دخول بني يادين إلى المغرب الأوسط بتلك الصحراء... فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين بحظ من الملك أعادوا فيه لزناتة دولة وسلطاناً في الأرض، واقتادوا الأمم برسّن الغلب»^(١٩). يحيلنا ابن خلدون على ماضي قبائل زناتية وأحوالها في بلاد المغرب الكبير بين المداولة والمنازعة، وتضيف الرواية إلى قائمة أسباب الصراع بين هذه القبائل الزناتية، سبباً هو موقف السلطة المركزية/الموحدية؛ فاصطناع عبد المومن لبني عبد الواد مقترن بإقصائه لأبناء عمومته بني مرين. كما لا يُستبعد أن يكون انسجام عبد المومن مع بني عبد الواد له صلة بنسبه الكومي وأصل عصبية. ابن خلدون في هذا النص، يرمي إلى تأصيل الرياسة في تاريخ زناتة قبل غيرهم من قبائل البربر البتر والبرانس؛ فملوك مغراوة وبني يفرن منهم، والكاھنة منهم، ولعل مقتضيات

لكن المحاصرين رغم قتلهم استطاعوا هزم الجيش الموحي الذي دخل إلى رباط تازة ومدينة فاس يجر أذيال الهزيمة. لم يتوقف الوصف عند هذا الحد، بل استرسلت الإسطفرافيا المرينية في تأنيث الهزيمة في مشهد درامي: حيث عاد الموحدون حفاة، عراة يخصفون عليهم من ورق "المشعلة". هذا الاشتباك بين جيش دولة في أواخر عهدها وبين فلول حركة في أوج طموحها، كان حدثاً وسم سنة وقوعه بـ"عام المشعلة" وغطاً على باقي الوقائع التي تزامنت معه أو لحقته. لماذا وسم أول صراع بين الطرفين بهذا العنوان وأحيط بهالة من القداسة؟ ما هي أهم المصادر التي قامت بدور إعلامي أسهم في تضخيم الحدث والعمل على ترسيخه في الذاكرة؟ ومن أين استمد قداسته؟ ما الغاية من هذا التحوير ومن "أسطرة" الحدث؟

جدول رقم (٢)

بعض الروايات التاريخية عن حدث المشعلة أو المشعلة

مصدرها	الرواية
العبر، الجزء ٧، ص ٢٢٥. (٢٤)	"والتقى الجمعان بوادي نكور، فكان الظهور لبني مرين والدبرة على الموحيين... ورجعوا إلى تازة وفاس عراة يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة"
البيان المغرب، قسم الموحيين، ص ٢٦٦. (٢٥)	"وفي سنة ثلاث عشر وستمائة وصل عسكر بني مرين إلى جهة مدينة فاس، فخرج إليهم واليها... فهزمه بنو مرين... وسمي هذا العام بمدينة فاس عام المشعلة لأن الناس جردوا في تلك الهزيمة ودخلوا مستترين بالمشعلة"
الذخيرة السنية، ص ٢٨. (٢٦)	"فلما وصل الموحدون إلى فحص الوادي (ما بين الرباط والمقرمدة)، وعلموا أن مرين توغلت في البلاد فروا راجعين في وجوههم... فهزموا جيوش الموحيين ومن ظافروهم من القبائل الواصلين... ودخل جل جيش الموحيين عراة إلى رباط تازة ومدينة فاس، واكثرهم جرحا ومنهزمين، وبالربيع والمشعلة مستترين"
الأنيس المطرب، ص ٢٨٦. (٢٧)	"وفي شهر ذي الحجة من سنة ثلاث عشرة المذكورة، زحف الأمير عبد الحق بجيوش مرين إلى رباط تازة فوقف بإزاء زيتونها، فخرج لحربه عاملها... فقتل العامل وهزم جيشه، وجمع الأمير عبد الحق الأسلاب والخيول والسلاح، وقسم ذلك كله في قبائل بني مرين"

جاء الغارات التي شنّها بنو مرين: «لحقوا بالجمال المنيع لتكون لهم حصنا ومآلاً»^(٢١). إن مثل هذه الروايات تؤشر على عنف أسلاف السلالة المرينية، دون أن تغفل ربط هذا العنف كنوع من التبرير بالخصم الموحي. حسب النظرة التي تحملها المصادر الرسمية والتي أخلص ابن خلدون في نقلها نجد أن الموحيين هم أصحاب المبادرة إلى الدخول في صراع مع المرينيين، مما سوّغ لهؤلاء أحقية الدفاع الشرعي، وكان هذا الدفاع تحت الرعاية الإلهية التي قلبت موازين القوى وغلبت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة. وهذا أيضاً وفق مبدأ "مقدس" متعلق بإحياء أرض موات وهي المهمة التي اضطلع بها حسب الروايات المروّجة المرينيون الأوائل.^(٢٢) قبل سنة من وفاة نفس الزعيم المريني، نشب أول اصطدام رسمي بين بني مرين والموحيين - حسب المصادر المرينية^(٢٣) - في وادي نكور، بالريف الشرقي. وتقول الرواية إن جيشاً موحدياً قوامه عشرة آلاف رجل إضافة لعناصر أخرى حليفة، قد لاحق زمرة من المرينيين وحاصروهم بأحد جبال الريف الشرقي بغية استئصالهم،

وعاصروه؟ أم هي مجرد تصورات حاول الإخباريون الرسميون نقلها عن واقع بثقله وحركيته كما رأوها بعيون خاصة؟ كيف تعين شهاداتهم في رسم مشهد للواقع كما كان. وهل يجوز اعتبارها لبنة من لبنات المشروع المريني المبكر وحلقة من حلقات جهازه الإعلامي الممهدة لشرعية ظهور المرينيين بالمغرب الأقصى؟

بما أن اعتماد بني مرين في اشتباك سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) بقيادة عبد الحق بن محيو على عنصر غير المورد البشري احتمال وارد، هو العنصر الجغرافي، فمن غير المستبعد أن تكون فلول عبد الحق قد توسلت الجبل للاحتماء، وفي ذلك ما من شأنه أن يُفشَل حصار الموحدون لهم رغم إمكانية تفوق هؤلاء في العدة والعتاد. كما يتيح الاعتصام بالجبال وتوظيف طوبوغرافيتها عسكرياً الأفضلية على أهل السافلة، بالإضافة إلى منح عنصر المفاجأة الذي يحسم.

جدول رقم (٣)

بعض أهم المواجهات المرينية - الموحدية

من ٦٤٢هـ إلى ٦٥٩هـ

من خلال ما يستشف من النصوص التي وثّقت للمشاهد، يلاحظ إجماع الشواهد على مدلول محوري غايته إكساب الحدث رمزية كبرى، وإكسائه برداء الكرامة، قصد ترسيخه في الذاكرة. ولا شك أن الذاكرة الشعبية حريصة على حفظ صور الأحداث التاريخية بنقلها المتواتر، بيد أن حياد هذه الذاكرة يغدو محط تساؤل؛ فهل تجيد حراسة كل الأحداث أم تتفرد بعضها بعناية خاصة من طرف السلطة تضمن لها الانتشار والاستمرار على نطاق أوسع؟

بغض النظر عن البعد العنيف الذي أوحى به روايات الحدث، والذي يبدو أنه رافق ظهور بني مرين بالمغرب منذ البدايات الأولى فقد: «أرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه [كذا]، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم»^(٢٨)، على حد تعبير ابن خلدون وهو محدود في مصاف نخبة إخباريي "المدرسة التاريخية المرينية". يبدو أن رواية ابن عذاري تعلن أن منطلق التسمية كان مدينة فاس، مما يؤكد على وجود علاقة وطيدة بين العاصمة التي اتخذتها السلالة المرينية ومصدر رواج الخبر. هل تلك شهادات تلامس واقعا عاشه المؤلفون

مكان المواجهة وتاريخ وقوعها	الأمراء المرينيون والخلفاء الموحدون	النتائج	المصدر
صخرة أبي بياش/فاس ٦٤٢هـ	الأمير أبو معرف ≠ الخليفة السعيد	هزيمة المرينيين وانسحابهم واعتصامهم بجبل غياثة	الأنيس المطرب، ص ٢٩٠. (٢٩)
واسنات / تامسنا	الأمير أبو يحيى ≠ الخليفة السعيد	معارك غير محسومة	البيان المغرب، ص ٣٧١. (٣٠)
أمن ملولين	الأمير أبو يحيى ≠ الخليفة المرتضى	هزيمة الموحدين دون قتال	البيان المغرب، ص ٤٠٠. (٣١)
وقعة أم الرجلين / أم الربيع ٦٥٩هـ	أمير المسلمين يعقوب ≠ الخليفة المرتضى	هزيمة ساحقة للجيش الموحد	الأنيس المطرب، ص ٣٠٢. (٣٢) الذخيرة السنية ص ٩٦. (٣٣)

إن حدث المشغلة - مع التحفظ في تسميته؛ معركة أو اشتباك أو مناورة- يبدو من أهم الأحداث التي أثارت ضجة كان لها دوي بارز، وتعمدت المصادر الرسمية المرينية إيلاءها اهتماما خاصا. والواقع أن حجم المشغلة لم يكن متفردا عما شاكلها من مواجهات بين الموحدين

حيث استتجد بثائر سوس المذكور واستجاش بني زيان الأعداء التاريخيين للمرينيين. لكن لم تمنع محاولاته اندفاع الأمير يعقوب واقتحامه لمراكش. ليكون بذلك أول من دشن البداية الفعلية للسلطان المريني سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م: «واستقر الملك في أبي أملاكهم أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو إلى آخر أيامه»^(٣٦).

خاتمة

إن تسليط الضوء على المرحلة الانتقالية بين الخلافة الموحدية والدولة المرينية كان بهدف إبداء ملاحظات حول تفاعل عناصر المجتمع المغربي المتواري في هذه المرحلة ذات الأهمية القصوى؛ ومحاولة التمهيد للمقارنة بين حكم سلالة شيدت صرح سلطانها على نظم وأعراف تنظيمية جبلية بربرية، إلى حكم سلالة يفترض بإجماع المؤرخين المحدثين أنها "سهلية- صحراوية". ولعل ما عزز تضارب الأخبار حول نسبها هو نمط عيش أسلافها الشبيه بالسمت البدوي، هذا التضارب بين النسابين يستفاد منه المراهنة على شدة الشبه بين حياة رحل البربر وحياة البدو العرب. على المستوى الأنثروبولوجي تصلح هذه المقارنة للدراسة العميقة من أجل رصد القواسم المشتركة بين القومين، مع الأخذ بعين الاعتبار قرينة لا تقل أهمية عن باقي القرائن، هي تشابه الألسن بما أن علماء اللغات أثبتوا حضور صلة وثيقة بين البربرية واللغات السامية والحامية^(٣٧). من جهة أخرى يرى عبد الله العروي أن نظرية "غوثيه" عالجت قضية اعتبرها معقدة، هي نجاح العرب في فتح المغرب، وحسب هذه النظرية يعود الفضل في هذا النجاح للتعاطف العميق بين العرب البدو وبدو البربر الذي تتجاوز قوته الاختلاف في اللغة، إذ تجمع بينهم طريقة العيش والمشاعر العميقة.^(٣٨)

وبني مرين، التي يستشف من صداها وإن كانت متأخرة، أن تضخيم حدث "المشغلة" المتعمد حسبما يبدو كان تحت رحمة الخطاب الإسطغرافي "الرسمي". ولعل ما عزز هذا الدوي ارتباطه بإنجازات أول زعيم دشن مرحلة قيام المشروع المريني بالمغرب الأقصى وهو الأمير عبد الحق. أرخت المصادر نفسها لمعركة أخرى تكاد لا تقل أهمية؛ لارتباطها بزعيم آخر هو يعقوب الذي سيتم على يديه انتقال المشروع من طور الحركة إلى طور بناء الدولة، ومن جهة أخرى لإنذاره ببلوغ الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى أنفاسها الأخيرة: «وفيها كانت وقعة أم الرجلين بين أمير المسلمين يعقوب وجيوش المرتضا من الموحدين والعرب والأغزاز والروم، وكان المرتضا قد استنخب هذا الجيش وقدم عليه يحيا بن عبد الله بن وانودين... وكان المرتضا قد استعد لهذه الغزوة غاية الاستعداد، وبعث فيها وجوه الموحدين وأشياخهم من سفيان والخلط والأثبج وبني جابر وبني عاصم وقواد الروم والأغزاز والمصامدة ولم يترك من جيشه إلا نفرا»^(٣٩).

رغم جهود المرتضى واستعداداته-حسب الرواية-كان النصر حليفا لبني مرين، وهذه المرة لم يكن تقدم الأمير يعقوب في حاجة لدعم إعلامي، لأن الأمر كان يتعلق بتقدم مجالي ملموس؛ بعد تجاوز حدود المجال العازل التي يحرسها واد أم الربيع. ولا يعزب عن التذكير بأن الظرفية التي ميزت عهد الخليفة المرتضى طفحت بالقلق الداخلي منذ بيعته: «وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة جاهر علي بن يدر بعناده فبعث إليه المرتضى عسكريا من الموحدين أجنادة فحاربوه فلم يقدروا عليه بشيء فقفلوا راحلين إلى مراكش»^(٤٠)، يمثل "بن يدر" أبرز ثورة يشنها عامل موحد، مستغلا انشغال المرتضى بالخطر المريني المهدد. فقد التف حوله بتارودانت أهل السوس وانقادت له عرب الشبانات وبني حسان وغيرهم. لتنتهي القلاقل بتفكك الجبهة الداخلية الموحدية، خاصة بعد موالة أبي دبوس للمرينيين، وتساعد الغارات والحملات المرينية التي لم يبق أمام أميرها لبلوغ الغاية إلا حاضرة مراكش. وستتوج بدخول المدينة سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩م رغم نكث أبي دبوس حلف الأمير المريني ومحاولاته صد تدفقهم بشتى السبل؛

الإحالات المرجعية:

الملاحق

(1) M.Shatzmiller, « Islam de campagne et Islam de ville, le facteur religieux à l'avènement des Mérinides », Studia Islamica, LI, 1980, p123.

(٢) جاء في المعجب: «وأكبر أسباب الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين، وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر... فأبطأ في مدة أبي عبد الله هذا العطاء... فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلموا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنجة عليهم قاصدين لذلك»، عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٦٥.

(٣) أبو العباس محمد بن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٥، صص ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق ونشر دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ٢٨١.

(٥) عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء السابع**، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٢٤.

(٦) أبو العباس محمد بن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاووت وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٥، ص ٢٦٣.

(٧) محمد نبيل ملين، **السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب**، ترجمة عبد الحق الزموري، عادل بنعبد الله، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس السويسي، الرباط، ٢٠١٣، ص ٩.

(٨) لعله "وادرًا" وهو أحد روافد واد ملوية.

(٩) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، الجزء السابع، ص ٢٢٤.

(١٠) علي بن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، تحقيق ونشر دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ٢٦.

(١١) إسماعيل بن الأحمر، **روضة النسر في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط ٣، ١٩٩١، ص ١٤.

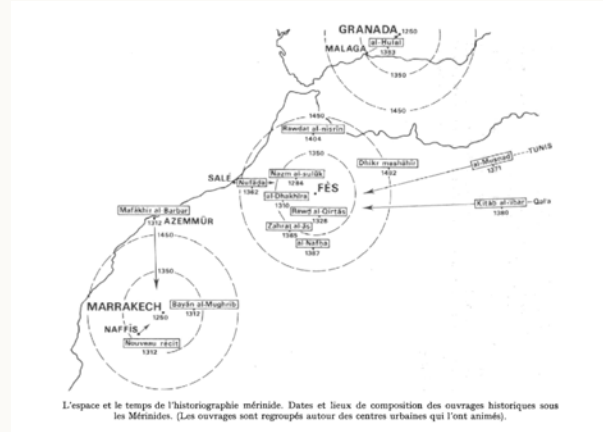
(١٢) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢٨٨.

(١٣) نفسه، ص ٢٩٠.

(١٤) نفسه، ص ٢٩١ - ٢٩٦.

(١٥) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، الجزء السابع، ص ٢٢٧.

(١٦) أصبحت تسمية "المغرب الأقصى" مشروعة تاريخياً في العصر الوسيط، بعد أن أصبح مجال المغرب الأقصى متميزاً ضمن بقية مجموع المجال الإقليمي المجاور ابتداء من العصر المرابطي، بدليل عبارة "المغرب الأقصى" التي غدت راجعة مع نهاية هذا العصر، وحلت محل عبارات أخرى: "أقصى المغرب"، "أقصى الغرب"،



خريطة: أزمنة تأليف الإسطوغرافيا المرينية ومجالات انتشارها

المصدر:

Maya Shatzmiller, l'historiographie mérinide : Ibn Khaldun et ses contemporains, the Netherlands, Leiden, 1982, p XII.

"أقصى بلاد المغرب". ولم يقتصر مدلول العبارة على البعد الجغرافي الصرف، وإنما كان لها محتوى جغرافي-سياسي-عسكري في الآن نفسه. محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال علائق وتفاعلات**، دار توبقال، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٧، ص ٤٢.

(١٧) من مؤشرات حضور زناتة وسبقها بمجال الغرب الإسلامي قبل أن تفرق الطموحات قبائلها، ورود إشارات حول تدفقها مع الطلائع الأولى للفتوحات الإسلامية إلى الأندلس، وعن مشاركة الزناتيين في معركة العقاب كما شارك سلفهم في معركة الأرك وأبلوا البلاء الحسن قبل أن ينصرفوا إلى بلادهم من قبلة زاب أفريقية. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص ١٤.

(١٨) يعدّهم ابن خلدون من القبائل الزناتية التي استوطنت المغرب الأوسط، ويصنّفهم ضمن توابع طبقة زناتة الأولى، ويصفهم بشدة البأس وقوة الشوكة. ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، الجزء السابع، ص ٧٤.

(١٩) نفسه، صص ٨٤-٨٥.

(٢٠) ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص ١٤.

(٢١) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢٨٢.

(٢٢) Mohamed KABLY, **société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Age**, paris, 1986, p3.

(٢٣) سيتم عرض بعض روايات هذه المصادر ضمن جدول (رقم ٢) يحمل عنوان: جدول لبعض الروايات التاريخية عن حدث المشغلة أو المشغلة.

(٢٤) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، الجزء السابع، ص ٢٢٥.

(٢٥) ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص ٢٦٦.

(٢٦) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص ٢٨.

(٢٧) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢٨٦.

(٢٨) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، الجزء السابع، ص ٢٢٤.

(٢٩) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢٩٠.

(٣٠) ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص ٣٧١.

(٣١) نفسه، ص ٤٠٠.

(٣٢) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٣٠٢.

(٣٣) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص ٩٦.

(٣٤) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص ٩٦.

(٣٥) ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص ٤٠٢.

(٣٦) ابن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص ٣٤.

(٣٧) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص ٢١.

(٣٨) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب، الجزء الأول**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٦، ص ١٢٦.

أزجال الكفيف الزرهوني مصدرًا لتمثلات الزمن الاجتماعي خلال العصر المريني

د. عبد الله بنحمو

أستاذ عرضي بالمدرسة العليا للتربية والتكوين
دكتوراه في التاريخ الوسيط
جامعة محمد الأول – المملكة المغربية



ملخص

نسعى في هذا المقال إلى الكشف عن مظاهر تمثلات المجتمع للزمن خلال منتصف القرن (٨هـ/١٤م)، الذي عرف ظاهرة اجتماعية، اتسمت بانتشار خطاب في أوساط المجتمع يبشر باقتراب زمن القيامة وما يرافقه من علامات، انعكست مستويات تمثلاته في أزجال الكفيف الزرهوني الذي كان ينطق بلسان حال عامة بني مرين، ضمن ملعبتين زجليتين ألفهما بلغة عامية بسيطة الأولى: سماها بـ "زجل التقويم"؛ تناول فيها توقعات مستقبل بني مرين وما سيحدث لهم في السنوات القادمة وذلك عن طريق النظر في منازل القمر، والثانية: سماها بـ "زجل طوق الحمامة"؛ تناول فيها مشاهد اقتراب زمن قيام الساعة، وكلاهما ملعبتين زجليتين عاميتين لا تخرجان عن سياق اللعبة التي ألفها الكفيف حول حركة السلطان أبي الحسن المريني إلى إفريقية سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م). إن الذي يهمننا في دراسة هاتين اللعبتين، ليس هو تأكيد أو نفي مصداقية تحقق نبوءات الكفيف للمستقبل، بل الهدف يكمن أساساً في الوقوف عند تجليات خطاب "زمن الناس"، الذي انعكس في أزجال الكفيف بوصفها وثائق اجتماعية "نائمة"، يمكن استثمارها في حقل تاريخ الذهنيات والتمثلات الجمعية للزمن والكوارث والظواهر الطبيعية، وأثرها على مستوى البنية الذهنية بالمغرب الوسيط.

كلمات مفتاحية:

أزجال الكفيف؛ الأدب العامي؛ الزمن الاجتماعي؛ العصر المريني؛ تاريخ العصور الوسطى

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٨ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠١ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.408310.1256

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الله بنحمو. "أزجال الكفيف الزرهوني مصدرًا لتمثلات الزمن الاجتماعي خلال العصر المريني". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون؛ ديسمبر ٢٠٢٥. ص ٧٤ - ٨٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: abdellahbenhamou28@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ تحت شروط الترخيص المشاع ٤.٠ (International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

فيها مشاهد اقتراب زمن قيام الساعة، وكلاهما ملعبتين زجليتين عاميتين لا تخرجان عن سياق اللعبة التي ألفها الكفيف حول حركة السلطان أبي الحسن المريني إلى إفريقية سنة ٧٤٨هـ.

انطلاقاً من نص هاتين اللعبتين سنحاول الإجابة على جملة من الأسئلة منها: ما الإفادات التي يمكن أن يقدمها الزجل الجفري العامي بالنسبة للمشغل على تاريخ المغرب الوسيط عموماً وبني مرين تحديداً؟ ثم كيف تمثل المجتمع المريني الزمن؟ وماهو نوع الزمن الذي كان أكثر تداولاً؟ ولماذا تم التمثيل بزمن الفناء بشكل لافت خلال منتصف القرن (٨هـ / ١٤م) لدرجة تم القول فيه بالعامية على غرار باقي الفترات التاريخية الأخرى؟

أولاً: "زجل التقويم" بوصفه مرآة لتمثل مستقبل زمن بني مرين

يندرج نص هذا التقويم الذي ألفه الكفيف الزرهوني^(١) أواسط القرن (٨هـ / ١٤م) ضمن أحكام القران؛ وهو عبارة عن تقويم في شكل زجل جفري عامي يتألف من واحد وثلاثين بيتاً، تبدأ فيه المؤلف لما سيحدث في المستقبل، وذلك حسب الذي اليوم تفتتح به السنة^(٢)، استناداً إلى ما جاء به العلماء في باب منازل القمر^(٣)، الشيء الذي يفيد بأن المؤلف كان له علم واحتكاك بالأجفار، ومما لا شك فيه أن تأليفه هذا جاء في إطار التعبير عن الموقف الرفض لعمامة بني مرين من حملة أبي الحسن على إفريقية، التي امتدت من سنة (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) وانتهت بنهاية مأساوية له سنة (٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) ببجاية بالمغرب الأوسط، بحيث لمح الكفيف (١٩٨٧) في ملعبته (الأبيات: ٦٣ ٦٤ ٦٥، ص ٦٥) إلى إمكانية محاصرة أعراب إفريقية للسلطان المريني بتونس قائلاً:

وَأَصْحَابُ الْأَجْفَارِ فِي كَتِيبَاتَا
وَفِي تَرْحِيلِ كَاتِبٍ وَكِيَوَانَا
تَذَكَّرُ فِي شِعْرَا وَأَبْيَاتَا
لِسَطِيحٍ وَشَقِ ابْنِ مَرَانَا
أَنَّ مَرِينَ إِذَا تَكَّتْ بَرِيَا
لَجُدرَانِ يَسْقُطُ شَانَا

يتمحور هذا المقال حول إبراز مظاهر تمثلات خطاب الزمن الاجتماعي أو "زمن الناس" بتعبير بول ريكور، الذي تجلّى ضمن ظاهرة اجتماعية لافتة للنظر لدى المجتمع المريني في منتصف القرن (٨هـ / ١٤م)، وهي ظاهرة انعكست صور مشاهدتها ضمن تداول خطاب زمن ينذر بقيام الساعة، وذلك للأسباب متعددة يمكن أن نجملها في انهزام بني مرين في معركة طريف سنة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) أمام القشتاليين، وفشل السلطان أبي الحسن المريني في استعادة التجربة الوجودية على مستوى بلدان المغرب سنة (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) بإفريقية، والتي تزامنت مع مناخ الطاعون الجارف الذي يعد من الطواغين الأكثر فتكاً بالبشرية إبان العصر الوسيط، الذي أثر بشكل بليغ في سلوكيات وتصورات المجتمع للزمن والحياة والموت، إلى جانب كثرة الفتن والاضطرابات السياسية، ولعل أبرزها انقلاب أبي عنان الابن على الأب أبي الحسن في فاس، وهو حدث خلف لواعجا من الأسى والحزن لدى عامة بني مرين التي كانت أكثر تعلقاً بهذا السلطان لدرجة أدخلته في عداد الأسطورة المعروفة بأسطورة "السلطان لكحل"، ثم استفحال ظاهرة قطاع الطرق وخاصة في سهل تامسنا والريف ومفازة أنكاد، حينما أصبحت الدولة في وضعية هشة جعلتها غير قادرة على ضبط المجال عن طريق امتلاك آليات الحماية، المتمثلة في أدوار المؤسسات الأمنية أو ما يصطلح عليه في الثقافة الشفوية المغربية بـ "الزطاطة"؛ التي كان لها دوراً فعالاً في استتباب الأمن وتأمين الطرق التجارية وسبل المارة.

أسهمت هذه العوامل وغيرها في انتشار خطاب في أوساط المجتمع يبشر باقتراب زمن القيامة وما يرافقه من علامات. وهو خطاب تجسد في أزجال الكفيف الزرهوني الذي كان ينطق بلسان حال عامة بني مرين، وذلك من خلال ملعبتين زجليتين ألفهما بلغة عامية بسيطة الأولى: سماها بـ "زجل التقويم"؛ تناول فيها توقعات مستقبل بني مرين وما سيحدث لهم في السنوات القادمة وذلك عن طريق النظر في منازل القمر، والثانية: سماها بـ "زجل طوق الحمامة"؛ تناول

النقص والخصاص في المؤونة معبرا عن ذلك بقوله (ج) ٤،
ص (٣٨٢):

ألا فاسمعوا ما قالت العلماء
دُخول السَّنا بِالْحَدِّ فيها خَبَار
وارياح الدَّبُّور تَنْفُخ على الأنعام
ويكْسِي جَلِيد الأرض بِسَرِّبالي
يَنْقُل الزَّرْعَ لآكِن ما يَعْدَام
وكذلك العَسَل ياكل نَحَالِي

أمكن القول انطلاقا من هذه الأبيات، التي ولا شك أنها تُوَمِّى بغلبة سمة العقلية التي تتظر في "حوادث الأرض وحوادث السماء"^(٧)، أن المؤلف كان له اطلاع واسع على كتب علم الحدثن التي عرفت انتشاراً واسعاً في عهده، حيث نجده يصرح باستفادته من أجفار المنجم المعروف "بابن مرانا السبتى" (الكفيف، ١٩٨٧، ص ٦٤)، الذي كان يتتبأ عن طريق القول في الجفر بالعامية بما سيحدث في أفق مستقبل الدول. والجدير بالذكر أن زجل التقويم الذي بين أيدينا، له ارتباط مباشر بسياق مُجريات اللعبة التي ألفها الكفيف حول حَرَكَة السلطان أبي الحسن المريني إلى إفريقية (نفسه)؛ وهي حملة لقيت معارضة واسعة من لدن مختلف فئات المجتمع المريني.

ربط الكفيف دخول العام الجديد بيوم الأحد بزمن لا يُنذر بحدوث الخصب والسلم، بل بزمن الهشاشة والندرة، الذي ستقل فيه المؤونة لكن دون أن تنفذ، وحتى النحل سيعود إلى أجباحه ويلتهم ما تبقى له من عسل. وفي سياق التمثل بزمن الخصاص خلال القرن (١٢هـ/١٣م) نجد المغاربة يتمثلون ويؤرخون لزمانه باسم "سنة وَقَلِيل"^(٨)؛ التي تقابل في زمن المؤرخ (١١٥هـ/١٢١٨م)، وهي أشد السنوات وطأة على النفوس^(٩) أواخر العصر الموحيدي.

ثم إن توقع المؤلف بوجود رياح الدَّبُّور في منزلة السنة الجديدة المُفَتَّحَة بيوم الأحد، يُبين سعة اطلاعه على كتب الأنواء التي تستهدف الارتصاد وقياس الزمن^(١٠)، والتي فَصَّلَت في أفعال رياح الدَّبُّور ونتائجها، وجعلتها من الرياح العقيمة المذمومة^(١١) التي تؤثر سلباً على الزمن الزراعي، وسُميت بذلك لأنها رياح جافة لا تقوم

افتتح الكفيف تقويمه بمُخاطبة عامة بني مرين بلسانهم العامي، بالحديث عن دلالات خطاب الزمن المُتَوَقَّع، وكيف تدور السنون وما يمكن أن يحدث في أفق مستقبلها، بناء على اسم اليوم الذي تبدأ به السنة، واعتبر بأن دورة السنون تدور كدورة الأيام (الكفيف، ٢٠٠١، ج ٤، ص ٣٨١). إذ قسمها على عدد أيام الأسبوع، متحدثاً عن الخطب الذي يمكن أن يصاحب اليوم الذي تُفَتَّحُ به السنة الجديدة، ويظهر أن سياق تأليف هذا التقويم له ارتباط بالخوف من زمن المستقبل الذي يعد ظاهرة اجتماعية انفرد بها العصر المريني.

إن ما يَهْمُنَا في النص الذي بين أيدينا، ليس هو تأكيد أو نفي مصداقية تحقق توقعات الكفيف للمستقبل، بل الهدف يكمن أساساً في الوقوف عند تَمَظْهَرات خطاب "زمن الناس"^(٤) أواخر العصر الوسيط وتمثلاته على مستوى البنية الذهنية، بوصفها موضوعاً لتاريخ العقليات والتصورات الجمعية للأشياء والظواهر السائدة، والجدير بالذكر أن منتصف القرن (٨هـ/١٤م)، يُمثل محطة لافته للنظر بالنسبة لتداول الخطاب المرتبط باقتراب الزمن المنذر بقيام الساعة^(٥)، وهو خطاب انعكس انتشاره في صفوف المجتمع لدرجة تم القول فيه عن طريق ملاعب زجلية عامية، جسدها الكفيف الزرهوني، وذلك من أجل تيسير فهمه و تقريب صور مشاهده للمجتمع، ثم هناك جانب آخر لا يقل أهمية، وهو انعكاسات توظيف نبوءات المستقبل أو علم الحدثن بتعبير ابن خلدون على توجيه مجموعة من الأحداث السياسية في العصر المريني والتي سنكشف عنها لاحقاً.

يمكن أن نقسم نص "زجل التقويم"، حسب مستويات تداخل خطاب الزمن المتوقع، والذي يبدو أنه ينعكس في صور أربعة أزمنة اجتماعية دائرية متقاطعة، يتجاذبها زمن الجَدْبِ ووقوع المَحَلِّ، وزمن الخصب والسلم والأمن، وزمن الكارثة، وزمن الحرب والحركات السلطانية، وزمن الفرج الذي يأتي في الغالب بعد زمن الشدة، وغيرها من الأزمنة المتعددة في ارتباطها باليوم الذي تُفَتَّحُ به السنة الجديدة.

يخبرنا الكفيف (٢٠٠١) بأن دخول السنة^(٦) بيوم الأحد لا تُبشِّر بالخير، وبالتالي فإنها ستشهد زمن

دخول العام بيوم الثلاثاء: يصادف التنبؤ بإمكانية حدوث الكوارث الطبيعية (الكفيف، ٢٠٠١، ج ٤، ص ٣٨٣):

وعام الثَلَاثَ يَحْكَمُ الْأَحْمَرُ
وإذا دخل عام كُنَّ في أمانٍ
يكثر هلاك الناس في كل مكانٍ
وتكون زلازل والموت في الأنعام

لقد كانت الكوارث التي تأتي في شكل الزلازل أو غيرها، من بين الظواهر الكبرى التي تشكل مصدرا للشعور بالخوف لدى المجتمع المغربي الوسيط، وبالتالي فإن الذاكرة الجمعية كانت تنتقي أحداثها وتجعل منها علامة وأسلوباً للتأريخ^(١٣) العامي الذي لا يحتكم إلى لغة الأرقام^(١٤)، مثل التمثيل بـ "عام الرياح"، "عام الكسوف"، "عام الفيضان"، "عام الزلزال"^(١٥)، وهو أسلوب جرى التأريخ به عبر فترات تاريخية طويلة لدى أغلب المجتمعات، لأن مثل هذه الظواهر كانت تؤثر بشكل حاد في الذهنيات، لدرجة كانت تُعد من العلامات المنذرة بزمّن قيام الساعة (السبتي، ٢٠٢٢، ص ١٤٧)، وذلك لأسباب لها ارتباط بغياب العنصر التقني في تفسير الظواهر الطبيعية، مثل حدوث الزلازل والكسوفات الشمسية والقمرية، وغيرها من الظواهر التي كان الإنسان يصبح عاجزاً على مواجهتها، ويطلق العنان لإجالة النظر في السماء، لأن المعرفة بالظواهر الفلكية كانت تبني حسب كريستوف بوميان على ثلاث مستويات: أولها الإدراك المباشر عن طريق النظر في مظاهر الكوارث ومخلفاتها، وثانيها التجريد، وثالثها الإيمان^(١٦) بالقدر الذي يتم عن طريق الاستناد إلى المرجعية الدينية التي تعتبر حدوثها يأتي جزاءً من العقاب على الفساد المنتشر بالأرض. وهكذا نصادف المغاربة يؤرخون بزمّن الاستسلام ويتمثلون به فيما بينهم لمدة طويلة باسم سنة لم نظن أو "سنة لم أظن" (المراكشي، ٢٠١٣، مج ٢، ص ١٥٨)، التي تصادف في زمن المؤرخ سنة (٢٨٥هـ/٨٩٨م) بالمغرب الوسيط تعبيرا عن واقع التيه والحيرة والعجز عن مواجهة هذه الشدة وتداعيتها. بل ونجدهم يتمثلون أواخر العصر الوسيط بزمّن الفناء حينما سادت الفوضى وأناخ زمن الشدة

بتلقيح السماء لتمطر، ولعلها تلك الرياح الواردة في قوله تعالى: "وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" (سورة الذاريات، الآية: ٤١)، وهذا ما يظهر استناد الكفيف إلى المرجعية الدينية في تمثيل زمن المستقبل.

دخول العام بيوم الإثنين، يصادف توقع حدوث زمن الفرج الذي يرافقه زمن الفرج ويأتي في الغالب بعد زمن الشدة وقد عبر عنه المؤلف (الكفيف، ٢٠٠١، ج ٤، ص ٣٨٢-٣٨٣) قائلاً:

إذا دَخَلَ عامكُ بِيَوْمِ الْإِثْنَيْنِ
فلا بد من وقت تَكُونُ تحَصَّارٌ
ويأتي الفرج والنَّصر والتمكينُ
في مارس وأبريل تحمل الأنهارُ
وترْخُرف الدنيا شمالَ ويمينُ
وتَكْسَى حُلٌّ من بهجة الأنوارِ
وتَمْلِي النُّحْلُ أجباحها بِإِدَامٍ
والخير الجديدُ يَدْخُلُ على البالي

إن ما يمكن أن يدعم الفرضية القائلة بأن تأليف هذا التقويم يندرج ضمن سياق التنبؤ لحملة السلطان أبي الحسن على إفريقية، وُروء عبارة "تَحْصَارٌ"، التي تُوحي إلى التنبؤ بحصار الأعراب لأبي الحسن بتونس، وهو ما يلتقي مع ما جاء به الكفيف في ملعبته حول إمكانية الإطاحة بأبي الحسن بتونس، لكن في مقابل ذلك اعتبر هذا الحصار ظرفياً، لأنه سيعرف انفراجاً وتعود الحملة إلى سياقها، وإن إقبال شهري مارس وأبريل اللذين تم التمثيل بهما من لدن المؤلف، ما هو إلا مظهر من مظاهر دائرية الزمن الذي لا يؤتمن، والعامية تقول: "دَوَايِرَ الزَّمَانِ" أو "الزمان الغدَّارُ" لتَقْلُبَ ظروفه وتغيرها في أي لحظة، لأن الزمن في نظر العامة ينطلق دائماً من واقع أفضل إلى الأسوأ في المستقبل، وبالتالي يجب الاحتياط منه، وهو الذي قال فيه الشاعر النابغة في ديوانه:

ولا تَأْمَنُوا الدَّهْرَ الْخَوَّونَ
فإنَّهُ على كُلِّ حَالٍ بِالْوَرَى يَتَقَلَّبُ^(١٧)

يعود المؤلف في سياق هذه الأبيات إلى التذكير بإمكانية استئناف زمن المواجهة بين السلاطين، كأنه كان يُلمح إلى دخول بني مَرين في مواجهات عسكرية، وهو ما يجعلنا نستحضر ونضع هذه الأبيات ضمن سياق الانقلاب الذي قام به أبي عنان الابن على الأب أبي الحسن، ومن المحتمل أن المؤلف كان يتوقع حدوث مواجهة بينهما، وفي سياق هذا الانقلاب تمكن مُنجم من بني عبد الواد يُدعى "ابن جَرَّار" من الترويج عن طريق أجفاره لخبر مفاده، إن السلطان أبي الحسن سينهزم في إفريقية، "ولا يرجع من سفرته وأن الأمر سائر إلى أبي عنان"^(١٨)، وهي نبوءة مبطنة تعكس حقيقة الحقد الدفين الذي كان يكنه بني عبد الواد لأبي الحسن أثناء حملته على إفريقية، الشيء الذي جعل الكفيف يشبههم في ملعبته (١٩٨٧) بالأفاعي الكامنة التي كانت تتحين الفرصة للانقضاض على الفريسة بقوله: (البيتين ١٦١-١٦٢، ص ٨١)

فَالأولُ جَرٌّ مِنْ وَرَاءَ عَقْرَبٍ
فَبَنِي تُجَيْنَ وَرَهْطُ عَبْدِ الْوَادِ
سَمَّ اللَّفْعَى عَلَى سَنَى يَعْطَبُ
وَالْجَرَحَ إِذَا بَرَى بِمَاهِ يَفْسَدُ

ومن هذا المنطلق يمكن أن نفهم الدور السياسي للأجفار في إشعال فتيل الانقلابات والثورات في سياقات حكم الدول. ويعزى سبب نجاح تأثير الأجفار في توجيه الحدث، إلى سمة عقلية الإنسان المغربي في العصر الوسيط التي كانت تستند إلى قبول فكرة العجائبي وتعظيم الغيبيات^(١٩)، والإيمان بتحقيق نبوءات المنجمين، ولذلك كان أبو الحسن المريني في حملته على إفريقية يرفض رأي المنجمين^(٢٠). ولعل ما قام به العباسيون الذين روجوا لسقوط الأمويين عن طريق مجموعة من النبوءات التي كانت تخبر بأنهم "منتصرون فلا ترد لهم راية قط"^(٢١)، يعتبر دليلاً كافياً على توظيف الأجفار واستثمارها في الحقل السياسي.

دخول العام بيوم الجمعة: يصادف عودة زمن الفرج، الذي يأتي بعد زمن الشدة، وهو زمن يسود فيه زمن الأمن والسلام والفرح: (الكفيف، ١٩٨٧، البيت ٤٨٠-٤٨٤، ص ١٣٨-١٣٩).

بكله عليهم أرخو له ب "عام ولدت البغلة"، حيث ساد الاعتقاد في ولادتها باقتراب لحظة زمن القيامة. دخول العام بيوم الأربعاء يُغطيه توقع زمن مُتقلَّب غير مُؤتمن، يمكن أن يبدأ بِالْمَحَلِّ وينتهي بزمن الخصب أو العكس، وبالتالي فهو زمن متقلب وغير آمن (الكفيف، ٢٠٠١، ج ٤، صص ٣٨٣-٣٨٤):

يَا سَائِلًا عَنْ عَامِكَ الْأَرْبَعِ
لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ طَالِعِ الْكَاتِبِ
يَرِي لَكَ الْبِشَائِرَ لَكِنَّهُ يَخْدَعُ
وَيَجْدِبُ وَيَنْكُرُ عَامَكَ الْكَاذِبِ
لَكِنْ الْجَمُوحُ لِأَبْدٍ لَوْ يَرْجِعُ
وَمَهْمَا رَجَعَ يَرَى لَكَ الْوَاجِبِ
وَتَكُونُ لَكَ السَّنَا مِنْ بَدَائِعِ لَعَوَامٍ
وَيَاتِيكَ الزَّرْعُ فِي وَطَا وَجِبَالِي

تلتقي هذه الأبيات مع خطاب ما زال ذائع الانتشار في الزمن الزراعي المغربي إلى اليوم حول تقلب العام الذي يتحكم في مردوديته إقبال شهر أبريل من عدمه، لأنه بإمكان عدم إقباله أن يحول العام الخصب إلى سنة مجدبة وهو ما يعبر عنه في الثقافة الشفوية المغربية: "يَكُونُ: يَبْرِيرٌ إِذَا لَقِيَتْهَا نَوَّارٌ نَرْدَهَا غُبَارٌ" أو يمكن أن يفعل العكس إذ أقبل، ويقال عنه: "يَبْرِيرٌ يَجْبَدُ مِنْ كَرَشٍ لَبْعِيرٍ"، بمعنى يستطيع أن يحول السنة المجدبة إلى "عام الخير" أو عام الصَّابَةِ. وفي هذا السياق أورد صاحب أمثال العوام في الأندلس قوله: "فَأَبْرِيلُ يَعْتَدِلُ الْمُؤَخَّرَ وَالْبَكِيرَ"^(٢٢)؛ ومعناه إذا أقبل شهر أبريل يتساوى المحصول ويلتحق المؤخر بالبكير. وكل هذا يدور حول تمثلات دائرية الزمن الذي يتقلب بسرعة.

دخول العام بيوم الخميس: يصادف توقع زمن الحروب والحملات السلطانية (الكفيف، ٢٠٠١، ج ٤، صص ٣٨٣-٣٨٤):

وَعَامُ الْخَمِيسِ يَظْهَرُ لَكُمْ بَرْهَانٌ
وَفِيهِ يَخْشَى بَفْلَانٍ مِنَ الْآفَاتِ
وَفِيهِ يَلْتَظِمُ سُلْطَانٌ مَعَ سُلْطَانٍ
وَتَأْتِي جُنُودُ الطَّيْرِ بِالصِّفَاتِ

منها ما هو مُضمر يستشف انطلاقاً من الاطلاع على مصادر الحملة بمختلف أجناسها، ومنها ما صرح به مباشرة مثل عبارة "تحصار"، التي تفيد التنبؤ بإمكانية محاصرة أبي الحسن من لدن الأعراب بإفريقية.

ثانيًا: مشاهد تمثلات زمن قيام الساعة من خلال "زجل طوق الحمّامة"

يتمحور نص هذه الملعب الجفريّة الزجلية الثانية التي ألفها الكفيف الزرهوني خلال منتصف القرن ٨هـ / ١٤م، بلغة يغلب عليها الطابع العامي ومكونة من المطلع؛ الذي يتألف من شطرين يليه بعد ذلك الغُصن؛ الذي يتكون من ثلاثة أشطر فأكثر^(٢٢)، وهي من بناء الموشحات التي ظهرت بالأندلس منذ القرن ٣هـ / ٩م (ابن خلدون، ٢٠١٤، ج٣، ص١٢٠٨).^(٢٣)

جاء تأليف نص هذه الملعب في سياق تقريب صور مشاهد زمن القيامة لدى عامة بني مرين، وقد عثر على نصها المخطوط المرحوم محمد بنشريف بالمكتبة الوطنية بمديرية تحت رقم ٥٣١٦، وحققها ضمن كتابه "تاريخ الأمثال والأزجال بالأندلس والمغرب: بحوث ونصوص"^(٢٤)، ومن غريب الصدف أننا نجد نص هذه الملعب موجوداً أيضاً بين ثايات كتاب "وقائع ثورة الموريسكيين" لمارمول كربخال، الذي نسبها للكفيف ووصفها بـ "النبوءة التي أشعلت فتيل ثورة الموريسكيين بالأندلس"^(٢٥) مابين سنتي ١٥٦٨م و ١٥٧٠م. يظهر من خلال عملية المقابلة بين النصين أن الجزء الأخير من تحقيق بنشريف جاء مبتوراً وغير كاملاً بالمقارنة مع نص مارمول والذي هو الآخر صرح بعدم إيراد جزء منه عن قصد، لأنه اعتبره غير مهما ومن هذيان عامة المسلمين بالأندلس، الشيء الذي يسمح بالقول على أن مخطوطة زجل طوق الحمّامة والتي ولا شك أنها نقلت من المغرب إلى الأندلس إما بصيغة مخطوطة أو شفوية، كانت تعرف انتشاراً واسعاً بين الثوار بالبشرات لما فيها من نبوءات تتوقع استرجاع أراضي المسلمين بالأندلس.

اختير لهذه الملعب الجفريّة اسم جميل: "طوق الحمّامة"، والذي يبدو أنه يدل على معنيين: الأول يمكن أن تكون له علاقة بجمال الألوان التي تزدان بها صدور الحمام، والثاني للدلالة على هديل الحمام الذي يتجسد

وإذا دخل العام بيوم الجمعة
فليس يجنّ قنديل كل بلاد
تلك السنة تخلّا الفجعا
على المسلمين ونعيمها يزداد

يتضح من خلال العبارة العامية، "جنّت؛ أي زناته، و"الفجعا"؛ التي تفيد المصيبة، على أن الكفيف كان يرمي إلى التخفيف من وطأة زمن الشدة والأسى الذي كانت تعيشه عامة بني مرين بالمغرب جراء الفتن الاضطرابات السياسية، ولعل أبرزها الطاعون الجارف، وانقلاب أبي عنان، ومحنة السلطان الباني أبي الحسن المريني في إفريقية مع الأعراب التي عبر عنها في ملعبته قائلاً: (الكفيف، ٢٠٠١، ج٤، ص ٣٨٥).

والمغرب كان في أكبر محناً
من ضيم الدّل وزمان لغدر
للسلطان لمحبب المحبوس
في المشرق من حريقة الفجعا

دخول العام بيوم السبت: اختتم فيه الكفيف توقعه لعودة زمن المواجهة العسكرية، الذي يتجلى في استئناف الحرب وسفك الدماء دون التلميح إلى الأطراف المعنية بهذه المواجهة، حيث قال: (نفسه)
وعامك يكون بالسبت هو المذكور
بسفك الدما والحقّد بين الناس

الخلاصة، تكمن أهمية هذا النص القائم على التنبؤ بالمستقبل بالنسبة للباحث في حقل تاريخ الذهنيات والتصورات الجمعية للظواهر المستفحلة، في كونه يعد من الوثائق العامية "النائمة" التي تعكس أحاسيس المجتمع وانفعالاته وتمثلاته تجاه الزمن، بمعنى آخر كيف كان الناس يتمثلون زمن منتصف القرن ٨هـ / ١٤م، الذي طغى فيه زمن الشدة والخوف من المستقبل على زمن الفرج والفرح. كما يبدو من ناحية أخرى بأن جوهر هذا النص الذي ألفه شيخ ضرير بلغة يغلب عليها الطابع العامي، كان يريد من خلاله التعبير عن الموقف الراض للامة بني مرين من حملة أبي الحسن في اتجاه الشرق، حيث يظهر ذلك من خلال ورود جملة من الإشارات،

ذلك، ضمن زمن دائري قائم "على عمليتين متلازمتين، وهما استعادة وإعادة تصوير مشاهد عقاب الأوليين وتصوير مُسبقٍ لمشاهد قيام الساعة" (السبتي، ٢٠٢٢، ص ٤٩٥) التي كانت بمثابة إيذانا بالعقاب في الآخرة (نفسه)، يقول الكفيف: (٢٠٠١، ج٤، ص ٣٩٨)

عُمَرَكَ يَا ابن آدم في انصرِماً
وَذُنُوبِكَ كَبِيرٍ مِثْلَ الْجَبَلِ
بِالْك لَا تَمُوتُ وَأَنْتَ نَعَامًا
وَتَمَسَّ طَرِيحٌ فِي ذَا الرَّمَالِ

ولعل ما يؤكد سمة انتشار هذا الاعتقاد بشكل واسع أواخر العصر الوسيط، هو ثمة ملاحظة تفيد بتراجع التأليف في الكتابة التاريخية والتوجه نحو التأليف في الأجناس وكتب البدع^(٢٧)، غير أن السبب الذي يمكن أن نشخص به هذا الشعور والتوجه نحو التذكير بالبدع، هو دخول البلاد في مرحلة الضعف والوهن وكثرة الاضطرابات والفتن، بسبب الوباء وانقسام حكم بلاد المغرب وانتشار الفساد ومارافقه من دسائس وانقلابات سياسية، إلى جانب شعور المسلمين بالتراجع الذي عبر عنه ابن خلدون "بألفاظ دالة على ذلك من قبيل الخل والهزم والأفول...." (نشاط، ٢٠٢٤، ج ١، ص ٣٩٩)، أما بالنسبة للكفيف (٢٠٠١) مبدع العامة، فقد أفصح عن هذا الإحساس باللسان العامي قائلاً: (ج٤، ص ٤٠٥)

فَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْعُمَالُ عَلَى الرَّأْسِ
قَامَ ذُو الْعُرْفِ فِي أَرْضٍ عَلَى النَّاسِ
حَتَّى تَبْلُغَ الْكَسْرَ إِلَى فَاسٍ
فَإِذَا بَلَغُوا النَّاسَ بَانْهَزَامَا
جَبَلُ الْفَتْحِ صَابُوا الْبَحْرَ هَالٍ
يَقْطَعُ بِالْعَسَاكِرِ مِنْ أَمَامَا
وَالسِّيُوفِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
يَنْجُو أَهْلُ الْمَالِ فِي الْقَرَارِقِ^(٢٨)
وَالضُّعْفُ تَحِيْطُ بِهِمُ الدَّوَايِرُ
إِذَا جَاءَ تَهْمُ الرُّومِ بِالْبَوَاتِرِ

وبعد شعور المسلمين بالضعف والتراجع أمام النصارى الذين كانوا أخذوا في الإقلاع والنهضة أواخر

في صوته زمن البكاء والحسرة والأسى والأسف جراء ما كان يعيشه المغاربة من شدائد وفتن في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وهو بيت القصيد بالنسبة للكفيف، واللافت للانتباه أن ابن خلدون المعاصر لهذا الزمن، تحسس ذلك الشعور الجمعي وكتب عنه: "وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة: والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم مُحَدَّثٌ" (ابن خلدون، ٢٠١٤، ج ١، ص ٣٢٥-٣٢٦)، كأنه كان يلوح باقترب زمن الفناء لدى المسلمين. يمكن أن نفسير الباعث الذي قاد ابن خلدون إلى قول هذا الكلام إلى الإحساس بتراجع قوة المسلمين وضعفهم، مقابل تلمسه لإرهاصات نهضة العنصر النصراني على مستوى ازدهار العمران والتجارة من خلال معاينته لأحوال التجار النصارى الوافدين على المراسي المغربية^(٢٩)، إلى جانب ملاحظته لازدهار العلوم التي قال عنها كانت "نافقة الأسواق وأن رسومهما متجددة" (نفسه، ج ٣، ص ١٠٠٨) بالمقارنة مع الضفة الجنوبية التي كانت آخذة في التراجع.

يدور موضوع زجل الجفرية التي بين أيدينا، حول تمثيلات أشرط الساعة وما يقع في آخر الزمن من شدائد وفتن تومئ باقترب قيام الساعة ونهاية العالم، انطلاقاً من استحضار المؤلف لجملة من العلامات الكبرى والصغرى والتي قدرها في سبعين علامة منها ثمانية كبرى وما تبقى منها من الصغرى (الكفيف، ٢٠٠١، ج ٤، ص ٣٩٩)، كلها دالة على الزمن المنذر بقيام الساعة، مستهلاً جفريته بالبسملة والتصلية على النبي، مع تصريحه بنسبة نص الجفرية إليه بقوله: "[وهذه] القصيدة المباركة المسماة بطوق الحمامة لسيدى عبد الله الكفيف رحمه الله" (نفسه، ص ٣٩٧).

بعد أن ذكّر الكفيف بمشاهد أهوال زمن قيام الساعة في الصفحات الأولى من جفريته، أخذ يُنبه الناس من رقدتهم ويحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة من خلال التقرب إلى الله باتباع الطريق المستقيم وترك المعاصي، معتبراً بأن الزمن المُبَشَّر به ناتج أساساً عن الفساد المنتشر بالأرض، وبالتالي فإنه يتأتى كعقاب على

وَأَذْكُرُ مِنْ فَتُوحٍ [أهل] الاستِقَامَا
لِقُسْطَنْطِينِيَّةِ الرُّومِ الْحِيَالِ
وَتَرَى الْمُسْلِمِينَ شَهَرَتْ عَلَامَا
فُوقَ رُومًا وَتَأْخُذُ بِرُتُقَالٍ^(٢٩)
تَكْثُرُ عِنْدَ الْإِسْلَامِ الْغَنَائِمُ
الْأَحْجَرُ فَالِدَ نَانِيرٍ وَالْدَّرَاهِمُ
حَتَّى يَقْسَمَ بِالْتَّرْسِ قَاسِمُ

هكذا يستمر الكفيف حديثه عن توقعات علامات الساعة حتى يظهر في الأخير المهدي المنتظر بالبيت الحرام، وطوافه بزمرم، وظهور الدجال الأعور بعد سبع سنوات من الجذب ليعيث في الأرض فسادا، وظهور ياجوج وماجوج وطلوع الشمس من مغربها التي ستكون فيها نهاية العالم ويغلق فيه باب التوبة وقد عبر عن ذلك: (نفسه، ص ٤١٣-٤١٤)

فَإِذَا خَلَفُوا ذَا الْأَرْضِ جَدْبَا
لَا فَاكِهِ وَلَا بَقْرًا تَرَابًا
تَطْلُعُ شَمْسُنَا مِنْ جَوْ غَرْبَا
تُغْلَقُ عِنْدَ رُؤْيَا ذَا الْعَلَامَا
بَابُ التَّوْبَةِ الرَّاجِيَا الْمُحَالِ
مَنْ لَا خَاذَ طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَا
قَبْلَ أَنْ يَغْلِقَ الْبَابَ لَا يَقَالُ

العصر الوسيط على جميع المستويات، بدليل أن ابن خلدون (٢٠١٤) تحسس مظاهر نهضتهم في العلوم وعبر عن ذلك قائلا: "بلغنا لهذا العهد أن العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض رومة وما إليها من العدو الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها متجددة هناك" (ج٣، ص ١٠١)، وعوض التفكير في مواجهة أمر الواقع والبحث عن أسباب الضعف والإخفاق، استندوا إلى التفكير التواكلي وأخذوا يروجون عن طريق النبوءات بعودة المسلمين إلى الأندلس مع حلول زمن قيام الساعة: (الكفيف، ٢٠٠١، ج٤، ص ٤٠٦).

يَنْزِلُ مَلَكٌ مَخْفٍ الْعَلَامَا
فِي صِيْفَةٍ رَاجِلٌ مِنْ ذَا الْجِبَالِ
يَضْرِبُ الْبَحْرَ يَنْشَقُّ قَامَا عِنْدَ
الْقَنْطَرِ الَّذِي تَقَالُ
يَنْجَا الثُّلُثُ مِنْ ذَا الْخُلُقِ عَامَا
وَالثُّلُثَيْنِ تَفْنِيهِ السُّيْفُ وَالْمَا
حَتَّى تَبْلُغَ الرُّومُ قَاسَ بِحُكْمَا

إذا كان الكفيف (٢٠٠١) ظل على طول هذه اللعبة يذكر الناس من رقدتهم بظهور إرهابيات علامات الساعة، بسبب انغماسهم في الفساد وعدم اللامبالاة، وابتداعهم بدعا لم تكن مألوفة لدى المجتمع المريني، إذ قال عن ذلك: (ج٤، ص ٤٠١)

إِذَا رَأَيْتَ تَفْرِيطَ الْمَسَاجِدِ
وَاتَّخَذُوا النَّاسَ خَرْقَ الْعَوَايِدِ
وَاصْحَبَ الْعُمُودِ سَكْنُوا الْقَرَامِدِ
وَتَرَى الْأُمَّ فِي حَالٍ قَهْرَمَا
تَخْدُمُ بَنَتَهَا عِنْدَ الرِّجَالِ
وَيَعْقُ الْوَلَدَ بَعْدَ ارْتِحَامَا
وَيَطْعُ زَوْجَتُو فِي كُلِّ حَالٍ

فإنه في مقابل ذلك، توقع عودة المسلمين إلى أوج قوتهم في حالة إذا حاربوا الفساد واتبعوا الطريق المستقيم. والأهم في هذه الجفزية هو استحضار عودة المسلمين إلى الأندلس واعتبر ذلك من علامات قيام الساعة قائلا: (نفسه)

خاتمة

الإحالات المرجعية:

يمكن أن ندرج هذابين النصين ضمن خانة توسيع مفهوم المصدر التاريخي في حقل الكتابة التاريخية. وبما أن تأليفهما جاء على لسان شيخ ضرير كان ينطق بلسان حال عامة المجتمع وما كان يشعر به من زمن مؤطر بالضيق والشدّة، أمكن ربطهما بأجناس الأدب العامي الذي يمكن أن يسهم في تطوير عملية الكتابة التاريخية بالمغرب الوسيط، وبخاصة الجانب المتعلق بتاريخ الحساسيات الجمعية تجاه الظواهر والأشياء. إذ يمكن على سبيل المثال للباحث في تاريخ الذهنيات أن يستثمر متنتهما في موضوع تمثلات المجتمع للزمن، إلى جانب توظيفهما أيضاً في حقل التاريخ الحدثي والسياسي، حيث يمكن لمتصفح كتاب "وقائع ثورة المورسكيين بالأندلس"، أن يجد مؤلفه يخصص فصلاً كاملاً للنبوءات التي وظفها الثورا في شحذ همم المورسكيين للقيام بالثورة، لأنها كانت تتوقع استرجاع المسلمين للأندلس، أما على مستوى توجيه الحدث السياسي، فقد لا حظنا أن بني عبد الواد وظفوا الأجفار عن طريق "ابن جرار"، لإشاعة خبر مفاده أن أبي الحسن سينهزم في إفريقية ولا يعود من سفرته، ولعلها النبوءة التي استغلها أبي عنان على الانقلاب في فاس.

- (١) على الرغم مما ألفه الكفيف من أرجال في القرن (١٤/٥٨م)، يبقى من الأعلام المغمورين الذين أهتمتهم كتب التراجم، إذ يكاد المتصفح للكتب التي تناولت تراجم الرجال، ألا يعثر على أية ترجمة له. غير أن ثمة إشارات يمكن أن نستقيها من زجله، وما كتبه عنه ابن خلدون بكثير من الإعجاب الذي قال عنه: "وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزهرهون نواحي مكناس رجل يعرف بالكفيف أبدع في مذاهب هذا الفن"، أي الزجل. نستطيع أن نُكوّن فكرة عنه ونقول إن الرجل نشأ وترعرع ب "صَارِيَّة" أو "صَرِيَّة"، وهو مدشر مازال موجوداً بهذا الاسم إلى اليوم، يقع بين بين صَفْرُو والمَنْزَل، وعلى كل حال يكون منشؤه ومزبأه غير بعيد عن زَرْهُون الواقعة بين فاس في الشرق ومكناس في الغرب. وواضح من خلال ابن خلدون أنه كان مُقيماً بزهرهون القريبة من مكناس. ويبدو من خلال الاستهلال الذي وضعه لزجله الموسوم ب "زجل في التَّقويم أعلاه؛ أن اسمه عبد الله الكفيف، حيث أوردته قائلاً: "ومن كلام سيدي عبد الله الكفيف رضي الله عنه ونفعنا به"، كما يبدو أنه كان شيخاً ضريراً ينتمي إلى فئة العامة في عهد السلطان أبي الحسن المريني، ومن المرجح أن يكون قد مات متأثراً بتداعيات الطاعون الجارف. ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، تحقيق: وافي علي، عبد الواحد، دار نهضة مصر القاهرة، ط ٧، ٢٠١٤، ج ٣، ص ١٢٠٩. الكفيف الزهوني، **الملعبة**، تحقيق: بنشريف، محمد، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ١٩٨٧، ص ٨. الوزان، الحسن، **وصف إفريقيا**: ترجمة حجي، محمد الأخضر، محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط ٢، ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٩٤.
- (٢) الكفيف الزهوني، **زجل التقويم**، ضمن بنشريف، محمد، تاريخ الأمثال والأرجال في الأندلس والمغرب بحوث ونصوص، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ج ٤، ص ٣٧٧.
- (٣) ابن سعد القرطبي، عريب ابن البنا، المراكشي، **رسالتان في الأنواء**، تحقيق: بنحمادة، سعيد القادري بوتشيش، إبراهيم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ط ١، ٢٠١٥، ص ٥٨.
- (٤) ريكور، بول، **الوجود والزمان والسرد: الحبكة والسرد التاريخي**، ترجمة: الغانمي، سعيد رحيم، فلاح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠٠٦، ج ٣، ص ١٧٥.
- (٥) السبتي، عبد الأحد، **كتابة التاريخ في مغرب الحماية**، ضمن الذاكرة والهوية، أعمال مهداة للأستاذ القدوري، عبد المجيد، تنسيق: جادور، محمد وآخرون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك، الدار البيضاء المغرب، ط ١، ٢٠١٣، ص ٩٠.
- (٦) نلتقي بمتن المظان كثيراً "بالسنة" و"العام" ما الفرق بينهما؟ الجواب هو أن العام عند العرب يتكون من اثني عشر شهراً برؤية الهلال، وهو في الأصل للعربي ولذلك يعبر بالعام، ولا يعبر بالسنة التي في الأصل للعجم؛ وهي أطول من العام العربي بإحد عشر يوماً تقريباً، ولذلك كانت العرب تسمي عام الجذب سنة فيقال "أصبنا سنة" والمعنى أن ذلك العام لشدة طويل على النفوس حتى استحق إن يسمى سنة. السوسني المزغيتي، محمد بن أحمد، الممتع في شرح المقنع، تحقيق: المنذر، عبد الرحمن، المكتبة العصرية، صيدا بيروت لبنان، د. ت، ص ١٥. قال تعالى: "وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون" الحج: الآية ٤٧. إذن فالسنة في التية يكون المراد بها شدة

FERHAT, Halima, *Le Maghreb aux Xle et Xlle siècles: les siècles de la foi*, Edition wallada, Casablanca, 1993, pp 159-162.

(٢٠) ابن مرزوق التلمساني، محمد، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: خيسوس بيغيرا، ماري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١، ص ٤٣٨.

(٢١) فاروق، عمر، **الثورة العباسية**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، ط ١، ١٩٨٩، ص ٧٧.

(٢٢) إميل بديع، يعقوب، **المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر**، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٣٧ ٤٣٨.

(٢٣) يُنظر أيضًا: ابن حجة الحموي، أبي بكر، **بلوغ الأمل في فن الزجل**، تحقيق: محسن القريشي، رضا، دمشق، ١٩٧٤، ص ٦٨.

(٢٤) الكفيف، الزهوني، **زجل طوق الحمامة**، ضمن بنشرية، محمد، تاريخ الأمثال والأزجال، م. س، ج ٤، ص ٣٩١ ٤٢١.

(٢٥) كرخال، مارمول، **وقائع ثورة الموريسكيين**، ترجمة: جزر وسام، محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢، ج ١، ص ٢٤١.

(٢٦) نشاط، مصطفى، **"ابن خلدون ناظرًا إلى إرهابات النهضة الأوروبية للقرن ١٥م"**، ضمن كتاب النخبة العالمية والمثقفون في تاريخ المغرب والأندلس رؤى وتقاطعات: المثقف والفقيه وقضايا المجتمع، أعمال مهداة للدكتور الغرايب، محمد، تنسيق: مجموعة من الأساتذة، دار بصمة للنشر والتوزيع، فاس، ط ١، ٢٠٢٤، ج ١، ص ٣٩.

(٢٧) ملاحظة أوردها الأستاذ أحمد عزايي ضمن الدرس الافتتاحي الموسوم بـ "مصادر التاريخ الاجتماعي لمغرب العصر الوسيط: مآذير منهجية" وذلك يوم الثلاثاء ٢١ دجنبر ٢٠٢٤ على الساعة العاشرة والنصف صباحًا برحاب كلية الآداب، القنيطرة. وللإطلاع على هذه المحاضرة ينظر الرابط الآتي: https://www.youtube.com/watch?v=cJ_xwq9M0sU&t=5613s

613s

(٢٨) ومعناه السفن.

(٢٩) معناها البرتغال.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- ابن حجة الحموي، أبي بكر، **بلوغ الأمل في فن الزجل**، تحقيق: محسن القريشي، رضا، دمشق، ١٩٧٤.

- ابن خالد الناصري، أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: الناصري، جعفر - الناصري محمد، دار الكتاب - الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧.

- ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، تحقيق: وافي علي، عبد الواحد، دار نهضة مصر - القاهرة، ط ٧، ٢٠١٤.

- ابن زيدان، عبد الرحمن، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق: علي، عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨.

- ابن سعد القرطبي، عريب - ابن البناء المراكشي، رسالتان في الأنواء، تحقيق: بنحمادة، سعيد - القادري بوتشيش، إبراهيم، مشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ط ١، ٢٠١٥.

ذلك اليوم وأيام الشدة طويلة على النفوس، ولعل أبرز الأمثال التي ضربت في أثر السنة المجدية: "أطول من يوم الفراق"، "أطول من شهر الصوم"، "أطول من السنة المجدية". الميداني، **مجمع الأمثال**، منشورات المعاونة الثقافية للاستانة الرضوية المقدسة، د.ت، ج ١، ص ٤٥٨.

(٧) السبتي، عبد الأحد، **من عام الفيل إلى عام الماريكان الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي**، منشورات دار المتوسط، إيطاليا، ط ١، ٢٠٢٢، ص ١٣٨.

(٨) ابن عذاري، المراكشي، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تحقيق: بشار عواد، معروف بشار عواد، محمد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط ١، ٢٠١٣، مج ٣، ص ٣٨٢.

(٩) المغراوي، محمد، **المودودون وأزمات المجتمع**، دار جذور للنشر، الرباط المغرب، ط ١، ٢٠٠٦، ص ١٦٨.

(١٠) للمزيد من المعلومات حول أدب الأنواء. ينظر ابن سعيد، القرطبي وابن البناء المراكشي، رسالتان في الأنواء، م. س.

(١١) ابن قتيبة، الدينوري، **الأنواء في مواسم العرب**، فهرسه المساهم رفع، د.ت، ص ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦٣ ١٦٤.

(١٢) الذبياني، النابغة، **ديوان النابغة الجعدي**، تحقيق: الصمد، واضح، دار صادر، بيروت لبنان، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢٩.

(١٣) نشاط، مصطفى، **"التأريخ بالتمثل العامي نماذج من تاريخ المغرب في العصر المريني"**، ضمن الوثيقة التاريخية المكتوبة وقراءة العلوم الإنسانية والاجتماعية، أعمال مهداة للأستاذ رزوق، محمد، تنسيق: ياسر الهلالي، محمد واحي سعيد، كلية الآداب، عين الشق الدار البيضاء، مطبعة ريان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٣، ص ٩٣.

(١٤) بوبريك، رحال، **"تأريخ بدون أرقام"**، ضمن كتاب الذاكرة الجماعية وتمثلات الزمن عبد الأحد السبتي وتأريخ الأعوام، تنسيق: حافظي علوي، حسن، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط ١، ٢٠٢٤، ص ٢١.

(١٥) ابن زيدان، عبد الرحمن، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق: علي، عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٨٤.

(16) Pomain, Krzysztof, " *L'histoire de L'histoire de La science et l'histoire de l'histoire*", IN: *Annales, Economies, Sociétés, Civilisations*, N.5, 1975, P 938.

(١٧) أبو يحيى عبيد الله الزجالي القرطبي، أحمد، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق: بنشرية، محمد، مطبعة محمد الخامس، فاس ١٩٧٥، ج ١، ص ١٥٩.

(١٨) الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: الناصري، جعفر الناصري محمد، دار الكتاب الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧، ج ٣، ص ١٦٤.

(١٩) أخليف، مصطفى، **"كيف كان المغربي البسيط في العصر المريني يفكر في العالم"**، ضمن قطوف من تاريخ المغرب الوسيط، أعمال مهداة للدكتور، نشاط، مصطفى، إشراف دادي، مارية، تنسيق: مداني، طارق المستعين، عبد الباسط يشي، طارق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ط ١، ٢٠٢٢، ص ٩٧. وللمزيد من المعطيات حول تفشي ظاهرة قرون الاعتقاد في تحقق نبوءات المنجمين بالمغرب الوسيط. يُنظر:

- الميداني، مجمع الأمثال، منشورات المعاونة الثقافية للتستانة الرضوية المقدسة، د.ت.

- نشاط، مصطفى، " ابن خلدون ناظرًا إلى إرهابات النهضة الأوروبية للقرن ١٥م"، ضمن كتاب النخبة العالمية والمثقفون في تاريخ المغرب والأندلس رؤى وتقاطعات: المثقف والفقيه وقضايا المجتمع، أعمال مهدة للدكتور الغرايب، محمد، تنسيق: مجموعة من الأساتذة، دار بصمة للنشر والتوزيع، فاس، ط ١، ٢٠٢٤.

- نشاط، مصطفى، "التأريخ بالتمثل العامي نماذج من تاريخ المغرب في العصر المريني"، ضمن الوثيقة التاريخية المكتوبة وقراءة العلوم الإنسانية والاجتماعية، أعمال مهدة للأستاذ رزوق، محمد، تنسيق: ياسر الهلالي، محمد - واحدي، سعيد، كلية الآداب، عين الشق - الدار البيضاء، مطبعة ريان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٣.

- الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة: حجي، محمد - الأخضر، محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨٣.

- FERHAT, Halima, Le Maghreb aux XIe et XIIIe siècles: les siècles de la foi, Edition wallada, Casablanca, 1993.

-Pomain, Krzysztof, L'histoire de La science et l'histoire de l'histoire, IN : Annales, Economies, Sociétés, Civilisations, N.5, 1975.

https://www.youtube.com/watch?v=cJ_xwq9M0sU&t=5613s

-

- ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق: بشار عواد، معروف - بشار عواد، محمد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط ١، ٢٠١٣.

- ابن قتيبة، الدينوري، الأنواء في مواسم العرب، فهرسه المساهم رفع، د.ت.

- ابن مرزوق التلمساني، محمد، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: خيسوس بيغيرا، ماري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.

- أبو يحيى عبيد الله الزجالي القرطبي، أحمد، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: بنشريف، محمد، مطبعة محمد الخامس، فاس، ١٩٧٥.

- أخليف، مصطفى، كيف كان المغربي البسيط في العصر المريني يفكر في العالم، ضمن قطوف من تاريخ المغرب الوسيط، أعمال مهدة للدكتور، نشاط، مصطفى، إشراف دادي، مارية، تنسيق: مداني، طارق - المستعين، عبد الباسط - يشي، طارق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ط ١، ٢٠٢٢.

- إميل بديع، يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩١.

- بوبريك، رحال، "تأريخ بدون أرقام" ضمن الذاكرة الجماعية وتمثلات الزمن عبد الأحد السبتي وتاريخ العوام، تنسيق: حافظي علوي، حسن، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط ١، ٢٠٢٤.

- الدرعي، محمد بن أحمد الشريف، روضة الأزهار في التعريف بنسب آل محمد المختار، مخطوط موجود تحت رقم ٣٨١، جناح المخطوطات، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء - المغرب.

- الذبياني، النابغة، ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: الصمد، واضح، دار صادر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٨.

- ريكور، بول، الوجود والزمان والسر والحبكة والسرد التاريخي، ترجمة: الغانمي، سعيد - رحيم، فلاح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٦.

- السبتي، عبد الأحد، كتابة التاريخ في مغرب الحماية، ضمن الذاكرة والهوية، أعمال مهدة للأستاذ القدوري، عبد المجيد، تنسيق: جادور، محمد وآخرون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك، الدار البيضاء - المغرب، ط ١، ٢٠١٣.

- السبتي، عبد الأحد، من عام الفيل إلى عام الماريكان الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي، منشورات دار المتوسط، إيطاليا، ط ١، ٢٠٢٢.

- السوسي المزغيتي، محمد بن أحمد، الممتع في شرح المقنع، تحقيق: المنذر، عبد الرحمن، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت لبنان، د. ت.

- فاروق، عمر، الثورة العباسية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، ط ١، ١٩٨٩.

- كربخال، مارمول، وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة: جزر وسام، محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢.

- الكفيف الزرهوني، زجل التقويم، ضمن بنشريف، محمد، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب بحوث ونصوص، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

- الكفيف الزرهوني، المعلبة، تحقيق: بنشريف، محمد، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٧.

- المغراوي، محمد، الموحدون وأزمات المجتمع، دار جذور للنشر، الرباط - المغرب، ط ١، ٢٠٠٦.

حَجَّةُ أَسْكِيَا مُحَمَّد (٩٠٢هـ/١٤٩٦م) وَإِشْكَالِيَّةُ التَّوْثِيقِ الْمَشْرِقِيِّ

أ.د. محمد دوكوري

كلية الشريعة والقانون

الجامعة الإسلامية

مدينة ساي - جمهورية النيجر



مُلَخَّصٌ

أسَّس أسْكِيَا مُحَمَّد سلسلة سلاطين حكموا مناطق واسعة من غرب بلاد السودان في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، واشتهر أن أسْكِيَا مُحَمَّد استهَلَّ القرن برحلة حجِّ عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، وأنه التقى في حجته تلك بالخليفة العباسي (أو شريف مكة) الذي قلَّده حكم بلاده نيابة عنه، والتقى بجلال الدين السيوطي الذي استفتاه وطلب منه الدعاء، وحُكي في كتب التاريخ عن حجته حكايات أخرى بعضها غريبة، ارتفع بها أسْكِيَا مُحَمَّد إلى مستوى منسا موسى (سلطان مالي) الذي أدَّى قبله عام ٧٢٤هـ حجة أطبقت شهرتها الآفاق. لكن يظهر لمن يطلُّ على أخبار حجة أسْكِيَا مُحَمَّد، إشْكَالِيَّةٌ في توثيق رحلة حجه من بلاد السودان إلى الحجاز (مكة والمدينة) مروراً بالقاهرة في مصر. يتمثل عمق الإشْكَالِيَّةِ في غياب أخبار حجة أسْكِيَا مُحَمَّد في المصادر المشرقية، وخاصةً الحوليات المصرية والحجازية التي يفترض أن يكون فيها أخبار أحداث الحج التي حكها كتب تاريخ ألفها علماء بلاد السودان. كانت تلك الإشْكَالِيَّةُ أساس هذه المقالة التي تحاول إيجاد حل لها واستجلاء حقيقة الأمر في الأخبار المذكورة وتحليلها ونقدها في ثلاثة محاور. تناولت المقالة أولاً تسعة مصادر ذكرت حجة أسْكِيَا مُحَمَّد أهمها من بلاد السودان، وحلَّلت أخبارها ونقدتها، ثم تناولت ثانياً سبعة مصادر حجازية ومصرية لم تذكر حجة أسْكِيَا مُحَمَّد وكان يفترض منطق البحث أن تذكرها؛ مع بيان أحقية توقع ذكرها من جهة وخلوها الفعلي منها من جهة أخرى، ثم عرَّجت ثالثاً على محاولة بيان سبب غياب أخبار الحجة في تلك المصادر، وانتهت المقالة إلى طرح حل للإشْكَالِيَّةِ: إنَّ أسْكِيَا مُحَمَّد حجَّ فعلاً في أوائل القرن العاشر الهجري، لكن لم تكن حجته بالأبهة التي تجذب انتباه مدوَّني المصادر والحوليات المشرقية وتجعلهم يسجلون أخبارها.

كلمات مفتاحية:

أسْكِيَا مُحَمَّد؛ حج أسْكِيَا مُحَمَّد؛ التوثيق التاريخي؛ مصادر تاريخية؛ بلاد السودان

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أغسطس ٢٠٢٥

تاريخ قبول النشر: ١٨ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.414153.1260

معرّف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد دوكوري، "حَجَّةُ أَسْكِيَا مُحَمَّد (٩٠٢هـ/١٤٩٦م) وإشْكَالِيَّةُ التَّوْثِيقِ الْمَشْرِقِيِّ"، دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون: ديسمبر ٢٠٢٥، ص ٨٥ - ٩٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: mdukure@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

نشر لي عام ٢٠١٢ كتاب (منسا موسى السلطان الحاج)، جمعتُ فيه من المصادر العربية الأولية والثانوية، أخبار حجة منسا موسى عام ٧٢٤هـ=١٣٢٤. ثم إنني هممت بجمع أخبار حجة خلفه المشهور أسكيا محمد عام ٩٠٢هـ = ١٤٩٦، مؤسس أسرة أسكيا المشهورة، وسلطان سنغي الذي حكم بلاد السودان من عاصمته (كَّالُو).

أردت أن أطبّق في أخبار حجة أسكيا محمد، المنهج الذي طبّقته في الحجة المشهورة لسلفه منسا موسى، وهو استقرار المصادر وتحليلها ونقدها. لكن بعد جمع أولي للمصادر ظهرت لي إشكالية تمثلت في اختلاف كمي ونوعي بين الحجتين فيما يتعلق بالمصادر؛ فمصادر أخبار حجة أسكيا محمد قليلة نسبة إلى مصادر أخبار حجة منسا موسى، مع تشابه الحجتين في اعتبارات وجوانب كثيرة. ومن ناحية أخرى استشكلت غياب أخبار حجة أسكيا في المصادر المشرقية المتوافرة؛ وبقيت برهة أبحث في المصادر الحجازية والمصرية والشامية دون جدوى، وخاصة حوليات الحجاز (مكة والمدينة) الظرف المكاني لأعمال الحج والزيارة، والحوليات المصرية؛ بسبب كون القاهرة محطة أساسية لرحلة ركب الحجاج من بلاد التكرور وغرب بلاد السودان في ذلك الزمن، وعاش بعض مؤلفي تلك المصادر في الزمن والمكان المفترضين لرحلة حجة أسكيا محمد أو قريباً.

كانت تلك الإشكالية منطلق هذه المقالة التي تدور حول ثلاثة محاور: المحور الأول: وصف وتحليل المصادر التي أخبرت عن حجة أسكيا، وبيان درجة ذكرها وحجمه، ونقد الأخبار الواردة فيها؛ المحور الثاني: وصف وتحليل المصادر التي لم تذكر حجة أسكيا، مع توقع ذكرها فيها؛ المحور الثالث: محاولة الوصول إلى سبب خلوّ المصادر التي خلت من ذكر حجة أسكيا؛ وهل يمكن أن يؤثر خلوّ المصادر المشرقية من ذكر الحجة، على الأخبار الواردة عنها في مصادر بلاد السودان؟ وما حجم التأثير إن وجد؟

لا تتطرق المقالة إلى المراجع والدراسات المعاصرة، مثل كتاب همباتي با وزميلة (L'Empire peul du Macina, Abidjan 1984). والأعمال الكثيرة لجون هنويك (John Hunwick) ونهيميا ليفتزيون (Nehemia Levtzion) وغيرهما حول بلاد السودان، وفيها مواضع مفيدة في حج أسكيا؛ لتعلق إشكالية البحث بالتوثيق المصدري الأساسي.

أولاً: المصادر التي ورد فيها ذكرٌ لحجة أسكيا

سأسرد في هذا المحور عدداً من المصادر التي ورد فيها ذكرٌ لحجة أسكيا محمد، مهما كانت درجة الورود، ولو لم تكن دلالتها على حجته إلا وصفه بالحاج؛ فذلك كاف في المقصود. وستكون المصادر مرتبة بحسب تاريخ وفيات مؤلفيها.

١/١- أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي

(ت ٩٠٩هـ) الشركة الوطنية ١٩٧٤، الجزائر

هكذا جاء العنوان بالقاف وبالتعريف (الأسقيا). مع أنه في مواضع من نص الكتاب المحقّق بالكاف وبلا تعريف (أسكيا). وفي الحاشية (ص ٢١) عند ورود اللقب في نص الكتاب، ردّد محقّق الكتاب (عبد القادر زبادية) بين القاف والكاف دون بيان مصدر ذلك. ويجيء اللقب في بعض المصادر بدون الألف المطرفة (أسكي)، وفي بعضها بحذف الألف في البداية مع تاء في النهاية بعد الباء (سُكِيَة) وسيأتي مواضع منهما في المقالة. الكتاب أجوبة فقهية وسياسية من الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، عن أسئلة وجهها إليه أسكيا محمد. والمغيلي عالم من بلاد المغرب وصل إلى عاصمة أسكيا محمد حوالي ١٥٠٠ (مقدمة التحقيق ص ٦)، وذلك بُعيد حجة أسكيا وقُبيل وفاة المغيلي.

ليس في الكتاب أخباراً عن تفاصيل حجة أسكيا، وإنما دلالته على الحج أن المؤلف وصف أسكيا بالحاج في خطبة الكتاب: "إلى الأمير الحاج أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الملقب بأسكيا"، وهي المرة الوحيدة التي وجدته وصفه بالحاج، مع ورود اللقب (أسكيا) في موضعين آخرين من الكتاب، أحدهما (ص ٣٧) في سؤال، والآخر (ص ٣٩) في جواب. وعلى أن نسبة خطبة الكتاب

المراكشي، وتوفي أقل من مائة سنة بعد وفاة أسكيا محمد.

دلالة كتاب نيل الابتهاج على حج أسكيا في موضعين منه: أحدهما: في ترجمة "العاقب بن عبد الله الأنصمني" (رقم ٤٥٨ ص ٣٥٣)، ذكر من مؤلفاته "أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير"، قال: "أجاب فيها السلطان أسكن [أسكي] الحاج محمد". والموضع الآخر في ترجمة المغيلي السابق (رقم ٧٠١ ص ٢٥٥)، أنه "رحل لبلاد التكرور فوصل إلى بلدة كاغو واجتمع بسلطانها ساسكي [أسكي] الحاج محمد".

ورد لقب السلطنة هكذا في المطبوع، بنون بعد الكاف في الموضع الأول (أسكن)، وفي الموضع الآخر بما هو أشكل (ساسكي). والصحيح ما بين المعقوفتين في الموضوعين. والظاهر من رسم اللقب في الموضوعين أن المؤلف ممن يرسمه بدون الألف المتطرفة (أسكي)، وهو كذلك في بعض المصادر؛ فتحرف عند النسخ أو التحقيق. وبالصحيح ورد في الموضع الأول من كفاية المحتاج (ص ٣٧٧/١)، أما الموضع الآخر (٢١٤/٢) فلم يذكر فيه المؤلف لقب السلطنة، واكتفى بوصفه بالعربي (السلطان الحاج محمد). ودلالة الكتاب على حجة أسكيا محمد من وصفه إياه بالحاج في الموضوعين؛ فهو مثل المصدر الأول.

٥/١- البستان في ذكر الأولياء والعلماء

بتلمسان، ابن مريم (ت حوالي ١٠٢٠هـ)
المطبعة الثعالبية ١٩٠٨، الجزائر

قال ابن مريم في خاتمة كتابه (ص ٣١٤): "وقد انتخبته من نيل الابتهاج بتطريز الديباج للشيخ أحمد بابا السوداني.. وذكر عددا من مصادر كتابه، وأفاده كذلك مقدم الكتاب (ص ٤)؛ ولكونه مصدراً ثانوياً أخرته في الذكر مع أن وفاته قبل وفاة أحمد بابا، وإن تحديد وفاة ابن مريم بالتقريب لا بالتحقيق (مصادر ترجمته). نقل ابن مريم ترجمة المغيلي من نيل الابتهاج نقلا حرفيا، فجاءت ترجمته كما سبق؛ فالكتاب مصدر ثانوي في خبر حجة أسكيا محمد، ودلالته على حجة أسكيا كدلالة أصله نيل الابتهاج؛ من وصفه إياه بالحاج.

من المغيلي نفسه، وهو المظنون؛ فذلك دليل على أن المغيلي كتب الأجوبة بعد تاريخ الحجة (ذو الحجة ٩٠٣هـ = يوليو ١٤٩٧)، أي ست سنوات على الأكثر قبل وفاة المغيلي (٩٠٩هـ = ١٥٠٣).

٢/١- وصف إفريقيّا، الحسن الوزان (ت ٩٦١هـ) دار الغرب الإسلامي ١٩٨٣، بيروت

زار الوزان - مثل المغيلي السابق - عاصمة أسكيا وفي فترة حكمه، صحبة عمّه الذي ارتحل إلى أسكيا محمد عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م في مهمة دبلوماسية، وكان الوزان حينئذ مراهقا يافعا (ص ١٧١/١). جاء في الكتاب عن أسكيا محمد (١٦٠/٢): "ولما فرغ من نشر السلام والهدوء في مملكته رغب في الحج إلى مكة. وأنفق في هذا الحج كل ماله، واقترض خمسين ألف مثقال". وفيما ذكره من خبر حجة أسكيا هنا ما يشبه خبر حج منسا موسى، وهو نفاذ جميع ماله واقتراضه، بل حتى في كمية القرض؛ فعند ابن خلدون في تاريخه (دار الفكر ١٩٨١، بيروت ٤٩٥/٥) أن تجار مصر أقرضوا منسا موسى خمسين ألف مثقال حين نفذ ماله في طريق العودة. وليس في المصادر الأساسية لحجة أسكيا (تاريخ السودان والفتاش ونصيحة أهل السودان) ذكر لنفاذ ماله ولا لاقتراضه. كما أن الوزان يجعل قاعدة ملك أسكيا في تنبكتو، والمعروف أنها في كاور (أو كاور). وسيتبين من خلال المقالة قضية المقارنة بين حجة السلطانين المشهورين.

٣/١- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار

الكاتب ٢٠٠٠، طرابلس

٤/١- كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج،

وزارة الأوقاف ٢٠٠٠، المغرب

كلاهما لأحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ)

الكتاب الثاني اختصار للأول، ومؤلفهما (أحمد بابا) عالم مخضرم عاش نهاية دولة أساكي لثاوو خلفاء أسكيا محمد، وبداية حكم باشوات تنبكتو حكام الغزو

- إنه عاد إلى عاصمته (لثاوو) في نهاية رحلة الحج في شهر ذي الحجة عام ٩٠٢هـ.

٧/١- تاريخ الفتاش، محمود كعت

(ت ١٠٧٥هـ) المدرسة الباريسية ١٩٨١،

باريس

نشر الكتاب بتحقيق هوداس ودلافوس (O. Houdas & M. Delafosse)، أخرجاه على ثلاث نسخ خطية رمزت إليها بالأحرف الثلاثة الأولى من الأبجدية أ، ب، ج (A, B, C).

كتاب تاريخ الفتاش أوسع مصادرنا في أخبار حجة أسكيا محمد؛ في تكرار ذكرها في مواضع مختلفة من الكتاب، وكذلك في كثرة الأخبار التي ذكرها، ولكنه أيضاً مصدر أخبار غريبة أثار بعضها الإشكالية التي كانت أساس هذه المقالة.

ذكر الحجة في مواضع من الكتاب:

(ص ١٢) ولا يوجد هذا الموضع إلا في مخطوط (ج): في بداية الكلام على أسكيا محمد، في سياق التأكيد على شرعية حكم أسكيا محمد وخلافته، فذكر أن "ممن صرح بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطي... والشريف الحسني مولاي العباس" أمير مكة. ثم نقل حكاية طويلة لأسكيا مع الشريف "حذاء الكعبة" في مكة، وأن الشريف - بعد مطالب ومراسم وإشهاد الحاضرين - "جعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء وأعطاه سيفاً وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بالتكرور، وأن كل من خالفه في تلك الأرض فقد خالف الله تعالى ورسوله". ثم ذكر أن أسكيا محمد في طريق عودته لقي السيوطي بمصر؛ وسرد المؤلف حديثاً طويلاً بين أسكيا والسيوطي، فيه قصص غرائبية وتنبؤات كثيرة بالمستقبل وفتاوى فقهية. ثم عاد المؤلف (ص ١٦) إلى بداية أخبار الحج ولقاء أسكيا أمير مكة، وأن أسكيا طلب أن يبعث إلى بلاده ابناً أو أخاً لشريف مكة؛ فوصل ابن أخيه إليها عام ٩٢٥هـ.

(ص ٣٣) وهو - مثل ما سبق في أول مواضع تاريخ السودان - في سياق الكلام على حجة منسا موسى، وقارن هو بين حجات ثلاثة من السلاطين، نقلا عن عالم

٦/١- تاريخ السودان، السعدي

(ت ١٠٦٦هـ) المدرسة الباريسية ١٩٨١،

باريس

عاش السعدي في البلاد التي كانت تحت حكم أسكيا محمد، ويعدّ كتابه مع تاريخ الفتاش الآتي ذكره، أهم مصدرين في أخبار الحجة. وستأتي مقارنة بينهما بعد ذكر تاريخ الفتاش.

ورد في تاريخ السودان تفاصيل عن أخبار حجة أسكيا في موضعين من الكتاب:

أحدهما (ص ٧) مختصر. في سياق الكلام على منسا موسى وحجته المشهورة، قارن السعدي بين حجة السلطانين منسا موسى وأسكيا محمد؛ بأن الأول تصدّق بعشرين ألف مثقال، والآخر تصدّق بمائة ألف مثقال. نسب السعدي إلى "أهل المشرق" خبر مقدار ما تصدّق به منسا موسى. وهو دليل أحقية منهجية طلب التوثيق المشرقي لحجّ السلاطين؛ ويثير إشكالية انعدام أخبار حجة أسكيا محمد في المصادر المشرقية، وهي الإشكالية التي كانت من بواعث هذه المقالة.

والموضع الآخر (ص ٧٢) هو مظنة الكلام على حجة أسكيا، وأخبارها فيه مطوّلة. فذكر:

- إنه انطلق في شهر صفر من عام ٩٠٢هـ، بعد ما أسند مهامه إلى أخيه عمر كمزاع؛
- إنه كان معه كثير من أعيان بلاده، وذكر منهم ألفا صالح جَوَّرَ من العلماء الصالحين، وأسكيا موسى ابنه وخلفه في السلطنة، وعلي قُلْنٌ وزير أسكيا محمد؛ ومن الجنود خمسمائة فارس وألف راجل؛
- إنه زار المدينة المنورة؛
- إنه جلب معه ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب: تصدّق بمائة ألف كما سبق، واشترى سلعا وحاجات بمائة ألف، وأنفق المائة الثالثة في تكاليف السفر؛
- إنه التقى "بالشريف العباسي" الذي "جعله خليفته" في بلاده.
- إنه التقى بعلماء منهم جلال الدين السيوطي (ت ٩١١)، استفتاهم وطلب منهم الدعاء؛

الحجة. وأيضاً فالذي يظهر من المخطوطين الأصحَّين أن المؤلف انتهج اختصار خبر ذهاب أسكيا محمد إلى الحج وخبر إياه، ثم التفصيل في الوقائع والأحداث التي وقعت في سفر الحج ذهاباً وإياباً، وبدأ ذلك بقوله: "وله خصائص ومناقب في حجه". ويختل هذا الأسلوب إذا اعتبرنا ما زاده المخطوط (ج)؛ لأن فيه ذكر بعض تلك الخصائص والمناقب في سياق خبر الذهاب، قبل الموضوع المخصص لذكرها. والله أعلم.

(ص ٧٢-٧٣) في سياق ذكر وثيقة كتبها أسكيا محمد لأحفاد أحد العلماء (مُور محمد هَوَّار)، "ونصه: هذا كتاب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين السلطان العادل القائم بأمر الله أسكي الحاج محمد بن أبي بكر... وفي آخرها: "بحرمة الذي وقفتُ به على رسول الله (ﷺ) وقمتُ في داخل شبكة روضته (ﷺ)". فهذا موضع يصف فيه أسكيا محمد نفسه بالحج، ويحكي بعض تفاصيل حجته؛ أنه زار المدينة ودخل الشبكة التي على القبر النبوي في الروضة.

(ص ٨٦) في سياق إطلاق أسكيا إسماعيل أباه أسكيا محمد من السجن، وفيه قول أسكيا محمد لابنه: "هذا قميصُ قَمَصَنِي به شريف مكة المشرفة الذي هو أميرها حينئذ، وأدخل هذه القلنسوة على رأسي وعممَني هكذا بيده المباركة في حضرة جم غفير من قومه من أهالي مكة وغيرهم، وقلدني هذا السيف وقال: أنت أمير ونائب وخليفتي في إقليمك وأنت أمير المؤمنين. وأنا خليفته وأميره ونائبه، وولائي وملكتي.. وقد وَلَّيْتُكَ أنا ورددتُ الخلافة التي قلدني بها الشريف لك، وأنت خليفة خليفة الشريف الذي هو خليفة السلطان الأعظم العثماني".

وفيه من المشكل أنه جعل "شريف مكة" عام ٩٠٢-٩٠٣ هـ خليفةً للسلطان العثماني؛ فإنه جعل شرعية أسكيا محمد من تولية شريف مكة إياه، وشرعية شريف مكة من تبعيته للسلطان العثماني. وأمراء مكة في ذلك التاريخ كانوا تابعين للسلطان المملوكي في مصر، ولم يدخلوا في تبعية السلطان العثماني إلا بعد التاريخ المذكور بنحو عشرين عاماً^(٢). وفيه مشكل آخر أنه جعل

عاش عهد الأساكي والباشوات؛ أنه كان مع منسا موسى من "حملة السلاح" ثمانية آلاف، وكان مع أسكيا محمد ثمانمائة، وكان مع الباشا علي بن عبد القادر ثمانون.

فكانت مقارنة السعدي بين سلطانيين (منسا موسى وأسكيا محمد)، وموضوع المقارنة مبلغ ما تصدق به كل واحد، وكان التفوق لأسكيا محمد على قول السعدي. أما الفتاش فقارن بين ثلاثة سلاطين من ثلاث ممالك مختلفة (منسا موسى وأسكيا محمد والباشا علي بن عبد القادر)، وموضوع المقارنة الجنود المرافقون لكل؛ وكان التفوق لمنسا ثم أسكيا ثم الباشا، بمقدار النقصان بالعضد لكل سلطان بالنسبة لمن بعده.

(ص ٦٥-٧٠) وهو الموضوع الأكثر تفصيلاً في ذكر أخبار حجة أسكيا، لكن اختلفت المخطوطات فيه اختلافاً كبيراً؛ اختصر المخطوطان الأول والثاني خبر الذهاب إلى الحج في نحو إحدى وثمانين كلمة، لكن المخطوط الثالث فصله بأكثر من أحد عشر ضعفاً على ما في الآخرين، والمخطوط الثالث (ج) مشكوك فيما ينفرد به عن الآخرين^(١).

المخطوطان (أ، ب) يؤرخان انطلاق أسكيا إلى الحج بالعام الثالث بعد التسعمائة (٩٠٣ هـ)، والمخطوط (ج) يؤرخه بشهر صفر من العام الثاني بعد التسعمائة (٩٠٢ هـ)، وهو الذي في المصادر الأخرى وفي موضع خاص بالمخطوط (ج) من الفتاش (ص ١٦). وقد يكون محرر هذا المخطوط صحح ما يبدو غير ممكن؛ لأن المخطوطات الثلاثة وتاريخ السودان، اتفقت على أن عودة أسكيا محمد من الحج كان في آخر السنة الثالثة (٩٠٣ هـ)، ويستحيل بحساب ذلك الزمن أن ينطلق أول سنة ٩٠٣ هـ ويحج فيها ثم يرجع في آخرها إلى عاصمته. وقد يكون ذلك خطأ من المحققين. ولم يتسن لي الوقوف على المخطوطين (أ، ب) اللذين فيهما هذا الموضع.

وقد تكون الزيادة الكبيرة التي في المخطوط الثالث مأخوذة من مصادر أخرى، ويوجد تشابه كبير بين الزيادة مع ما أورده السعدي في تاريخ السودان من أخبار

(١) انظر مقالتي "التزوير في مصادر تاريخ بلاد السودان، نبوءة في تاريخ الفتاش نموذجاً"، منشورة في دورية كان، العدد الثامن والأربعون، يونيو ٢٠٢٠، ص ٢١-٣٣.

(٢) انظر مقالتي، مرجع سابق.

- "خصائص ومناقب" سردها الفتاش، حدثت في سفر الحج، ومنها ما لم يرد في تاريخ السودان للسعدي:
- تولية "شريف مكة" إياه؛
- طلب أسكيا محمد من أُلْفَع صالح جور أن يستسقي لهم حين أصابهم القحط؛
- إن السيوطي - حين لقيه أسكيا بمصر - أخبر بمصير الحواضر الثلاث في بلاده (كُثَاوُو وتبكتو وجنّى)؛
- إن المغيلي زار أسكيا محمد، ولم يصرح بموضع اللقاء لكنه أورده في سياق أحداث سفر الحج بعد لقاء السيوطي؛
- إن أسكيا محمد ابتلع بمكة شعرةً من شعر الرسول (ﷺ)؛
- أن "بَرْكِي مَنَسَ كُورَ" صَحَبَ أسكيا محمد حين دخل الشبكة التي على قبر الرسول (ﷺ)، وأن بَرْكِي أخذ هناك عهداً من أسكيا محمد في أمور طلبها منه.

ويوجد اختلاف بين المصدرين في أمرين ورد في كل منهما:

- في الفتاش أن أسكيا "اشتري في مكة المشرفة بقعة وبنائها داراً وحبس الدار على الكعبة الشريفة"، وفي تاريخ السودان أنه "اشتري جنانا في المدينة المشرفة وحَبَسَهَا على أهل التكرور"؛ فاختلفاً في موضع الشراء (مكة في الفتاش والمدينة في تاريخ السودان)، وفي المحبوس (دار مبنية في الفتاش وجنان في تاريخ السودان)، وفي الذي حبس عليه الوقف (الكعبة في الفتاش وأهل التكرور في تاريخ السودان). وهذا كثير في حكاية واحدة؛ فيحتمل أنهما حكايتان مختلفتان.
- اختلفاً في الذي نصَّب أسكيا محمد في رحلة الحج؛ في تاريخ الفتاش أن توليته كانت من "شريف مكة"، وفي تاريخ السودان أنها كانت من "الشريف العباسي". وكان مقرَّ الشريف بمكة المكرمة، وأميرها عامي ٩٠٢-٩٠٣هـ هو محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بالمشاركة مع ابنه بركات. أما الخليفة العباسي فكان مقرَّه القاهرة، وكان في التاريخ المذكور للحج هو المتوكل على الله أبو العز يعقوب، ولم يحجَّ

تولية أسكيا محمد من أمير مكة، وهو مخالف لما عند غيره أنها من الخليفة العباسي الذي كان في القاهرة، كما في كتاب تاريخ السودان السابق، وكتاب نصيحة أهل السودان فيما نقله الوفراني والناصري، وسيأتي. وفيه أيضاً أن السعدي ذكر في تاريخ السودان (ص ٩٤) أخبار أسكيا إسماعيل، وفيها خبر إطلاقه أباه من السجن. بدون ذكر ما في الفتاش هنا من قول أسكيا محمد إن "شريف مكة" قلَّده وعمَّه وجعله خليفة.

(ص ٩٩) إشارة مختصرة وردت في أخبار أسكيا داود الذي تولى الحكم عام ٩٥٥هـ، أن أحد عماله خاطبه بقوله: "أطلب منك.. بحرمة أبيك وحرمة قدِّمه التي وقف بها على رسول الله (ﷺ) في المدينة المشرفة". ففيه أن ذلك استمر في الشيوع حتى ذلك الزمن.

ومن مواضع الدلالة على الحجة في المصدرين السابقين (تاريخ السودان وتاريخ الفتاش) أنهما وصفا أسكيا محمد بالحاج في مواضع كثيرة من الكتابين، في الباب المخصَّص لذكر أخباره في سياق غزواته وغيرها، وفي ذكر من حجَّ معه من الأعيان، وذكر أي خبر له علاقة بحجة أسكيا. ومما اتفق فيه المصدران من تفاصيل الحج: استخلاف أسكيا محمد أخاه عمر كَمَزَاغ، وتاريخ انطلاقه وعودته، وكثرة مرافقيه من الأعيان والجنود؛ ومقدار الذهب الذي جلبه، وزيارته المدينة المنورة، ولقاؤه السيوطي بمصر.

وزاد الفتاش على ما في تاريخ السودان:

- طلب أسكيا محمد من أمير مكة أخوا أو ابنا له، يرسله إلى بلده "ليتبركوا به"؛ وأنه وصل "مولاي الصقلي" - وهو ابن أخي الشريف - إلى بلاد أسكيا محمد عام ٩٢٥هـ.
- حكايتان غريبتان حدثتا لعالمين مرافقين لأسكيا محمد (أُلْفَع صالح جَوْرَ ومحمد تُلْ): إحداهما لقاء العالمين بشمهروش الجني في موضع بين القاهرة والاسكندرية، والأخرى أن جَمَلًا أبيض أتى من جهة المشرق إلى منزل محمد تُلْ الذي كان يرافق أسكيا محمد في رحلة الحج، وكان الجمل يحمل نوعاً ممتازاً من التمر لم يُر مثله، وذلك بعد أن حدث نسيان محمد تُلْ في توزيع التمر على الرفقة؛

الفتاش (ص ١١-١٢) من تطوُّر المراسيم السلطانية في مجلس أسكيا محمد؛ فقد وصف الفتاش مجلسه أولاً بما هو موافق للمراسيم المحلية مثل أن الداخل في مجلسه يحمل التراب بعد قلع الطاقية، ثم ذكر أن أسكيا محمد "لما ثبتت له السلطنة واستقامت المملكة خرج من ذلك كله وجعل يسأل العلماء العاملين عن سنة رسول الله (ﷺ) ويمشي على أقوالهم". فكانت ثبات شرعيته وقوة ملكه بعد عودته من الحج، وجلال الدين السيوطي من العلماء الذين سألهم.

ورد لقب السلطة (أسكيا) فيما نقله الوفراني عن التكروري بحذف الألف التي في أول اللقب وبتاء في آخره (سكية)، وضبطه الوفراني نقلاً عن مصدره: "بضم السين وسكون القاف بعدهما ياء مفتوحة ثم تاء". فذكر القاف في الضبط، مع أن اللقب مرسوم بالكاف في عشرة مواضع أحصيتها في نزهة الحادي. وهو برسم (سكية) كذلك في مناهل الصفا^(٤) للفشتالي (ت). ١٠٢١هـ وزارة الأوقاف، المغرب ص ٧٨، ١٢٠، ١٣٦). وظني أن آخر اللقب هاء هي مثل الألف التي في الرسم الآخر (أسكيا)، والغرض من كل منهما إشباع فتحة الياء ومنع الوقوف عليها ساكنة.

أما جعل التكروري - فيما نقله عنه الوفراني - انطلاق أسكيا محمد إلى الحج في أواخر القرن التاسع، فمخالف لما هو مشهور أنه انطلق في أوائل القرن العاشر. نعم! أواخر التاسع ليس بعيداً عن أوائل العاشر. وفي طبعة (تحقيق عبد اللطيف الشاذلي ط ١، ١٩٩٨، ص ١٦١)، أن في بعض النسخ (أوائل). لكن ذلك غير مفيد للغرض، إلا أن يتغير التاسع إلى العاشر؛ لأن (أوائل التاسع) أبعد عن المشهور أن أسكيا تولى الحكم أواخر التاسع (٨٩٨هـ) وأنه حج بعد أن تولى الحكم. فهل اختلط توقيت توليته الحكم بتوقيت انطلاقه إلى الحج؟

أما الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، للناصري (ت ١٣١٥هـ)، فوردت أخبار حجة أسكيا فيه بنحو ما عند الوفراني؛ في المصدر الذي ينقل عنه (نصيحة أهل السودان للتكروري)، وفي جعل الانطلاق إلى الحج أواخر

ذلك العام، بل ذكر السخاوي في ترجمته (الضوء اللامع رقم ٦١١ ص ٢٣٦/٤) أنه "ما تهيأ له الحج كجل أسلافه"^(٣). ويدل ذلك على أن التولية كانت في مصر. فاختلفا في المقلد وفي مكان التقليد.

٨/١- نصيحة أهل السودان، الإمام التكروري

لا أعرف لهذا المصدر ولا لمؤلفه غير ذكره في مصدرين نقلًا عنه. ونسبة المؤلف (التكروري) تدل على أنه أحد علماء بلاد السودان. كتاب "نصيحة أهل السودان" مصدر معلومات عن حجة أسكيا محمد، نُقلت عنه في نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي للوفراني (ت ١١٣٥هـ ظنا، مدينة انجي ١٨٨٨)، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري (ت ١٣١٥)، دار الكتاب ١٩٩٧، الدار البيضاء).

في نزهة الحادي نقلاً عن التكروري (ص ٨٩) أن أسكيا محمد "رحل في أواخر المائة التاسعة إلى مصر والحجاز بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام. فلقي بمصر الخليفة العباسي، فطلب منه أن يأذن له في إمارة السودان وأن يكون خليفة له هنالك، ففوّض له الخليفة العباسي النظر في أمور تلك الأقاليم وجعله نائباً له على من ورائه من المسلمين (٠٠) ولقي بمصر.. جلال الدين السيوطي، فأخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام وسمع منه جملاً من الآداب الشرعية وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه". وهذا يؤيد أن الذي ولّى أسكيا هو الشريف العباسي كما في تاريخ السودان، لا شريف مكة كما في تاريخ الفتاش. بل يلاحظ أنه لم يفصل إلا في أخبار مصر.

ذكر التكروري - فيما نقله عنه الوفراني - أن أسكيا محمد بعد عودته من الحج "جرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره، ومال للسيرة العربية وعدل عن سيرة العجم". وهو موافق لما في تاريخ

(٣) انظر في الخليفة وأمير مكة في التاريخ المذكور: المصادر المذكورة هنا، وفي الضوء اللامع للسخاوي (ت ٩٠٢، ١٤/٣، ٢٣٦/٤، وتاريخ البصري (ت ٩٠٥، ١٩٨٨، دار المأمون، دمشق) ص ١٨٩-١٩٠، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٦٨، ٧٧٨-٧٨٠، ومفاكهة الخللان في حوادث الزمان لابن طولون الصالحي (ت ٩٥٣) ص ١٣٨-١٤٩، وسمط النجوم العوالي في أبناء الأبناء والتوالي (١٩٩٨، دار الكتب العلمية بيروت)، للعصامي (ت ١١١١) ٤/٢٩٠-٣٠٥.

(٤) في مآثر موالينا الشرفا، بدون تاريخ.

تأتيها أخبار الحج والحجاج، ويسجلها مؤرخوها؛ نظرا إلى أنها كانت مع مصر والحجاز تحت سلطان مملوكي واحد، فتجد أخبار الحج في كتب مؤرخيها.

وكل ذلك مسجل في كتب تاريخ الحرمين كالتي في هذه المقالة. وتفاصيل الحجة كما ذكرتها مصادر حج أسكيا، تُرَشِّحُ غالباً ورود خبر حجه في مصادر مشرقية لا يُظن بمؤلفيها أن تغيب عنهم تلك التفاصيل، مثل: المبالغ الضخمة التي كانت مع أسكيا محمد، حتى قدر السعدي مرة ما تصدق به أسكيا محمد بخمسة أضعاف ما تصدق به منسا موسى الموصوف في المصادر المشرقية بالإنفاق الكبير في مصر والحجاز؛ كثرة مرافقي أسكيا محمد من أعيان وعامة وجنود فرسان ورجالة؛ لقاءات أسكيا محمد الأعيان من العلماء والأمراء في سفر الحج، وخاصة لقاءه الخليفة العباسي في مصر (أو أمير مكة)، وأنه قلده سلطنة شرعية على بلاد السودان، ولقاؤه بجلال الدين السيوطي. لكن بعد تصفح معتبر في تلك المصادر وتتبع مظان ذكر حجة أسكيا فيها، لم أجد فيها ذكراً لخبرها. وأسجل هنا أمثل المصادر التي توقعت فيها خبر الحج دون وجود دقيق لها:

١/٢- حسن المحاضرة في تاريخ مصر

والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٧

٢/٢- التحدث بنعمة الله، الهيئة العامة

لقصور الثقافة ٢٠٠٣، القاهرة

كلاهما لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)

السيوطي مؤلف مكثار، ترجم لنفسه ترجمة وافرة، وخاصة في هذين الكتابين؛ فذكر فيهما تفاصيل حياته العلمية والعملية ولقاءاته الكثيرة بسلاطين وخلفاء وعلماء وأعيان من كل أفاق.

وذكر السيوطي بلاد التكرور وأهلها في أكثر من كتاب له، وكانت تأتية استفتاءات منها؛ ففي كتابه الحاوي للفتاوى (١/٣٤٤) جزء عنوانه: "فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور"، ذكر فيه مجموعة من الأسئلة الشرعية التي جاءت من بلاد التكرور. أما في كتابه

القرن التاسع، وفي رسم لقب السلطنة (سكيه). وينقل الناصري كثيرا عن الوافراني (اليفرني)، والظن أنه نقل عنه هذا الموضع؛ فهو مرجع ثانوي ومتأخر ليس فيه زيادة.

٩/١-فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور،

الولائي (ت ١٢١٩هـ) دار الغرب الإسلامي

١٩٨١، بيروت

ورد فيه (ص ٦٩) ترجمة أحد علماء تنبكتو (سيدي أبو القاسم التواتي ت ٩٢٢)، وفيها: "هو الذي ابتدأ قراءة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة.. وحبس أمير المؤمنين أسكيا الحاج تابوتا فيه ستون جزءاً من المصحف على ذلك الجامع لأجل تلك الختمة". والدلالة فيه على الحجة من وصفه أسكيا محمد بالحاج، ولم أجد فيه وصف أسكيا بالحاج إلا في هذا الموضع، وهو نقلٌ حرفي من تاريخ السودان للسعدي (ص ٥٨)؛ فهو مرجع ثانوي قليل الاعتبار، بل اسم أسكيا في مصدره (تاريخ السودان) أكمل: "أسكيا الحاج محمد"؛ وهو أبعد عن الالتباس بأسكيا الحاج ابن أسكيا داود.

ثانياً: غياب خبر حجة أسكيا محمد في

المصادر المشرقية

لم أجد أخبار حج أسكيا محمد في المصادر المشرقية، وخاصة الحوليات الحجازية أو المصرية أو الشامية التي يتوقع أن تكون فيها تلك الأخبار. أما مصر فهي محطة مهمة لركب الحج من بلاد السودان، يصل حجاجها إلى القاهرة في شهر شوال غالباً، وهو الشهر الذي ينطلق فيه الركب المصري إلى الحج، وغالبا ما يترافق الركبان، وتكون المحطة المصرية فرصة للقاء أعيان بلاد السودان بأعيان مصر من العلماء والقادة، وقد كان السخاء والهبات الكبيرة بين الجانبين معتادة في تلك اللقاءات، وسجل المؤرخون ذلك.

أما الحجاز فمكة ظرفُ لأعمال الحج، وكان من عادة "شريف مكة" الذي هو أميرها في ذلك الزمن، أن ينتهز فرصة الحج للقاء الأعيان من الآفاق، ويجري تبادل هدايا بين الجانبين. والمدينة المنورة حيث المسجد النبوي، موضع زيارة معتادة للحجاج كذلك. أما الشام فكانت

ما تكون رحلة الحج في ذلك الزمن سنتان، فقد يكون القاضي انطلق من بلده عام ٨٨٩هـ والتقى بالسيوطي عند الذهاب، ثم رجع إلى بلده عام ٨٩٠هـ؛ فيكون ما ذكره أحمد بابا هو تاريخ العودة، أو أنه تأخر في مصر عام وصوله ثم حج في العام الموالي ٨٩٠هـ. والله أعلم.

ومع هذا، فلم يكن بالإمكان - من المصادر - تحديد سلطان التكرور الذي فوض إليه الخليفة العباسي أمر بلاده في حكاية السيوطي السابقة، بل لم أجد عند غيره أنه كان في ركب حجاج التكرور في تلك السنة سلطاناً لهم، إلا ما ذكره ابن فهد القرشي (ت ٩٢٢هـ) في بلوغ القرى (٣٧٢/١) في حوادث سنة ٨٨٩هـ أنه كان "مع الركب أخو صاحب التكرور". وقال (٣٧٨/١): "وفرق التكرار أيضاً قدراً يسيراً" من الذهب. وهذا لا يكفي لتعيين أنه أسكيا محمد؛ وقد كان السلاطين والأعيان يحجّون من نواحي التكرور وبلاد السودان، بل قد يحصل أن يحجّ أكثر من سلطان في عام واحد، كما في بدائع الزهور (ص ٣٤٣/٤ حوادث سنة ٩١٩) أنه "حضر في هذه السنة ملكان من ملوك التكرار؛ فحتى إن توافق تاريخ حج سلطان مع تاريخ خبر ما، لم يدل ذلك على نسبة ذلك الخبر إلى ذلك السلطان يقيناً أو ظناً غالباً إن لم يقع تحديده باسمه أو شيء يخصه، وكيف والمذكور هنا أخو سلطان لا سلطان.

نعم! إذا جمعنا حكاية السيوطي مع المعلومات الواردة في حج سنة ٨٨٩هـ في المصادر السابقة (ذكر حضور التكرور في الحج وفيهم الأعيان والقاضي وأخو السلطان، وتفريق الذهب)، اقتربنا من حكاية حج أسكيا المذكورة في تاريخ السودان ونصيحة أهل السودان، وقد سبق فيما نقله الوفراني عن المصدر الأخير توقيت رحلة الحج بأواخر القرن التاسع، وليس ذلك ببعيد كثيراً عن عام ٨٨٩هـ. لكن يستبعد أن يكون أسكيا محمد هو المقصود هنا بناء على المعلومات المقبولة تاريخياً؛ لأن التاريخ المذكور في حكاية السيوطي (٨٨٩هـ) يقع تسع سنوات قبل ما أطبقت عليه المصادر وأيدته الدراسات المعاصرة أن بداية حكم أسكيا كانت سنة (٨٩٨هـ)، ويقع ثلاث عشرة سنة قبل العام المشهور لانطلاقه إلى الحج (٩٠٢هـ). ولو أراد الباحث افتراض هذا التاريخ (٨٨٩هـ) لحجة أسكيا فسيؤدي ذلك إلى خلخلة كبيرة في التواريخ

حسن المحاضرة فذكر (٣٣٨/١) أن كتبه "سافرت" إلى الآفاق والبلاد البعيدة، وذكر منها "التكرور".

وذكر السيوطي في التحدث بنعمة الله (ص ١٥٨-١٥٩) لقاءه "سنة تسع وثمانين" (٨٨٩هـ) بركب حجاج التكرور، وكان فيهم "السلطان والقاضي وطائفة من الطلبة"، وذكر أنهم جاءوا إليه "بأسرهم" وأخذوا عنه العلم، وكان مع أحدهم هدية له من القاضي. قال: "سأل سلطان التكرور أن أكلّم له أمير المؤمنين في أن يفوض إليه أمر بلاده لتكون ولايته صحيحة بالشرع، وأرسلتُ إلى أمير المؤمنين في ذلك، ففعل، وأنشأتُ أنا له التقليد". وكان ذكر قبل هذا (ص ١٥٧) طلباً مماثلاً من "ملك الهند" قال: "فأشار أمير المؤمنين بأن أولّف كتاباً يجمع ما ورد في فضل بني العباس". وهذا مذكور في تاريخ الخلفاء (وزارة الأوقاف ٢٠١٣، قطر، ص ٧٦٨) بزيادة أنه كان في سنة ٨١٤هـ، قال: "أرسل غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه، ملك الهند؛ يطلب التقليد من الخليفة، وأرسل إليه مالا وللسلطان هدية". فلم يكن من غير المؤلف، أن يطلب سلاطين الآفاق تنصيباً من الخليفة العباسي؛ وهو بناء على أن السلطان المملوكي الذي كان يحكم الحجاز ومصر والشام، كانت شرعية حكمه تبدأ من تقليد وتنصيب الخليفة العباسي له تقليداً رمزياً.

أثبت السخاوي في كتابه وجيز الكلام (٩٥١/٣) حوادث شوال ٨٨٩هـ) قدوم حجاج التكرور للحج هذا العام، وأنه كان فيهم علماء أعيان أخذوا عنه العلم، وهو مثل حكاية السيوطي إلا في ذكر السلطان. والظاهر أن ذلك كان في مصر؛ لأن سنة ٨٨٩هـ ليست من السنين التي ذكر أن السخاوي حجّ فيها، كما في شذرات الذهب لابن العماد (دار ابن كثير ١٩٨٦، دمشق ٧٦/١). وأثبت قدوم التكرور للحج ذلك العام كذلك ابن شاهين في نيل الأمل (المكتبة العصرية ٢٠٠٢، بيروت ٢٩٤/٧ حوادث ٨٨٩هـ) وزاد: "وكان الحاج في هذه السنة كثيراً".

وذكر أحمد بابا في نيل الابتهاج (ص ١٣٧ رقم ١٣٥) في ترجمة أحمد بن عمر بن محمد أقيت، قاضي تبككتو، أنه حجّ عام ٨٩٠هـ "ولقي السيوطي". فهذا قريب مما ذكره السيوطي بالنسبة للقاضي الذي كان في الركب عام ٨٨٩هـ. وفرق سنة واحدة غير ضائر؛ لأن أقل

عادتهما". وفي بلوغ القرى (ص ٩٧٦) وصول تجار أعاجم من عدن في يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادى الأولى عام ٩٠٢هـ، وفيه (ص ١٠١٤) الخبر بوصول الحجاج في ينبع وأنهم يصلون مكة يوم الخميس السادس والعشرين، وفيه (ص ١٠١٦) وصول صاحب المدينة المنورة إلى مكة.

الموضع الوحيد الذي وجدت فيه ما يمكن أن يحتمل حجة أسكيا محمد، كان في بلوغ القرى (١٠٢٥/٢) في حوادث شهر صفر ٩٠٣هـ، أن "صاحب التكرارة أعطى القضاة مائة مائة.. فذكر أعطيات بلغت تسعين وخمسمائة وألف (١٥٩٠) دينار من العطايا. وأخبار الحجاج في شهر صفر ٩٠٣هـ - في كتب الحوليات - تابعة لحجاج السنة التي قبلها، أي سنة ٩٠٢هـ، وهي السنة المشهورة لحج أسكيا محمد؛ لأن ركب حجاج التكرور يصلون غالبا إلى القاهرة في شهر شوال، ثم ينطلقون في الشهر نفسه إلى الحجاز مع الركب المصري، فيحجون تلك السنة، ثم يعودون إلى القاهرة في محرم أو صفر من السنة الموالية، وقد يتقدمون أو يتأخرون شهراً أو شهرين في بعض السنوات.

و"صاحب التكرور" هو أمير أو سلطان، على ما ظهر من إطلاق المؤلف عبارة "صاحب مكة" على أمير مكة، وإطلاقه "صاحب الروم" على السلطان العثماني، بل يظهر من تتبع استعماله أنه إذا أضاف (صاحب) إلى بلد أو إقليم أراد به صاحب الأمر فيه. والتكرور في مصادر ذلك الزمن يطلق على ما يعرف اليوم بغرب إفريقيا تقريبا. نعم! يحتمل أن يكون المقصود بصاحب التكرور في سياق الحج أمير الركب لحجاج تلك البلاد، لكن أن يكون المقصود أميراً أو سلطاناً أقوى وأظهر إذا استقرت مواضع الاستعمال في الكتاب.

فهذا أقرب ما وجدته في مصدر مشرقى يدل قليلا على حجة أسكيا عام ٩٠٢هـ، ولكنه ليس قاطعا بسبب عدم ذكر السلطان أو وصفه بما يحدده بأسكيا محمد، وبسبب انفراد المصدر، وكون المعلومة غير مطابقة للتفاصيل المذكورة للحج في تاريخ السودان وتاريخ الفتاش، وخاصة في المبلغ المذكور (١,٥٩٠)، فإنه بعيد عما حكيه فيما تصدق به (١٠٠,٠٠٠) أو جلبه لرحلة الحج (٣٠٠,٠٠٠).

والمعلومات المعروفة، وذلك يحتاج إلى مؤيدات أكثر وأقوى. وما ورد في حكاية السيوطي وغيره، قد يعني - على الأقل - تشابه حكايات حجاج سلاطين التكرور وبلاد السودان في تلك السنوات.

أما "نص التقليد" الذي ذكر السيوطي أنه أنشأه بتلك المناسبة ووعد أنه "سيأتي نصه"، فيقصد نص قرار تنصيب أسكيا في الحكم، ويكتب مثل ذلك عادة في التعيين في المناصب المهمة في الدولة. ولم أجد النص الذي وعد به السيوطي، وأفاد محقق الكتاب (طبعة دار الباب ٢٠٢١، ص ١٧٧) عدم وقوفه على نص التقليد لا في الكتاب ولا في المصادر الأخرى. وفي حسن المحاضرة (١٥٤/٢) نقل السيوطي نصا طويلا يصلح نموذجا للتقليد، وفيه بعد خطبة طويلة: "أنت أيها القاضي فلان، مهّد الله لجنبك، وجعل التوفيق من صحبتك، وأنزل الحكمة على يدك ولسانك وقلبك؛ وقد قلّدناك هذا المنصب بمدينة مصر وأعمالها..". فلو أمكن الوقوف على نص التقليد الذي أنشأه السيوطي من أي مصدر، فسيكون مفيدا في استجلاء الأمر بالنسبة للسلطان المقلّد، وقد تكون فيه معلومات أخرى مفيدة.

٣/٢- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد

الحرام، جامعة أم القرى ١٩٨٦، مكة

٤/٢- بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري

بأخبار أم القرى، ماجستير ٢٠٠١، جامعة

أم القرى

كلاهما لابن فهد الهاشمي (ت ٩٢٢هـ)

وهو مؤلف كان في مكة في السنة التي كانت فيها حجة أسكيا محمد، وكان متصلا بالأعيان، يسجل أخبار مكة وأمراءها بتفصيل وبسط.

طالعت فيهما حوادث السنوات التي حول التاريخ المشهور للحج، ولم أجد ذكرا بالتعيين لحجة أسكيا محمد عام ٩٠٢هـ، مع أن الكتابين حافلان بحوادث كثيرة مماثلة؛ ففي غاية المرام (٥٩٢/٢) حوادث ٩٠٢هـ) وصول الحجاج إلى مكة في جمادى الأولى، وفيه (٥٩٥/٢) أن أمير مكة الشريف محمد بن بركات وابنه بركات لقيا الحجاج في آخر شهر ذي القعدة "على

٥/٢-بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس الحنفى (ت ٩٣٠هـ) كتاب الشعب

١٩٦٠

ابن إياس الحنفى مؤرخ مصري، وهو تلميذ السيوطي ويسميه كثيرا "شيخنا"، عاش حوادث عام ٩٠٢هـ ويحكيها بتفصيل وبسط، ويصعب مع ذلك أن يفوته مرور أسكيا الحاج بالأبهة والزخم والأموال الطائلة والرفقة الكثيرة واللقاءات العالية التي ذكرت في تاريخ السودان وتاريخ الفتاش.

في الكتاب حوادث دقيقة معبرة؛ منها ما ذكره (٣٩/٣) من حوادث شهر محرم ٩٠٢هـ أن الخليفة العباسي قلد جلال الدين السيوطي منصبا مرموقا؛ جعله "على سائر القضاة قاضيا كبيرا؛ يوئى منهم من شاء ويعزل من شاء، مطلقا في سائر ممالك الإسلام"، وأن ذلك أثار القضاة؛ فحرضوا السلطان على الخليفة، فقامت عليه ضجة؛ فتراجع الخليفة وقال: إن "الشيخ جلال الدين هو الذي حسن لي ذلك وقال: هذه كانت وظيفة قديمة وكانت الخلفاء يولونها لمن يختارونه من العلماء". والعام المذكور للحادثة هو الذي يتوقع أن تكون فيه أو في الذي بعده تولية أسكيا محمد من قبل الخليفة العباسي المذكور في الحادثة أو ولده.

وفي هذه الحادثة دلالة على ضعف الخليفة عن التولية في مناصب مهمة في دولة المماليك، وأنه لا يستبد بشيء دون السلطان المملوكي في ذلك الزمن. وفيها أيضاً أن جلال الدين السيوطي الذي توسط لسلطان من التكرور في تولية الخليفة له، لم يقدر على الإبقاء على منصب مهم ولأه إياه الخليفة، بل تراجع الخليفة واتهمه بأنه استخفّه وحسن له ذلك!

وذكر مؤلف بدائع الزهور (٣٦٢/٢) في شهر شوال ٩٠٢هـ خروج ركب الحجاج، وسمى أمراء الحج، ولاحظ أنه "كان الحاج في تلك السنة قليلا". وذكر (٣٧٧/٣-٣٧٨) وصول مبشر الحاج حين عودتهم، ثم ذكر وصولهم في محرم من العام الموالي ٩٠٣هـ، وأنه قبض على أحد أمراء الحج بعد عودته.

فكل هذه التفاصيل تُغلب على الظن أن لو كان وقع هذا العام حج أسكيا محمد - على ما وصف في المصادر - ما كان يغيب على مثل هذا المؤلف، ولا كان يهمل ذكره؟

٦/٢-مفاكهة الخلان في حوادث الزمان،

ابن طولون (ت ٩٥٣هـ) دار الكتب العلمية

١٩٩٨، بيروت

من كتب الحوليات، أرّخ لحوادث القرنين التاسع والعاشر الهجريين في بلاد المماليك (الشام ومصر والحجاز)، وخاصة حوادث سنتي ٩٠٢-٩٠٣ ص ١٣٨-١٦٢، ولم أجد فيه ذكرا لما يشبه أن يكون حج سلطان من التكرور وبلاد السودان.

٧/٢-الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج

وطريق مكة المعظمة، الجزيري

(ت ٩٧٧هـ) دار الكتب العلمية ٢٠٠٢،

بيروت

هذا كتاب موسوعي مفيد في تاريخ الحج وما يتعلق به. والفصل الثاني من الباب الثاني (٢٤٢/١) مخصص بذكر من ولي إمارة الحاج من ابتداء فتح مكة في زمن النبي (ﷺ) إلى تاريخ شروع المؤلف في كتابه سنة ٩٦٠هـ. فذكر (٤٨٠/١) أمير الحج عام ٩٠٢هـ والحوادث التي وقعت. ولم أجد فيه ولو أدنى إشارة إلى حج سلطان أو ملك أو أحد الأعيان الكبار من بلاد التكرور أو من غيرها من بلاد المسلمين. بل قد راجعت أمراء الحج وحوادثها عقدين من سنة ٨٩٠هـ إلى ٩١٠هـ (٤٧٥/١-٤٨٧)؛ فلم أجد ذكرا لأسكيا محمد، مع أن المؤلف يذكر من حج من الأعيان والعلماء، بل يذكر أحيانا زوجاتهم.

وعقد المؤلف (٣٥٩/٢) عنوانا أسماء "ذكر من حج من ملوك التكرور"، ولم يذكر فيه إلا حج خمسة من الملوك ليس فيهم أسكيا محمد، اختصر في حج ثلاثة منهم ذكرهم بأسمائهم، ثم فصل في حج منسا موسى؛ وكان حج هؤلاء الأربعة قبل حج أسكيا. ثم ذكر (٣٦٠/٢) حج "سلطان برنو إدريس بن علي" سنة ٩٧٢هـ؛ ويقع حجه بعد تاريخ حج أسكيا محمد بسبعين سنة، وفصل فيه أكثر.

تطرحها هذه الدراسة في حل المشكلة والسؤال هي: إن أسكيا محمد حجَّ فعلاً في مطلع القرن العاشر الهجري، لكنَّ حجته لم تكن بالتفاصيل والهيئة الغربية التي تفهم من بعض المصادر التي أخبرت عن الحجة.

أما كتاب (وصف إفريقيا) الذي فيه أن أسكيا محمد أنفق كل خزينته في حجته حتى اضطر إلى استقراض خمسين ألف (٥٠,٠٠٠) مثقال، فهو خبر لا يرقى إلى مستوى مقبول من الثقة؛ لمعارضته المصادر الأخرى التي لم تذكر ذلك أصلاً، ولأن تاريخ السودان والفتاش ذكرا أن أسكيا محمد جلب معه في رحلة الحج ثلاثمائة ألف مثقال، وأنه تصدق بثلاثها وابتاع مشتريات بالثلث الثاني وذهب الثلث الآخر في تكاليف سفر الحج؛ وهذا يدل على أن ما جلبه كفاه في حجه. ثم إن الحكاية التي في وصف إفريقيا تشبه ما ذكره المؤرخون المصريون من أن منسا موسى نفد ماله في سفر الحج حتى استقرض في عودته من تجار مصر خمسين ألف (٥٠,٠٠٠) ديناراً؛ فهل اختلط الأمر على الحسن الوزان مؤلف وصف إفريقيا؛ فنسب إلى حجة أسكيا ما هو مذكور في حجة منسا موسى؟ وإن حضور حجة منسا موسى في أخبار حجة أسكيا أمر مثير، وقد يكون في ملاحظة ذلك مفتاح لحل الإشكالية!

أما تاريخ الفتاش فأخبر أن "شريف مكة" قلَّد أسكيا محمد في مكة وألبسه قلنسوة وعمامة وأعطاه سيفاً وسماه الإمام، وجعله خليفة له على بلاده، كل ذلك في حضور جمع غفير من قومه ومن الأهالي؛ فهذا مخالف لما في تاريخ السودان ونصيحة أهل السودان بأن الذي قلَّده هو الخليفة العباسي في مصر، وهو مخالف أيضاً لما هو معروف من صلاحيات أمراء مكة في ذلك الوقت، وأنه لم يكن لهم التعيين في مناصب خارج دائرة حكمهم، بل إن بعض المناصب المهمة في دائرتهم كان التعيين فيها من السلطان المملوكي بمراسيم تأتي من القاهرة. وذلك مشهور وكثير في وقائع السنوات المتتالية في الحوليات المكية السابقة، مثل كتاب بلوغ القرى وغيره.

وأيضاً قد سمى مؤلف الفتاش الذي نصب أسكيا في أكثر من موضع، أنه "مولاي العباس"، وليس اسم "العباس" مذكوراً فيمن تولى إمارة مكة في ذلك العهد

ثالثاً: سبب غياب حجة أسكيا في المصادر المشرقية

ثبت فيما سبق عدم ورود حجة أسكيا محمد في مصادر مشرقية كان الباحث يتوقع أن يجد فيها خبراً عنها، وأظن أن الغياب المذكور ثبت بدرجة استقرار مقبولة، حسب منهجية علمية رزينة.

وثبت قبل ذلك أن مصادر أخرى غير مشرقية، ذكرت حجة أسكيا، بوصفه بالحاج على الأقل، وهي مصادر من بلاد السودان أصالة، ومن بلاد المغرب بالتبع؛ ويصعب التشكيك في حكاية الحجة فيها لبلوغها درجة ثقة مقبولة كذلك حسب المنهجية العلمية الرزينة. بل ما ورد في بلوغ القرى في حوادث صفر ٩٠٣هـ في سياق أخبار الحج - وهو مصدر مكِّي معاصر - أن صاحب التكرور وزَّع أكثر من ألف وخمسمائة مثقال، يمكن أن يشكِّل أرضية للفصل بين وقوع أصل خبر حجة أسكيا محمد عام ٩٠٢هـ، وبعض التفاصيل الفرعية المثيرة لإشكالية البحث؛ وذلك بإثبات أصل وقوع الحجة وتصحيحه، وإبقاء الإشكال في تلك التفاصيل الفرعية. ويؤيد هذا التفريق أن أصل وقوع الحج يُعلم محلياً بالتجهيز والرفقة الكبيرة والانطلاق والمكث ثم العودة بأبهة واستقبال بعد مدة معروفة ومعقولة، وبوصف العامة العائد بالحاج، ويبقى ذلك متوارثاً عقوداً وقروناً؛ أما التفاصيل المشكلة فمكان وقوعها مصر ومكة والمدينة، ولا يمكن تأكيد ذلك من شهود عيان محليين لم يرافقوا، فلا يتوارث حتى ينقلها كتاب التاريخ، وإنما ذلك بالخبر، وإن مؤلفي كتب التاريخ التي ورد فيها التفاصيل المشكلة حسب فرضيتنا، لم يعاصروا زمن الحج، لا السعدي ولا مؤلف الفتاش، والظن أن التكروري مؤلف نصيحة أهل السودان كذلك؛ لأن أقدم الناقلين عنه (الوفراني) من وفيات القرن الثاني عشر، والحج كان في أول القرن العاشر.

فالسؤال الذي تنطلق منه محاولة استكشاف

سبب غياب خبر الحجة هو:

هل يمكن أن يحجَّ أسكيا محمد بمثل هيئة حج منسا موسى مثلاً، ويخفى حجّه على مدوَّني المصادر المشرقية المذكورة سابقاً، وخاصةً في مصر ومكة؟ والفرضية التي

• افتراض أن ذلك لم يكن علنا لا للخاصة ولا للعامة، هو بسبب غيابه في المصادر المصرية التي أرخت لتلك السنة، حتى التي ألفتها تلميذ السيوطي الذي نقل خبر تعيين الخليفة للسيوطي ثم تراجع عن التعيين حين ظهر الأمر. أما بالنسبة لأسكيا فتقليد الخليفة إياه إجراء غير مؤثر محليا، لأن المفترض أن تأثير تقليده لا يكون في مصر ولا في الشام والحجاز؛ فيبعد احتمال الاعتراض عليه. ويدل عليه أسلوب الخبر الذي أورده السيوطي في الحكاية المماثلة: إن سلطان التكرور سأل السيوطي أن يكلم الخليفة في التفويض، فأرسل السيوطي إلى الخليفة في ذلك، ففعل، فكتب السيوطي المرسوم. فليس في ذلك ما يدل على العلانية والإشهار الذي كان يكون في مراسم تقليد الخليفة للسلطان المملوكي كما في تلك المصادر، أو حتى تقليد قضاة وأمراء تلك الدولة. بل أسلوب الخبر لا يظهر منه لزوم لقاء الخليفة بأسكيا أصلا، وإنما قبوله التقليد بعد مراسلة من السيوطي، ثم كتابة السيوطي نص مرسوم التقليد.

أما المبلغ الذي ذكره تاريخ السودان وغيره أن أسكيا محمد جلبه معه (٣٠٠,٠٠٠ مثقال)، فالذي يخفف من هوله أنه لم يصل بكل ذلك إلى أرض الحرمين ولا مصر، بل كان منه نفقات طريق السفر؛ فكان أثلاثا: ثلث صدقة، وثلث أثمان مشتريات، وثلث نفقة الحج، ولا يلزم أن يكون تصدق بكل ما تصدق به دفعة واحدة ولا أن تكون كل صدقاته علانية. والمبلغ المذكور لا يستبعد من سلطان في قوة أسكيا محمد؛ فيكون ما حكاه بلوغ القرى (١,٥٠٠ مثقال) جزءاً، وتصدق بأجزاء أخرى في المدينة وفي مصر ذاهبا وإيابا. والله أعلم.

مطلقاً^(٥). وقد يكون تحريفا من الخليفة (العباسي) الذي ورد في تاريخ السودان وفي نصيحة أهل السودان، أنه قلّد أسكيا في مصر. وهذا يشير إلى هشاشة حكاية تاريخ الفتاش. وإذا لم تصح هذه الحكاية من تاريخ الفتاش فلا يبعد ألا يصح غيرها من الحكايات الغرائبية، إذا أردنا الجمع بين صحة الحج وغياب خبره في المصادر المشرقية. أما تاريخ السودان ونصيحة أهل السودان فليس فيهما من التفاصيل المشكلة على قضية غياب خبر الحج في المصادر المشرقية، إلا لقاء أسكيا في مصر بالخليفة العباسي وبجلال الدين السيوطي، وأن الخليفة العباسي جعله خليفة له في بلاده.

وهذا محتمل الصحة، لكن يكون ذلك قد وقع بين الخليفة العباسي وجلال الدين السيوطي وأسكيا محمد، ولم يكن فيه احتفال ولا مراسم ظاهرة تحضره الخاصة وتشهده العامة، وقد يكون حصول لقاء مباشر بين أسكيا محمد والخليفة، ويحتمل أن يكون السيوطي توسّط بينهما بدون لقاء مباشر. والذي هدى إلى هذا النتيجة:

• ما سبق أن السيوطي ذكر في حوادث سنة ٨٨٩هـ أن سلطانا من التكرور سألته مثل ذلك، فكلم السيوطي الخليفة في ذلك، فقبل، وكتب السيوطي المرسوم في ذلك، بل ذكر السيوطي طلب أحد ملوك الهند تقليد الخليفة له كذلك؛ فلا يستبعد أن يحصل مثل ذلك لأسكيا مع السيوطي؛ فقد كان للسيوطي تواصل ببلاد التكرور بالمراسلة وبلقائه أعيانها حين مرورهم بمصر في طريق الحج، كما كانت للسيوطي حظوة كبيرة عند الخليفة المتوكل على الله وابنه المستمسك بالله، اللذين كانا قائمين في ذلك الوقت.

• إن السيوطي كانت له علاقة وطيدة بالخليفة العباسي المتوكل على الله وبابنه المستمسك بالله، وحكى ذلك هو نفسه في حسن المحاضرة (٩٢/٢) وتاريخ الخلفاء (ص ٧٦٨)، وحكاه ابن إياس الحنفي في بدائع الزهور (٣٢٩/٣)، وذكر (٣٨٠/٣) أن الخليفة العباسي الملقب بالمستمسك بالله والمكنى بأبي الصبر "قل إن الشيخ جلال الدين السيوطي هو الذي كتّاه ولقبه بهذا اللقب".

(٥) انظر: مقالتي، مرجع سابق.

خَاتَمَةٌ

مصادر الدراسة:

- أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي (ت. ٩٠٩هـ)، الشركة الوطنية ١٩٧٤، الجزائر.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الناصري (ت. ١٣١٥هـ)، دار الكتاب ١٩٩٧، الدار البيضاء.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم (ت. حوالي ١٠٢٠هـ)، المطبعة الثعالبية ١٩٠٨، الجزائر.
- بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القرى، ابن فهد القرشي (ت. ٩٢٢هـ)، ماجستير، جامعة أم القرى ٢٠٠١.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس الحنفي (ت. ٩٣٠هـ)، كتاب الشعب ١٩٦٠.
- التحدث بنعمة الله، جلال الدين السيوطي (ت. ٩١١هـ)، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣، القاهرة.
- تاريخ السودان، السعدي (ت. ١٠٦٦هـ)، المدرسة الباريسية ١٩٨١، باريس.
- تاريخ الفتاش، محمود كعت (ت. ١٠٧٥هـ)، المدرسة الباريسية ١٩٨١، باريس، تحقيق هوداس ودلافوس (O. Houdas & M. Delafosse).
- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، وزارة الأوقاف ٢٠١٣، قطر.
- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، الجزيري (ت. ٩٧٧هـ)، دار الكتب العلمية ٢٠٠٢، بيروت.
- فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور، الولاتي (ت. ١٢١٩هـ)، دار الغرب الإسلامي ١٩٨١، بيروت.
- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ابن فهد الهاشمي (ت. ٩٢٢هـ)، جامعة أم القرى ١٩٨٦، مكة.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي (ت. ٩١١هـ)، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٧.
- شذرات الذهب، ابن العماد، دار ابن كثير ١٩٨٦، دمشق.
- كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج، أحمد بابا التنبكتي (ت. ١٠٣٦هـ)، وزارة الأوقاف ٢٠٠٠، المغرب.
- نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي، الوفراني (ت. ١١٣٥هـ ظناً)، مدينة إنجن ١٨٨٨.
- نصيحة أهل السودان، الإمام التكروري (مفقود الأصل، منقول عنه في مصادر لاحقة).
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي (ت. ١٠٣٦هـ)، دار الكاتب ٢٠٠٠، طرابلس.
- نيل الأمل، ابن شاهين، المكتبة العصرية ٢٠٠٢، بيروت.
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ابن طولون (ت. ٩٥٣هـ)، دار الكتب العلمية ١٩٩٨، بيروت.
- مناهل الصفاء، الفشتالي (ت. ١٠٢١هـ)، وزارة الأوقاف، المغرب.
- وصف إفريقية، الحسن الوزان (ت. ٩٦١هـ)، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٣، بيروت.

قد ثبت في هذه المقالة أمران أساسيان: أحدهما أن أسكيا محمد حج حجة كانت في غالب الظن أوائل القرن العاشر الهجري (أواخر القرن الخامس عشر الميلادي). والأمر الآخر أن حجته لم تكن بذلك الزخم والأبهة التي تجعلها مقاربة لحجة سلفه منسا موسى، الذي كان في آخر الربع الأول من القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي).

- وظهر من خلال المقالة أمور أخرى منها:
- إن المصادر الأولية لحجة أسكيا محمد لا يثبت أنهم من شهود عيانها.
- إن المصادر الأولية لحجة أسكيا من مؤلفات علماء التكرور وبلاد السودان (تاريخ السودان وتاريخ الفتاش ونصيحة أهل السودان). والاستثناء في ذلك كتاب وصف إفريقيا، وتفصيل الحجة فيه مخالفة وغير دقيقة، إضافة إلى الشبهة المعروفة في نص الكتاب بسبب توالي الترجمات.
- إن موثوقية تفاصيل حجة أسكيا لا تصل - نظراً إلى المصادر التي توافرت لدينا عند كتابة المقالة - إلى درجة توثيق مضاهية لتفاصيل حجة منسا موسى.
- إن الأخبار التي ينفرد بها تاريخ الفتاش ينبغي النظر إليها بتحفظ، مثل أن عالمين من رفقة حج أسكيا محمد، التقيا بجني اسمه شمهوروش، في موضع تحت الأرض بين القاهرة والإسكندرية.

التوصيات

ونشأ من خلال البحث في المقالة سؤال يمكن أن يؤسس لمقالة أو بحث نوصي به: هل الإشكال والشبهات في تفاصيل حجة أسكيا محمد ولدت من إرادة مقارنة حجته بحجة سلفه منسا موسى؛ فتضخمت تفاصيل حجته لكي تصل إلى مستوى حجة سلفه؟ وهل كانت لدولة الأساكي ميل أو توجه إلى منافسة منسوات دولة مالي في الشهرة؟

ظاهرة الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة في مدونة المعيار للونشريسي (ت. ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) بين ضمانات النص الشرعي وخطاب الإصلاح الديني والاجتماعي

د. أمحمد طاهري

دكتوراه في التاريخ الوسيط
جامعة البليدة (٢) لونييسي علي
البليدة - الجمهورية الجزائرية



ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن طبيعة الاعتداءات التي مسّت حرمة الحياة الخاصة انطلاقاً من مدونة المعيار للونشريسي كإشكالية رئيسية نحاول الإجابة عنها، وذلك بالبحث في مفهوم حرمة الحياة الخاصة وبيان مظاهرها الاجتماعية، مع توضيح لمنطقاتها ومرجعياتها الفكرية وضماناتها الشرعية ومدى تماثلها مع الواقع المعاش كمنهجية تؤكد المشروع الإصلاحية الذي حملته الونشريسي لردع الظاهرة قوياً وعملاً. حيث تبين لنا أنّ مشروعية هذا الحق دفع الونشريسي إلى ضرورة الدفاع عنه نظراً لما تعرض له من انتهاكات مختلفة مسّت حرمة المسكن والحياة الأسرية وهتك الأعراض والممتلكات، ما دفعه لتوظيف مجموعة من الضمانات الشرعية ونشرها وسط الرعية لإثباته وتجسيده على أرض الواقع، فضلاً عن دعوته للإصلاح الديني والاجتماعي لردع هذه الظاهرة لنشر ثقافة التسامح والتكافل والقضاء على الفساد بالمنطقة. وتكشف الدراسة أنّ الونشريسي لم يقتصر على توثيق هذه النوازل، بل سعى إلى تأصيلها فقهيّاً وإبراز أبعادها الإصلاحية في إطار مشروع شامل يوازن بين النص الشرعي والواقع الاجتماعي. وقد أظهر التحليل أنّ المعيار يخزن مادة تاريخية قيمة تعكس ممارسات الحياة اليومية في المغرب الأوسط الوسيط، وتبرهن على الدور الذي لعبه الفقهاء في ضبط السلوك الاجتماعي وحماية الحقوق الفردية. ومن ثمّ، يمكن اعتبار هذا العمل إسهاماً في إعادة قراءة النصوص الفقهية كمصادر أساسية لفهم التاريخ الاجتماعي والفكري للمنطقة.

بيانات الدراسة:

كلمات مفتاحية:

الحياة الخاصة؛ الونشريسي؛ المعيار؛ النص الشرعي؛ الإصلاح الديني والاجتماعي

تاريخ استلام البحث: ١٧ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢١ سبتمبر ٢٠٢٥

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.472480



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أمحمد طاهري، "ظاهرة الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة في مدونة المعيار للونشريسي (ت. ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) بين ضمانات النص الشرعي وخطاب الإصلاح الديني والاجتماعي"، - دورية كان التاريخية - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون، ديسمبر ٢٠٢٥، ص ٩٩ - ١١٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: tahrimhamed1981pr@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 Attribution Creative Commons (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لا شك أنّ لكلّ إنسان أسرارَه الخاصّة التي من حقّه كتمانها تحقيقاً لحرمة الخاصّة، لذا فقد كان للشرعية الإسلاميّة سهم وافر في حمايتها وصيانتها من كلّ ما يندسّ حرمتها عبر العصور، وهو أمر أوجده الشرع وحثّ على تطبيقه من خلال إيجاد العديد من الضمانات الشرعية من القرآن والسنة وما تمليه القيم والعادات الاجتماعيّة الداعية لحقوق الجار وحسن الجوار.

ومن هنا، فإنّ مشكلة الاعتداء على حرمة الحياة الخاصّة هي من أهمّ الظواهر الاجتماعيّة التي أرقّت الفقهاء والقضاة والمحاسبين، لكونها من المشاكل التي تسلب الأفراد والأشخاص حق العيش في حياة كريمة قائمة على حق الإنسان في سرية أموره الشخصيّة، لذا كان لزاماً على علماء المغرب الأوسط المالكيّة إحاطة مجتمعاتهم بترسّانة من النصوص الفقهيّة التي تحمل العديد من القيم والدلالات التي تؤكّد على هذا الحق من الناحية الشرعيّة داعية مجتمعاتها لضرورة الإصلاح الديني والاجتماعي للتخلص منها.

وبذلك فإنّ هذه النخبة العالمّة بخبايا الأمور ومستجداتها، قد اتخذت من العفو والتسامح والإصلاح نهجاً وخلقاً وأدباً انعكس بشكل واضح في العديد من النوازل التي انطوت عليها مؤلّفاتهم، وهنا نخص بالذكر ما قدّمه الونشريسي في كتابه المعيار الذي قدّم العديد من الأحكام النظرية المستندة إلى فقه مالك، والتي تحمل في طياتها مشروعاً إصلاحياً شاملاً يرمي حقوق الإنسان ويحافظ على حرمة حياته الخاصّة.

تهدف هذه الدّراسة إلى البحث عن طبيعة الاعتداءات التي مسّت حرمة الحياة الخاصّة انطلاقاً من مدونة المعيار للونشريسي، ومدى قدرة أبي العباس على التوفيق بين إثبات هذا الحقّ الشرعي وتحقيق مشروع الإصلاح الديني والاجتماعي لردع هذه الظاهرة التي عمّ انتشارها ببلاد المغرب الإسلامي والمغرب الأوسط بشكل خاص في العصر الوسيط، وذلك لغرض الوقوف على منطلقاتها ومرجعياتها الفكرية وضماناتها الشرعية ومدى تماثلها مع الواقع المعاش كفلسفة تؤكّد

هذا المشروع الإصلاحي الذي حملته الونشريسي قولاً وعملاً.

وبذلك، يمكن تصنيف هذا العمل ضمن بين البحوث التاريخيّة التحليليّة التي نحاول من خلالها الكشف عن الظواهر الاجتماعيّة المغيّبة في مدونة المعيار لكونها تتعلّق بمواضيع ذات طابع خاص، وبخاصّة تلك التي ترتبط بالأسرار العائليّة والأسرية التي يصعب البوح بها للفقهاء ما يصعب عملية البحث والتقمّيش والتشخيص، لذا جاءت النصوص الفقهيّة المالكيّة التي عالجت هذه الظاهرة في إطارها العام والخاص يكتنفها نوع من الغموض والصمت في العديد منها ولعلّ هذا الأمر هو ما يعرقل الوصول إلى بعض الحقائق التاريخيّة.

وعليه جاء عملنا تنمّة لما سبقنا من مواضيع علميّة في هذا الباب، حاولنا من خلاله سدّ بعض الثغرات التي تركتها بعض الدّراسات السابقة في تشخيص هذه الظاهرة وإظهار مرجعيّاتها الفكرية والدينيّة الشرعيّة ومدى تماثلها على أرض الواقع انطلاقاً ممّا جمعه الونشريسي من نوازل مختلفة. ولبلّوغ هذه الغاية، كان لزاماً علينا الاستعانة بمنهج علمي يقوم على جمع المادة التاريخيّة من مظانها واخضاعها للتحليل والاستنتاج للوصول إلى بعض النتائج العلميّة هي الغاية المرجوة من هذا العمل.

انطلاقاً من هذه الملاحظات، فقد جاءت هذه الورقة البحثيّة كمحاولة منا للتعرفّ على: طبيعة الاعتداءات التي مسّت حرمة الحياة الخاصّة انطلاقاً من مدونة المعيار للونشريسي، وإلى أيّ مدى استطاع الونشريسي تبليغ الضمانات الشرعيّة للرعية وهل توفّق في تحقيق مشروع الإصلاح الديني والاجتماعي لردع هذه الظاهرة؟

ولتوضيح مسار هذه الدّراسة وبيان ترسّباتها العلميّة فقد أرفقت بتساؤلات فرعيّة تبحث في: تحديد مفهوم الحياة الخاصّة والتعريف بشخصيّة الونشريسي؟ ماهي أهمّ الاعتداءات التي مسّت حرمة الحياة الخاصّة المذكورة في مدونة المعيار للونشريسي؟ إلى أيّ مدى استطاع الونشريسي توظيف النصّ الشرعي في تبليغ ضمانات حرمة الحياة الخاصّة للرعية؟ كيف تمكن

الناس بغير علم، والابتعاد عن الجوسسة والغيبة والنميمة، مع احترام حرمة المسكن^(٨)، ونفس المعنى أيّدت السنة النبوية التي زادت على ما ذكرناه شرحاً وتفصيلاً بعدم المساس بحرمة الحياة الخاصة للأفراد والمجتمعات، فكانت أوامره ونواهيه (ﷺ) كثيرة في هذا الباب والتي تصب في خانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضبط السلوك البشري بعدم الاعتداء على حرمت وأعراض الناس^(٩).

وتأسيساً لاحترام حرمة الحياة الخاصة، فقد جعل الإسلام الإنسان مكرماً بحيث خصّه بالعقل الذي به يفكر ويميز بين الخطأ والصواب والخير والشر، فجعله حراً في تصرفاته من دون الحاق ضرر بالآخرين، كما منحه خلقاً كريماً به يعلو شأنه، وكلها أسس الصقت بالحق مدعمة له، لذا فهي من خصوصيات الشريعة الإسلامية الصالحة في كلّ زمان ومكان^(١٠).

وتفعيلاً لهذه الأسس فقد دعا الإسلام إلى نشر الأخلاق الفاضلة كوسيلة ناجعة لاحترام هذه الحرمت على أرض الواقع من خلال تجسيد العديد من القيم النبيلة التي تتصل بالدين الإسلامي، لكونها تميز بالشبّات وعدم التغير، فليس كلّ زمان ومكان وأخلاقه لأنها مرتبطة بالشريعة الإسلامية وأحكامها المختلفة^(١١)، لذا يُعدّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الوظائف والممارسات السلوكية التي تتبعها السلطة الحامنة والمحتسبون وسيلة ردعية لفرض النظام وردّ المظالم والقضاء على الباطل برد الحقوق لأصحابها خاصة ما تعلّق بحرمت الناس^(١٢). كما دعا الإسلام إلى تحري الستر لوقاية الناس لأعراضهم وذلك بعدم إشاعة الفواحش والأباطيل والأراجيف الداعية للفرقة والفتنة ما يفسد تماسك المجتمع واتّحاده^(١٣).

خلاصة القول أنّ حرمة الحياة الخاصة هي حق مكفول بالشرع، يجبر به الشخص على احترام خصوصيات الأفراد المادية والمعنوية وكلّ ما تعلّق بحرياته الشخصية وأعراضه وحرماته وفق ما تقتضيه المصلحة العامة امتثالاً للأوامر والنواهي الإلهية والقوانين الوضعية، لذا كانت محلّ عناية من طرف الفقهاء والعلماء لتطابقها مع الشريعة الإسلامية وذلك بهدف خلق مجتمع متكامل قائم على الأخلاق الفاضلة

الونشريسي من تجسيد مشروعه الإصلاحية الديني والاجتماعي في سبيل ردع هذه الظاهرة؟

أولاً: حرمة الحياة الخاصة (تصور وحضور في الشرع)

تعدّ الحياة الخاصة إحدى الحقوق الإنسانية التي كفلها الله لعباده منذ الأزل لذا فهي من الثوابت المكتسبة التي لا يستطيع الفرد الاستغناء عنها، نظراً لتداخلها مع حياته اليومية ولكونها ضرورة حتمية تجبر الفرد على احترام الآخر في إطار التناغم العام للنسيج الاجتماعي الخاضع للعديد من القيم الفاضلة المختلفة.

ومن هنا، فإنّ الحياة الخاصة في معناها اللغوي مرتبطة بماهية الحق^(١٤) الذي يعدّ مكسباً شرعياً ثابتاً، فهو مؤكّد وحظّ نصيب للفرد في امتلاكه لكونه من مصالحه الشخصية وبذلك يصبح معناه نقيضاً للباطل^(١٥)، وهناك من يربط هذا المعنى بلفظ الخصوصية^(١٦) والإفراد أي ما يخصّ الفرد دون غيره وهي خلاف العامة والعموم، وبذلك فهي ما يخصّ الفرد دون غيره من الأشياء والممتلكات بعيداً عن تدخل الناس بها^(١٧).

أمّا في معناه الاصطلاحي، فقد تنوعت المفاهيم التي اسندت له نظراً لعدم ثبوته بهذا المعنى بالنصوص الشرعية الإسلامية، فجاء في عمومته متصلاً بالحق، وهنا يحاول بعضهم أن يجد له مفهوماً فجعله من المصالح المستحقّة شرعاً وهو ليس كالضرر لأنّ الضرر ليس كالحق^(١٨)، في حين يذهب آخر على جعله نوع من الاختصاص الذي يؤهل صاحبه لمباشرة سلطة أو القيام بتكليف معيّن^(١٩).

ويضيف آخر على أنّها صيانة للحياة الشخصية للإنسان بعيداً عن الانكشاف أو المفاجأة من الآخرين بغير رضاه، وبذلك فهي أمن الفرد على ممتلكاته الشخصية وعرضه وحرماته على أن يكون له التصرف فيها بكل حرية من غير تدخل أو اعتداء خاصة إذا كان الآخر لا يرضيه بتدخله^(٢٠).

والظاهر أنّ حرمة الحياة الخاصة حقّ مكفول بالشريعة الإسلامية، حيث جاء في القرآن الكريم ما يضمن حرمتها وإن تعددت المفاهيم الدالة عنها، حيث تشمل عدم الشك والتّباع الظنّ، وتجنب اقتفاء أمور

فكان مستقره بها دعامة للسلطة الحاكمة والنخبة العالمية معرفة وفقها وتديساً^(١٨).

وفي الحاضرة فاس نال أبو العباس حظوة ودرجة علمية رفيعة وسط أهلها، فاشتهر بالتدريس على فقه مالك، وتخرج على يده العديد من العلماء والفقهاء^(١٩) فذاع شهرته مشرقاً ومغرباً حتى أضحى فصيح اللسان والقلم فضلاً عن انتاله العلم من أهلها ما نَمَى به بصيرته وصقل به شخصيته الموسوعية^(٢٠)، ما جعله محل المدح والإشادة حيث وصفه ابن الغازي المتكاسي الفاسي (ت. ٩١٩هـ/١٥١٣م)^(٢١) بالفقيه العالم وحيد دهره وفريد عصره فهو المحقق الناظم المصنّف الجامع الأكمل^(٢٢)، ووصفه ابن منجور (ت. ٩٥٥هـ/١٤٤٧م) بالفقيه الكبير الحافظ المحصل التوّازلي^(٢٣)، ولعلّ من دلائل رفعة العلمية تصدره للفقه المالكي بفاس وجلوسه على عرش التدريس بالمدرسة المصباحية وجامع القرويين^(٢٤).

ترك الونشريسي ورائه تراثاً علمياً فقهياً مالكياً بالدرجة الأولى تنوع ما بين الفقه والفتوى والفهرسة وعلم التوثيق متبعا في ذلك أسلوب المختصرات والشروح والتعليق والحواشي والردود في معضمها^(٢٥)، فكان بحق رجلا موسوعيا نا بها رضا العامة والخاصة نتيجة كثرة اطلاعه على أمهات الكتب والتصانيف التي تُعدّ حالياً محل المفقود المندثر، حيث كان لمكتبة محمد بن محمد الفرديس التغلبي الفاسي (ت. ٨٩٧هـ/١٤٩١م) دور بارز في ذلك لما حوته من المصادر المغاربية والأندلسية النفيسة^(٢٦)، ولعلّ من أشهر الكتب انتشاراً وتوظيفاً كتابه المعيار الذي حوى ٢١٣٥ نازلة على فقه مالك والذي استغرق تأليفه قرابة خمس وعشرين سنة حيث نال به شرف الرياسة لكونه قد أحاط بمذهب مالك في هذا الباب ما جعله محل مدح وإشادة^(٢٧).

ومن هنا يمكننا القول، أنّ ما بلغ الونشريسي من مكانة علمية مردّها لحبه وشغفه بالعلم والمعرفة، حيث كان لمدينة تلمسان وفاس دور فعال في صقل شخصيته العلمية، فكان جوّالاً مُنتفعاً من شتى ضروب الكتب الفقهية خاصة المالكية ما جعله يبدع في هذا الباب تأصيلاً وتقريباً حتى أضحى وحيد زمانه وفريد عصره، فله كانت الريادة والرئاسة في التدريس والتوليف

من خلال ايجاد طرق ممارستها وسبل حمايتها ووسائل إثباتها تفعيلاً لحقوق الأفراد وضماناً لاستمرار المجتمعات وفق مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء.

ثانياً: نتف من حياة الونشريسي

لا مشاحة في أنّ الحديث عن شخصية الونشريسي سوف يأخذ من الباحث صفحات وتواليف عديدة نظراً لما كان عليه الرجل من علم ومعرفة جعلته ذائع الصيت مشرقاً ومغرباً، فهو أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي المعروف بأبي العباس، الونشريسي الأصل، مالكي المذهب إلى النخاع، تلمساني النشأة، فاسي الاستقرار والمنية بعدما عمر قرابة الثمانين سنة (٨٣٤-٩١٤هـ/١٤٣٠-١٥٠٨م)^(١٤). ورغم ما ينتاب عائلته من غموض، فقد تعددت المصادر التاريخية التي ترجمت للرجل، فقد وصفت والده عبد الواحد (ت. ٨٥٥هـ/١٤٥١م) بالورع والتقوى والعلم وكذا هو حال والدته وأولاده، إلا أنّ الرائج بين العلماء أنّ الونشريسي قد حمل رياسة المذهب المالكي خلال القرن ٩هـ/١٥م^(١٥).

اتّصف أبو العباس بالعديد من الصفات الخلقية والعلمية التي منه رجلاً عالماً متبحراً في شتى ضروب العلم والمعرفة، فكان فقهياً أديباً ممارساً للفتوى والتأليف والتدريس، ولعلّ هذا الأمر هو ما جعله ينال حظوة السلطان الحفصي الذي جعله قاضياً بمدينة فاس خاصة وأنّه مضطلع بعلم التوثيق والكتابات السلطانية^(١٦).

والظاهر أنّ ملكة الرجل العلمية والفقهية هي ثمار تنقلاته بين الحواضر العلمية زمنه فكانت له رحلتان؛ حيث قصد مدينة تلمسان منبع العلم والمعرفة والعلماء والفقهاء التي جعلها مستقره الأول إلى غاية بلوغ السن الأربعين من عمره^(١٧)، في حين كانت له رحلة ثانية اضطرارية إلى مدينة فاس نتيجة معارضته لسياسة السلطان أبو ثابت الزياني (٨٦٦-٨٩٠هـ/١٤٦١-١٤٨٥م) سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م إثر الخلاف الذي نشب بينهما حول سياسة الرعية، فضلاً عما تعرضت له داره من سرقة ونهب على يد جماعة من الغوغاء، وهناك وجد أهل فاس مرحبين به نظراً لأنّ شهرته سبقت مجيئه

أورد الونشريسي مجموعة من السلوكات الدالة على انتهاك حرمة المسكن والتي في الأغلب تسبب ضرراً للجار وخدشاً لحرماته وأعراضه وممتلكاته ما يجعله يلجأ للفقهاء للتسائل ورفع الشكوى لمعرفة رأي النصّ الشرعي حول هذا السلوك، حيث رفض الونشريسي التكهّف على عورات الناس من خلال أسقف السطح خاصة بين الجيران ولو كان فيها منفعة لهما، وهي جواب النازلة عمن أراد جعل ستارة على سطح لستره وستراهم وهي تمنع من الريح والشمس هل له ذلك أم لا؟ على أن تكون النفقة بينهما لكون المنفعة مشتركة^(٣٠)، كما منع الونشريسي أحداث النوافذ (الكوة) الجديدة ولو كانت في ملك صاحبها خاصة إذا كانت تطل على الجار بشكل مباشر من السقف أو عند فتح الجار لبابه فتكشف عورته وعلل سبب الرفض لما فيها من مضرة للجار وانتهاك لخصوصياته الشخصية ولما تخلّف من هتك لأسرار الناس وأعراضهم^(٣١)، ونفس الحال ينطبق على من فتح حانوتا قبالة باب جاره حيث رفض الونشريسي هذا السلوك لما فيه من مضرة للجار وعلل ذلك على أن ضرر الحانوت أكبر من فتح النوافذ لما يجلبه الحانوت من تجمع للناس وهو أمر قابله بضرورة غلقه^(٣٢)، ولعل من شدة حرص الونشريسي على تحقيق حرمة المسكن هو منعه إقامة الأذان بالصوامع التي تطل على الجيران إلى غاية سترها بجواجز تمنع كشف المستور من حرم وعرض الجار كما اقترح منع أهل الدار من الحركة أثناء إقامة الأذان حماية لحرمتهم وعدم كشفها^(٣٣).

وفي إطار حماية الجار واحترام خصوصياته الشخصية وحقه في الراحة والسكينة والطمأنينة خاصة في جانبها الصحي، فرض الونشريسي على الجار احترام راحة جاره في عدم مضايقته بالروائح الكريهة والأدخنة المنبعثة من بعض الأعمال الحرفية، كما هو الحال في الرجل الذي منع من إحداث كوشه تسبب الكثير من الدخان ما أضرّ الجيران الذين رفعوا شكاوهم للفقهاء مطالبين بضرورة سدّها ومنعه من إحداثها فكان لهم ذلك لما فيه من ضرر على صحتهم^(٣٤)، ونفس المنع طال رجلا آخر منع من إحداث مطبخ يؤذي به جاره من خلال انتشار الدخان^(٣٥)، وفي نفس الإطار

والفتوى والكتابة، فالرجل موسوعي بامتياز وإن اقتصر على مذهب مالك إلا أنّه وجوده يعد مرحلة تاريخية حاسمة في تطور المذهب المالكي ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (٩-١٠هـ/١٥-١٦م) والتي عبر عنها مؤلفه المعيار المغرب.

ثالثاً: مظاهر الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة في مدونة المعيار

ينطوي كتاب المعيار على العديد من المظاهر الدالة على التعدي على حرمة الحياة الخاصة ببلاد المغرب الإسلامي والتي أدرجت في الكثير من النوازل الفقهية ضمن أبوابه المختلفة، حيث يمكن تصنيف هذا السلوك المخالف للشرع ضمن الكشف المباشر والتقليدي لخصوصيات الناس والتي تتعلق بجرماتهم وأعراضهم وممتلكاتهم وكل ما يلحق بهم من أذى مادي أو معنوي، لذا فإن كلّ أذى أو تعدي على الحقّ يعدّ في نظره خدشاً بالحياة الخاصة للأفراد ما يستدعي تدخل الفقيه لفكّ الخلاف وردّ الحق لصاحبه وهذا ما لمسناه من خلال تعرض الونشريسي للعديد من السلوكات المخالفة للشرع والتي انتشرت بمدن وقرى بلاد المغرب الإسلامي نتيجة الضرر الذي تخلفه بالسائل، حيث يمكن توضيحها في المظاهر التالية:

١٣- الاعتداء على حرمة المسكن والجوار

تعدّ حرمة المسكن من أبرز عناصر الحياة الخاصة، نظراً لما كان عليه المسكن من ستر لعورات الناس وجميع خصوصياتهم فالببيت هو المكان الذي يشعر به المرء بكرامته وحرته التي لا ينفصّها عليها أحد، لذا فقد منح الإسلام للببيت حرمة خاصة من كل عمليات التطفل والانتهاك لكونه يحوي خبايا الناس وأسرارهم، ما يدفع الناس لضرورة احترام هذه الخصوصية لكونها أمر شرعي واجب التطبيق بالقرآن والسنة^(٣٨). والظاهر أنّ الفقيه مجبور على إيجاد المعروف وإزالة المنكر لتحقيق الأخلاق الفاضلة بمجتمعه الإسلامي، من خلال فرض العديد من الضوابط الشرعية السلوكية والأخلاقية التي تأصل للمكارم الخلقية الداعية لاحترام خصوصيات الجار، لذا فكلّ مسكن معدّ للسكن يحوزه صاحبه حيّزة شرعية هو حائز للحرمة الشرعية^(٣٩).

يعزل عمل هذه الحرفة لما يسببه الفرن من ضرر سواء من ناحية النار أو الدخان أو الرائحة^(٤٣)، ورفض سلوك جار سمح للماء بالتدفق على حائط جاره ما أدى إلى تشققها واهترائها^(٤٤)، كما ردّ حق جار في الوصول إلى حائطه لإكمال بنائه مروراً بمسكن جاره، حيث ذكر أنّ لصحائب الحائط الحق في نقل الحجارة والطين والطوب ما يحتاج إليه لبناء جداره^(٤٥)، إلا أنه منع إقامة دار على حساب جدران جيرانه إلا بموافقتهم لما فيه من ضرر على مساكنهم^(٤٦).

وتحقيقاً للمنفعة المشتركة بين الجيران منع الونشريسي تصرف الجار في الملكية المشتركة بين الجيران بالزيادة أو النقصان لكونها من الحقوق المشاعة بينهم خاصة فيما تعلّق بالدروب غير النافذة، ولعلّ حرصه على هذا الحق هو مدعاة لنشر المحبة بينهم والتتويه بحرمة الحياة الجماعية بين الأفراد^(٤٧)، وفي موضع آخر يرفض الونشريسي إقامة الحائط المنكشف على عورات الجار ولو كان فوق بيت صاحبه^(٤٨)، فضلاً عن منعه بناء الأرحية التي تضرّ بالآخرين لما تخلّفه من ازعاج صوتي أو اهتزاز قوي قد يؤثّر على الجدران لذا اشترط وضع الكاغد الغليظ وتعليق الرحي كي يبعد الاهتزاز عن جدار الجار، أو جعل ثمانية أشبار كمسافة فاصلة بين جدار الجار وجدار الرحي انطلاقاً من مركز دوران البهيمة^(٤٩)، كما منع جعل مربيط البهيمة قرب حائط الجار لما تخلّفه من ضرر على الحائط وصحة جاره، حيث اقترح بناء مربيط أرضي لا يتساوى في الطول مع حائط الجار^(٥٠).

خلاصة يمكن القول، أنّ ما أورده الونشريسي من نوازل في هذا الباب الغرض منها حماية حرمة الحياة الخاصة للأفراد خاصة فيما تعلّق بحرمة المسكن والجوار وعدم التجسس على حرّات وأعراض الجيران، لذا نجده يشدّد في الكثير من المواضع على احقاق الحق وردّ الخصومات وفكّها بما يتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي وتفعيلاً للقواعد الفقهية التي تدعو لجلب المصلحة ودفع الضرر، ومن ذلك حرصه على منع الضرر البصري والسمعي والصحي للجار باعتبارها أحد المكونات الأساسية التي تقوم عليها ممتلكات الأفراد ولكونها من خصائصهم التي يجب احترامها وصونها.

الصحي يلح الونشريسي من خلال بعض النوازل على الحفاظ على سلامة البيئة المشتركة بين الجيران باعتبارها من خصوصيات الفرد في التمتع بالنظافة، فممنوع رمي الأبال التي تضرّ بالجيران والأزقة والشوارع كحال الرجل الذي عانى من مضايقات جاره في رمي الزبل على حائطه ما سبب له ضرراً ما دفعه لرفع الشكوى فكان له الحق في استرداد حقه من نظافة مسكنه وما جاوره، ونفس السلوك كان لجماعة من الناس ألّفوا رمي الزبل قرب جيرانهم فكان ردّ الفقيه في ضرورة العمل الجماعي المشترك في كنس الأبال حفاظاً على نظافة الدرب^(٥١).

ويضيف الونشريسي في موضع آخر عن احترام خصوصيات الناس وتعرّضها للاعتداء ذلك الضرر الذي لحق بعض ممتلكات الأفراد، وهنا نخص بالذكر الأشجار المتصلة بالبيوت ومنها ما حدث لرجل يمتلك زيتونة تضررت بأغصان شجرة توت غرسها جار بجانب شجرة جاره، فأمر الونشريسي بقطع الأغصان من كل طرف تفادياً للضرر ومنعاً للمشاحنة والبغضاء بينهما^(٥٢)، ونفس الجواب كان في قطع أغصان شجرة تدلت أغصانها بدار جاره فأمر بقطع أغصانها الظاهرة للعيان والباطنة كي لا تسبب ضرراً للمسكن^(٥٣).

وامتد حرص الونشريسي على ضمان حرمة الحياة الخاصة إلى ضرورة منع كل اعتداء على البنايات الشخصية باعتبارها من الممتلكات الخاصة بالفرد، خاصة أولئك الجيران الذين انطبقت عليهم صفة الملاصقة أو المقاربة أو المقابلة للآخرين من حيث البنيان، حيث أوجب الشرع عدم إيذائهم أو إزعاجهم وضرورة الإحسان إليهم قولاً وفعلاً^(٥٤). وهو ما شدّد عليه الونشريسي في العديد من المواضع حيث منع غرز الأخشاب في جدار الجار إلا بإذنه لما فيه من مضرة بحائط الجار خاصة إذا تعرّض للسقوط أو التشوه أو التشقق^(٥٥)، كما منع تتبع جذور الشجر في بيوت الجار بالحفر لما فيها من مضرة للحائط خاصة والمسكن عامة مخافة السقوط والهدم^(٥٦)، ونفس المنع يمتد إلى الذي يقوم بالدقّ بجانب دار جاره ما يسبب نوعاً من الاهتزاز غير المرغوب فيضرّ مسكن الجار^(٥٧)، كما منع إقامة الأفران بجانب سكنى الجار إلا في حالة إقامة حائط

٢/٣-الاعتداء على الحرمات الأسرية

خصّ اللونشريسي الأسرة المسلمة بمجموعة من النوازل المهمة التي تستدعي التوقف والنظر في مكوناتها الفقهية خاصة فيما تعلّق بالأسرار والحرمات التي تستوجب عدم إفشائها ونشرها، لما فيها من سلوك مخالف للشرع ولما لها من تأثير سلبي على الرابطة الزوجية المقدسة، وكذا الأسرة ذلك الحيز المنسجم الذي يستدعي الحفاظ على تواجد واستمراره بنشر ثقافة الحفاظ على حرمة وأعراض من سكنه^(٥١).

لذا فقد أورد اللونشريسي في هذا الباب العديد من المظاهر الدالة على خدش الحرمات والتعدي على الرابطة الزوجية وذلك بإفشاء أسرارها، ولعلّ ما ينهض دليلاً على ذلك هي تلك النوازل التي تعكس درجة الانحلال الخلقي والديني الذي عمّ انتشاره بالمنطقة نظراً لابتعاد الرعية عن تعاليم الدين الحنيف، ومن ذلك اعتداء الأب على حقّ ابنته الشرعي والإنساني في اختيار شريك حياتها فنجدّه يجبرها على الزواج ولو من رجل فاسد مخافة الوقوع في الفساد والخطف والغصب والإكراه والهرب بهنّ^(٥٢)، ووصل الأمر إلى الاعتداء على اليتامى من الفتيات في إرغامهنّ على الزواج ما دفع البعض منهنّ إلى الهرب من البيوت أو الرضا بأيّ زوج هروباً من الواقع المعاش^(٥٣)، وهو سلوك رفضه اللونشريسي طالب فيه بأخذ رأيها واحترام حياتها الخاصة^(٥٤).

ونضيف من مظاهر الاعتداء على الأعراض الأسرية قيام الزوج بسلب حقّ زوجته في العيش الكريم فكان كثير السبّ والشتم لها والتهديد المستمر بفكّ الرابطة الزوجية تهديداً وتخويفاً لها^(٥٥) وأحياناً يمتد الأمر إلى إهانته وضربها والتكيل بها إلى غاية القتل، ليصل الأمر إلى إفشاء أسرارها الزوجية أو جعلها امرأة بغاء وعرضها للفجور مع الناس وإخراجها للفساق أو الزنى بها وهي في غير عصمتها^(٥٦)، كما تعرضت المرأة إلى التعنيف وسلب الحقوق الخاصة من طرف الأعمام والأخوال خاصة غذا كانت يتيمة لا سند لها فتتعرض للضرب والجوع والإساءة الفظية والجسدية وحرمان الحقوق كالميراث وغيرها^(٥٧).

ولعلّ من أهم الصور الدالة على سلب الحقوق الخاصة هو ما تعرض له الأطفال من إساءة وهضم للحقوق خاصة الرعاية الأسرية نتيجة حالات الطلاق المتكررة التي تجعله محل تجاذب بين الأم والأب ما يفقده حق الرعاية وحنان الأبوين وهو حقّ مكفول بالشرع^(٥٨)، أو التعنيف الذي يتعرض له من أحدهم أو من طرف المعلمين بالمنطقة فيؤدّي ذلك لكسر خواتمهم وأحياناً يؤدّي إلى وفاتهم^(٥٩).

عصارة القول، أنّ انتشار العديد من الممارسات العنيفة داخل الوسط الأسري قد أدى إلى حرمان أفرادها من حقوقهم الخاصة، وهو ما يدل على درجة الانحلال والخروج عن الشرع بالمنطقة، حيث تعرضت المرأة سواء كانت زوجة أو ابنة للكثير من الاعتداءات التي سلبت حقّها الإنساني والشرعي ناهيك عن تعرضها للعنف اللفظي والجسدي والتشهير بحياتها الخاصة فأضحت حيث العام والخاص رغم رفض الشرع لنشر عورات وأسرار البيوت، ونفس الحال تعرض له الأطفال من إساءة وتحطيم للنفوس وسلب للحقوق الإنسانية والشرعية ما يجعله المتضرر الأكبر وهو ما ينعكس سلباً على نضجه العقلي واكتمال شخصيته السوية.

٣/٣-هتك الأعراض والاعتداء على

الممتلكات الخاصة

الظاهر أنّ حرمة عرض المسلم حقّ ثابت في الشريعة الإسلامية أوجبت رعايته وصيانته باعتباره من المكتسبات الشخصية التي لا يمكن التنازل عنها أو السماح بخدشها من طرف الغير^(٦٠) وهو أمر شددّ عليه الفقهاء والعلماء بضرورة الحفاظ عليه، حيث يعدّ السبّ والشتم والتشهير بالآخرين أمر مذموم لكونه سلوك عمدي لإشاعة الفاحشة وسلب للحقوق لكونها من أعراض الأفراد والجماعات.

وهنا قد أشار اللونشريسي للعديد من هذه الحالات المنتشرة بالمنطقة كحال الرجل الذي تبادل السبّ والشتم مع رجل آخر بشكل علني في حضرة الحاكم لدين بينهما، ما استوجب تدخل الحاكم لفضّ النزاع بالصلح أو اقرار الشهود لردّ الدين للآخر^(٦١)، ونفس الحادثة وقعت لشخصين تبادل السبّ والشتم حتى وصل الأمر

هرب خوفاً منه فترك أرضاً ومالاً فادعى السلطان أنها ملكه، ونفس الحال حدث لقبيلة فرض عليها السلطان مغرمًا مالياً تعسفاً وظلماً^(٦٨).

كما تعرضت ممتلكات الأفراد والقبائل الخاصة إلى الغصب والتعدي من طرف اللصوص وقطاع الطرق نتيجة انتشار هذه الظاهرة بالمنطقة، حيث ذكر الونشريسي تعرضت قبيلة لسرقة ممتلكاتها من طرف خمسة أشخاص تعودوا على سرقة المواشي وقطع الطريق والخيانة بالمنطقة^(٦٩)، كما تعرضت المناطق الصحراوية للغصب أيضاً فذكر أن قبيلة تعرضت لسرقة إبلها من طرف أشخاص مجهولين^(٧٠)، وأحياناً تأخذ عمليات السرقة منهجاً جماعياً كما حدث لقرية استحل بعض اللصوص ممتلكاتها فحاصروها وحازوا على طعام أهلها ما أدى إلى غلاء الأسعار بالمنطقة وتراجع مستواهم الغذائي^(٧١).

ونظراً لانتشار هذه الظاهرة فقد وجد بعض التجار أنفسهم محلّ شراء لبعض السلع المغصوبة والمسرقة التي تتصل بممتلكات بعض الأفراد كحال التاجر الذي اشترى بعض الإبل من بعض الأعراب المعروفين بالغصب^(٧٢)، وهو مال ذهب الفقهاء على تحريمه شرعاً ما يستدعي التوبة لفاعله^(٧٣)، ونفس الحكم ينطبق على اللحم المغتصب^(٧٤)، كما تعرضت أيضاً الممتلكات الخاصة براكبي السفن إلى التعدي والسرقة والاعتصاب كحال البحارة الذين فقدوا متاعهم ومراكبهم بسبب لصوص البحر^(٧٥).

وحرصاً من الدين الإسلامي على الحفاظ على حرمة أهل الذمة بأرض الإسلام، فقد وقع المنع ضد أيّ اعتداء على ممتلكات الذمي من سرقة وخيانة وسب وشتم وكلّ ما يخدش حرمة الخاصة باليد واللسان^(٧٦)، ورغم انتشار الأمن والسلم والتعايش بين الطائفتين إلا أنّ حوادث الاعتداء كانت موجودة بالمنطقة وإن كانت نادرة الوقوع، فقد ذكر الونشريسي منها أنّ أموال اليهود قد تعرضت للسرقة والاعتداء من طرف بعض الأشخاص المجهولين، إلا أنّ الغاصب أراد التحلل فصعب عليه معرفة اليهودي فذكر الفقيه أنّ المال يردّ لبيت مال المسلمين ليكون محلّ الصدقة^(٧٧).

لسبب الله بشكل علني فضلاً عما وقع بينهما من شجار أمام مرأى الناس، حيث أمر القاضي بإقامة الصلح بينهما عن طريق الاعتذار، في حين ردّ كانت عقوبة من سبّ الله سبحانه وتعالى القتل بغير استتابة أو العقاب الشديد^(٧٨).

أمّا عقوبة من سبّ النبي (ﷺ) القتل وهذا ما حدث بتونس أنّ يهودياً سبّ النبي بعد الأذان فشهد عليه اثنان فكان مصيره ضرب عنقه، ونفس الحال لشخص وصف الرسول بالمسكين إساءة له فكان جزاؤه القتل أو ذلك الرجل الذي سبّه وهو سكران^(٧٩).

والظاهر أنّ مسائل السبّ والشتيم وخدش الأعراض الشخصية قد امتدت إلى سبّ الآباء والأجداد وتراشق التهم والأباطيل خاصة بين الجماعات دون الأفراد، ومن ذلك ما حدث لرجل وقعت له خصومة مع قوم فشتّموا آبائه وأجداده ما حز الأمر في نفسه لكونه من الأشراف وشهد الحادثة أربعة من النّاس، فكان ردّ الفقيه بضرورة تأديب القائل أدباً موجعاً شنيعاً ويطال حبسه إذا كان فيه نية صادقة في الشتم^(٨٠). كما تعرضت المرأة إلى السبّ والشتيم من طرف زوجها ما أثر على نفسيتها كحال الرجل الذي قال ربط طلاقها بظهورها لأعين الناس فكان كثير الظلم والاستهزاء بها^(٨١) لدرجة قتلها أو التّكيل بها ما يعكس همجية وعنف الرجل وسلبه لحقوق زوجته الشرعية والإنسانية^(٨٢).

ويضيف الونشريسي في موضع آخر أنّ أهل الذمة قد مارسوا السبّ والشتيم ضدّ المسلمين كحال الساحر اليهودي الذي ظهر بقلعة هواره سنة (٨٤٩هـ/١٤٤٥م) الذي صار يمشي متكبراً ومشهراً وسط المسلمين ويسبّ دينهم وملّتهم وأنهم لا حسب ولا نسب لهم ما دفع الحاكم لسجنه والأمر بضربه ضرباً موجعاً بعدما أثبت الشهود صحة فعلته^(٨٣).

ويبدو أنّ ظاهرة الاعتداء على ممتلكات العامة والخاصة كانت كثيرة الحضور في نوازل الونشريسي، والتي تعتبر نوعاً من الإيذاء للمسلمين وغير المسلمين من خلال التعرض للممتلكاتهم الشخصية بالغصب والسرقة بطرق كثيرة، ومن أبرز الممارسين لها ما قامت السلطة الحاكمة ضدّ بعض القبائل أو الأشخاص، فقد ذكر أنّ سلطاناً جائراً قد استحل مال رجل فأخذه عنوة بعدما

والتي نعتبرها وجها من أوجه الاستدلال الشرعي في إثبات الحق، لذا هو في نظر الفقهاء والعلماء ليس جامعا للفتاوى فقط بقدر ما هو ناقداً بصيراً راسخاً حجة في أهل عصره على مذهب مالك^(٨٠).

حيث يعد الاستدلال بالنص القرآني من أهم مصادر التشريع في الدين الإسلامي التي يستند إليها الفقيه أول الأمر لإثبات الحق ودحض الباطل خاص إذا تعلّق الأمر بحرمة الحياة الخاصة، وهنا نجد النشريسي في الكثير من المواضع يرجع إلى النصّ القرآني بشكل مباشر أو بنقل ظاهره أو ما يشير إليه بالمعنى، ليسترسل في الحديث عن مضمونه كشاهد نقلي على صحة قوله أو قول العلماء والفقهاء، ومنها ذكره للآية الكريمة التي تجيز للرجل ضرب زوجته في حدود الشرع دون مبالغة واعتداء على حقها الشرعي في العيش الكريم الذي وصل إلى درجة القتل^(٨١)، حيث استدللّ بقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾^(٨٢) على أن يكون الضرب خفيفاً للمرأة الناشزة^(٨٣) لقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾^(٨٤). وفي موضع آخر استند إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾^(٨٥) إشارة إلى السلطان الظالم الذي يستحدث مغارم جديدة ضدّ الرعية دون وجه حق اعتداء وظلماً وجوراً^(٨٦).

كما اعتمد النشريسي على السنة النبوية كمرحلة ثانية بعد القرآن الكريم في عملية الاستدلال، وذلك لإثبات الحق وضمان وجوده فهي مساعدة على فهم النصّ وشرحه وتبيان المبهم منه لإيصال معناه إلى الفرد بشكل كامل تام غير ناقص وغير قابل للتأويل، لذا اهتم النشريسي بتدعيم أقواله بما جاء في السنة النبوية إمّا بذكر الحديث كاملاً أو الإشارة إلى معناه، ومن ذلك إيراد الحديث الذي يشير إلى ضرورة ستر عورات المسلمين في حالة الفاحشة بقوله (ﷺ): "هَلَّا سترته بردائك"^(٨٧)، وفي مجال الاعتداء على الحرمات يضيف حديثاً يجيز به ضرب المرأة الناشزة دون الحاق الضرر بها مستندا لقوله (ﷺ): "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم ممّا تَطْعَمُونَ وألبسوهم ممّا تلبسون ولا تكلّفوهم فوق طاقتهم فإنّ كلفتموهم فأعينوهم"^(٨٨)، وفي موضع آخر وظّف حديث النبي (ﷺ) قوله: "اللهم أمتي مسكينا واحشرنني في زمرة المساكين"

ومن هنا، فإنّ ظاهرة انتشار هتك الأعراض هو سلوك رفضه الشرع لكونه من المكتسبات الثابتة شرعا التي توجب احترام الآخر لها بكل الطرق، فكان السبّ والشتيم هو إحدى المظاهر الدالة على الاعتداء عليها، حيث تنوع بين إيذاء الغير باللسان والتشهير وما تعرضت له المرأة من تعنيف لفظي من طرف زوجها ليتعدى ذلك حتى إلى سبّ الله ورسوله، فضلاً عن أهل الذمة الذين كان لهم تناول على المسلمين وشرائهم، لذا فقد اخذت هذه الظاهرة في عمومها شكلاً فردياً وجماعياً ما يعكس الخروج الصريح عن تعاليم الدين الإسلامي.

كما كان للسلطة والقبائل والأفراد سهم وافر في توسيع نطاق الاعتداء على الممتلكات الخاصة والعامة باعتبارها من الحرمات، حيث انتشرت ظاهرة اللصوصية والغصب والاعتداء بشكل كبير على جميع الخصوصيات الفردية والجماعية ما تطلب تدخل الفقهاء بضرورة نشر ثقافة التسامح والتوبة والتحلل وتسييل العقوبات الصارمة على فاعليها.

رابعاً: ضمانات حرمة الحياة الخاصة في

مدونة النشريسي

إنّ النظر في الضمانات الشرعية التي ساقها النشريسي في كتابه المعيار والتي تضمن حقّ حرمة الحياة الخاصة يدفع الباحث إلى النظر مرّة أخرى في منهج النشريسي في كتابة نوازلته المختلفة حول الموضوع، حيث تميّز منهج النشريسي عموماً بعدم ذكر أسماء المستفتين عكس المفتين، وجعلها مبنية للمجهول مع إيراد النصّ كما هو، فضلاً عن إيراد الأجوبة لمفتي واحد على الأغلب، متفادياً لذكر الدليل وعدم الخوض في أقوال العلماء وعدم التعقيب عليهم، وأحيانا يفرد رأيه معقبا عليها ما يجعل جوابه يترنح بين الطول والقصر أحياناً^(٧٨).

ولعلّ هذا المنهج الذي اتّبعه هو ما جعل نوازلته تتميز بالواقعية والمحلية وجمعها بين التجدد والاستمرارية والشمولية والتكرار فضلاً عن الوحدة المرجعية الفقهية في كلّ أجزائه^(٧٩). ومن هنا فقد أدرج النشريسي العديد من الضمانات الشرعية المستمدة من مصادر التشريع المعروفة والتي تدعم حقّ حرمة الحياة الخاصة

للدلالة على ذلك اليهودي الذي اعتدى سيدنا الكريم واصفا إياه بالمسكين^(٨٩)، وأحيانا يقوم بذكر رواة الحديث للدلالة على معناه في مسألة انتهاك خصوصيات البيوت من خلال المآذن، مثل ذكره لحديث عائشة رضي الله عنها قولها: "أن كان رسول الله (ﷺ) ليصليّ الصبح فينصرف النساء متلفعات بمروطهنّ ما يعرفن من الغلس"^(٩٠)، فضلاً عن مواضع أخرى يعمد اللونشريسي على ذكر معنى الحديث بشكل ضمني عندما أقرّ بفضّ نكاح اليتيمة التي غلبها البكاء ولم تصمت لكونه نوع من الرفض والانكار والاعتداء على حقّها في اختيار شريك حياتها^(٩١).

والظاهر أنّ اللونشريسي كان شديد التعلّق بمذهب مالك لذا نجده يرجع لتدعيم فتواه بأقوال العلماء خاصة المالكية بداية من مالك في الموطأ وابن سحنون في المدونة ويروي أقواله في العتبية والموازية، ليقوم بذكر أقوال العلماء والمفتين من أهل المغرب والأندلس، فذكر ابن سعيد بن لب الغرناطي (ت. ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م) في قضية عدم ستر العورات وجعل الزوجة محلّ ممارسة الرذيلة مع الفساق^(٩٢)، واللّخمي أبي الحسن علي بن محمد (ت. ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) في مسألة الاعتداء على حقوق الطفل، وحرّمات الناس في مساكنهم^(٩٣)، والفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق (ت. ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) في قضية الاعتداء على ممتلكات الرعية من طرف قطاع الطرق واللصوص^(٩٤)، واستند إلى الفقيه الأندلس ابن رشد (ت. ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) في مسائل السب والشتّم وهتك الأعراض^(٩٥)، والغبريني (ت. ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) في قضايا السب والشتّم الجماعي وسبّ الأجداد والآباء والأشراف^(٩٦)، وأحمد بن سعيد المديوني (ت. ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) في قضية فتح النوافذ التي تطل على الجار وخصوصياته^(٩٧) وغيرهم من العلماء والفقهاء والمفتين كثير. وأحيانا يعمد اللونشريسي إلى الاستدلال بالمذاهب الأخرى كقول الشافعية في مسألة اعتداء المعلم على الطفل بالضرب ما يسبب له إعاقة أو تشوها^(٩٨)، أو اللّجوء إلى رأي الحنفية في قضية سبّ الأشراف لكونها من المسائل المستجدة بالمنطقة^(٩٩).

ويبدو أنّ اللونشريسي كان كثير الاستدلال بالإجماع لإثبات العديد من الحقوق وضمان عدم الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة، حيث يشير صراحة لهذا الحقّ بالإجماع في تسليط عقوبة القتل لكل من سبّ الله سبحانه وتعالى^(١٠٠)، وكذا اجماع قضاة المنطقة الذين حكموا بالقصاص ضدّ محترفي السرقة واللصوصية المعتدين على أملاك الرعية لكونها من خصوصياتهم وممتلكاتهم الفردية والجماعية^(١٠١)، كما أقرّ اللونشريسي بحكم الفقهاء وأيّده في رفضهم شراء المواشي من اللصوص لكونها إعاقة على الغصب وتأييد للمنكر والاعتداء على الحرمات والممتلكات^(١٠٢)، كما نقل لنا اجماع فقهاء بجاية على رفض زنى الرجل بزوجته بدون عقد استبراء لكونه حرمان لها من حقها الشرعي في زواج رسمي^(١٠٣)، ناهيك عن نقله اجماع الفقهاء في منع إقامة الأفران بجانب سكنى الجار لما فيها من ضرر علي وعلى سكنه^(١٠٤).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الاستدلال العقلي كان حاضراً في مدونة اللونشريسي خاصة في المسائل التي لم يرد بها نصّ صريح ما يدفع الفقيه إلى التدخل بعدّة آليات فقهية شرعية تجيز له استخدام العقل والمنطق للوصول إلى حلّ للخلاف المستجد، حيث وظّف اللونشريسي رخصة القياس الشرعي في مسألة الاعتداء على الطفل الرضيع بمنعه من الرضاعة من أمّه حيث اعتبره عملاً مذموماً واعتداءً صريحاً على حق الإنسان في الحياة وذلك قياساً بحادثة منع العطّاش من الشراب حتى مات فديته تقع على المانع، ونفس الشيء في عقاب الصبيان الذي جعله غير محصور وإنّما ربطه بدرجة القوة والضعف والخوف من عدمه لدى المتعلّم^(١٠٥)، كما وظّف القياس في منع عمل الأفران بدرجة الضرر الذي تسببه للجيران قياساً على انتشار الدخان من عدمه وكذلك درجة الضرر المادي والصحي للجار^(١٠٦).

كما عمل اللونشريسي على توظيف الاستصلاح أو المصلحة لضمان حرمة الحياة الخاصة ومن ذلك تدخله في قضية السبّ والشتّم للأشراف التي ربط عقوبتها بشرطين وهما اللفظ العرفي والصدق في القول وخلص أنّ العقوبة تكون بعقاب الفاعل بالضرب الموجع الشنيع وإطالة الحبس^(١٠٧)، وكذلك هو الحال أيضاً في تأييده حكم غضّ البصر للمؤذن في عدم الكشف عن عورات الناس من خلال استراق النظر في منازلهم لكونه من

على الفساد ونشر الحقّ ودحض الباطل والذي لا يكون إلا بتدعيم ونشر ثقافة الإسلام وبث الوعي الديني بين الأفراد والجماعات^(١١٢).

وبالرجوع إلى عصر النشريسي، نجد أنّ الفترة التي عاشها الرجل قد تميزت على العموم بالاضطراب الشديد في المجال السياسي نظراً لكونه عاصر الدولة الزيانية التي عاش بها قرابة أربعين سنة من عمره والتي تميزت بكثرة الفتن والصراعات الداخلية والخارجية مع بني حفص^(١١٣)، وكذلك هو الحال في الدولة المرينية التي هاجر إليها مستقراً بمدينة فاس التي سادها العبث والفوضى ما عقد الحياة بها خاصّ بعدما سيطر عليها بنو الوطاس بزعامة محمد الشيخ والتي لن تسلم هي أيضاً من حالة العفن والاضطرابات الداخلية والتحرشات الخارجية البرتغالية^(١١٤).

ولم تسلم الحياة الاجتماعية من حالة الفوضى الذي عرفها المغرب الإسلامي زمن الدولتين نظراً لانتشار العديد من الآفات الاجتماعية والممارسات الدينية الشاذة المنتشرة وهي التي خصّص لها النشريسي العديد من النوازل لعرضها وتبيان موقف الشرع منها، فكان عصره محلّ انحطاط شامل للحضارة الإسلامية ما يستدعي تدخل الفقهاء والعلماء لإصلاح الوضع الديني والاجتماعي^(١١٥).

حمل النشريسي لواء الدعوة إلى الإصلاح الديني والاجتماعي في مجال الدفاع عن حرمة الحياة الخاصة فكانت نوازله بحقّ دعوة صريحة لذلك من خلال إيجاد الحلول الشرعية لجميع الاعتداءات التي تمس حرمة الحياة الخاصة، وإن اتّسمت في أغلبها بالطابع النظري إلا أنّه حاول من خلال تدخلاته الفقهية فكّ الخلافات بأقلّ الضرر موظّفاً ملكته الفقهية والعقلية وجميع المصادر الشرعية في احقاق الحقّ ودحض الباطل وتثبيت هذا الحقّ الشامل لخصوصيات الفرد والجماعة.

ومن الامثلة الدالة على حرصه لنشر ثقافة حرمة الحياة الخاصة أوجد بالمعيار ترسانة من النوازل الداعمة لها، فكان يشدّد على العقوبات ضدّ كل من يחדش هذه الحرمة ومنها ما ذكره عن إيذاء الجار والاعتداء على صحته الجسمية وراحته النفسية، فمنع

خصوصيات الجيران^(١١٨)، فضلاً عن استخدامه لبعض القواعد الفقهية ولعلّ أبرزها القاعدة التي تجلب المصلحة وتدفع الضرر في البنيان وقاعدة لا ضرر ولا ضرار التي وظّفها في مسألة فتح النوافذ والحوانيت قبالة دار الجيران^(١١٩).

على ضوء ما سبق ذكره، فإنّ الضمانات التي وظّفها النشريسي للإثبات حرمة الحياة الخاصة تكتسي في عمومها طابعاً شرعياً محضاً، حيث يُعدّ القرآن الكريم والسنة النبوية والاجماع وما كان عليه العلماء والفقهاء والمفتين من تدخلات على مذهب مالك مع توظيف للقياس والاستصلاح وجميع القواعد الفقهية أهم الوسائل والوسائط التي استخدمها أبو العباس في هذا الباب، فجاءت تدخلاته الفقهية منظمة دقيقة في عرض الأدلة فضلاً عن الامانة العلمية في النقل والمخالفة بالدليل العلمي، فكانت استدلالاته الشرعية ميسرة شاملة لمذهب مالك وغيره من المذاهب الأخرى في سبيل اثبات الحق ودحض الباطل وتجسيد حرمة الحياة الخاصة على أرض الواقع، لذا تعتبر موسوعته الفقهية بحقّ مصدراً مهماً لخصوصيات الفرد المسلم.

خامساً: دعوات الإصلاح الديني والاجتماعي في كتاب المعيار

يرتبط مفهوم الإصلاح في هذا المجال بتلك الدعوة التي تبناها الفقهاء والعلماء في العصر الوسيط لنشر الإسلام ومنهجه السليم في لم شمل الفرد والجماعة، وذلك بإصلاح ما تلثّم من الفكر والعقيدة والثقافة الإسلامية، لذا فهو يصحّ السلوك ويدحض الباطل ويثبت الحقّ^(١١٠). وبذلك فإنّ الإصلاح شامل للعديد من المجالات، فكان أبرزها المجال الاجتماعي الذي يستدعي تفعيل سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تضمن المسار الصحيح للمجتمعات الإسلامية والذي لا يكون إلا بإصلاح الفرد أولاً ثم الجماعة ثانياً، بداية من المجال الخلقي والعادات والتقاليد للوصول إلى تقدم دائم، حيث يقوده مجموعة من العلماء الدعاة الأتقياء يصلحون أمور الدين والدنيا^(١١١)، ونفس الحال يكون في المجال الديني الذي يتطلب تغييراً جذرياً بالمجتمعات خاصة في المجال العقدي والفكري من خلال القضاء

وهتك الأعراض، فقد شددّ اللونشريسي على هذه السلوكات المرفوضة دعوة منه لإصلاح المجتمع وتطهيره من الفساد ولو بلغ الأمر تدخل الحاكم لردعها^(١٢٢) خاصة فيما تعلّق بسبّ الله ورسوله الذي أمر الفقهاء بتسليط عقوبة القصوى ضدّ فاعله^(١٢٣).

وفي ذات الموضوع عمد اللونشريسي على نشر ثقافة التسامح والإخاء بين الأفراد والجماعات تفادياً للصراعات الداخلية بشكل عام والعائلية بشكل خاص رفضه لفكرة التراشق بالأصول العائلية وهنا نخص بالذكر مسألة الأشراف دون غيرهم، حيث نوه اللونشريسي بتأديب القاتل أدباً موجعاً شنيعاً ويطال حبسه إذا كان فيه نية صادقة في الشتم^(١٢٤).

ومحاولة منه في نشر الأمن والسلم الاجتماعي والديني وتثبيت ثقافة التسامح الديني بالمنطقة عمل اللونشريسي على احترام خصوصيات أهل الذمة تطبيقاً للعهد المبرم بينهم وبين المسلمين، لذا وقع المنع لكل اعتداء على ممتلكات الذمي من سرقة وخيانة وسب وشتم وكلّ ما يחדش حرمة الخاصة باليد واللسان^(١٢٥)، فجاءت أحكامه في حقهم مزيجاً من الشدة والليونة حفاظاً على استقرار المجتمع وهذا ما لمسناه من خلال تسليط عقوبة الضرب والسجن على من تناول على حرمت المسلمين من اليهود والنصارى^(١٢٦). وفي مجال الحفاظ على الأملاك الخاصة ومنع التعدي عليها من طرف المغتصبين من اللصوص وقطاع الطرق فقد شددّ اللونشريسي على ضرورة عقابهم وملاحقتهم ومنع التعامل بسلعهم المغصوبة رغبة منه في نشر السلم والامن الاجتماعي بالمنطقة^(١٢٧) مع الدعوة لضرورة التوبة إلى الله من هذه الأفعال^(١٢٨).

خلاصة يمكن القول، أنّ مشروع الإصلاح الديني والاجتماعي الذي حمّله اللونشريسي وإن أخذ في العموم طابعاً نظرياً شرعياً محضاً، إلا أنّه محالة منه لاستدراك ما فاتته من انتشار للفساد والظلم والانحلال الذي أصاب المنطقة خلال القرنين (٩-١٠هـ/١٥-١٦م) في المجال الديني والاجتماعي، فجاءت أحكامه مطابقة للشرع مناديه بضرورة اصلاح ما تلتئم من أمر الأمة وحالها، لذا يُعدّ كتاب المعيار موسوعة فقهية شاملة أبانت عن ترسانة من الأحكام الشرعية الهادفة لنشر

كلّ ضرر يلحق به حفاظاً على حقّه واحتراماً لخصوصياته في المسكن^(١٢٩)، ونفس الحكم طال الضرر على البنيان فقد منع كلّ ضرر لسكنى الجار باعتبار المسكن حرمة خاصة فلا يحقّ للجار التصرف في البناء المحاذي والملاصق له إلا بموافقة جاره تفادياً لمسألة الضرر ولو كان الامر فيه مصلحة للآخر، وذلك حفاظاً على روح الجماعة وخلقاً للتماسك الاجتماعي بين الجيران^(١٣٠).

وحرصاً من اللونشريسي على خصوصيات الأفراد وكلّ ما تعلّق بصون العرض والشرف وستر العورات ينوّه بضرورة بمنع كل سلوك يهتك بأعراض الناس سواء من الناحية البصرية أو السمعية سعيّاً منه لإصلاح بعض السلوكات المنتشرة بالمنطقة والمتعدية على حرمة الحياة الخاصة، لذا شددّ في رفض هذا السلوك ولو كان الأمر يتعلّق برفع إقامة الأذان ببعض المناطق التي يستل بها النظر على عورات الجيران^(١٣١).

وفي المجال العائلي ورغبة منه في القضاء على العنف الأسري عمد اللونشريسي على إثبات الحق للمرأة مع احترام حياتها الخاصة، فمنع اجبار الفتاة على الزواج خاصة إذا كانت بكرّاً، رفقا بحالها واحتراماً لاختيارها الشخصي لشريك حياتها لكونه سلوك منافي للشرع والعرف والعادة، لذا حكم بإرجاع الفتاة وفضّ النكاح في حالة التعسف^(١٣٢)، وحفاظاً على حرمة المرأة بداخل بيت زوجها منع اللونشريسي كل إساءة لفظية أو جسدية لها ما عدا ما صرّح بها الشرع من ضرب خفيف يراد به التأديب دون العقاب الشديد الذي وصل أحياناً لحدّ القتل المتعمد حفاظاً منه على الرابطة الزوجية المقدسة ونشر المحبة والألفة بين الاطراف^(١٣٣)، وفي مواضع أخرى يحاول اللونشريسي إيجاد بعض الأحكام الشرعية للحفاظ على حق الطفل في الرعاية الأسرية نتيجة تعرض حقوقه للانتهاك من طرف أحد الاولياء بعد فك الرابطة الزوجية، وهنا يشددّ أبو العباس على ضرورة عناية الطفل وصون حرمة الخاصة من الناحية التربوية والنفسية ومنع كلّ ضرر يلحق به سواء من أسرته أو معلميه^(١٣٤).

وتفعيلاً للقواعد الشرعية التي تعمل على إيجاد مجتمع مسلم متماسك خالي من كلّ أنواع العنف اللفظي

على نضجه العقلي واكتمال شخصيته السوية. كما كان له حديث عن هتك الأعراض من خلال انتشار السب والشتم داخل الأسر والمجتمعات فضلاً عن الإساءة لله ورسوله، ناهيك عن سلب الحقوق والاعتداء على الممتلكات الخاصة والعامة باعتبارها من الحرمات من طرف السلطة والعامة خاصة انتشار ظاهرة اللصوصية. وظّف الونشريسي العديد من الضمانات لإثبات حرمة الحياة الخاصة والتي اكتست في عمومها طابعاً شرعياً محضاً، حيث يعد القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع وما كان عليه العلماء والفقهاء والمفتين من تدخلات على مذهب مالك مع توظيف للقياس والاستصلاح وجميع القواعد الفقهية أهم الوسائل والوسائط التي استخدمها أبو العباس في هذا الباب، فكانت استدلالاته الشرعية ميسرة شاملة لمذهب مالك وغيره من المذاهب في سبيل إثبات الحق ودحض الباطل وتجسيد حرمة الحياة الخاصة على أرض الواقع. حمل الونشريسي مشروعاً اصلاحياً دينياً واجتماعياً وإن كان في عمومه ذو طابع نظري شرعي محض فجاءت أحكامه مطابعه للشرع منادية بضرورة اصلاح ما تلتئم من أمر الأمة وحالها، لذا يعد كتاب المعيار موسوعة فقهية شاملة أبانت عن ترسانة من الأحكام الشرعية الهادفة لنشر ثقافة التسامح والأمن والاستقرار والقضاء على الفساد بكل أنواعه، ما يجعل أبو العباس يصنّف في خانة المسلمين المصلحين الدعاة لتماسك المنظومة الدينية والاجتماعية للمغرب الإسلامي بشكل عام والمغرب الأوسط بشكل خاص.

ثقافة التسامح والأمن والاستقرار والقضاء على الفساد بكل أنواعه، ولعلّ هذا الأمر هو ما يجعل أبو العباس يصنّف في خانة المسلمين المصلحين الدعاة لتماسك المنظومة الدينية والاجتماعية للمغرب الإسلامي بشكل عام والمغرب الأوسط بشكل خاص.

خاتمة

وفي ختام هذا العمل يمكن الخروج بالنتائج التالية: تبين لنا أنّ حرمة الحياة الخاصة هي حق مكفول بالشرع، يجبر به الشخص على احترام خصوصيات الأفراد المادية والمعنوية وكلّ ما تعلّق بحرياته الشخصية وأعراضه وحرماته وفق ما تقتضيه المصلحة العامة امتثالاً للأوامر والنواهي الإلهية والقوانين الوضعية، لذا كانت محلّ عناية من طرف الفقهاء والعلماء لتطابقها مع الشريعة الإسلامية.

إنّ ما بلغه الونشريسي من مكانة علمية مردّها لحبه وشغفه بالعلم والمعرفة، فكان جوّالاً مُنتفعاً من شتى ضروب الكتب الفقهية خاصة المالكية ما جعله يبدع في هذا الباب تأصيلاً وتقليداً حتى أضحى وحيد زمانه وفريد عصره، فله كانت الريادة والرئاسة في التدريس والتوليف والفتوى والكتابة، فالرجل موسوعي بامتياز وإن اقتصر على مذهب مالك إلاّ أنّه وجوده يعد مرحلة تاريخية حاسمة في تطور المذهب المالكي ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (٩-١٠هـ/١٥-١٦م).

حوت نوازل الونشريسي على العديد من المظاهر الدالة على الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة خاصة فيما تعلّق بحرمة المسكن والجوار وعدم التجسس على الحرمات وأعراض الجيران، لذا منع الضرر البصري والسمعي والصحي للجار. كما تعرّض للممارسات العنيفة التي تقع داخل الوسط الأسري، فخصّ المرأة بالعديد من المسائل التي أشارت لسلب حقّها الإنساني والشرعي وتعرّضها للعنف اللفظي والجسدي والتشهير بحياتها الخاصة وعورات وأسرار البيوت، ونفس الحال تعرّض لها الأطفال من إساءة وتحطيم للنفوس وسلب للحقوق ما يجعله المتضرر الأكبر وهو ما ينعكس سلباً

الهوامش والإحالات:

التلمساني (ت. ١٠٢٠هـ/١٦١١م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعلبية، الجزائر، ١٣٦٦هـ/١٩٠٨، ص: ٥٤؛ ابن عسكر، محمد بن علي الشفشواوي (ت. ٩٨٦هـ/١٥٧٨م)، دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ط٢، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص: ٤٧.

(١٥) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م)، المغيار الموعب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٣، ص: ٣٤٩؛ محمد بن جعفر الكتاني (ت ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م)، سلوة الأنفاس ومبادئ الأكياس بمن قبر من العلماء والصلحاء بفاس، ط١، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار الثقافة، الرباط، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٢، ص: ١٧١.

(١٦) التنبكتي، المصدر السابق، ص: ١٣٥.

(١٧) ومن شيوخه بمدينة تلمسان نذكر: أسرة العقبايين من أمثال أبو الفضل قاسم بن سعيد العقبايني (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقبايني (ت ٨٧١هـ/١٤٦٦م)، كما أخذ عن ابن مرزوق الكفيف (ت ٩٠١هـ/١٤٩٦م)، أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري المنأوي التلمساني (ت ٨٩٩هـ/١٤٩٣م) وغيرهم. ينظر: الونشريسي، المصدر السابق، ج١، ص: ج؛ التنبكتي، المصدر السابق، ص: ١٢٩، ١٣٥؛ المقرئ، المصدر السابق، ج٥، ص: ٤٢.

(١٨) الونشريسي، المصدر السابق، ج١، ص: ج؛ التنبكتي، المصدر السابق، ص: ١٣٥؛ محمد بن جعفر الكتاني، المرجع السابق، ج٢، ص: ١٧٢.

(١٩) من تلامذته نذكر منهم: أبا عبد الله محمد بن محمد الغريديس التغلبي (ت ٨٩٧هـ/١٤٩١م)، أبو عبيد بن فليح اللمطي (ت ٩٣٦هـ/١٥٢٩م)، أبو زكرياء السوسني (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م)، إبراهيم بن عبد الجبار الفجيحي الورد غيري (ت. ٩٠٩هـ/١٤٤٩م) وغيرهم. ينظر: التنبكتي، المصدر السابق، ص: ١٣٥؛ أحمد المنجور (ت ٩٥٥هـ/١٥٤٧م)، فهرسه، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص: ٥٢-٥٠.

(٢٠) ومنهم: أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى المشهور بابن زروق (ت ٨٩٩هـ/١٤٩٣م)، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله اليفرنى المكناسي القاضي (ت ٩١٧هـ/١٥١١م) وغيرهم. ينظر: الونشريسي، المصدر السابق، ج١، ص: ب-ج؛ التنبكتي، المصدر السابق، ص: ١٣٠، ١٣١، ٥٨١؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص: ٤٥.

(٢١) ينظر ترجمته: التنبكتي، المصدر السابق، ص: ٥٨٢.

(٢٢) الونشريسي، المصدر السابق، ج٣، ص: ٣٧١-٣٧٢.

(٢٣) أحمد منجور، المصدر السابق، ص: ٥٠.

(٢٤) نفسه، ص: ٥٣.

(٢٥) لمعرفة المزيد عن مؤلفاته العلمية. ينظر: الونشريسي، المصدر السابق، ج١، ص: د - ٢١١، ج٢، ص: ١١٩-١٣٦، ج٤، ص: ٤٢٦، ج٦، ص: ٥٧٤-٦٠٦، ٦٠٦-٥٤١، ج٨، ص: ٣٤٣؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص: ٢٧١؛ المقرئ، المصدر السابق، ج٥، ص: ٣٤؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج١، ص: ٣٥٢؛ محمد أمين بوحلوفة، أهل الذمة في المغرب الأوسط من خلال نوازل الونشريسي، ٩١٤هـ/١٥٠٨م، رسالة

(١) الحق: جاء في معاجم اللغة أنّ لفظ الحق مرتبط بالفعل حق، والحق نقض للباطل وجمعه حقوق وحقاق، وحق الأمر أي أصبح حقاً فصار ثابتاً ومعناه وجب وجوباً. ينظر: ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل (ت. ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، المجلد ٢، ج١، ص: ٩٣٩-٩٤٠.

(٢) القرافي، أبو العباس شهاب الدين (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، أنوار البروق في أنواع الفروق، عالم الكتب، د.ت، ج١، ص: ١٤٠.

(٣) الخصوصية: لفظ مشتق من الفعل خصص ومعناه إفراد الشيء لشخص دون غيره. ينظر: ابن منظور، المصدر السابق، المجلد ٢، ج٤، ص: ١١٧٣.

(٤) حسنى الجندي، ضمانات حرمة الحياة الخاصة في الإسلام، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٣١هـ/١٩٩٣م، ص: ٣٥-٣٦.

(٥) الشيخ علي الخفيف، الحق والذمة وتأثير الموت فيهما، ط١، تقديم علي جمعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص: ٥٧-٥٨.

(٦) مصطفى أحمد الزرقا، المدخل إلى نظرية الالتزام العامة في الفقه الإسلامي، دار القلم، دمشق، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص: ١٩.

(٧) حسنى الجندي، المرجع السابق، ص: ٤٦.

(٨) للاطلاع على معاني هذه الحقوق بالقرآن الكريم. ينظر: سورة النور، الآية: ٢٧-٢٨؛ سورة الحجرات، الآية: ١٢؛ سورة الإسراء، الآية: ٣٦؛ وللمزيد من الاطلاع ينظر: محمد راكان الدغمي، حماية الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٧٥م، ص: ١٤٣-١٤٤.

(٩) البخاري، أبو عبد الله محمد (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، ط١، المطبعة الخيرية، ١٣١٩هـ/١٩٠١م، ج١٢، ص: ٣-٢؛ مسلم أبو حسين، بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م)، صحيح المسلم المسمى المسند الصحيح المختصر من السنة، ط١، تحقيق عبد الباقي، مطبعة البابلي الحلبي، مصر، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ج٣، ص: ١٦٩٨.

(١٠) فضيلة عقلي، ضمانات الحق في حرمة الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية- دراسة مقارنة بالديانات السماوية-، مجلة الصراط، العدد ٢٧، السنة ١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص: ١٤-١٤٢.

(١١) كايد كرعوش وآخرون، الأخلاق في الإسلام، ط٢، دار المناهج للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص: ٥٦.

(١٢) ابن خلدون، عبد الرحمن (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون، ضبطه خليل شحادة وراجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص: ٢٨٠-٢٨١.

(١٣) محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، دم، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص: ٢١-٢٢.

(١٤) التنبكتي أحمد بابا (ت. ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط١، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص: ١٣٥؛ المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج٥، ص: ٣٤؛ عبد الحى بن عبد الكبير الكتاني (ت ١٣٠٢هـ/١٩٦٢م)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، ط٢، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ج١، ص: ١١٢٢-١١٢٣؛ ابن مريم

- (٥١) محمد راكان الدغمي، المرجع السابق، ص: ٥٣-٥٦.
- (٥٢) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ١، ص: ١٢٥.
- (٥٣) نفسه، ج. ٣، ص: ١٣٦، ج. ٥، ص: ١٨٠.
- (٥٤) نفسه، ج. ٣، ص: ١٣٠-١٣١.
- (٥٥) نفسه، ج. ٤، ص: ١٠٥-١٠٦.
- (٥٦) نفسه، ج. ٢، ص: ٢٨٩-٢٩٠، ج. ٣، ص: ٥٨، ج. ٤، ص: ٣١١-٣١٢، ج. ٨، ص: ٧٢، ج. ١، ص: ٢٣.
- (٥٧) نفسه، ج. ٥، ص: ١٨٠.
- (٥٨) نفسه، ج. ٢، ص: ٢١٤، ج. ٣، ص: ١٠٤، ج. ٤، ص: ٢٣، ١٧.
- (٥٩) نفسه، ج. ٢، ص: ٢٦٨-٢٦٩، ج. ٨، ص: ٢٥٦-٢٥٧.
- (٦٠) محمد راكان الدغمي، المرجع السابق، ص: ٩٣-٩٤.
- (٦١) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٢، ص: ٣٥٣.
- (٦٢) نفسه، ص: ٣٥٣-٣٥٤، ٣٦٣.
- (٦٣) نفسه، ص: ٣٦٣-٣٦٧.
- (٦٤) نفسه، ص: ٣٧٢-٣٧٣.
- (٦٥) نفسه، ج. ٤، ص: ١٠٥-١٠٦.
- (٦٦) نفسه، ج. ٢، ص: ٢٨٩-٢٩٠، ج. ٤، ص: ٣١١-٣١٢.
- (٦٧) نفسه، ج. ٢، ص: ٣٩٩.
- (٦٨) نفسه، ج. ٨، ص: ٧٢، ج. ١، ص: ٤٠٨.
- (٦٩) نفسه، ج. ٢، ص: ٤٠٢.
- (٧٠) نفسه، ج. ٩، ص: ٥٤٢.
- (٧١) نفسه، ج. ٦، ص: ٦٨.
- (٧٢) نفسه، ص: ٨٨، ج. ٦، ص: ١٨٨.
- (٧٣) نفسه، ج. ٦، ص: ١٨٨، ١٩١، ج. ١، ص: ٤٢٢.
- (٧٤) نفسه، ج. ٦، ص: ١٧٤.
- (٧٥) نفسه، ج. ٨، ص: ٣٠٢.
- (٧٦) محمد راكان الدغمي، المرجع السابق، ص: ٧.
- (٧٧) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٩، ص: ٥٤٧.
- (٧٨) محمد أمين قادري، **منهج التأليف في نوازل الونشريسي**، مجلة الاستيعاب، العدد ٤٤١، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م، ص: ٨٤-٨٨، فاطمة الزهراء وغلانت، **جهود الونشريسي في تدوين النوازل الفقهية**، مجلة الدراسات الفقهية والقضائية، العدد ٢٠٠، المجلد ٢٠٠، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٩م، ص: ١٣٠-١٩٠.
- (٧٩) إبراهيم بوهنتال، **اعتبار المقاصد الشرعية في فروع المالكية من خلال كتاب المعيار للونشريسي**، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإسلامية، جامعة باتنة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص: ٢٢٢-٢٢٤.
- (٨٠) ابن عسكر، المصدر السابق، ص: ٤٧-٤٨.
- (٨١) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٢، ص: ٢٨٩-٢٩٠.
- (٨٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.
- (٨٣) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٣، ص: ١٠٠.
- (٨٤) سورة النساء، الآية: ٣٤.
- (٨٥) سورة الشورى، الآية: ٤٢.
- (٨٦) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ١، ص: ٤٠٨.
- (٨٧) نفسه، ج. ٢، ص: ٤٣٣.
- (٨٨) نفسه، ص: ٢٦٨.
- (٨٩) نفسه، ص: ٣٦٥.
- (٩٠) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٨، ص: ٤٨٣.
- ماجستير، إشراف بوركية محمد، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ١٤٣٤-١٤٣٥هـ/ ٢٠١٣-٢٠١٤م، ص: ٥٠-٥١، محمد بن مطلق الرميح، **النوازل الفقهية المالية من خلال كتاب المعيار المعرب للإمام الونشريسي**، رسالة ماجستير، إشراف ستر بن ثواب الجعيد، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص: ١٦٥.
- (٢٦) يُنظر ترجمته: التنبكيتي، المصدر السابق، ص: ١٣٥، ابن القاضي أحمد المكناسي (ت. ١٢٠٥هـ/ ١٦١٦م)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج. ١، ص: ٢٤٤.
- (٢٧) المقرئ، المصدر السابق، ج. ٧، ص: ٤٠٦، التنبكيتي، المصدر السابق، ص: ١٣٥، أحمد منجور، المصدر السابق، ص: ٥١، محمد بن جعفر الكتاني، المرجع السابق، ج. ٢، ص: ١١٢٣.
- (٢٨) فضيلة عقلي، المرجع السابق، ص: ١٣٨-١٤٠، ١٤٤-١٤٥.
- (٢٩) محمد إبراهيم سرحان، **حماية الحق في حرمة الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية**، المجلة العلمية للبحوث الإدارية والمحاسبية والاقتصادية والقانونية، العدد ١٠٠، السنة ١٠٠، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م، ص: ٥٣.
- (٣٠) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٨، ص: ٤٤٤.
- (٣١) نفسه، ج. ٨، ص: ٤٥٩، ابن الرامي، محمد بن إبراهيم (ت. بعد ٧٣٣هـ/ ١٣٣٤م)، **الإعلان بأحكام البنين**، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص: ٦٩-٧١، ٧٧-٧٨، ١٥٠.
- (٣٢) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٨، ص: ٤٦٣، ابن الرامي، المصدر السابق، ص: ٨٢-٨٤.
- (٣٣) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٨، ص: ٤٨٣، ابن الرامي، المصدر السابق، ص: ٧٩.
- (٣٤) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٩، ص: ٩٠.
- (٣٥) نفسه، ج. ٩، ص: ٢٧.
- (٣٦) نفسه، ص: ٣٧.
- (٣٧) نفسه، ج. ٨، ص: ٤٤٥.
- (٣٨) نفسه.
- (٣٩) أحمد محمد سعيد السعدي، **أحكام العمران في الفقه الإسلامي**، ط. ١، دار الرواد للنشر، دمشق، سوريا، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص: ٣٢١-٣٢٢.
- (٤٠) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٨، ص: ٤٦٤، ابن الرامي، المصدر السابق، ص: ٥٣.
- (٤١) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٦، ص: ١٦٧.
- (٤٢) نفسه، ج. ٨، ص: ٤٥٣.
- (٤٣) نفسه، ص: ٤٧.
- (٤٤) نفسه، ج. ٩، ص: ٢٨.
- (٤٥) نفسه، ص: ٤٠.
- (٤٦) نفسه، ص: ٤٨.
- (٤٧) نفسه، ص: ٤٧، ابن الرامي، المصدر السابق، ص: ٤٨-٤٩.
- (٤٨) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٨، ص: ٤٦٤.
- (٤٩) نفسه، ج. ٩، ص: ٤٠٣، ابن الرامي، المصدر السابق، ص: ٢٣٣-٢٤٠.
- (٥٠) الونشريسي، المصدر السابق، ج. ٩، ص: ٣٠٠.

- (٩١) نفسه، ج٣، ص: ١٣٦.
- (٩٢) نفسه، ج٢، ص: ٤٣٢.
- (٩٣) نفسه، ص: ٢٦٧؛ ج٨، ص: ٤٤٤.
- (٩٤) نفسه، ج٢، ص: ٤٠٢.
- (٩٥) نفسه، ص: ٣٦٦.
- (٩٦) نفسه، ص: ٣٧٠.
- (٩٧) نفسه، ج٩، ص: ٣٧.
- (٩٨) نفسه، ج٨، ص: ٢٥١.
- (٩٩) نفسه، ج٢، ص: ٣٧١.
- (١٠٠) نفسه، ص: ٣٦٣-٣٦٤.
- (١٠١) الونشريسي، المصدر السابق، ج٢، ص: ٤٠٢.
- (١٠٢) نفسه، ج٥، ص: ٦٨-٧٢.
- (١٠٣) نفسه، ج٣، ص: ٥٨.
- (١٠٤) نفسه، ج٨، ص: ٤٦٥.
- (١٠٥) نفسه، ج٢، ص: ٣١٤.
- (١٠٦) نفسه، ج٨، ص: ٤٥٨.
- (١٠٧) نفسه، ج٢، ص: ٣٧٢.
- (١٠٨) نفسه، ج٨، ص: ٤٨٧.
- (١٠٩) نفسه، ص: ٤٥٤.
- (١١٠) محمود علي عبد الحليم، **فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم**، ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص: ١٥.
- (١١١) محمود جمال الدين محمد، **أصول المجتمع الإسلامي**، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص: ١٩٣.
- (١١٢) محمد عبد الله دراز، **الدين**، دار القلم، الكويت، د.ت، ص: ٣١.
- (١١٣) مبارك الملي، **تاريخ الجزائر القديم والحديث**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص: ٤٦٢.
- (١١٤) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب للنشر، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص: ٩٥-٩٦، ١٢٢.
- (١١٥) محمد أمين بوحلوفة، المرجع السابق، ص: ٧٠.
- (١١٦) الونشريسي، المصدر السابق، ج٨، ص: ٤٤٥؛ ج٩، ص: ٥٠، ٢٧، ٣٧.
- (١١٧) نفسه، ج٨، ص: ٤٥٤، ٤٦٤؛ ج٩، ص: ٣-٤، ٦٧، ١٨.
- (١١٨) نفسه، ج٨، ص: ٤٤٤، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٨٣.
- (١١٩) نفسه، ج٣، ص: ١٣٦.
- (١٢٠) نفسه، ج٢، ص: ٢٨٩؛ ج٤، ص: ١٠٦؛ ج٨، ص: ٧٨.
- (١٢١) نفسه، ج٢، ص: ٣١٤، ٢٦٧-٢٦٨؛ ج٣، ص: ١٠٤؛ ج٤، ص: ٢٣، ٥١٧؛ ج٨، ص: ٢٥٦-٢٥٠.
- (١٢٢) نفسه، ج٢، ص: ٣٥٣.
- (١٢٣) نفسه، ص: ٣٥٣-٣٥٤، ٣٦٣.
- (١٢٤) نفسه، ص: ٣٧٠-٣٧٢.
- (١٢٥) محمد راكان الدغمي، المرجع السابق، ص: ١٠٧.
- (١٢٦) الونشريسي، المصدر السابق، ج٢، ص: ٣٩٩.
- (١٢٧) نفسه، ص: ٨٨؛ ج٦، ص: ١٨٨.
- (١٢٨) نفسه، ج٦، ص: ١٨٨، ١٩١؛ ج١، ص: ٤٢٢.

المرأة الأرثوذكسية في عصر الإصلاحات العثمانية

مدينة طرابلس كنموذج

إبراهيم دربلي

ماجستير من جامعة البلمند
باحث دكتوراه في جامعة القديس يوسف
بيروت – الجمهورية اللبنانية



ملخص

يتناول هذا البحث واقع المرأة الأرثوذكسية في مدينة طرابلس خلال حقبة الإصلاحات العثمانية، مركزاً على دورها الاجتماعي والتربوي والديني بين البلدة المملوكية ومنطقة الميناء. تستند الدراسة إلى مجموعة من المصادر الأصلية، أبرزها وثائق المطرانية الأرثوذكسية، مذكرات نسائية، كراسات الجمعيات الخيرية، وسلسلة صحفية كـ"طرابلس شام" و"الحوادث". يركز البحث على نشأة تعليم الفتيات الأرثوذكسيات في ظل منافسة المدارس التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية، وتأثير الدعم الروسي عبر "المدارس الموسكوبية"، إلى جانب المبادرات المحلية. كما يتناول الفروق الطبقية في التحصيل العلمي، ومحدودية التعليم الحكومي للفتيات نتيجة الأوضاع الاقتصادية والسياسات التربوية العثمانية. تظهر الوثائق مشاركة محدودة للنساء في الحياة الاقتصادية، من خلال ملكيات عقارية أو تعاملات قانونية في المحاكم الشرعية، في مقابل بروز نساء متعلّمات ومثقفات دخلن الساحة الأدبية والصحفية، مثل فريدة عطية ولبيبة صوّايا. وتخلص الدراسة إلى أن تعليم المرأة الأرثوذكسية وتحررها في طرابلس ارتبطا بشكل وثيق بالحراك العثماني والإقليمي، لكنه ظلّ محكوماً بمنظومة تقليدية ترى في المرأة مربية ووعونة للأسرة، لا فاعلة مستقلة في الحيز العام.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣٠ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ أغسطس ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

طرابلس؛ التعليم النسائي؛ مدارس الإرساليات؛ المرأة الأرثوذكسية؛ الإصلاحات العثمانية



10.21608/kan.2025.409185.1257

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إبراهيم دربلي، "المرأة الأرثوذكسية في عصر الإصلاحات العثمانية: مدينة طرابلس كنموذج". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون، ديسمبر ٢٠٢٥. ص ١١٥ - ١٣٤.

X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodicalCorresponding author: ibrahimdourbaly@gmail.comEditor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.comEgyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع الإبداعي 4.0 (CC BY-NC-ND 4.0) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), التي تسمح باستخدام، والتوزيع، وإعادة إنتاج في أي وسيط، شريطة أن تُعطي الائحة للمؤلف(ين) الأصليين، وتوفر رابطاً إلى رخصة المشاع الإبداعي، وتحدد إذا كانت هناك تغييرات. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

طرابلس هي من المدن الشَّامِيَّة السَّاحلية التي هدمها المماليك قديماً وأعادوا بناءها على بعد ٢ كلم من البحر، ليحموها من هجمات الفرنج. ومع الأيام عُرِفَت تلك البقعة وتفرَّعاتها باسم البلدة، فيما عرفت تلك المحلَّة التي قامت على شاطئ البحر باسم الأسكلة، والتي فصلتها عن البلدة بساتين الليمون. وستشكِّل طرابلس البلدة وأسكلتها محور هذا البحث.

على أنَّ الباحث في تاريخ طرابلس عموماً، ستواجه تحديات عديدة، مثل المصادر المبعثرة بين المعابد والمنازل، فما بالك في الباحث في تاريخ المرأة الأرثوذكسية الطرابلسية زمن الوجود العثماني، إذ يضاف إلى تلك الصعوبات، تحدِّي صمت تلك المرأة التي شهدت مرور الحياة العامَّة أمام ناظرها من وراء المشريَّات، حيث اعتادت نسج حياتها في عالمها الداخلي- عالم المنزل حيث كانت تتزيَّن، تربي وتجتهد لاختيار عروس لابنها: كانت حاضرة في منزلها، كما كانت محتجبة عن عالم الذكور- العالم الخارجي، حيث العمل والإنتاج وحيث يتزيَّن الرجال (كيَّال مهى ١٩٩٥: ٢٨١).

ولذلك اعتمدنا في هذا البحث على العديد من المصادر والوثائق، ومنها:

وثائق آل قمر: هي الوثائق الموجودة في منزل الأنسة لينا قمر، وهي عبارة عن مجموعة من الحجج، ومن المخطوطات الدينية التي كُتبت على عدَّة مراحل من القرن التاسع عشر.

وثائق آل حيدر: هي الوثائق الموجودة في منزل السيِّد نديم حيدر، ومنها مذكرات السيِّدة كاترين حدَّاد التي خُطَّت فيها بعض مجريات عائلتها والتي كتبها في أواخر القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠.

وثائق مطرانية طرابلس: هي صور مدرجة في "ميكرو فيلم" لبعض وثائق مطرانية طرابلس والكورة وتوابعهما للروم الأرثوذكس، وقد قامت الجامعة الأميركية في بيروت بتصويرها عام ١٩٧٠. أمَّا الوثائق الأصليَّة، فقد احترقت مع احتراق دار المطرانية خلال الحرب الأهلية في العام ١٩٨٣. وتحتوي الوثائق على

محاضر بعض الجمعيات الكنسية، مثل الجمعية الخيرية التي أدارت الأوقاف، وسهرت على التعليم والعمل الاجتماعي وترميم العقارات.

جريدة طرابلس شام: أصدرها محمد كامل البحيري في العام ١٨٩٣، وطرحت مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والأدبية، وركّزت على تثبيت القيم الإسلامية. وبالإجمال، صدرت الجريدة مرَّة في الأسبوع، وأحياناً مرَّتين، وقد وصلنا منها ٩١ عدداً من مرحلة ما قبل الحرب الكبرى: وتبدأ الأعداد المتسلسلة التي بين أيدينا من العدد ٣ الذي صدر في ٢٧ آذار ١٨٩٣، وتنتهي مع العدد ٩٣ الذي صدر في ٧ كانون الأوَّل ١٨٩٤. كما وصل ليدنا ثلاث أعداد متفرقة: العدد ٧٤٥، ٥ آب ١٩٠٨. العدد ٨٧٣، ١٣ نيسان ١٩١٠. العدد ١٠٤٧، ٢٧ كانون الأوَّل ١٩١١.

جريدة الحوادث: التي أصدرها لطف الله خلاط في العام ١٩١١، وطرحت مختلف القضايا السياسية والاجتماعية، وركّزت على حقوق غير المسيحيين في الدولة العثمانية. صدرت الجريدة مرَّتين في الأسبوع، ووصلنا منها من مرحلة ما قبل الحرب الكبرى ١٩٤ عدداً، وتبدأ الأعداد التي بين أيدينا من العدد ٢ الذي صدر في ١١ كانون الأوَّل ١٩١١، وتنتهي مع العدد ١٩٦ الذي صدر في ٥ كانون الأوَّل ١٩١٣.

جريدة الأجيال: أصدرها توفيق اليازجي سنة ١٩١٠، وطرحت القضايا الاجتماعية القانونية والانتقادية. صدرت الجريدة مرَّة في الأسبوع. وصلنا منها عددان: العدد (١)، ٢٦ أيلول ١٩١٠ (أوَّل صفحتان) والعدد ٤، ٢٤ تشرين الأوَّل ١٩١٠.

جريدة شمس الاتحاد: أصدرها عبد الرحمن عز الدين في العام ١٩١٠، وطرحت مختلف القضايا السياسية والاجتماعية وركّزت على دعم الاتحاديين. ومن خلال العدد الوحيد الذي وصلنا، نرى الجريدة وهي تعرض على صفحتها الأولى مقالة بحثية طويلة، وتناولت في الصفحات الأخرى أخباراً محلية.

كراسات الجمعيات الأرثوذكسية: اهتمَّت الكراسات بعرض الحركة المالية للجمعيات المختلفة، وتكوَّنت من مقدمة، أسماء الجمعية، القطع العام للميزانية وتفاصيل المداخل والمصاريف النقدية والعينية. وتشكَّلت

الفتاة المتعلّمة، وطبعاً سيشتدّ زخم النقاش مع نشاط تركياً الفتاة فنّادى أفرادها بخروج المرأة من حياتها التقليدية، والسعي لنيل حريّتها (Şimga, Hülya. 2009: 200).

وقد استفادت المرأة من ذلك الجوّ الإصلاحيّ، فدخلت في ذلك النقاش من خلال كتابات فاطمة أليّة (١٨٦٢-١٩٣٦) وجوزيد صبري (١٨٨٦-١٩٤٦) (Başbuğu-Yarman, Ayşegül. 1996 : 19- 20)، وجريدة Şükûfezâ التي تأسّست عام ١٨٨٦، وكانت أوّل صحيفة عثمانية أدراتها امرأة، ولم تكتب فيها سوى النساء (Şimga, Hülya. 2019: 201).

وكان من نتائج إعلان دستور ١٩٠٨، أن قامت نساء عثمانيات بخلع الحجاب المفروض عليهنّ والنقاب الذي أخفى وجوههنّ. وقد ترافقت تلك الحركة الاجتماعية مع حضور المرأة في حقل العمل، فمن مجموع ٢٥٠,٠٠٠ عامل وُجدت بينهم من ٧٠,٠٠٠ إلى ٧٥,٠٠٠ امرأة، وقد عملن في التجارة والتعليم وكممرّضات وعاملات في الأشغال العامة وكمصفّفات شعر-Başbuğu-Yarman, Ayşegül. 1996: 24- 27).

وعلى غرار ذلك الحراك التركي، ساهم المفكرون العرب الذكور، مع قلة من النساء، في نشوء حركة تحرر المرأة العربية في ظل حركة النهضة العربية، ويمكن الإشارة إلى تأثير المناطق القريبة من طرابلس في تلك الحركة، مثل متصرفية جبل لبنان، وكذلك مدينة بيروت، حيث أصدر جرجي نقولا باز مجلة "الحسنا" الشهرية عام ١٩٠٩، وقد اختصت بالمرأة وشؤون المجتمع والأخلاق، كما صدرت مجلة "فتاة لبنان" لسليمي أبي راشد عام ١٩١٤، وكانت مجلة شهرية (Charafeddine, Fatmeh).

لكنّ التأثير المصريّ كان الأهم في وأد تلك الفكرة، إذ شكّلت مصر النموذج العربي للنهضة النسائية بسبب موقعها الثقافي والديني، وبطبيعة الحال كان لمصر تأثير شديد في مدينة طرابلس، لتحرك أبناء المدينة نحوها للعمل ولدراسة العلوم الدينية الإسلامية. ومن أولى الشخصيات المؤثرة في مصر نلحظ رفاة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣)، وكتابه "المرشد الأمين في تربية البنات

الكرّاسات التي وصلتتا من: كرّاسان من الجمعية الخيرية الارثوذكسية- طرابلس عن سنتي ١٨٨٢ و١٩٠٩. كرّاسان عن الأخوية الأرثوذكسية- طرابلس وتناولت ١٩٠١ و١٩١٤-١٩١٩. ثلاث كرّاسات عن الجمعية الخيرية الارثوذكسية- الأسكلة وتناولت السنوات ١٩٠٦، ١٩٠٨-١٩١٠ و١٩١٤-١٩١٤. أربعة كرّاسات من جمعية دفن الموتى الأرثوذكسية- الأسكلة عن سنوات ١٩٠٥، ١٩٠٦، ١٩٠٨ و١٩٠٩-١٩١٠. ثلاث كرّاسات من الجمعية السيدة الأرثوذكسية لعصد اليتامى- الأسكلة عن السنوات ١٩٠٦-١٩٠٨، ١٩٠٨-١٩٠٩.

وانطلاقاً من المصادر السابقة، سنطلّع على حال المرأة عامّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، زمن الإصلاحات العثمانية، ونركّز على أحوال المرأة الأرثوذكسية في المرحلة التي طُلب فيها من المرأة، إضافة إلى أدوارها السابقة، الخروج من بيتها لتدخل عالم الحضارة الغربية كما وصل إلى طرابلس.

أولاً: حركة تحرير المرأة العثمانية والعربية

طُرحت إشكالية تحرر المرأة في الدولة العثمانية، في ظلّ الإصلاحات العثمانية، في العاصمة وبين الأتراك من قبل العديد من المفكرين الرجال كشمس الدين سامي الألباني (١٨٥٠-١٩٠٤)، الذي وصف واجبات النساء التقليدية بالعمل المقدّس، لكونها تسهم في التمدّن وفي سعادة المجتمع، ونبّه لكون النساء سيقمن بتلك الواجبات إن امتلكن حقوقهنّ، وأشار لكون الوضع المتدنّي للمرأة في المجتمع الإسلامي، لا يرجع للدين نفسه، وإنّما لممارسات بعيدة عن روح الإسلام، وهو ما عاد وأكّده ضياء غوك الب (١٨٧٥-١٩٢٤)، الذي بيّن تأثير الحضارتين الفارسية واليونانية بتحويل النساء إلى مستعبدات، وإلى انحذارهنّ إلى قعر النظام القضائي (Başbuğu-Yarman, Ayşegül. 1996: 18-19). وسيستكمل هذا النقاش في بداية القرن العشرين، بين فريق محافظ تبنيّ التعليم الديني التقليدي، وفريق ثانٍ رغب بعصرنة الإسلام من خلال التأويل الواسع للنصوص الدينية (Ülken, Hilmi 1960: 149- 150)، مشجّعين الرجال على الزواج من

والبنين" الذي نشر عام ١٨٧٢، وفيه كانت الإشارة الأولى لتعليم الفتيات. ومع تعدد الشخصيات المساهمة في هذا المجال، يمكن اعتبار قاسم أمين (١٨٦٣-١٩٠٨)، بالوجه الأشهر في تلك الحركة الإصلاحية من خلال كتابه تحرير المرأة (١٨٩٩) والمرأة الجديدة (١٩٠٠)، فنجد يطالب بتغيير الوضع التقليدي للمرأة في المجتمع، وينادي بتخفيف الحجاب ويناقش في موضوع الفصل بين الجنسين في الأماكن العامة، راداً وضع المرأة التقليدي لعاملي التفسير الخاطئ للنصوص الدينية ولطبيعة المجتمع (Monqid, Safaa. 2016: 2-5).

وفي هذا السياق، أفردت الصحف المصرية صفحاتها للنساء ليعبرن عن أفكارهن بالمواضيع التي اختصت بهن ومنه: تعليم الفتيات والاختلاط وشروط الزواج والطلاق والدخول إلى الحياة العامة المصرية، وكان من أولئك الكاتبات مريم النحاس الأرثوذكسية الطرابلسية (١٨٥٦-١٨٨٨)، كما أسست بعض السيدات الجرائد والتي وصل عددها إلى الثلاثينات بين ١٨٩٢ و١٩٢٠، وكان من بين أوائل الصحف جريدة "الفتاة" التي تأسست عام ١٨٩٢ من قبل هند نوفل (١٨٦٠-١٩٢٠) وهي أيضاً أرثوذكسية من مدينة طرابلس (Ibid: 3-5).

وفي هذا الجو الإصلاحي والثقافي العثماني-المصري، سنراقب تفاعل مجتمع طرابلس مع ذلك التحرك المطالب بتعليم المرأة وإطلاقها من عالمها المنزل-الداخلي إلى عالم الرجال الخارجي، في عصر التحولات العثماني الذي ابتداء بقوة في منتصف القرن ١٩، وصولاً لبداية الحرب الكبرى سنة ١٩١٤.

ثانياً: مدارس الإرساليات

في مرحلة ما قبل الإصلاحات العثمانية، احتل التعليم الديني في طرابلس مكانة مميزة، فلقبت طرابلس بمدينة العلم والعلماء، واستند التعليم فيها على مفهوم التلمذة وعلى المدارس الدينية الخاصة بالذكور. وفي هذا السياق، لم يكن من المستغرب أن تتعلم الفتيات القراءة والكتابة داخل المنازل لدوافع دينية، كقراءة القرآن الكريم أو لأداء الصلوات الواردة في المخطوطات

لكن تعليم الفتيات لم يتجاوز هذا الإطار المحدود إذ واجه تحديات اجتماعية كبرى، فيشير الأب أنطوان بوسو اللعازاري (A. Pousseau)، الذي أسس عام ١٨٣٤ مدرسة للإناث في زغرتا - الواقعة شمال طرابلس - إلى أن تعميم تعليم الفتيات، بهدف إعدادهن للقيام بدور تبشيري وتعليمي، كان يستوجب تغييراً جذرياً في الذهنات السائدة آنذاك، إذ كان كثير من الرجال يستهزئون بفكرة تعليم الفتاة ويعدونه بلا فائدة، باعتبار أن العلوم كانت حكراً على الرجال (سليمان هلا ٢٠١٦: ٥٦-٥٧).

وكان علينا أن ننتظر العام ١٨٥٥، لنرى انطلاق تعليم الإرساليات في طرابلس من منطقة الأسكلة، حيث أسس الفرنسي سكان ديراً وكنيسة ومدرستين، واحدة للذكور وواحدة للإناث. وصل عدد التلميذات في السنة الأولى إلى أربعين، ليرتفع في العام ١٨٩٧ إلى سبعين طالبة شغلن ثلاث صفوف. وكانت أكثرية الطالبات من المسيحيات؛ الأغلبية من الموارنة، بالإضافة إلى بعض الأرثوذكس والكاثوليك. وكانت المعلمات من الموارنة ومن الكاثوليك، ودرسن اللغة العربية وبعض الإيطالية والحساب وبعضاً من التعليم المسيحي. (سليمان هلا ٢٠١٦: ٧٣).

وفي طرابلس- البلدة، أخذ التعليم منحى جديداً مع وصول أربع راهبات من راهبات المحبة إلى المدينة عام ١٨٦٩، حيث شرعن بتعليم عدد محدود من الطالبات. وفي خطوة لاحقة، اشترت الراهبات بستاناً يعود لرجل يدعى "حكير"، أقمن فيه ديراً بين عامي ١٨٧٠ و١٨٧١، ثم شيدن كنيسة في عام ١٨٧٢. ترأست الأخت راميل (Ramel) الدير والمدرسة في بداياتها، وتلتها الأخت كويتان (Cuitin) في عام ١٨٩٠، وبلغ عدد راهبات الدير حينذاك ٦٣ راهبة، تولين أعمالاً متعددة تمثلت في الإشراف على المستوصف، ورعاية الأيتام، وتشغيل معمل حل الحرير، إلى جانب إدارة مدرسة البنات. وفي هذه

والتاريخ وطبعاً اللغة الإنكليزية، ولم يتضمن المنهج الذي اتبعته المدرسة مادة التعليم الديني، والذي كان يعطى للمسيحيات نهار الأحد، ولعل هذا ما شجّع المسلمات على الدخول إلى تلك المدرسة. أمّا المعلّمت، فكان أغلبهن من المرسلات الأميركيات، ما عدا أولئك الفتيات اللواتي درّسن اللغة العربية، فكُنّ من الوطنيات ممن هيئن في المذهب الإنجيلي (المرجع نفسه: ٣٨٥-٣٩٣).

في نهاية القرن التاسع عشر، أدار المدرسة مدير من الولايات المتحدة الأميركية، وعملت فيها ٤ معلّمت ووطنيات وضمت ٩٥ تلميذة، بينهن ٤٥ اتبعن النظام الداخلي، فكُنّ يدفعن المال، في حين اتبعت الطالبات الـ ٥٠ الباقيات النظام الخارجي وكُنّ مَعْفِيَات من الدفع. وسنة ١٨٩٦، لاحظنا وجود مدرسة أخرى بروتستنتية للفتيات في الأسكلة، أدارتها معلّمة وطنية وضمت ٥٠ تلميذة اتبعن النظام الخارجي (Souharet 31 mars 1896: 311).

وبذلك نرى كيف عزّزت مدارس الإرساليات المجانية تعليم فتيات طرابلس اللواتي لم يحتجن للمبالغ لتأمين منامتهن، كحال فتيات المناطق البعيدة، ما سمح لهن بأخذ تعليم عالٍ تشرين من خلاله ثقافة غريبة عن إطار الدولة العثمانية، ولا بدّ من أن بعضهن قد اعتنقن مذهب تلك المدارس، كحال المعلّمت الوطنيات في المدرسة البروتستنتية.

ويستوقفنا في هذا المجال رغبة أهالي تلك المناطق البعيدة بتعليم بناتهن، مثل وادي النصاري، الذي يقع إلى شمالي عكار، إذ وثقوا بمدارس الإرساليات الغربية لتحضن بناتهن في قسمها الداخلي. وكان من اللافت نجاح راهبات المحبة بتقديم تعليم عالٍ للفتيات، فكُنّ السباقيات في تقديم تعليم قارب مستوى مدارس الفتيان الرشدية الحكومية التي عُرِفَت في طرابلس، وفاق مستوى مدارس الإرساليات الأخرى، التي قدّمت حتّى ذلك الوقت، تعليمًا ابتدائيًا. كما لفتنا تعلّم الفتيات الأرثوذكسيات والمسلمات في مدرسة البروتستنت، في زمن الاستعمار والخوف على الهوية من الذوبان، وهو ما سيكون مدخلًا لتفكّر كل من المسلمين والأرثوذكس في تدعيم وبناء مدارسهم الخاصة.

المدرسة، كانت راهبات يلقّن الطالبات الإنجيل وفقاً لترجمة العربية اليسوعية، وكانت المشاركة في القداس إلزامية، حتى بالنسبة "للهرطقة الأرثوذكس". أما المنهج الدراسي، فقد شمل تعليم اللغة الفرنسية كمادة أساسية، إلى جانب تعليم مبادئ اللغة العربية والحساب، كما درست الفتيات مادتي التاريخ والجغرافيا، بالإضافة إلى التدبير المنزلي والتطريز (سليمان ٢٠١٦: ٥٨-٦٥)، والحياسة في المشغل (Sienkiewicz 10 mars 1881: 320-313)، وبلغ عدد الطالبات ٥٥٠ سنة ١٨٩٦ (Souharet 31 mars 1896: 310).

وفي هذا السياق، ذكرت سلنامة ١٨٨٥، وجود ٥ مكاتب ابتدائية في البلدة لغير المسلمين: ٣ للذكور وضمت ١٧٥ طالباً، ٣ للإناث وضمت ١١٠ طالبة، ومكتب "عال" واحد للإناث ضمّ ٣٠٠ طالبة (سلنامة ١٣٠٢: ٢٣٧-٢٣٩). ومع أنّ التقرير لم يذكر اسم المكتب "العال"، فلا نشكّ بأنّه مدرسة راهبات المحبة بسبب العدد الكبير الذي ضمته تلك المدرسة، والذي لم نشهده في غيرها، والذي سيرتفع لاحقاً ليصل إلى ٥٥٠ سنة ١٨٩٦ كما رأينا سابقاً.

أمّا العمل التبشيري البروتستنتي، فبدأ بقوة في طرابلس عام ١٨٤١، وتطوّر لاحقاً ليشمل المجال التربوي، حيث استأجر البروتستنت بناءً افتتحت فيه مدرسة للإناث سنة ١٨٧٣. وفي موازاة ذلك، كانت تجري التحضيرات لبناء مدرسة جديدة، اكتمل إنشاؤها عام ١٨٧٦ في حيّ النوري، على مقربة من المدرسة التي أسّستها راهبات المحبة. وتألّف المبنى من ملعب وطابقين، خُصّص الطابق العلوي منه للطالبات الداخليات، وأُطلق عليها اسم "مدرسة طرابلس للبنات". تولت إدارة المدرسة الأنسة هاربيت لاغرأنج، التي شغلت هذا المنصب من عام ١٨٧٦ حتى عام ١٩١٩. وقد بدأت المدرسة بعدد قليل من الطالبات، ثم أخذ العدد يزداد تدريجياً مع مرور السنوات، وتم استقطاب الفتيات من مختلف البيئات، سواء من الأسر المسيحية أو الإسلامية، من مدينة طرابلس ومن قرى عكار ووادي النصاري (سليمان هلا ٢٠١٦: ٨٧-٩٠).

وقد تمتعت المدرسة بنظام داخلي، واقتصرت المنهج الدراسي على اللغة العربية وبعض العلوم والجغرافيا

ثالثاً: التعليم الإسلامي- الحكومي كحالة اجتماعية

ذكرت بعض المصادر انشاء مدرسة للبنات في الدولة العثمانية في العام ١٧٧٨، لكن عصر التنظيمات ساهم برقي تلك المدارس مع تأسيسه للمدارس الثانوية، وإنشائه دار المعلمين في العام ١٨٧٣ لتدريب المعلمات على تدريس الفتيات، كما عزز الدستور العثماني الذي صدر عام ١٨٧٦ حركة تعليم الفتاة حين أقرّ بالمساوات بين الجنسين في التعليم في البند ١١٤ (Başbuğ- Yaraman, Ayşegül. 1996 : 16- 17).

على أن أولى الإشارات لوجود مدرسة حكومية ابتدائية للبنات في طرابلس البلدة، كان عام ١٨٧١ والتي ضمت ٣٥ طالبة. وقد ترافق وجود تلك المدرسة مع وجود ١٩ مدرسة ابتدائية للفتيان، والتي ضمت ٥٦٠ طالباً (سلنامه سوريا ١٢٨٨ : ١٨٣)، كما ترافق مع وجود مدرسة رشدية للفتيان، والتي تأكدنا من وجودها في المدينة منذ العام ١٨٦٦ (سلنامه سوريا ١٢٨٥ : ٨٨). وفي هذا السياق، كان لافتاً غياب ذكر مدرسة الفتيات من عام ١٨٧٧ حتى سنة ١٨٨٣، ما يوحي بأنها قد أقفلت أبوابها خلال تلك المرحلة، لتعود وتظهر في البلدة تحت خانة "مدارس جديدة" وضمت ١٩٥ فتاة (سلنامه ولاية سوريا ١٣٠٠ : ٢٩٤).

وقد ترافق وجود تلك المدرسة مع رئاسة الشيخ علي رشيد الميقاتي للجمعية الخيرية الإسلامية، وهو الذي قال عنه عبد الله نوفل في كتابه بأنه وضع "بذرة التعليم المجاني الابتدائي للذكور والإناث"، وكانت الفتيات حتى ذلك التاريخ "محرومات من وسائل العلم والتهديب" (نوفل عبد الله ١٩٨٤ : ١٥٧). وهذه الإشارة تعكس أهمية الشيخ علي رشيد بتأسيس المدرسة الخاصة الإسلامية للبنات في المدينة من خلال الجمعية الخيرية الإسلامية، وليس تأسيس مدرسة البنات الحكومية. وفي هذا السياق نلفت النظر لدور تلك الجمعية الخيرية في تثقيف أبناء المدينة، إذ أدارت ٢٥ مدرسة للفتيان سنة ١٨٧٩ حين ترأسها محمود المغربي (سلنامه سوريا ١٢٩٧ : ١٧٣). وستختفي الإشارة لتلك الجمعية ابتداءً من عام ١٨٨٣، وبالمقابل سنلاحظ وجود أغلب أعضائها

ضمن مجلس المعارف الحكومي (سلنامه ولاية سوريا ١٣٠٠ : ١٨٩)، فنعتقد بأن الدولة ألّفت من أعضاء تلك الجمعية مجلس معارف المدينة الذي أدار مشروعها التربوي.

وطبعاً لفتنا تدني عدد الطالبات في المدارس الحكومية، بالمقارنة مع عدد مدارس الفتيان التي لم نلاحظ إقفالها، في حين تعرّضت مدارس الفتيات للإغلاق كما أشرنا سابقاً. ونعيد سبب إغلاق مدرسة الفتيات خلال تلك المرحلة لإفلاس الدولة العثمانية سنة ١٨٧٥، فتمّ تسكير مدرسة الفتيات واستمرت بعض مدارس الفتيان. وفي هذا المجال، لاحظنا وجود تيار رافض لتعليم الفتيات في المدينة، وهو الذي استند على نهج عمر بن الخطاب لتعليم الفتيات لعدم كمال عقولهن، ولكون "تعليمهن الكتابة ربما حملهن على الوسائل غير المرضية". كما استند أتباع ذلك التيار لقول "دفنس الفيلسوف" بأن من علّم بنتاً الكتابة "سقى سهمها سماً، فترميه به يوماً" (طرابلس شام ٢٢ أيار ١٨٩٣ : ١).

ولذلك بدأت جريدة طرابلس شام الإسلامية، وهي أول جريدة في طرابلس، بحملة إعلامية لحثّ الأهل على تعليم الفتيات، من خلال نشر المقالات الموافقة لتعليم المرأة، ومن خلال تغطية الاحتفالات التي أقيمت في مدرسة البنات الحكومية. وعلى ذلك رأينا الجريدة التي كان عمادها الشيخ حسين الجسر، وفي العدد التاسع الصادر في شهر أيار من العام ١٨٩٣، وهي تشدد على أن تعليم وتهذيب البنات يعود بالخير على بيتها لناحية النظافة وتربية الأولاد، في حين تجلب البنت الجاهلة لأبيها "البلاء الأكبر وعلى زوجها الموت الأحمر" (طرابلس شام، ٨ أيار ١٨٩٣ : ١-٢)، كما أكدت الجريدة عدم وجود مانع شرعي أو مانع عقلي لتعليم البنات الكتابة، واستشهدت بتعليم النساء القراءة والكتابة في زمن الرسول. لكنّها حذرت من أن تعليم الفتيات، من غير تأديب لائق، سيرفع من أخلاقهن السيئة، فيرتكبن ما لا يرضي، وبأن هذا الاحتراز غير خاص بالفتيات، بل بالفتيان أيضاً. وذكرت بأن تعليم البنات من أعظم أسباب النجاح المؤثرة في تهذيب الأمة "وكيف يهمل تهذيب من يتربى العالم على احضانهن" (طرابلس شام ٢٢ أيار ١٨٩٣ : ١).

العديّة في مدينة طرابلس، كما نعيده لتأثير أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، الذين تولّوا مجلس المعارف فيها. ولذلك عدّت المدارس الحكومية مدارس إسلامية، فكان من الصعب على المسيحيين إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس، رغم الدعوات التي أطلقها رجال الحكومة (طرابلس شام، عدد ٢٦: ص ٢).

وكان من نتائج ذلك المسعى الإعلامي- الحكومي، أن تجاوب أهل مسلمو المدينة من الدعوة لتعليم بناتهم، فغصّت المدرسة بالطالبات اللواتي بلغ عددهن أكثر من ٣٠٠ في شباط ١٨٩٥، بفضل المتصرف والشيخ علي رئيس مجلس المعارف، الذي سهر على زيادة الواردات والاقتصاد في الصرف (طرابلس شام ١١ شباط ١٨٩٥: ص ٢)، ولذلك تمّت الدعوة في آب ١٨٩٦ لبناء مبنى جديد للمدرسة (طرابلس شام ١٧ آب ١٨٩٦: ص ٣)، لكن الأحوال المادية لم تكن تسمح بالقيام بذلك المشروع، لا بل وجد والي بيروت رشيد بك سنة ١٨٩٧، أن صندوق مدارس طرابلس كان فارغاً وبأنّ معاشات المعلمين والمعلّقات قد تراكمت منذ عدّة أشهر (طرابلس شام ٨ تشرين الثاني ١٨٩٧: ص ١).

وتستمرّ تلك الأزمة المالية سنة ١٨٩٨ (طرابلس شام، ٨ أيلول ١٨٩٨: ٤)، ليغيب من بعدها ذكر مدرسة البنات، في حين يستمرّ ذكر احتفالات مدرسة الصبيان (طرابلس شام ١١ تمّوز ١٨٩٨: ٢ و ٢٤ تمّوز ١٩٠١: ٣)، لنعود ونجد ذكراً لها في صيف ١٩١٢، حيث اهتمّ المجلس البلدي بإيجاد مكان مناسب لإنشاء مدرستان: واحدة للذكور وأخرى للإناث (الحوادث ١٢ تمّوز ١٩١٢: ٢). لقد أتت حركة التعليم الحكومية للنساء في طرابلس في انسجام مع إرادة الدولة العثمانية بتعليم النساء في السلطنة العثمانية وفي طرابلس التي كانت تابعة لولاية بيروت في تلك المرحلة، وقد نجحت الإدارة المحليّة في إعادة إطلاق عجلة تعليم الفتيات بالتعاون مع محمد كامل البحيري صاحب جريدة طرابلس شام الذي أصرّ دائماً على الطابع الإسلامي لجريدته، والتي كتب فيها العلامة الشيخ حسين الجسر، وبالتالي ساهمت هويّة الجريدة بتغيير تفكير بعض مسلمي طرابلس، فقبلوا تعليم بناتهم.

وتستكمل الجريدة سعيها في أعداد لاحقة، فتؤكّد على أنّ ذكاء الفتيات أوفر ممّا في الذكور، لكنّ سرعة احساسهنّ، أحدثت فيهنّ اختلالاً في العقل وبالتالي صار لازماً تعليمهن المعارف " ليسلم تفقهنّ ويقتصر طيشهنّ" (طرابلس شام ٥ حزيران ١٨٩٣: ١). لكننا رأينا الجريدة تستدرك الخطأ في فهم مقصدها من التشجيع على تعليم البنات، فتؤكّد أنّ بلوغ النساء الدرجة السامية في العلم يضر بالرجال والنساء، لكون المعارف العالية تولّد في المرأة ما يمنعها عن الخضوع لزوجها، الا إذا كان أعلم منها بدرجات أو صاحب هيبة بسبب جاه أو مال، لتقرّ بفضلها. وهي ترى بأنّ خضوع المرأة لزوجها، هو من أعظم الأسباب لمحبتة لها، ووجود الإلفة بينهما، "فاذا كانت هي عالمة علامة مدققة قهامة وزوجها جاهل ابتر أو دونها في العلم والمعرفة احتقرته في نفسها وابتر امتثال أوامره واجتناب زواجه فينشأ من ذلك الضرر المساوي للضرر الآتي من جهلها أو الأعظم منه فيصدق فينا المثل كالمستجير من الرمضاء بالنار أو المثل العامي كالهارب من المطر الى تحت الميزاب" (طرابلس شام ٣١ تمّوز ١٨٩٣: ١). وبذلك تكون الجريدة قد أغلقت باباً، قد يستفيد منه الرافضون لتعليم البنات، ولكنها بكلّ تأكيد رسمت حدود تعليم ابنة طرابلس بالمدرسة الابتدائية، وهي حدود تتسجم مع توجهات الحكومة في طرابلس، ولا تتسجم مع التعليم العالي الذي قدّمته مدارس الإرساليات.

وقد ترافقت الحملة الإعلامية الثقافية لجريدة طرابلس شام مع تغطية نشاطات مدرسة البنات، ومنها احتفالات الامتحانات وتوزيع الشهادات التي شارك فيها الرسميون: المتصرف، نائب طرابلس، المفتي، النقيب، رئيس شعبة المعارف، هيئة شعبة المعارف، علماء البلدة والذوات. كما أكّدت الجريدة في أخبارها على انتظام المدرسة ونجاح التلميذات واتقانهن قراءة القرآن وحفظ العقائد الدينية وشيئاً من العلوم الأدبية وتمكنهن من الاشغال اليدوية (طرابلس شام ٢٦ شباط ١٨٩٤: ص ٢-٣).

ومع أنّ الدولة لم تعط مدارسها الطابع الديني، غير أنّ التعليم الإسلامي كان حاضراً بقوة في كلّ المدارس الحكومية في المدينة، والذي نعيده للأكثرية الإسلامية

الحملات الاعلامية الحكومية المنهجية عبر أول جريدة قامت في المدينة والتي قرأها كل من المسلم والمسيحي، وأثرت في تغيير قناعاتهما فيما يتعلق بتعليم الفتاة.

رابعاً: مدارس البنات الأرثوذكسية في طرابلس

١/٤- المدرسة الوطنية

بدأت الجمعية الخيرية الأرثوذكسية عملها في البلدة عام ١٨٨١، وتشكلت تلك الجمعية من أشخاص علمانيين ترأسهم مطران طرابلس، واهتمت بالنواحي الكنسية المختلفة من إدارة الأوقاف وتأمين معاشات خدام الكنيسة وصيانة الكنائس وغيرها من الشؤون الكنسية. وأول دليل وجدناه على وجود مدرسة أرثوذكسية للفتيات في طرابلس، كان في محضر الجمعية أواخر ١٨٨١، حيث تعهد "ذوات" الجمعية الخيرية في البلدة، بتأمين مصاريف مدرستي الذكور والإناث من أهل الخير في حال لم تكف واردات الأوقاف عن سددها. كما أقرّ الذوات سعيهم لبناء مدرسة للإناث، على أن تبقى مدرسة الذكور الإعدادية على ما هي عليه، وأن يكون للمدرستين إدارتين منفصلتين (وثائق المطرانية: ٢٢ كانون أول ١٨٨١).

وبذلك تأكدنا من وجود تعليم للفتيات قبل تاريخ ذلك المحضر، وبأن ذلك التعليم كان يجري في مدرسة الفتيان، ولذلك اهتمت الجمعية الخيرية التي أدارت الأوقاف، ببناء مدرسة للفتيات، وهو ما ستعود وتؤكدّه الجمعية في شباط ١٨٨٢، في البند ١٧ من دستورها (وثائق المطرانية ٢٧ شباط ١٨٨٢)، مع استمرارها بتأمين تعليم الفتيات في مدرسة الصبيان من قبل المعلّمة "كاتبه" (وثائق المطرانية ١ أيار ١٨٨٢).

وفي سعيها لبناء تلك المدرسة، أقرّت الجمعية تحويل الوقف المجاور لكاتدرائية القديس جاورجيوس في البلدة إلى مدرسة، بكلفة قدرّت ما بين ٢٥ ألفاً إلى ٣٠ ألف غرش (وثائق المطرانية ٢٠ شباط ١٨٨٢)، ونراها تشكر في كرّاسها الصادر سنة ١٨٨٣، المتبرّعين الذين لولا مساعدتهم "العميمة" لما تمكنت من انشاء دار جديدة مدرسة للإناث ستجاري بنظامها وحسن ترتيبها أنظم مدرسة خارجية عندنا للطوائف الغربية، وأكدت بأنها

كما يعود نجاح المدرسة لمجانية التعليم في المدارس الحكومية الابتدائية، وهذا ما سيوقعها في مشاكل مالية. وطبعاً، سعت الإدارة المحلية لحلّ تلك المشاكل المالية من خلال تخصيص الأوقاف، وتأمين بعض المداخل الإضافية من بيع أشغال الفتيات، وتحميل الأهل جزءاً من التكاليف، كما عملت الإدارة على تقليل المصاريف من خلال خفض أجور المعلّمت! وهذا الإجراء الأخير سينعكس سلباً على الأداء التربوي، وبالتالي على المستوى التعليمي، وهو ما سيؤدّي لاحقاً لانخفاض عدد الطالبات.

ويعكس الوضع المالي المتردّي لمدرسة الفتيات، نظرة المجتمع لموقع المرأة في المشروع التربوي في طرابلس، فكانت مدرستهنّ هي الحلقة الأضعف أمام مشروع تعليم الفتيان الذي استمرّ رغم كلّ الظروف الاقتصادية والذين أقيمت لهم في طرابلس المدارس الابتدائية والاعدادية التي احتوت قسماً داخلياً (جريدة طرابلس شام، العدد ١٧٧، ١٩ تشرين أول ١٨٩٦: ٣). وبطبيعة الحال، أتت مشكلة مدرسة البنات الحكومية في طرابلس لتعكس المطبات التي وقع فيها المشروع التربوي العثماني الضخم، من تدريب المعلمين وتأمين معاشاتهم، إلى بناء المدارس والجامعات المختلفة. وهو مشروع لم تتمكن الحكومات العثمانية من إيصاله إلى برّ الأمان على امتداد مساحة الدولة، في ظل معاناتها الاقتصادية الكبيرة. وتلك الانتكاسات لم تقع فيها مدارس الإرساليات، التي اعتمدت على الدول الاستعمارية لتأمين دعم مالي، كما اعتمدت على العمل المجاني للربان والمرسلين، وعلى ذلك ستجذب مدارسهم الطالبات المسلمات اللواتي رغب ذووهم بتعليمهنّ تعليماً لائقاً.

وبخصوص المواد التعليمية التي أدرجت في مدرسة البنات الحكومية، بدا واضحاً التركيز على العلوم الدينية وعلى الأشغال اليدوية التي جرى تعليمها في مدارس الإرساليات، وهاتان المادتان ستسجمان مع الإطار النظري الذي عمّمته جريدة طرابلس شام، والذي انتشر في المدينة، من حيث إعداد الفتيات على الأسس الشرعية لتحسنّ تدبير منازلهن. وتبقى تلك الحملة الاعلامية هي الخبرة الأولى لمدينة طرابلس مع

التي تشير لإيرادات الجمعية الخيرية في البلدة، والتي وصلت إلى ٩٤١٨,٠٧ غرش سنة ١٨٨٢، والتي قابلها ارتفاع ضخم في المصاريف، وخاصةً على معلّمي مدرستي الذكور والإناث، والتي وصلت إلى ١٦٢٦٦,٣ غرش، فقاربت ضعف مداخيل الجمعية.

ولذلك، شكّل استمرار مشروع المدارس الأرثوذكسية بحدّ ذاته، تحدّيًا كبيراً للأرثوذكس طالما لم تتأمّن له مداخيل ثابتة سنوية (الثنا من الجمعية الخيرية الأرثوذكسية ١٨٨٣: ١٢). ولذلك، ارتأى الأرثوذكس صبّ الجهد لدعم واستمرار مدرسة الفتيان، فعانت مدرسة الفتيات من الصعاب المرتبطة بتراجع المداخيل: تدنّي المستوى والإغلاق، وهو ما عانت منه مدرسة البنات الحكومية، كما أشرنا سابقاً.

وطبعاً أتى افتتاح الأرثوذكس لمدرسة البنات في البلدة والأسكلة، لمجابهة مدارس الإرساليات؛ الكاثوليكية التي ركّزت على اللغة الفرنسية، والبروتستنتية التي شددت على اللغة الإنكليزية، وقد خسر الأرثوذكس تلك المعركة للأسباب المالية، فلم يتمكنوا من تأمين أساتذة أكفاء وخاصةً لمادة اللغة الفرنسية، التي كانت الأكثر استقطاباً للطلّاب، والتي تمكّنت منها راهبات المدارس الكاثوليكية، حتّى أنّ الانجليّين لم يتفوقوا في اجتذاب الفتيات بقدر نجاح راهبات المحبة، مع العلم بأنّ أساتذة اللغة الفرنسية كانوا الأكثر تكلفة مقارنةً مع غيرهم، كما يظهر في الجدول التالي، والذي يشير أيضاً لانتماء أغلب أسماء المعلّمين والمعلّمات لعائلات غربية عن عائلات طرابلس الأرثوذكسية، ما يعني بأنّ أولئك المعلّمين كانوا من خارج المدينة، لذلك توجب اسكانهم، وهذا ما زاد من المصاريف.

تطلّع لإنهاء المشروع وإيجاد معلمين أكفاء (الثنا من جمعية الخيرية الأرثوذكسية ١٨٨٣: ٤، ١١). وبذلك ظهرت رغبة الأرثوذكس بمجاراة مدارس الإرساليات، وخاصةً مدرسة راهبات المحبة، التي لاقت نجاحاً كبيراً كما أسلفنا.

وكانت المراسلات الفرنسية في آذار ١٨٨١، قد أكّدت ذلك المسعى الأرثوذكسي لمنافسة المدارس الغربية إجمالاً، من خلال تعليمهم اللغتين الفرنسية والإنكليزية، ومن خلال حرصهم على تعليم الفتيات مهارات خاصة لينافسن مشغل الحياكة الكاثوليكي (Sienkiewicz 10 mars 1881: 313- 320). كما وجدنا في مدرسة الفتيات، بين عامي ١٨٨٢ و ١٨٨٦، معلّمت للغات وللحساب (وثائق المطرانية ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢، ١٢ أيلول ١٨٨٦)، وكانت "عنية بنت الخواجه سليمان أبو شعر" من بين أولئك المعلّمت والتي علّمت قواعد اللغة العربية واللغة الإنكليزية وفروعها، كما علّمت الخياطة. وكان لافتاً تعليم أساتذة ذكور في تلك المدرسة كالمعلّم أنطونيوس سعادة، الذي درّس الفتيات يوم الأحد (وثائق المطرانية ٢١ أيلول ١٨٨٦).

ويبدو أنّ المدرسة قد تعرّضت لمجموعة من الصعاب، فكانت غير قادرة على استيعاب عدد كبير من الرأغبات بالتعلّم فيها، ولم تكن للمطرانية وللجمعية من أموال كافية لتوسيع المكان (المدارس الموسكوبية ٢٠١٢: ١٣٦- ١٤٦)، ولعلّها أغلقت أبوابها أحياناً، فلم نَقع على ذكر لها في المحاضر التي أشارت إلى تواريخ الامتحانات سنة ١٨٩٢، كما لم يذكرها القنصل الفرنسي أثناء تعدادها للمدارس التي أشرف عليها مطران طرابلس الأرثوذكسي في آذار ١٨٩٦ (Souharet 31 mars 1896: 310-312).

أمّا في منطقة الأسكلة، فقد لاحظنا أيضاً قيام مدرسة أرثوذكسية لكلّ من الفتيان والفتيات، وبأنّ تلك الأخيرة ضمّت ١١٠ طالبة، وقد تعلّمن مادّة اللغة العربية والأعمال اليدوية (Ibid)، كما ذكر بأنّ حالة مدرسة الفتيات صعبة، وبأنّها تضمّ فقط بين ٩٠- ١٢٠ تلميذة (المدارس الموسكوبية ٢٠١٢: ١٤٨- ١٥٢). ولفهم التحديات التي تعرّضت لها المدارس الأرثوذكسية إجمالاً، ومدارس الفتيات خصوصاً، نعود للوثيقة المرفقة

جدول بالمواد التي علّمت في مدارس الطائفة الأرثوذكسية في البلدة (الصبيان والبنات)، والمعلّمين الذين قاموا بتدريسها والأجور التي نالوها (وثائق المطرانية).			
المعلّم	المادة	الأجرة الشهرية	تاريخ محضر الجلسة
أنطونيوس -سعادة-	-	٢٠٠ غرش	٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢
ابن جبرائيل الداية	اللغة الفرنسية	١٥٨, ١٠	٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢
جرجس كوتيا	(حساب - جغرافيا - قراءة)	٨٠, ٠٠ غرش	٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢
المعلّمة كاتبة وابنتها	-	-	٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢
مصطفى أفندي	اللغة التركية.	١٠٥, ٢٠	٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢
ميخايل يانكو	اللغة التركية.	١٥٠ غرش	٣ نيسان ١٨٨٢
كاتبة امرأة العصفوري	-	-	١ أيار ١٨٨٢
اسكندر زمور	اللغة الفرنسية.	٤ ليرات فرنسية	٢ تشرين أول ١٨٨٢
اسكندر غرزوري	حساب - جغرافيا - قراءة.	١٧٥, ٥٠ غرش	٢ تشرين أول ١٨٨٢
ميخائيل توما	قراءة عربية للمبتدئين.	١٥٠ غرش	٢ تشرين أول ١٨٨٢
جرجي من بشمزين	(حساب)	١٢٠ غرش	٢٥ كانون الثاني ١٨٨٢
اسكندر -بشاره- الشويري-	حساب - جغرافيا - قراءة.	-	٢٩ نيسان ١٨٨٣
حفيظة عبد النور	-	-	٣١ آب ١٨٨٦
املي مخلوف	اللغة الانكليزية - صرف - نحو - رياضيات.	-	١٢ أيلول ١٨٨٦
الست مريانا بنت الخواجه	-	-	٧ أيلول ١٨٨٦
عنيه بنت الخواجه سليمان أبو شعر	قواعد اللغة العربية - اللغة الانكليزية وفروعها - خياطة.	٣ ليرات فرنساوية	٢١ أيلول ١٨٨٦
قسطنطين الخوري جرجس مجاعص	-	٢٠٠ غرش	١٧ تشرين ١٨٩١
-	اللغة الفرنسية	١٠ ريات مجيدي	٢٣ آب ١٨٩٢
فارس البريدي	-	٣٥٠ غرش	١ أيلول ١٨٩٢
موسى خلاط	-	٧, ٥٠ ريات مجيدي	١ أيلول ١٨٩٢
مخايل أفندي منصور	اللغة الفرنسية	١٢ ريال مجيدي	١ أيلول ١٨٩٦

٢٠١٢: ١٣١)، واستمرّ الروس في عملهم حتى بداية الحرب الكبرى (خلاصة أعمال الجمعية الخيرية الأرثوذكسية بأسكلة طرابلس ١٩١٤: ٤، ٥، ١٠). ولتحديد عمل تلك الجمعية الروسية، عدنا لحسابات الجمعيات الخيرية الطرابلسية كما وردت في الكراسات الكنسية، واستخرجنا ما ارتبط منها بالمدارس وأدرجناه في الجدول أدناه.

جدول يضم مصاريف الجمعية الخيرية في طرابلس على المدارس ما بين ١٩٠١ و ١٩٠٤ (غرش)				
١٩٠٤	١٩٠٣	١٩٠٢	١٩٠١	
-	٩٦٩٩,١٥	-	-	مصاريف بناء في مدرسة البنات
-	١٨٠	٥٧٧٨,١٠	-	تصليحات في المدارس الروسية
٨٩٧,١٥	-	-	١٧١٧,٢٥	مصاريف على المدارس

والمراقب للجدول يلاحظ استمرار الجمعية الخيرية في طرابلس بتحديد باب لتسديد إيجارات المدارس وترميمها، وحتى بنائها، فقد صرفت الجمعية في طرابلس مبلغ ٩٦٩٩,١٥ غرش على إنشاءات جديدة لمدرسة البنات. ولم تلحظ الحسابات معاشات للأساتذة أو للجهاز الإداري. وبذلك نستنتج بأن الروس تولوا الشق الإداري وتغطية مصاريف الأساتذة، في حين تكفل الأرثوذكس بمصاريف البناء. بذلك استفاد أرثوذكس طرابلس من ذلك التعاون لاستمرار مشروعهم التربوي وبطليعته إنشاء مدرسة لائقة للفتيات في البلدة. وبذلك زاد عدد طالبات مدرسة الأسكلة إلى ٤٠٠ تلميذة سنة ١٨٩٩، والتي ضمت جميع المراحل ما عدا قسم الصغار الذين كان لهم مبنى خاصاً بهم (المدارس الموسكوبية ٢٠١٢: ١٤٨-١٥٢).

ولكن، وبغض النظر عن المحاولات الأرثوذكسية لوقف تغلغل الارساليات في كيانهم، لا بدّ من الاعتراف المسبق بخسارتهم، لامتلاك الارساليات الغلبة في المعرفة والخبرة بإدارة المدارس وغيرها من الأسباب التي أشرنا إليها كالعدم الماليّ من الدول الاستعمارية. وهي خسارة محدودة إذ ثبتت مدرستا الذكور في كلّ من البلدة والأسكلة على حساب مدرستي الفتيات.

وفي هذا السياق نتساءل هل يصحّ وصف ارتياد الفتيات الأرثوذكسيات والمسلمات لمدارس الإرساليات، بالأمر الخطير في حسابات ذلك الزمان، طالما كانت الفتيات- زوجات المستقبل، ستتبعن عقيدة أزواجهن، ما عدا أولئك الفتيات اللواتي ستدخلن من باب الرهبنة. كما نستنتج في ضوء الأحداث والملاحظات السابقة، لكون الرغبة الأرثوذكسية بالسير في مشروع مدرسة الفتيات، لم تأت استجابة لتطلّعات المصلحين العثمانيين، ولا تتاغماً مع الحركة الثقافية الداعية لتحرير المرأة، وإنما لمجابهة المدارس الغربية. فاستفادت الفتاة الأرثوذكسية من صراع الدول على الأرض العثمانية، لترى العالم الخارجي من خلال المدرسة.

٢/٤-مدارس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية

الفلسطينية

تأسست الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية سنة ١٨٨٢ في روسيا لمساعدة الروسيين الذين وفدوا إلى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة، كما سعت لافتتاح مدارس ابتدائية مجانية تعلّم الأرثوذكس عقائد إيمانهم وبعض العلوم، وإلى جانب ذلك أسست مدارس عالية كمدرسة الإناث في بيت جالا، وكان الهدف من ورائها تكوين معلّّات (سليمان هلا ٢٠١٦: ٩٩-١٠٠).

وفي هذا السياق، دخلت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية إلى مدينة طرابلس في العام ١٨٩٧، حيث تسلّمت في البلدة إدارة مدرسة الذكور (وثائق المطرانية ١٣ تموز ١٨٩٧)، بطلب من مطران طرابلس، غريغوريوس حدّاد، للأسباب المالية التي أشرنا إليها سابقاً، ثم وُضعت مدرسة الأسكلة للبنات في عهدها، وفي عام ١٩٠٠ أدار الروس مدرسة طرابلس للبنات ومدرسة الأسكلة للذكور (المدارس الموسكوبية

العائلات لا تولي اهتماماً كبيراً لتعليم الفتيات، فالفتاة من بعد عمر الـ ١٢ سنة تحسب نفسها ناضجة، ويرى الأهل ابنتهم بين ١٦-١٨ سنة أنها قد أصبحت جاهزة للزواج، فيسارعون لتزويجها. وهناك من تأتين إلى المدرسة بلون أحمر على خدودهنّ وشفاههنّ إشارة لكونهنّ كنّ في عرس أو يتحضرن لحضور عرس. ويعود التقرير ليُقرّ بالحسنات الاجتماعية للمدارس الروسية، كونها تخرّج فتيات مربيّات وحاصلات على تعليم أفضل من المدارس المحليّة الأخرى، من دون أن يُحدّد تلك المدارس، كما يؤكّد بأنّ الفتيات المتخرّجات أكثر ترتيباً وانتظاماً ونظافةً مما تربين عليه (المرجع نفسه: ١٦٠).

وكان برامج التعليم في المدارس الروسية متكاملًا، فكان بإمكان المجتهدات اكمال تعليمهنّ في بيت جالا في فلسطين، كما حصل مع حنة نمر التي تخرّجت من مدرسة الأسكلة وعادّت إليها معلّمة. وبخلاف مدرسة الذكور الموسكوبية، نجحت مدرسة الإناث باستقطاب أعداد كبيرة من بنات الطائفة (المرجع نفسه: ١٠٨-١٠٩)، وهو ما يشير لضعف مدرسة الذكور التي أدارها الروس في الأسكلة.

ومرة جديدة، استفادت فتيات المدينة، ومن بينهن الأرثوذكسيات، من تلك المجابهة الدوليّة، إذ استعادت مدرستهنّ حيويّتها، ولا سيّما في منطقة الأسكلة. وصار بإمكانهنّ تحصيل تعليم متقدّم فاق المرحلة الابتدائية التي نادت بها جريدة طرابلس شام.

وأتى نجاح المدارس الروسية، أو ما يُعرف بالموسكوبية، ليعبر عن استعداد العائلات الشعبية الطرابلسيّة لتعليم بناتهنّ بتأثير من حركة الإصلاح العثمانية والحملات الإعلامية. ولا يمكننا في هذا السياق سوى التذكير بانجذاب تلك العائلات لروسيا ولمشاريعها في المنطقة، بغضّ النظر عن طبيعته. وقد كان لافتاً، غياب أسماء فتيات العائلات التقليدية الوجيهة والبرجوازية المستحدثة من بين خريجات تلك المدارس، كما ظهر في الوثائق التي وصلت إلينا. ونعلل ذلك بوفاء تلك العائلات لمدارس الإرساليات، نظراً لارتفاع مستوى التعليم فيها، وخاصةً تعليم اللغتين الإنكليزية والفرنسية.

كما ارتادت المدرسة فتيات من المناطق المجاورة، ووُجد في المرحلة الدراسية الكبرى، فتيات من سن ١١ إلى ١٢ سنة، مع فتيات من عمر ١٥ إلى ١٨ سنة، والقليلات منهنّ ترغبن بالتعلّم والباقيات تأتين لمجرد اللهو، والعديدات مخطوبات ويأتين للمدرسة حتّى موعد العرس. وكان من أصل ٣٥ فتاة، ٧ فقط تناسبن بعمرهنّ وبمستوى تعليمهنّ مفهوم الدراسة في المرحلة العليا. وقد رأت إدارة المدرسة، بأنّه من الأفضل أن تأتي الشابات وتجلسن في الصفّ من أن تتوجّه إلى مدارس اللاتين أو البروتستانت، كما رأت أنّه مع حضور الفتاة الكبيرة، ستلتحق فتيات صغيرات من نفس العائلة (المرجع نفسه: ١٥٨).

وبسبب ذلك التعاون بين أبناء الأسكلة والروس، ارتفع عدد الفتيات في المدرسة الروسية سنة ١٩٠٤ إلى ٦٠٠ طالبة، وضمتّ فتيات من عمر ٣ سنوات إلى ٢٢ سنة. ولم تكن لأطفال الروضات ملابس خاصّة، فكان بعض الفتيات يلبسن "بلوزة ممزقة" (المرجع نفسه: ١٥٥-١٥٦)، وهذه الإشارة الأخيرة تشير لجذب تلك المدرسة لطالبات من الفئات الفقيرة.

وفي تلك السنة بلغ عدد معلّمت المدرسة ٤ معلّمت روسيّات، من ضمنهنّ المسؤولّة، وأضيف إليهن أحد عشر معلّمة عربيّة. ومن تلك المعلّمت العربيّات معلّمتين أنهتا الدراسة في مدرسة بيت جالا الداخليّة، وهما فيرا نيقولايفنا حلبي وإ. خوري. وتقوم تلك المعلّمت بتعليم اللّغة العربيّة، الدين، الحساب، الجغرافيا، الروسية والفرنسيّة ومادّة الأشغال اليدويّة والانشاد بالروسيّة والعربيّة. وتقوم المعلّمت الروسيّات بدور المسؤولات عن تعليم المواد، كون معارف المعلّمت العربيّات غير كثيرة (المرجع نفسه). كما انحصر التعليم الدينيّ بكاهن الأسكلة الأرثوذكسي الخوري الياس المرّ (١٨٤٤-١٩٢٣) (المرجع نفسه: ١٠٧-١٠٨). وأتى التعليم الديني في المدارس الروسية في انسجام أهدافها، ألا وهو حفظ العقيدة الأرثوذكسيّة لدى العرب (المرجع نفسه: ١٤٨-١٥٢).

ويعلّق تقرير روسيّ على مدارس الإناث في كلّ سوريا وفلسطين، بأنّها أضعف من مدارس الذكور لناحيته تركيبة التلميذات ونسبة نجاحهن، ويُعلّل سبب ذلك لكون

خامساً: المرأة في العالم الخارجي

١/٥- المرأة في عالم المال

زودتنا جريدة طرابلس شام من خلال إعلاناتها التجارية والرسمية التي نشرتها على مدى سبع سنوات، والتي بلغ عددها ٥٤٣ إعلاناً، بمعلومات حول طبيعة وحجم الوجود النسائي في عالم خارج المنزل الذكوري، وذلك في الفترة التي تخرّجت فيها أوائل السيدات المتعلّقات من مدارس طرابلس. وفي تلك الإعلانات وجدنا إعلاناً واحداً، تكرر في ستّة أعداد، للسيدة مريانا مالطي تطلب فيه بيع عقار في منطقة الدفتردار في طرابلس، وتذكر في الإعلان بأنّها المالكة لذلك العقار الذي ورثته عن والدها جرجس (طرابلس شام ١ أيار ١٩٠١: ٣)، وهو ما يدفعنا للقول بضالة الحضور النسائي التجاري العلني في المدينة.

لكنّ الخبر أشار أيضاً إلى ملكيّة السيدة مريانا لكامل العقار، وهو ما يذكّرنا بطبيعة الملكيات في تلك الأيام، إذ كثرت الشراكة فيها، فامتلك الرجال والنساء قرارات أو أسهماً فيها وصلت إليهم بالإرث وفقاً لقواعد الشرع الإسلامي، وهي القواعد التي طبّقها المسيحيون أنفسهم ضمن جمعيّاتهم أو فيما بينهم، كما يظهر في الوثيقة التالية، ليعودوا فيما بعد ويسجلوها في الدفتر الخاقاني (وثائق آل قمر).

وهو ما يؤكّد أهميّة القاعدة الإسلامية في ضبط عملية التوريث وحفظ حقوق المرأة. كما نشرت تلك الجريدة إعلانات المحاكم ومنها أحكام المزايدات على العقارات التي تخلف أصحابها عن سداد مستحقّاتهم، والتي بلغ عددها ٢٠٩ في كلّ الأعداد التي وصلتنا. ولأحظنا في تلك الإعلانات ذكر المرأة كمديونة أو كمقترضة للمال في ١٤ إعلاناً، كما ظهرت المرأة كدائنة أو مقترضة للمال في ٩ إعلانات أخرى.

وفي باب المرأة المديونة، أحصينا خمس سيّدات مسلمات قمن برهنّ بساتين في منطقة المنية الواقعة إلى الشمال من المدينة لصالح بنك الزراعة، ولم تستطعن تسديد مستحقّاتهنّ، وهو ما دفع بالبنك لرفع دعوى عليهن، وصدر القرار بوضع البستان في المزداد العلني. وفي الأحكام الـ ٩ الباقية، ظهرت السيّدات كمالكات

لعقارات مبنية: دار، فرن، أرض... في كلّ من الأسكلة والبلدة. وكان من أولئك الدائنتات ٨ مسيحيّات ومسلمة واحدة. وفي أحد تلك الإعلانات ظهر الزوج شريكاً لزوجته في الدين.

ولأسف لم تبين إعلانات المحكمة سبب قيام المرأة بالاستدانة ورهن ملكيّتها، لكنّها أكّدت على حقّ المرأة بالتمكّن الذي اعترف به الشرع الإسلامي، كما أكّدت على حقّ المرأة بالتصرّف بملكيتها ورهناها. وكان لافتاً في هذا المجال، أنّ المديونات المسيحيّات الثمانية اقترضن المال من مسيحيين، كما اقترضت المرأة المسلمة من مسلمين. كما يظهر بأنّ ملكيّات السيّدات المسيحيّات الطرابلسيّات، كانت في المدينة، بينما امتلكت بعض السيدات المسلمات أراضٍ في المناطق الريفية المحيطة بطرابلس.

أمّا في باب المرأة الدائنة فوجدنا ٩ حالات، وفي إحداها كان الزوج وكيلًا عن زوجته. كما أحصينا في ثلاثة أحكام أخرى وجود وكلاء عن السيدات، فوكّلت:

- كلّ من حنيفة وزليخا الشيخ عبد الغني الرافعي.
- كريمة بنت جرجس الرومي السيّد ميخائيل متري الحاماتي.

- مريم بنت حنا الزرعوني السيّد حنا بندلي.

(طرابلس شام ٢٢ شباط ١٨٩٧: ٤. ٤ تمّوز ١٨٩٨: ٤. ١٢ تمّوز ١٨٩٧: ٤. ٦ أيلول ١٨٩٧: ٣) وبالتالي كانت بعض السيّدات تفضلن أن يمثلن رجال أمام المحاكم العثمانية، لمتابعة تحصيل حقوقهنّ.

هذا في باب التوكيل، أمّا في باب الشراكة، فقد لاحظنا شراكة كلّ من عائشة الخانجي وعائشة فتح الله وإسماعيل مقدّم في تقديم قرض واحد، واشترك كل من لطيفة اليازجي وحنّا حدشيتي في تقديم قرض آخر، دون أن توضح الإعلانات طبيعة تلك الشراكات، وخاصةً تلك التي قامت بين سيّدة أرثوذكسية ورجل ماروني في مدينة طرابلس المحافظة. وفي هذا السياق، نُشير لصدور حكمين يتعلّقان بدين من امرأة تجاه امرأة أخرى، دون ذكر أي رجل، سواء كوكيل أو كشريك. ومن الجدير بالذكر أنه، وفي مجموع تلك الأحكام، لم يُذكر اسم امرأة دائنة لأكثر من مرة واحدة. وعليه، لا يبدو أن تلك النساء

العقارات، أو بالأحرى اللواتي لم يستطعن تسديد الأقساط المستحقة، ما يدل على ضعف خبرتهن في تدبير المال، أو على اضطرارهن لرهن العقار للحصول على السيولة. ولا يُستبعد أن تكون تلك السيولة قد أُعطيت للمهرّبين، تسهيلاً لهجرة الرجال إلى القارة الأمريكية، وهي ظاهرة كانت شائعة في تلك الفترة.

وخلال مرحلة الاتحاديين، كثُرَت الصحف في المدينة، وكان من بينها جريدة الحوادث، التي وصلنا منها ١٩٤ عدداً بين عامي ١٩١١ و١٩١٣، وقد أحصينا فيها ٧٦٠ إعلاناً تجارياً، تراوحت بين إعلانات المحامين والكتب والمفروشات والأحذية... ولم نجد في تلك الإعلانات أي دليل على دخول المرأة ميدان العمل التجاري في طرابلس ومحيطها، ما يؤكد رفض مجتمع المدينة عمل المرأة خارج المنزل، كما يشير لمحدودية تعليم الفتاة الطرابلسية، إذ تحتم عليها السفر خارج المدينة للحصول على تعليم جامعي. وللأمانة نشير، لكون طرابلس لم تعرف التعليم الجامعي في تلك المرحلة.

وضمن هذا السياق، أرسلت أنيسة صبيعة الأرثوذكسية الطرابلسية للدراسة في إنكلترا، فالتحقت بجامعة إدنبرغ الطبية، وكانت أول فتاة في الشرق الأدنى تتال الشهادة الطبية (نوفل عبد الله ١٩٨٤: ٢٣٩). وعندما أنهت أنيسة دراستها في ١٩ تموز ١٨٩٩، قرّرت العودة إلى طرابلس، ثم أثرت التوجه للعمل في مصر سنة ١٩٠٠، "لسودان الأحوال في بلادنا السورية" (وثائق آل حيدر). لم تتمكّن أنيسة من العمل في المدينة بسبب تردّي أوضاع بلاد الشام خلال تلك المرحلة، نتيجة التوترات الناجمة عن ضغوط الدول الاستعمارية، والاضطرابات التي شهدتها المناطق الأرمنية ومنطقة حوران. وهذا موضوع واسع نتحاشى الخوض فيه التزاماً منا بحدود موضوع هذا البحث.

ونعود لجريدة الحوادث التي أشارت بعض مقالاتها لوجود بنات الهوى في المدينة، وتحدّثت عن حالتهن الصحية (الحوادث ١٤ تشرين الثاني ١٩١٣: ٣)، وتفشّي داء الزهري بين أفراد الشبان بسبب المومسات الموجودات بكثرة في الأسكلة (الوجدان ٢٢ تمّوز ١٩١٠: ٣)، ولتحرك مطران الموارة وقوفه للحدّ من تلك الظاهرة، ومطالبته مطراني الموارة في صيدا وحلب،

قد امتهنّ إقراض المال، وإلا لتعدّدت الدعاوى المقدّمة من قبلهن، كما كان الحال عند بعض المقرضين المذكور. أما فيما يخصّ مذاهب الدائئات، فقد سجّل وجود سبع نساء مسلمات، وثلاث مسيحيات، بالإضافة إلى دائنة واحدة لم نستطع تحديد مذهبها. ومن بين المسيحيات الثلاث، أقرضت إحداهن المال لمسلم واحد (طرابلس شام ٢١ أيار ١٨٩٤: ٤)، وهو ما يوحي بأنّ السيّدات المسلمات كنّ أكثر قدرة على إقراض المال، كما أنّ المسيحيات لم يجدن حرجاً في التعامل مع رجال مسلمين. وقد لفتنا فوز ثلاث دائئات بالمزاد على العقار الذي كان مرهوناً لصالحهنّ، وهو ما يدلّ على الملائة المالية لتلك السيدات، وعلى فهمهنّ لطبيعة عمل المحاكم وكيفية الاستفادة منها.

وبعيداً عن عقود الديون، وجدنا من ضمن الإعلانات التي نشرتها تلك الجريدة، إعلاناً يتيماً للسيدة أنجلينا، وفيه تخبر بفقد ختمها "أنجلينا نوفل"، وبأنّها غير مسؤولة عن أية ورقة تختتم بهذا الختم من بعد تاريخ نشر الخبر (طرابلس شام، ١١ حزيران ١٨٩٤: ١). والختم وسيلة استخدمت في ذلك الزمان للتوقيع على المحاضر وعلى العقود الرسمية. ما يشير لدور اقتصادي تجاري مباشر قامت به السيدة أنجلينا، فلم تكن بحاجة إلى وكيل.

وبالعودة إلى الأراضي والأموال التي امتلكتها تلك السيّدات، نذكر بأنّها على الأغلب وصلت لأيدهنّ عن طريق قواعد الميراث كما حدّدها الشرع الإسلامي الحنفي، والتي لم تُستخدم من قبلهنّ للدخول في نشاط تجاري كبير. وعلى ذلك ظهرت المرأة كوارثة لتركة ما؛ فإن أساءت استخدامها بيعت تلك التركة في المزاد لصالح الدائنين، وإن أحسنت استغلالها، زاد مردودها المالي السنوي. كما أنّ المرأة لم تبلغ مرحلة امتهان إقراض المال أو رهن أراضي الفلاحين والعقارات المبنية. وفيما يخصّ تنامي عدد عقود الاستدانة بين المسيحيات، فإن هذا يعيدنا إلى مفهوم المجتمع المسيحي شبه المغلق، الذي يبارك العلاقة المالية بين أبنائه، ويبرّر الاستدانة من شخص من الطائفة ذاتها، بهدف الحفاظ على العقار بمختلف أنواعه داخل البيئة المسيحية. كما كان لافتاً ارتفاع عدد السيّدات المسيحيات اللواتي رهنّ

وهو من المقالات التي انسجمت مع الطابع المحافظ للمدينة، فتوجّهت الكاتبة في مقالها إلى الرجل، وتناولت كلامه ولباسه وانتقدت مجالسته للقوم الأردباء. ثم خاطبت المرأة ونبهتها لطريقة لباسها، وذكرت بأن حُلية المرأة هو أدبها (طرابلس الشام ٣ كانون الأول ١٨٩٤: ٢). وفي مرحلة الاتحاديين، لفتنا المقال الذي نشرته جريدة الأجيال بعنوان "تحريراً بلسان ابنة متروجة اخباراً الى أمها تصف فيه حالتها بعد الزواج"، وقد اختارت الكاتبة أن تكتّم اسمها عن القراء، وأجابت الجريدة طلبها لتشجّع الأقلام اللطيفة على الكتابة في ميدان الصحف، ولذلك وقّع المقال باسم "سعاد". كما نشرت الصحيفة في نفس العدد قصيدة من توقيع "الآنسة س.ع"، وفي تلك القصيدة هنأت الشاعرة الآنسة نازك جريديني لمناسبة انتخابها رئيسة للجمعية الأدبية في مدرسة الشويفات. وتعقّب الجريدة على تلك القصيدة مشجّعة الشاعرة ومتسائلة عن السبب الذي من أجله تفضّل الكاتبات في هذا البلد إخفاء اسمائهن، وتأمّل ألا يطول هذا الأمر (الأجيال ٢٤ تشرين الأول ١٩١٠: ٤-٦).

وفي نفس السياق، استخرجنا أسماء ثلاثة وأربعين كاتب مقال على صفحات جريدة الحوادث، وكان من بينهم ثلاث كاتبات:

- سارة الميحية التي كتبت محدّثاً من الغرب، مع الإشارة لكون مقالها قد أخذته جريدة الحوادث من مجلة فتاة النيل (الحوادث ٢٠ كانون الأول ١٩١٢: ١).
 - فريدة عطية التي كتبت رثاءً شعرياً ونثرياً في رديف بك، الذي قُتل أثناء قيامه بحفظ النظام (الحوادث ١٧ كانون الثاني ١٩١٢: ٤).
 - كاتبة مجهولة قعت اسمها بعبارة "إحدى القارئات من الأسكلة"، وكتبت مقالاً عن حادثة التايتانك (الحوادث ٣١ أيار ١٩١٢: ٢).
- وفي هذا المجال، أشار الدكتور نزيه كباره لوجود كاتبتين أرثوذكسيّتان في تلك الحقبة:
- لبيبة صوايا (١٨٧٦ - ١٩١٦)، التي ألّفت رواية حسناء سالونيك، ونشرتها سنة ١٩٠٩، بعد إعلان الدستور، وكانت بمثابة تأريخ للحركة الإصلاحية التي قام بها رجال جمعية الاتحاد والترقي. كما أصدرت رواية

والخوري الماروني في البترون، بالسعي لسحب البنات الموجودات في الأسكلة (عيسى جهاد ٢٠١٨: ١٢٦). وفي سياق متّصل، وفي ذكرى الحرية سنة ١٩١٠، شهدت المدينة احتفالين رسميين كبيرين، وفي كليهما حضر حيدر - وكيل قومندان الجندرمة - وأحضر راقصات معه (شمس الاتحاد ٢٨ تمّوز ١٩١٠: ٣-٤). وبذلك، لم تشهد مرحلة الاتحاديين القصيرة، نقلة نوعيّة في دور المرأة الاقتصادي، وإنما تميّزت بتشريع عمل الخمارات ومراكز فتيات الهوى، كما تميّزت بجو الحرية الذي سمح بنشر إعلانات الخمر على صفحات الصحف الطرابلسيّة. ولعلّ تلك الأجواء ستزيد من حدّة الجو المحافظ في طرابلس، والذي يأسر المرأة في منزلها.

٢/٥- المرأة في الجبال الثقافيّ

كنا قد أشرنا سابقاً للأطر الاجتماعية التي رسمت حدود موضوع تحرير المرأة في طرابلس، فهي المرأة المربيّة والناصحة لولدها، المساندة لزوجها والقادرة على امتصاص غضبه كما ذكر المتصرّف (طرابلس شام ٢٦ شباط ١٨٩٤: ٢-٣)، وبالمراة المتعلّمة التي ستعيل زوجها في همّه وتسانده في أعماله، لكونها ستربي أولاده على الأخلاق الحسنة، كما أكّد عبد الله اليازجي الأرثوذكسيّ (طرابلس شام، العدد ٥٦، ٩ نيسان ١٨٩٤: ٤).

ولذلك تصدّى المسلمون لكل مطالب بعمل المرأة خارج المنزل (طرابلس شام ٦ تشرين الأول ١٨٩٨: ٢)، كما هاجموا مقولات قاسم أمين بخلع المرأة للحجاب (طرابلس شام ٢٩ أيلول ١٨٩٨: ١)، ورحّبت جريدة الحوادث الأرثوذكسيّة بمنشور مشيخة الإسلام بموضوع وجوب الحجاب، وأردفت بأنّ الحالة في بلادنا تستوجب المحافظة على هذه العوائد (الحوادث ٢٨ حزيران ١٩١٢: ٣)، حتّى أن الحوادث دخلت بسياق النقاشات الأوروبيّة، فرفضت مشاركة النساء بالانتخاب، كي لا تكون البداية التي تمهد لترشّح المرأة (الحوادث ١٢ آذار ١٩١٢: ١).

وبالمقابل، أثمر الخط التعليمي الذي زرع في المدينة، بولادة سيّدات أدبيات كتبن على صفحات جرائد المدينة. وكانت أولى الكاتبات الأدبية فريدة عطية، ابنة مدرسة الإنجلييين في البلدة، وحمل مقالها عنوان "الداء العياء"،

خاتمة

يتبين أن مدينة طرابلس العثمانية لم تكن بعيدة عن الحراك الثقافي والديني الذي ناقش موضوع تحرير المرأة، وهو الحراك الذي امتد من الآستانة حتى مصر. وقد دخل تعليم المرأة إلى المدينة من خلال مدارس الإرساليات، التي استقطبت الفتيان والفتيات من مختلف الطوائف الدينية، لأسباب استعمارية، مما حفّز أبناء المدينة من المسلمين والمسيحيين على تأسيس جمعيات خيرية لمواجهة ذلك المسعى. وأمام ضخامة هذا المشروع التربوي، فضّل كل من المسلمين والأرثوذكس التركيز على تعليم الفتيان على حساب الفتيات، وهو ما أظهر أهمية الدور الذي أدّته مدارس الفتيات التابعة للإرساليات.

وفي مقابل هذا التراجع، ساهم المناخ الديني الإسلامي، إلى جانب الشحن الفكري الأرثوذكسي، في تشجيع الفتيات على الإقبال على التعليم، مما زاد الضغط على الطوائف لتقوية المدارس المتعثرة. ومع دخول الروس على هذا الخط، تعزّز الموقف الأرثوذكسي، فتعاون الطرفان في بناء المدارس في البلدة ومنطقة الأسكلة، مما ساهم في التخفيف من مظاهر القلق لدى الأرثوذكس. غير أن تلك المدارس الموسكوبية، التي رسّخت الشعبوية الروسية في المنطقة، لم تجذب بنات أصحاب المال ووجهاء الطائفة، الذين رأوا أنفسهم بمنأى عن التأثيرات الغربية، فأثروا تعليم بناتهم في المدارس الغربية.

وفي جميع الأحوال، عملت المدارس المختلفة على تشكيل صورة جديدة للمرأة في طرابلس، وساهمت في ظهور طبقة من الملمات الطرابلسيات، فأضيفت مهنة نسائية جديدة إلى سلسلة المهن التقليدية التي واكبت حاجات المرأة في عالمها الداخلي مثل المغنيات والقبالات.

ومن الجدير بالذكر أن المؤسسات الحديثة التي دخلت المدينة، من مدارس ومستشفيات، أسهمت في تأطير دور المعلمة والقبالة، فأفرزت نموذج المرأة الموظفة التي تتقاضى راتباً منتظماً. مع ذلك، فإن السند المالي الأساسي لتلك المرأة العثمانية بقي مرتبطاً بتطبيق

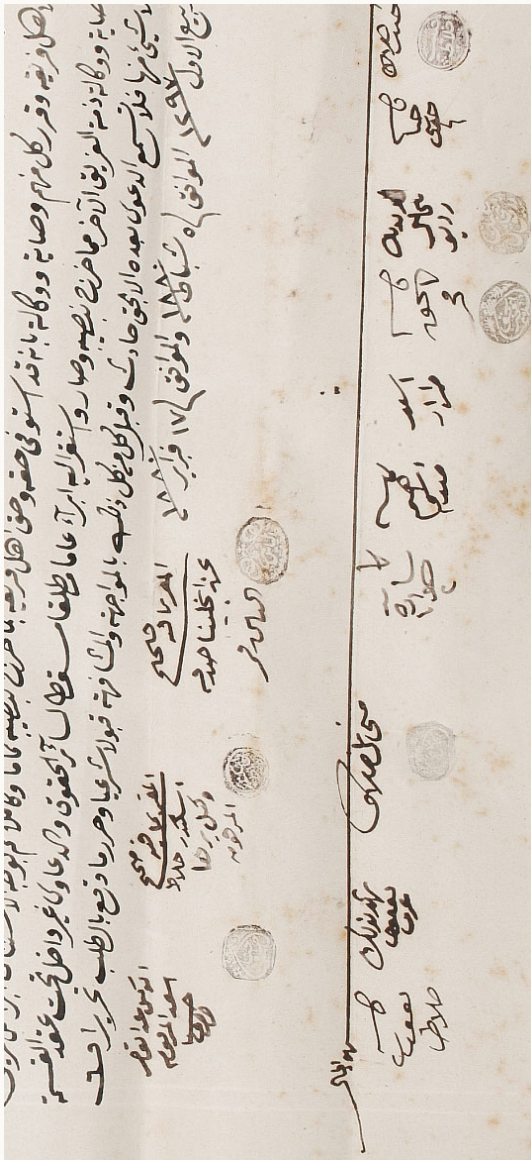
"الحنو الطاهر"، وترجمتها إلى اللغة الإنكليزية، ونشرتها تباعاً في جريدة دليل حمص عام ١٩١٣.

- فريدة عطية (١٨٦٧ - ١٩١٧)، التي ورد ذكرها أعلاه، والتي تركت أربع مؤلفات: بهجة المخدرات في فوائد علم البنات، الروضة النضيرة في أيام بومباي الأخيرة، بين عرشين، وكتاب في تربية البنين. (نزيه كباره ٢٠٠٦: ٤٩٠، ٥٠٥-٥٠٦)

وبذلك لاحظنا كيف نشطت بعض السيدات بالتعبير عن آرائهن في مواضيع عامة وخاصة، في فترة الاتحاديين الذين سمحوا بهامش كبير من الحرية وشجّعوا حركات تحرّر المرأة، ولا شك بأنّ تلك السيدات كنّ ثمرة العمل التربوي الذي قام في طرابلس من مختلف المدارس، وخاصة المدارس الإنجيلية التي تخرّجت منها الطيبة أنيسة صبيغة، والكاتبتان فريدة عطية وليبية صوايا، وجميع أولئك الكاتبات كنّ أرثوذكسيات. كما ننوّه بتلك الصحف التي سمحت للسيدات بالكتابة على صفحاتها. وكان لافتاً إخفاء أغلب السيدات لأسمائهنّ، إذ كنّ محرّجات من الدخول العلني إلى العالم الخارجي، عالم الرجال.

ولتوضيح مكانة المرأة في تلك الفترة العثمانية الإصلاحية، نذكر بأننا أثبتنا وجود سيدتين عثمانيتين من طرابلس ألفن كتباً، في حين أشار كتاب أدباء طرابلس والشمال في القرنين التاسع عشر والعشرين لظهور أدبية واحدة في طرابلس من بعد إعلان دولة لبنان الكبير، وهي جهان عوني (١٩١٦-١٩٥٦) (كبارة نزيه ٢٠٠٦: ٥١٩). وبالتالي كان لافتاً التشجيع الذي لقّيته السيدات من المجتمع العثماني الطرابلسي الذي كان يتعرّض لضغوط سياسية واقتصادية كبيرة خلال تلك المرحلة، مقابل مجتمع مدينة طرابلس زمن الدولة اللبنانية، حين تفشّت ثنائيات البنات الحكومية والخاصة، وحين قامت الجامعة اللبنانية.

رقم (٢)



قسمة تركة الياس صدقه سنة ١٨٨٠، بين ابنه أسعد صدقه القاصر، وابنتيه نزهة صدقه وأنجلينا صدقه، وفقاً للشرع الإسلامي، فنال الابن ١٢ قيراطاً، كما نالت كل من الأختين ستة قيراط من كل عقار، وتمت القسمة بحضور الشهود المسيحيين، ووكلاء الأولاد. (وثائق آل قمر)

أحكام الشرع الإسلامي، التي أكدت حقها في الميراث، وهو ما أتاح لها الانخراط بخجل في عالم المال إلى جانب الرجال، ومن خلاله أحياناً، دون أن يكون لهذا العمل أية علاقة بالإصلاحات العثمانية.

كما عبّرت الصحف الطرابلسية، سواء الإسلامية أو الأرثوذكسية، عن رفضها لعمل المرأة ورفضها خلع الحجاب، إلا أن هذه الصحف، ومن حيث لا تقصد، ساهمت في زرع بذور الفكر النسوي التحرري في المدينة، من خلال عرضها للأفكار الوافدة قبل الرد عليها. وتبقى أولئك السيدات المتعلّمات، وخاصة أولئك الأدبيات، من أبرز ثمار عصر الإصلاحات في المدينة، إذ أثبتن بأن المرأة الطرابلسية عامة، والأرثوذكسية خاصة، شأنها شأن أي امرأة أخرى، قادرة على التميز في الإطار الذي يحدده لها مجتمعها.

الملاحق

رقم (١)

المدارس	
من مصاريف	الى ايرادات
١٥٤٥٦٢ معاشات معلمين ١	٢٨٠ اجرة مخزن
٨١٠ مصاريف ثريه بما فيها ٤٠٤٨٢٠ ايراد الكومديه	مرتبات سنويه
(٣٨٠ جوائز	٥٠٠ سيادة
١٦٦٦٢	٥٠٠ دير البلمند
	٧٥٠ دير كفتين
	١٧٥٠
	٢٢٢٩٢٢ ايراد صواني
	٩٤١٨٠٧

الميزانية التي خصصت للمدارس لسنة ١٨٨٢ (الثنا من الجمعية الخيرية الأرثوذكسية ١٨٨٣: ١٠).

رقم (٣)

عند الاستدريه
 بمكة التاريخ ترمط السبعين اجسه سائرنا الوصفه
 اجسه عرفت مده وجبت فطريه بعد وصولا من اللدا ولم
 ترقب اقامه صانه ينشر لانه الطب لسه ازان اوصوال ثم
 برادنا السوريه نقلت النفا الى القطار المصري بجعل مدنفه
 الكففي نزلنا فيوفه عند اخيرا طعمه ينما نتحار المحمل المتكلم
 لا فاصنا من مدن القطار

مقطع من مذكرات كاترينا حدّاد والدة الطبيبة أنيسة صبيعة والذي يشير لأحوال سوريا السوداء. (وثائق نديم حيدر)

رقم (٤)

إعلان
 البيرة الروسية الشهيرة
 قد اشتهرت هذه البيرة في سائر البلاد نظراً لجودتها وسهولة
 فتحها حتى امتازت على جميع اصناف البيرة على كثرتها وكفى على ذلك
 شاهد انها تقدم في البلاط الروسي ولقد استحضرنّا مؤخراً لأول مرة
 كبة منها فالت رضا الكثيرين فنستلف اليها ذوي النوق السليم ومن ذاق
 يتفقد لذتها وهي تباع في بعض المحازن وبمحلات المشروبات وسيفي
 اللوكندت باسعار متهاودة للغاية
 الوكلاء
 حنا وتيدوري حكيم

إعلان البيرة الروسية المشهورة في جريدة الحوادث
 (الحوادث ٢ آب ١٩١٢: ٤)

المصادر والمراجع:

الجرائد:

- الأحيال. ٢٤ تشرين الأول. ١٩١٠، العدد ٤.
- الأحيال. ٢٤ تشرين الأول. ١٩١٠، العدد ٤.
- الحوادث ١٢ آذار ١٩١٢، العدد ٢.
- الحوادث ٣١ أيار ١٩١٢، العدد ٤.
- الحوادث، ١٢ تموز ١٩١٢، العدد ٦.
- الحوادث ١٧ كانون الثاني ١٩١٢، العدد ١٢.
- الحوادث ٢٨ حزيران ١٩١٢، العدد ٥٦.
- الحوادث ٢٠ كانون الأول ١٩١٢، العدد ١٠٢.
- الحوادث ١٤ تشرين الثاني ١٩١٣، العدد ١٩٠.
- شمس الاتحاد. ٢٨ تموز. ١٩١٠، العدد ١.
- طرابلس شام، ٢١ أيار ١٨٩٤، العدد ٦.
- طرابلس شام، ٨ أيار ١٨٩٣، العدد ٩.
- طرابلس شام، ٢٢ أيار ١٨٩٣، العدد ١١.
- طرابلس شام، ٥ حزيران ١٨٩٣، العدد ١٣.
- طرابلس شام، ٣١ تموز ١٨٩٣، عدد ٢٠.
- طرابلس شام، ١١ أيلول ١٨٩٣، عدد ٢٦.
- طرابلس شام ٢٦ شباط ١٨٩٤، العدد ٥٠.
- طرابلس شام، ١١ حزيران ١٨٩٤، العدد ٦٤.
- طرابلس شام ٣ كانون الأول ١٨٩٤، العدد ٨٨.
- طرابلس شام، ١١ شباط ١٨٩٥، العدد ٩٨.
- طرابلس شام، ١٧ آب ١٨٩٦، العدد ١٦٨.
- طرابلس شام ٢٢ شباط ١٨٩٧، العدد ١٩٥.
- طرابلس شام ١٢ تموز ١٨٩٧، العدد ٢١٤.
- طرابلس شام ٦ أيلول ١٨٩٧، العدد ٢٢٢.
- طرابلس شام، ٨ تشرين الثاني ١٨٩٧، العدد ٢٣١.
- طرابلس شام ٤ تموز ١٨٩٨، العدد ٢٦٤.
- طرابلس شام ١١ تموز ١٨٩٨، العدد ٢٦٥.
- طرابلس شام، ٨ أيلول ١٨٩٨، العدد ٢٧٤.
- طرابلس شام ٢٩ أيلول ١٨٩٨، العدد ٢٧٧.
- طرابلس شام ٦ تشرين الأول ١٨٩٨، العدد ٢٧٨.
- طرابلس شام، ١ أيار ١٩٠١، العدد ٤٠٦.
- طرابلس شام ٢٤ تموز ١٩٠١، العدد ٤١٨.
- الوجدان. ٢٢ تموز. ١٩١٠، العدد ٣.

وثائق غير منشورة:

- الثنا من الجمعية الأرثوذكسية بطرابلس شام تأسست غرة عام سنة ١٨٨٢. المطبعة الأدبية، بيروت. سنة ١٨٨٣.
- الثنا من جمعية الخيرية الأرثوذكسية بطرابلس شام ١٨٨٣.
- خلاصة أعمال الجمعية الخيرية الأرثوذكسية بأسكلة طرابلس شام عن ٤ سنوات السادسة عشر والسابعة عشر والثامنة عشر والتاسعة عشر من اول نيسان سنة ١٩١٠ لغاية ٣١ آذار سنة ١٩١٤.
- وثائق آل حيدر.
- وثائق آل قمر.
- وثائق المطرانية. ١٣ تموز ١٨٩٧.
- وثائق المطرانية. ٢٠ شباط ١٨٨٢.
- وثائق المطرانية. ٢١ أيلول ١٨٨٦.
- وثائق المطرانية. ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢.
- وثائق المطرانية. ١٢ أيلول ١٨٨٦.
- سلنامة سوريا ١٢٨٨، ص. ٢٨٨.
- سلنامة سوريا ١٢٨٥، ص. ٧٧.
- سلنامة ولاية سوريا. ١٣٠٠، ٤٤٦.
- سلنامة ١٣٠٢. مطبعة سنده، طبع أولنمشر. ص ٢٩٥.

الكتب المنشورة

- نوفل عبد الله، ١٩٨٤، تراجم علماء طرابلس وأدبائها. المنشورات الجامعة. ص. ٣٠٣.
- وزارة الثقافة في روسيا الاتحادية ومتحف الدولة للتاريخ الديني، ٢٠١٢، المدارس الموسكوبية في لبنان ١٨٨٧-١٩١٤، Alarm editions. ص. ١٧٥.
- كيال مهى، المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية ١٥١٦-١٩١٨، الجامعة اللبنانية، أيار ١٩٩٥. ص ٢٨١.
- كباره نزيه. ٢٠٠٦، أدباء طرابلس والشمال في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، ص. ٨٣٢.
- عيسى جهاد. ٢٠١٨، يوميات المطران أنطون عريضة، ١٩١٠-١٩١٩، الأبعاد السياسية والإجتماعية والإقتصادية. قنوبين، منشورات رليطة قنوبين للرسالة والتراث، ص. ٣٠٦.
- سليمان هلا. ٢٠١٦، دور الإرساليات الأجنبية في طرابلس، ١٨٠٠-١٩١٤، جونه، مكتبة الوادي المقدس، ص. ٢٣٨.

المواقع الإلكترونية

- Başbuğu-Yaraman, Ayşegül. 1996. "La femme turque dans son parcours émancipatoire de l'Empire Ottoman à la République." *CEMOT – Cahiers d'Études sur la Méditerranée Orientale et le Monde Turco-Iranien*, no. 21. Consulté le 17 octobre 2022. https://www.persee.fr/doc/cemot_0764-9878_1996_num_21_1_1307.
- Ülken, Hilmi. n.d. "Évolution de la condition féminine en Turquie." *Istanbul University Journal of Sociology*. Consulté le 17 octobre 2022. <https://dergipark.org.tr/en/pub/iusosyoloji/issue/555/5454>.
- Şimga, Hülya. 2019. "Le féminisme en Turquie : entre modernisme et conservatisme." *Diogene*, no. 3 : 199–214. Consulté le 17 octobre 2022. <https://www.cairn.info/revue-diogene-2019-3-page-199.htm>.
- Monqid, Safaa. n.d. "Mouvements féminins et féministes en Égypte : rétrospective et histoire d'une évolution (fin XIXe siècle à nos jours)." *Insaniyat*. Consulté le 17 octobre 2022. <http://journals.openedition.org/insaniyat/16591>.
- Charafeddine, Fatmeh. n.d. "Women in the Arab World: Journalist." American University of Beirut Library Guides. Consulté le 29 octobre 2022. <https://aub.edu.lb/libguides.com/c.php?g=841773&p=6209303>.

الكتب الأجنبية

- Sienkiewicz. 1978. *Les documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et du Proche-Orient du XVIIe siècle à nos jours. Tome I : Sources françaises*. Documents réunis par Adil Ismaïl, sous la direction de Maurice Chehab. Volume 14. Beyrouth : Publications des Œuvres Politiques et Historiques.
- Souharet. 1978. *Les documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et du Proche-Orient du XVIIe siècle à nos jours. Tome I : Sources françaises*. Documents réunis par Adil Ismaïl, sous la direction de Maurice Chehab. Volume 16. Beyrouth : Publications des Œuvres Politiques et Historiques.

من الوراقاة إلى الطباعة

منعطف في البنية الثقافية بالمغرب قبل الاستعمار

د. عادل الطاهري

دكتوراه في التاريخ الحديث

جامعة ابن طفيل

القنيطرة - المملكة المغربية



ملخص

تتناول هذه الدراسة خصائص الوراقاة المغربية في العصر الوسيط الطويل، ثم تنتقل لبيان ذلك المنعطف التقني والثقافي بدخول الطباعة في القرن التاسع عشر في سياق اتسم بتعرف المغاربة على بنيات العصر الحديث. ومن أهم النقاط التي تتناولها الدراسة مسألة السياق التاريخي لدخول الطباعة إلى المغرب والأسباب الثابتة وراء تأخر المغاربة في استجلاب هذه التكنولوجيا الحديثة، مستلهة تجارب تنتمي إلى فضاءات ثقافية إسلامية أخرى. ثم تتبع المراحل التي مرت بها من لحظة الدخول سنة 1864 إلى بداية القرن العشرين قبل الحماية. كما تقف عند أهم المنشورات التي طبعت في هذه الفترة وتقيم التأثير الذي مارسه على المستوى الثقافي ومدى إسهامها في خلق مناخ فكري جديد. ومن جانب آخر تتناول الدراسة تقاطعات الثقافية والسياسي في قضية الطباعة، فتحلل الظهير الذي أصدره المولى عبد العزيز، وكذا تحفر تاريخياً في المبادرة التي اتخذها المولى عبد الحفيظ بجعل كل المطابع تحت الإشراف المخزني.

كلمات مفتاحية:

الوراقاة: الطباعة: منعطف: قبل الاستعمار: التاريخ الحديث والمعاصر

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: 11 أغسطس 2025

تاريخ قبول النشر: 15 سبتمبر 2025



10.21608/kan.2025.413082.1259

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عادل الطاهري، "من الوراقاة إلى الطباعة: منعطف في البنية الثقافية بالمغرب قبل الاستعمار"، - دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون، ديسمبر 2025، ص 135 - 149.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: adil.ettahiri.hist@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

إذا عدنا إلى مقدمة ابن خلدون، فأول ما يطالعنا من حديثه عن الوراقة هو مقاربتها من منظور نظريته في العمران. فهذا النشاط الثقافي في العصر الوسيط كان تابعاً لمعيار ضخامة الدولة أو ما يعبر عنه بـ "توابع الحضارة"^(٢) وذلك بالنظر إلى أن الدولة كانت تختص بالحظ الوافر من مهام الكتابة. وهو ما يؤدي بالضرورة إلى تراجع العناية بالوراقة عند حدوث تلف عمراني لسبب من الأسباب. وقد سجل ابن خلدون واقع انحباس النشاط الوراق في عهده حيث يقول: "وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاهر بالعراق والأندلس"^(٣). وفي ذات المقاربة الخلدونية نجد تتبعاً للتغيرات الحاصلة على مستوى الوراقة بنفس تاريخي، فيشير في البدء إلى استعمال الرق لقلّة التآليف وتشريف للمكتوبات، لكن مع تنامي التآليف "أشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد"^(٤).

ولا تقدم لنا الكتب المصدرة معلومات ضافية عن الوراقة في التاريخ المغربي السابق على فترة المرابطين، حيث تحفظ المصادر اسم نساخ واحد هو الفقيه المالكي أبو عثمان سعيد بن خلف الله البصري، وقد ورد اسمه في "ترتيب المدارك" للقاضي عياض حيث قال عنه: "وكتب بيده كثيراً من الدواوين وقلما رأيت كتاباً مشهوراً في المذهب إلا وقع إليّ بخط يده"^(٥).

ابتدأ الخط المغربي مشرقياً الطابع، وذلك مع دخول الأدارسة إلى المغرب. وقد ذكر المنوني استناداً على البكري أن الوراقة المغربية عرفت رواجاً كبيراً في فترة حكم يحيى الرابع (٢٩٢-٣٠٥ هـ)^(٦). وكان المستعمل في هذه الفترة كما أشرنا سالفاً في ملاحظة ابن خلدون هو الرق^(٧)، لكن مع المرابطين سيزدهر استعمال الكاغد، حيث تشي بعض المصادر إلى وجود ١٠٤ معمل للكاغد، يعلق محمد المنوني على ذلك فيقول: "وهذا يدل على انتشار الكتابة على الورق إلى جانب الرق في المغرب المرابطي"^(٨). في الدولة الموحدية بالإضافة إلى الوراقة اتسعت صناعة التفسير، فحفظت كتب المصادر الكثير من أسماء المسافرين، كما ورد نص مشهور عن تفسير المصحف العثماني عند نقله من قرطبة إلى مراكش في عهد عبد المؤمن الموحي، يقول الناصري: "ثم عزم عبد

شكل القرن التاسع عشر منعطفاً تاريخياً ملموساً في تاريخ المغرب، حيث تعرفت فيه الحضارة المغربية على العديد من منتجات العصر الحديث. وكان البعد الثقافي في هذا الاكتشاف حاضراً بقوة. ومن مظاهر هذا الانفتاح استعمال تكنولوجيا الطباعة لأول مرة بعد أن ظلت طوال العصر الوسيط الطويل -وبتأخر دام أربعة قرون- تستعمل الأساليب التقليدية في النسخ، والتي سُميت في التاريخ الثقافي العربي بالوراقة. إن ما نهدف إليه هنا هو تحديد هذا المنعطف الثقافي والانتقال من الوراقة إلى الطباعة، والإحاطة بظروف دخول هذه التقنية الحديثة إلى المغرب وتداعياتها الثقافية. ثم الحفر في الأسباب التي كانت وراء تأخر دخول الطباعة للمغرب قياساً لا إلى أوروبا فقط، والتي شرعت في استعمالها منذ أواسط القرن الخامس عشر، بل قياساً كذلك إلى دول العالم الإسلامي بما في ذلك دول شمال إفريقيا. وبالنظر إلى أن هذه التقنية تداخلت فيها أبعاد سياسية، فإن البحث من مدخل إشكالي عن تقاطعات الثقافي والسياسي كان محورياً أساسياً في الدراسة. سواء في لحظة المولى عبد العزيز وصدور ظهيره المنظم لأشغال الطباعة، أو في لحظة المولى عبد الحفيظ الذي تولى السلطة في سياقات سياسية تتجاذبها أطراف متعددة عملت على نشر نموذجها الفكري، ما فرض عليه احتكار الإشراف على عمل الطباعة.

أولاً: الوراقة المغربية

تتعدد معاني مصطلح الوراقة في التاريخ الثقافي المغربي. وقد ميز محمد المنوني في كتابه "تاريخ الوراقة المغربية" بين ثلاث دلالات. فعند ابن الحاج الوراقة هي صناعة الورق فقط، ولا يدخل فيها النسخة، بل يخص ابن الحاج فصلاً آخر لتناولها كنشاط ثقافي مغاير. أما محمد العربي الفاسي فعلى عكس ابن الحاج يطابق بين مصطلح الوراقة والنسخة وذلك عندما يقول: "والنسخة حرفة النسخ وهي الوراقة". في حين أن ابن خلدون يجعل الوراقة شاملة لكل هذه الأنشطة من إعداد للورق ونسخ وتصحيح. وقد وظف محمد المنوني مصطلح الوراقة بهذا المعنى الخلدوني^(٩).

وتناسب حروفه وتناسق سطوره^(١٤). ويوصف هذا الخط بالكثافة والرشاقة وميل حروفه إلى التدوير^(١٥). وأما الخط المسند فحروفه مائلة إلى اليمين ومتسلسلة، وسمي المسند بالزمامي كذلك لأنه كما أشرت كانت تكتب به الوثائق العدلية مثل عقود الزواج والطلاق والإرث، فالكلمة مأخوذة من "الزمام" التي تعني التقييد والتسجيل^(١٦).

ويبدو أنه انطلاقاً من العهد المريني سيلوح في الأفق ذلك التفاوت الحضاري بين المغرب وأوروبا، خصوصاً أن هذه الأخيرة قامت فيها بوادر نهضة حيثة. ومس هذا التفاوت كذلك صناعة الورق، ويظهر ذلك من غزو "الورق الرومي" للمغرب وخصوصاً الورق القادم من البندقية، وهو واقع نجد تردد أصدائه في كتب النوازل مثل "المعيار المغرب" للونشريس. فقد حفظ هذا الكتاب سؤالاً وجه من مكناسة إلى ابن مرزوق الحفيد (ت. ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٩ م) حول حكم استعمال الكاغد الرومي، وأجاب ابن مرزوق في رسالة سماها "المومي إلى القول بطهارة الورق الرومي"^(١٧). وهي فتوى تكشف عن غزو الورق الرومي للأسواق المغربية واستعماله بكثرة على نحو آثار الاستشكال حول حكمه من زاوية الطهارة والنجاسة.

وقد استمر واقع الوراقة هذا إلى حدود الاصطدام بالبنيات التقنية الحديثة في القرن التاسع عشر. ويذكر محمد المنوني أن النساخة في العصر الوسيط الطويل في المغرب تنتزل منزلة الطباعة في العصر الحديث. بل يمكن القول إن المغاربة حين تعرفوا لأول مرة على الطباعة بادروا إلى استعمال الحجرية منها، وهي مطبعة تعتمد على النسخ اليدوي كنشاط أولي، وتذهب لطيفة الكندوز إلى أن المغاربة استقدموا هذه الطباعة الحجرية بالخصوص وأعرضوا عن الطباعة التيبوغرافية حفاظاً على الخط المغربي. تكتب لطيفة الكندوز عن هذا السبب الثقافي: "الطباعة الحجرية هي التقنية الأكثر ملاءمة لذوق العلماء المغاربة، لأنها تحتفظ بمزايا وسمات الكتاب المخطوط الذي ألفه القراء"^(١٨).

وقبيل دخول الطباعة كانت صناعة الوراقة تدر على أصحابها مداخيل طائلة. فمن وراقي القرن التاسع عشر الحاج إدريس بن إدريس العمراوي "اكتسب من مردود هذه المهنة عقاراً"، ومحمد بن عبد السلام بن عزوز الذي

المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع في انتخاب كسوته واختيار حليته. فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والأندلس، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظاميين والحلائن والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين"^(١٩). ومما يدل على بلوغ التسفير شأواً عظيماً في العهد الموحي ظهور مؤلفات متخصصة في هذه الصناعة، منها كتاب بعنوان "التيسير في صنعة التسفير" لأبي عمرو بكر بن إبراهيم اللخمي الإشبيلي^(٢٠).

وفي العصر الوسيط حقق المغرب تفوقاً على البلدان الأوربية في صناعة الوراقة؛ ومن مظاهر هذا الازدهار الواسع لصناعة الكاغد في المغرب الموحي خصوصاً في سبتة وفاس والأندلس؛ أن يكون أول مصنع للكاغد بأوروبا تم بتأثير مغربي. يشير محمد المنوني في كتابه "العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين" إلى هذا التفاوت التقني-الثقافي بين المغرب وأوروبا فيقول: "ومما يستجيب أن يلفت النظر أنه بينما كان المغرب في هذا التاريخ بلغت فيه نهضة صناعة الورق ذلك المبلغ كانت بلاد أوروبا كلها باستثناء إسبانيا ليس بها إذ ذاك ولا معمل واحد للورق"^(٢١). ثم يشير إلى ظهور أول مصنع للورق في إسبانيا سنة ١١٥٠ م، بينما لم تنشئ إيطاليا مصنعاً للورق إلا في نهاية القرن الثالث عشر، أما ألمانيا ففي سنة ١٣٩٠^(٢٢).

وابتداءً من العصر المريني سيتم التمييز بين خمسة أنواع من الخطوط. الخط المبسوط والخط المجوهر والخط المسند والخط المشرقي والخط الكوفي. وقد كان الخط المبسوط مستعملاً في كتابة المصاحف القديمة. وأما الخط المجوهر فهو الأكثر تداولاً، حيث كان يستعمل في كتابة المراسيم والمراسلات السلطانية، وهو الخط الذي سكتب به المؤلفات العلمية التي طُبعت في المطبعة الحجرية في العهد العلوي مع محمد بن عبد الرحمن. وبينما يستعمل الخط المسند للوثائق العدلية. وعن إيتيمولوجيا هذه التسميات، فالخط المبسوط سمي بهذا الاسم لبساطته، وقد كان أول ما يتعلمه الأطفال في الكتاتيب^(٢٣). وأما الخط المجوهر فسمي بهذا الاسم لطابعه الجمالي، فهو يشبه "بعقد الجوهر لجماله

أعيان مدينة جنوبية للاستعمال الشخصي في الغالب، ثم لما عاينها المراقبون في مرسى مدينة الصويرة قرّر إرسالها إلى السلطان. وهذا الوضع يضع السلطان والعلماء المغاربة أمام الأمر الواقع ولا يترك مجالاً واسعاً لاستفتاء الفقهاء. أمام الفرضية الثانية فهو الحسم الديني الذي حدث في القضية بدول إسلامية أخرى، والاستفادة من خدماتها منذ أزيد من قرن كما هو الشأن مع العثمانيين. فهذا الاستخدام قدم نوعاً من المشروعية وقدم للاحقين حلولاً وأجوبة فقهية جاهزة، وبالفعل فإننا نجد فتاوي فقهاء الدولة العثمانية حاضرة في النوازل المغربية مثل "النوازل الجديدة الكبرى" لمحمد المهدي الوزاني.

ومع ذلك فعدم الاستفتاء السلطاني للعلماء لا يعفيانا من البحث عن أسباب هذا التأخر في استخدام الطباعة بالمغرب. ورغم أننا قد لا نجد أجوبة في المصادر المغربية، إلا أن التجربة العثمانية كتجربة إسلامية شبيهة تقدم إيضاحات حول أسباب هذا التلكؤ في العالم الإسلامي عن الانفتاح على هذه التكنولوجيا، ذلك أن العثمانيين حين رخصوا باجتلاب آلة طباعة سنة 1726 تحت إشراف إبراهيم متفرقة لم يتركوا الحبل على الغارب، بل وضعوا قيوداً لاستعمالها. ومن هذا المنظور أصدرت فتوى مرافقة حول الكتب التي يسمح بطبعها. والملاحظ أن الفتوى وضعت قيوداً متمثلة في منع طبع كل الكتب الإسلامية سواء كانت قرآناً أو كتباً تنتمي لحقول إسلامية مثل الفقه والحديث وعلم الكلام.. إلخ. يقول الكردي: "أفتى شيخ الإسلام بالأساتنة عبد الله أفندي بجواز طبع الكتب غير الدينية"^(٢٤). وما يفهم من هذا الموقف أن العلوم الدينية والشرعية كان لها نوع من الرمزية، إن لم نقل القداسة التي تمنع من طبعها على آلة من اختراع الأوروبيين المسيحيين، ويمكن هنا استحضار النموذج الوسيطى نفسه عن حكم استعمال الورق الرومي، فيبدو أن الموقفين ينسدلان عن تصور واحد. وبخصوص القرآن الكريم تحديداً، فقد كانت فكرة شائعة أن رسم حروفه توقيفية، ويُقصد بذلك أن القرآن كما أوحى إلى النبي محمد (ﷺ) باللفظ، فقد كانت طريقة كتابته كذلك من الوحي المنزل، يقول الكردي: "علم إجماع الأمة على عدم جواز كتابة القرآن

كان ينسخ كتاب القاموس المحيط، واستطاع من هذا النسخ أن يشتري داراً في حي باب دكالة في مراكش^(١٩)، وغيرها كثير من النصوص التي تدل على الرواج الذي كانت تعرفه مهنة الوراقة في القرن التاسع عشر قبل أن تتراجع تحت وطأة دخول الطباعة. وقد تلمس بالفعل محمد المنوني في تأريخه للوراقة المغربية اصطدام البنيّتين: الوراقة والطباعة، فكتب يقول عن العصر العلوي الرابع حسب تقسيمه التاريخي: "وفي هذه الفترة وصلت المطبعة الحجرية للمغرب، وتمركزت في فاس: المدينة التي لمع بها وراقون مطبعيون اضطلعوا بنسخ المؤلفات المنشورة بهذه المطبعة"^(٢٠). على أن ثمة واقعاً آخر لا بد من الوقوف عليه هنا، وهو أن الوراقة كصناعة للورق في المغرب ستتراجع بشكل شبه كلي، وسيتم الاعتماد على الورق القادم من أوروبا، وقد اشتهر تاجران باستقدام الورق من إنجلترا وهما التاجر المغربي المهدي لحلو واليهودي المعروف بابن سوسان كما يظهر من الكتب المطبوعة في المطبعة الحجرية^(٢١).

ثانياً: دخول الطباعة (قيود دينية وثقل اجتماعي)

اتسم القرن التاسع عشر بدخول الكثير من المنجزات العلمية والتقنية، وبإشراك السلاطين العلويين تحت تأثير الضغوط الأوربية إصلاحات عديدة. والملاحظ في هذه التجربة الإصلاحية في القرن التاسع عشر هو الخضوع لإكراهات دينية استوجبت التمهيد لها باستفتاء العلماء حول مشروعيتها قبل الإقدام الفعلي على التنزيل. هذا ما حدث مع محاولات تحديث الجيش^(٢٢)، ومع إدخال إصلاحات جبائية^(٢٣) وغيرها من الحالات. لكن المفارقة أنه مع إدخال آلة الطباعة لم تحفظ المصادر أي طلب للفتوى من السلطان العلوي محمد الرابع (١٨٥٩-١٨٧٣). هذه مفارقة رصدتها الكثير من الباحثين الذين كتبوا في الحقل المتعلق بدخول الطباعة إلى المغرب دون تقديم أية تفسيرات لذلك. ويمكن تقديم فرضيتين لعدم استفتاء العلماء بخصوص حكم استعمال المطبعة. الفرضية الأولى وهي أن مبادرة إدخال الطباعة للمغرب لم تكن رسمية من السلطان ولا كان على علم سابق بها، وإنما -كما سنرى لاحقاً- دخلت المطبعة من طرف أحد

عبد الحفيظ الفاسي: "كان عالماً كبيراً وصدرًا شهيرًا، حافظًا نقاداً موفور الحظ في الحديث والتفسير والأصلين والعربية والتاريخ متقدما في الفقه حافظاً مستحضراً لقواعده"^(٢٨). وهكذا فيلاحظ أن الذي يتكرر في هذه الترجمة لمحمد السباعي هي سعة الإحاطة والحفظ والقدرة على التذكر. ومنه يمكن أن يفهم أن الطباعة كانت لتسقط مكانة العلماء ومرجعيتهم الدينية أمام انتشار الكتب وسهولة الوصول إليها، تماما كما شكلت هذه الآلة تهديداً حقيقياً للنساخ الذين كانوا يمتنون نسخ الكتب يدوياً.

وبغض النظر عن الأسباب الذاتية التي قد تكون وراء هذا الرفض للطباعة، فالذي يظهر من كلام السباعي أنه رأى في هذه التكنولوجيا أحد العوامل الموقعة في انحطاط همم الطلبة عن حفظ العلم وتقييمه باليد والاتكال في المقابل على المطبوع. وقد نقل عبد الحفيظ الفاسي في "معجم الشيوخ" هذا الكتاب فقال: "[ومن تصانيفه] رسالة في الحظ على الاعتناء بالتأليف الخطية والتحذير من الكتب المطبوعة وبيان أنها سبب في تقليل الهمم وعدم حفظ العلم ونسيانه"^(٢٩).

ثالثاً: سياق دخول الطباعة وتأثيرها

في سياق الاحتكاك الحضاري بأوروبا، وبالأخص خلال السفارات والرحلات التي قام بها سفراء ورحالة مغاربة في مناسبات وظروف متباينة^(٣٠)؛ تم استكشاف العديد من مظاهر التحديث في البلدان الغربية، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي الفكري وكذا البعد التقني. على هذا المستوى الأخير نطالع في النصوص التي كتبها الرحالة اهتماماً خاصاً بآلة الطباعة، حيث أسهب بعض السفراء المغاربة في وصفها وإبراز أهميتها.

لعل من أول هذه التقييدات التي تحدثت عن الطباعة تلك التي دونها محمد الصفار في رحلته إلى فرنسا (١٨٤٥-١٨٤٦) ككاتب مرافق لعبد القادر أشعاش، وقد جاءت هذه الرحلة على إثر الرغبة التي راودت المغرب لمعرفة مكامن التقدم في فرنسا بعد الهزيمة التي مني بها معها في إيسلي سنة ١٨٤٤. يتحدث الصفار عن "الإسْطَمْبَا" ويقصد بها دار طبع

بغير الرسم العثماني"^(٣١). ولهذا فقد كانت للعثمانيين حساسية عالية إزاء ابتكار خط آخر لكتابة النص القرآني.

ولا يمكن إغفال الجانب الاجتماعي في المسألة، ذلك أن هذه التكنولوجيا الحديثة كانت تهدد التراتبية الاجتماعية الموروثة عن العصر الوسيط حيث العالم هو الشخصية المحتكرة للعلم والمرجعية التي يلجأ إليها في القضايا ذات الصلة بالعلم. إن عالم المعرفة والعلم في المجتمعات الوسيطية كان انشغالاً نخبويًا تمارسه فئة من الناس وتكتسب منه نوعاً من الرأسمال الرمزي. والواقع أن الطباعة، ومنذ ظهورها في أوروبا، أسهمت في توسيع نطاق الشريحة التي تتعاطى للعلم، وهذا ما لم يشجع الطبقات الاجتماعية أو "بيوتات" العلم في المغرب لاقتناء الطباعة. يقول فوزي عبد الرزاق حول هذا الجانب: "إن العلوم والمعارف التي كانت فيما سبق خاضعة بمختلف أنواعها لمراقبة فئة قليلة من الأشخاص واحتكارهم، ستكون رهن إشارة أكبر عدد من الأفراد. ومن شأن ذلك التحول الكبير أن يؤدي إلى التقليل من قوة هذه المجموعات ويحد من شوكتها"^(٣٢). ونلاحظ بالفعل في التجربة العثمانية وعياً مبكراً بأن الطباعة من شأنها أن تفسح الكتاب لشريحة واسعة من الناس، بمن فيهم الفقراء بالنظر إلى زهادة ثمنه بالمقارنة مع ثمن الكتاب المنسوخ يدوياً، يقول أحد أوائل المصلحين الداعين إلى اعتماد الطباعة محمد حقي وهو يعدد منافع هذه الآلة أن الكتب المطبوعة: "ينال منها كثير من الفقراء والأغنياء مرامهم فيحصل فهم كثير من العلوم ويبلغون إلى الكمال في مدة قليلة"، وفي موضع آخر يتحدث حقي عن نفع آخر للطباعة فيحدث عن: "ترخيص قيمة الكتب وتسهيل تملكها فينشر في البلاد والقرى ويشتره أهلها"^(٣٣).

على أن التجربة المغربية تقدم لنا مثلاً حياً لرجل علم اشتهر بالموسوعية والاطلاع الواسع على العلوم الدينية وممارس الافتاء وكان مرجعاً يُلتجأ إليه في النوازل والأسئلة العلمية، ويبدو أن هذا العالم الذي اسمه محمد السباعي قد استشعر ما يمكن أن تشكله هذه التكنولوجيا الحديثة من تهديد للعلماء لهذا عارض إدخال الطباعة إلى المغرب في العهد الحسني. كتب عنه

محمد المنوني في فصل بعنوان "تطلع مغربي للطباعة" عن رحلة العمراوي بالخصوص. وأضاف شهادة مغربي آخر أقدم من الصفار والعمراوي لكنه لم يترك أي تقييد، ويتعلق الأمر برجل اسمه محمد الفاسي تمكن من معاينة آلة الطباعة بمصر وذلك في سياق الحملة البونابارتية. يكتب محمد المنوني بعد إشارته إلى دعوة العمراوي لاقتناء الطباعة سنة ١٨٦٠: "ويبدو أن المغرب كان يتطلع لهذا الاختراع العلمي قبل هذا التاريخ بكثير، فهناك رحالة مغربي يحمل اسم الشيخ محمد الفاسي وقف سنة (١٨٠١م/١٢١٦هـ) على مطبعة الحملة الفرنسية بالقاهرة وأبدى إعجابا شديدا بها"^(٣٤).

وفي الواقع لم تكن هذه الدعوات والتطلعات بالنجاح على المستوى الرسمي، ذلك أن أيًا من السلاطين المغاربة قام أو شجع على جلب تكنولوجيا الطباعة. لقد كان المغرب حالة فريدة واستثنائية في الطريقة التي أدخل بها هذه التقنية كما أشار عبد الله العروي في كتابه "الأصول الثقافية والاجتماعية للوطنية المغربية"، وتم الأمر بمبادرة فردية من أحد قضاة مدينة من الجنوب المغربي وهي رودانة (تارودانت حاليا). ويتعلق الأمر بالقاضي محمد الطيب الروداني الذي يخبرنا المختار السوسي أنه ينتمي إلى أسرة علم مشهورة بالصالح والاستقامة. كان أبوه قاضيا، وفي غيابه كان ينيب عنه ابنه الطيب هذا، وبالإضافة إلى القضاء فقد كان الطيب الروداني يدرس العلوم. يقول المختار السوسي عن موضوع اقتناء الطيب الروداني للطباعة من مصر: "ومن مآثره أنه هو الذي اشترى في حجته الطبعة الحجرية الفاسية الأولى من مصر يديرها لنفسه"^(٣٥).

ولابد من الإشارة هنا أن معظم ما كتبه الأجانب عن هذا الموضوع لم يكن دقيقا، وهو مستمد من روايات شفوية. ومنهم على سبيل المثال "روجي لوتورنو" في كتابه "فاس قبل الحماية". فهذا الباحث يرى أن جلب المطبعة تم بمبادرة رسمية وذلك بعد أن أشاد الحجاج بهذه التكنولوجيا عند مشاهدتها في المشرق. وبالمثل فإن معلوماته عن الكتب الأولى التي طبعت في هذه المطبعة الحجرية الفاسية مجانية للصواب، فالباحث يقول إن "أول كتاب طبع بفاس هو شرح الغزالي للشيخ مرتضى"^(٣٦). والواقع أن هذا الكتاب -وعنوانه "إتحاف

الكتب، فيصفها بأنها "من أعاجيب الصنائع". وبعد أن يصف الغرف المختلفة التي تحدث فيها عمليات الطبع، يخلص إلى ما لهذه التقنية الجديدة من دور في تسريع عملية طبع الكتب فيقول: "ويطبعون على تلك اللوحة ما شاءوا من الأوراق، مائة وألفا أو عشرة آلاف كلها متماثلة. وكذلك يفعلون في ورقة أخرى وأخرى، حتى يأتوا على آخر أوراق الكتاب. فيوم يتم الكتاب يخرج معه ألف كتاب مثلاً"^(٣٧). وقد عد الصفار ثمانمائة عامل في هذه الدار، وتعجب من استمرار العمل فيها دون فتور، مع ما يعنيه ذلك من كثرة الكتب "حتى يتعجب الإنسان أين تدخل هذه الكتب". وبعد ذلك يورد الصفار انطباعين اثنين حول اعتماد الأوربيين لتقنية الطباعة: الانطباع الأول أنهم يُدونون كل شيء. أما الثاني فيتصل به؛ وفيه نوع من اللز للبنية الثقافية التقليدية في المغرب والعالم الإسلامي عموما، ونعني ما عبر عنه بقوله: "ولا يتكلمون على حفظهم في شيء من الأشياء"^(٣٨).

كانت تلك أول إشارة لرحالة مغربي إلى الطباعة بعد الاصطدام بمظاهر التحديث في الغرب. وبعد أزيد من عقد ومع الهزيمة الأخرى للمغرب مع إسبانيا في حرب تطوان سنة ١٨٦٠، عين السلطان محمد بن عبد الرحمن سفيرا آخر للرحلة إلى فرنسا وهو إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي، والغاية من هذه الرحلة كما يقول العمراوي: "المسارعة إلى استجلاب ما تصان به الثغور من العدة"^(٣٩). ولم يفت كذلك هذا الوزير السفير التتبيه على أهمية آلة الطباعة، وقد رفع في كتابه "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" ملتصقا إلى السلطان محمد بن عبد الرحمن لاستجلابها. وقدم بين يديه عدة مبررات لتعليل ملتصقه هذا، أولها أن هذه الآلة دخلت كل الأقطار الإسلامية، والثاني أن العلماء وهم خاصة المجتمع الإسلامي وراسمو توجهه الديني والثقافي قد تلقوا هذه التقنية بالقبول الحسن، ثم إنها "معينة في تكثير العلوم" وغير مكلفة ماديا مثل النسخ اليدوي، يقول العمراوي رافعا ملتصقه: "ونطلب الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة".

يبدو واضحا، إذن، أن المغاربة تعرفوا على تقنية الطباعة من خلال الرحلات والسفارات التي قامت بها شخصيات مغربية إلى الديار الأوروبية، وقد تحدث

"حيازة" السلطان لمطبعة الروداني لا عن إهداء كما يذكر ابن زيدان والمنوني. يقول السوسي في إشارة دالة: "ثم حازها منه سنة ١٢٨١ السلطان سيدي محمد ابن مولاي عبد الرحمان فنقلت من السويرة إلى مكناسة"^(٤١). أما القرائن الأخرى فهي العقد نفسه الذي كتبه الطبيب الروداني مع الطبيب المصري محمد القيان. وبالعودة إلى نص هذا العقد كما نقله محمد المنوني في "مظاهر يقظة المغرب الحديث" نلاحظ معطى أساسياً، وهو أن المكان المتفق عليه لاشتغال الطبيب المصري هو مدينة رودانة، نقرأ في نص العقد: "اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطبيب الروداني مع الفقير إلى الله تعالى كاتب الأحرف محمد القيان المطبعي، على أنه يتوجه برفقته إلى مدينة رودان بأرض المغرب، ويشغل عنده على مطبعة حجر سنة كاملة"^(٤٢).

وأشار فوزي عبد الرزاق إلى وثيقة عثر عليها سنة ١٩٨٦ في كنانة قاضي الرباط محمد بن عبد السلام الرونده (ت. ١٩٤٥). وتحتوي توضيحات إضافية حول ظروف المصادرة، وهي عبارة عن حوار بينه وبين الطبيب الأزرق الذي يعد أول من تعلم تقنيات الطباعة في المغرب على يد الطبيب المصري محمد القيان. تشير الوثيقة إلى أنه مع ورود الطباعة على مرسى الصويرة، كتب الأمين المكلف بذلك إلى قائد المنطقة عبد الله أوبيهي السوسي الذي كاتب هو الآخر السلطان، فأعطى هذا الأخير أوامره بإرسالها إلى مدينة مكناس. يقول فوزي عبد الرزاق مضيفاً: "غير أن الأزرق لم يشير إطلاقاً إلى أنها قد سلمت هدية إلى السلطان ولا إلى مسألة التعويضات المالية، بل تحاشى الحديث عن مصير الروداني الذي يبدو أنه قد توفي سنة ١٨٦٥"^(٤٣).

رابعاً: كرونولوجيا الطباعة

من الناحية الكرونولوجية مرت الطباعة الحجرية في المغرب بعد مصادرتها من الروداني بمراحل متعددة. المرحلة الأولى هي مرحلة تبعيةها المباشرة للمؤسسة المخزنية تحت إشراف الطبيب المصري محمد القيان، وقد امتدت هذه المرحلة من ١٨٦٥ إلى حدود عودة الطبيب إلى بلده سنة ١٨٧١. وأطلق على هذه المطبعة اسم "المطبعة السعيدة" أو "المطبعة المحمدية" نسبة إلى

السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين" للمرتضى الزبيدي- لم يُطبع إلا في ولاية السلطان مولاي الحسن، وذلك بطلب من مفتي مكة الشيخ أحمد دحلان كما تثبت ذلك وثائق المكتبة بينهما التي أوردها محمد المنوني في كتابه "مظاهر يقظة المغرب الحديث". كتب الشيخ أحمد دحلان في رسالته يقول: "فالمرجو من مراحم دولتكم العلية، ومكارم همتمكم المرضية صدور أمركم الكريم بالتفضل بنسخه من فيض إحسانكم العميم"^(٣٧). وقد عد ابن زيدان طبع هذا الكتاب من مفاخر المولى الحسن فكتب يقول: "ومنها [مفاخره] طبعه لشرح الإحياء للشيخ المرتضى الزبيدي آخر الحفاظ وذلك عام أربعة وثلاثمائة وألف وحسب عدداً وافراً منه على القرويين"^(٣٨).

تختلف تأويلات الباحثين للإهداء المفاجئ للطبيب الروداني لآلة الطباعة التي استقدمها من مصر. فالباحث حميد الصولبي في مقاله المعنون بـ "الطباعة ورهان التحديث بالمغرب المعاصر" يذهب إلى أن هذا الإهداء يندرج تحت وعي القاضي الروداني بالمصلحة العليا التي ستُجنى من تقوية الطباعة للدولة، أو كما يقول: "إن الروداني لم يكن ليتخلى عن مشروع استثماره مع مشغله لصالح الدولة لولا إدراكه للمصلحة الكبرى الراجعة في حالة انتقال الطباعة باعتبارها رمزاً لانتشار المعارف من يد واحدة إلى إطار المؤسسة"^(٣٩). بينما نلاحظ أن الباحث فوزي عبد الرزاق يميل إلى المصادرة المخزنية، وحسب الباحث فالرواية التي ساقها عبد الرحمن بن زيدان وغيره غير متسقة، ذلك أن الأمر يبدو مستغرباً أن يتولى شخص أداء مصاريف شراء الطباعة والتعاقد مع طببع مصري مقابل أجر، ثم عندما يصل إلى الصويرة التي لا تبعد إلا بالقليل عن مدينته تارودانت يقرر أن يهديها للسلطان محمد بن عبد الرحمن، يقول: "نفهم من حديث الرندي مع الطبيب الأزرق أنه عند وصول آلة الطباعة إلى مرسى الصويرة تدارس ممثلو المخزن أمرها مع السلطان فأمر بإرسالها إلى مكناس"^(٤٠).

وبالعودة إلى رواية المختار السوسي وهي من أوائل الشهادات وأوثقها مع قرائن أخرى، يمكن ترجيح الرواية القائلة بالمصادرة. ذلك أن المختار السوسي يتحدث عن

متقنا في غاية الجودة يخيل للرائي أنه خط يد خطه أكبر فنان خطاط^(٤٨).

وكان كل من ليفي بروفنصال وابن شنب قد نشرا فهرساً للمطبوعات الفاسية في عمل بعنوان: "محاولة فهرسة لمطبوعات فاس متسلسلة تسلسلا زمنيا". غير أن ثمة بعض الملاحظات النقدية التي وجهها جرمان عياش لهذه الفهرسة في مقاله "ظهور الطباعة في المغرب" بمجلة هيسبريس تمودا. حيث رصد عياش إيراد ليفي بروفنصال وابن شنب كتبا مؤرخة بتواريخ سابقة على تاريخ دخول المطبعة الحجرية، أحد الكتب يعود إلى ١٨١٥ والآخر إلى ١٧١٤. يستبعد جرمان عياش هذا الأمر بحجة أن اكتشاف الطباعة الحجرية نفسها في ألمانيا تأخر إلى سنة ١٧٩٨، وأما شيوع استعمالها فتأخر هو الآخر إلى سنة ١٨١٨، ولهذا فمن غير الممكن تاريخياً افتراض وجود كتاب مطبوع حجريا سابقا على تاريخ شيوع استعمال الطباعة الحجرية. وأما ما برر به جرمان عياش الوقوع في هذا الخلط فهو التشابه الكبير بين المخطوطات وبين الكتب المطبوعة حجريا^(٤٩).

ويمكن هنا، قبل أن نتناول تأثير الطباعة في تثوير الوضع الثقافي والفكري بالمغرب، أن نتناول المشروع في مرحلته المخزنية من منظور مادي بحث. أعني بذلك الجوانب المتعلقة بالتكاليف المادية سواء في طبع الكتاب أو بيعه. من هذا المنظور يمكن القول مع جرمان عياش أنه مشروع متعثر، من نواحي متعددة؛ فعلى سبيل المثال كتاب مثل "الشمائل المحمدية" للترمذي والذي كان يتكون من ١٤٤ صفحة فقط، بيع بسعر خمسة مثاقيل، أي بالعملة الفرنسية سبع فرنكات و٦٥ سنتيما. ومثل هذا الكتاب، يقول عياش: "كان من شأنه أن يباع في أوروبا ببضع عشرات من السنتيمات"، ولمعرفة مدى غلاء الكتاب يكفي استحضار أنه يعادل أجرة عامل في المطبعة لمدة ١٨ يوما. هذا على مستوى البيع الباهظ الثمن، والذي لم يكن يستطيع أداءه غير عليه القوم من كبار الأغنياء. على أن ثمة جانب آخر من التعثر يمس خسارة الدولة نفسها في هذا المشروع، ذلك أن جرمان عياش بالمقارنة بين جدول الحسابات المتعلقة بتكاليف طبع كتاب واحد وثمان سعره، وجد أن ثمن صناعة

السلطان محمد بن عبد الرحمن. وكانت توجد هذه المطبعة في "كزام برقوقة" أحد الأحياء في فاس، ويبدو أن اختيار هذا الموقع حدده من جهة القرب من نهر فاس، حيث إن عملية الطبع الحجري كانت تتطلب وفرة الماء، وكذلك قربها من القرويين كمؤسسة دينية تعليمية. وأما جهازها الوظيفي، فكان يتكون كما يذكر محمد المنوني بالإضافة إلى الطابع المصري من ناسخ ومصصح وعشرين عاملا. وتولى أداء نفقات هذا الجهاز كل من الخزينة والأحباس، فالأحباس تؤدي أجور كل من الطابع والمصحح والناسخ، بينما تكفلت الخزينة بالتعاونين العشريين^(٤٤).

ويلاحظ أن وتيرة النشر في هذه المرحلة كانت بطيئة للغاية، وغالباً بسبب التكاليف الباهظة لطبع كتاب طباعة حجرية، حيث إنه طوال هذه الست سنوات لم يتجاوز عدد الكتب المطبوعة ستة، وهي: الشمائل المحمدية للترمذي وشرح المقدمة الأجرومية للأزهري ومختصر الدر الثمين لميارة وحلي المعاصم لابن سودة والشرح الصغير لابن علي الخرشني ثم القصيدة المولوية وهي نظم لمحمد بن أحمد الرفاعي المدني^(٤٥). والميزة الأساسية لهذه المطبوعات هو الإتقان وعلو الجودة حسبما ذكر فوزي عبد الرزاق الذي طالع الكثير من هذه المطبوعات في خزانة الكتب العربية بجامعة هارفارد عندما تولى أمانتها هناك. ومن الناحية الشكلية ترامح حجمها بين ١٨×٢٣ سم و ١٧×٢٢ سم، مع حدوث استثناءات؛ فالكتاب الذي أهداه المولى الحسن لعلماء الدين في البلدان الإسلامية كان كبير الحجم، ويبدو أن بروتوكولات الإهداء هي التي استوجبت طبع كتاب بحجم ٢٨×٢٠ سم. ومن الاستثناءات كذلك طبع أول كتاب وهو الشمائل المحمدية بحجم صغير يقدر بـ ١٩×١٥ سم^(٤٦).

وكما لاحظت لطيفة الكندوز فإن هذه المؤلفات وإن اختلفت في أزمنة تأليفها إلا أنها تلتقي في كونها كلها من الكتب التعليمية في الفقه والتوحيد والنحو، وهذا الأمر كما تقول الباحثة: "يبرهن على علاقة المطبعة بالدراسة في القرويين"^(٤٧). ومن ناحية أخرى سجل الإخباريون الإتقان الكبير والجودة العالية لهذه المؤلفات، وهذا ما صوره ابن زيدان بقوله: "هذه الكتب طبعت طبعا

الرسالة بإرسال كل من الطيب الأزرق ناظر القرويين الطالب الشامي مرفوقاً بإشهاد المنع^(٥٤).

أما المرحلة الثالثة فاتسمت بظهور مطبعة كل من أحمد بن عبد المولى اليملاحي وعبد السلام الذويب، والملاحظ في إصدارات هذه المطبعتين غلبة النزعة الإيديولوجية والتوجه المذهبي، فقد كانت أغلب الأعمال التي صدرتها من تأليف رجال ينتمون للزاوية الكتانية والمعينية (نسبة للشيخ ماء العينين)، ولهذا كان عبد السلام الذويب يختم كتبه المطبوعة بعبارة "على ذمة خادم الأعتاب الكتانية عبد السلام بن عبد النبي الذويب"، مثل كتاب محمد بن عبد الكبير الكتاني الموسوم "الكمال المتلالي والاستدلالات العوالي". تقول لطيفة الكندوز عن مطبعة عبد السلام الذويب: "أنشأ مطبعته قرب ضريح سيدي أحمد الشاوي في فاس بتوجيه من محمد بن عبد الكبير الكتاني، شيخ الطريقة الكتانية، لذا اعتبرت هذه المطبعة ذات توجه صوفي سياسي"^(٥٥). وقد كان أول كتاب نشره اليملاحي هو كتاب ماء العينين "مفيد الراوي" وطبع في (١٢١٠هـ/ ١٨٩٢م)، ومن الكتب التي تحمل اسم ابن عبد المولى كذلك "شرح نظم أوضح المسالك" لمحمد بن حمدون ابن الحاج. والملاحظ في الكتب التي طبعها اليملاحي خلوها من أسماء لمتعاونين سواء كان مصححاً أو ناسخاً أو عاملاً، وهذا يعني أنه كان يباشر العمل لوحده في طبع الكتب، فكما تقول لطيفة الكندوز: "كتاب الأزهار العاطرة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني، الذي خرج من المطبعة الجديدة سنة (١٢١٤ هـ / ١٨٩٦م) لا يحمل في آخره سوى اسم الناشر"^(٥٦). ومثل اليملاحي كانت الكتب التي طبعتها مطبعة الذويب صوفية التوجه ومعينية الطريقة، فقد طبعت سبعة كتب للشيخ ماء العينين منها كتاب "الإيضاح لبعض الاصطلاح" المنشور سنة (١٢٢١هـ/ ١٩٠٥م).

كانت الطباعة في هذه الفترة، وخصوصاً مع عبد السلام الذويب، ذات توجهات إيديولوجية كما أسلفنا الذكر، ولم تكن أهدافها تجارية ربحية خالصة. ومن الأفكار الأساسية التي كانت تحملها كتبها المطبوعة فكرة القطع مع الأوروبيين والتوجه في المقابل إلى الاستفادة من التجارب الإسلامية. ومن المؤشرات على هذا التوجه

الكتاب سعر بيعه، ويعلل جرمان عياش هذا الخطأ بكون: "الخبراء حددوا الثمن دون أن تتوفر لديهم مقومات عن تكاليف الإنتاج"^(٥٧).

توقفت الطباعة بعد رحيل الطيب المصري لمدة سنة تقريباً. وبعدها حدث تحول في الجهة المشرفة عليها، فقد تخلى المخزن عن الإشراف وفوتها للخواص فصارت مؤسسة فردية كما يذكر كايطن دلفان Gaetan Delphin سنة ١٨٨٩^(٥٨). وفي فترة أولى اشتهرت ثلاثة أسماء في عالم الطباعة وهم الأخوان الطيب الأزرق والعربي الأزرق، وكذلك مكي العمراوي. وبفعل الخصوصية التي تعرض لها المشروع في هذه المرحلة الثانية فقد لاحظ الباحثون الذين عاينوا الإصدارات أن جودة الكتب تراجعت بالنظر إلى اعتماد ورق لم يكن بمستوى ذاك المستعمل في عهد المطبعة المحمدية، كما أن الطيبين من أجل الاقتصاد في المصاريف وتوفير مزيد من المال كانوا يقومون بجل العمليات التي يحتاجها الطبع وتخلوا عن خدمة العاملين.

ولتجاوز الإكراه المالي كذلك عقد الطيب الأزرق شراكة مع أحد أثرياء فاس وهو الحسين الدباغ، ويستشف ذلك من ظهور اسمه رفقة الطيب الأزرق في آخر بعض الكتب التي نشرت في هذه الفترة مثل "شرح العمل الفاسي" للسجلماسي المنشور في (١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م)، وكتاب "حاشية ابن الحاج على شرح ميارة على المرشد المعين لا عاشور" والذي نشر في (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)^(٥٩). على أن الطيب الأزرق عمل كذلك من أجل تحقيق هامش ربح كبير على التنصل من الالتزامات التي فرضت عليه من الدولة، حيث كان مما شُروط عليه إرسال عشر من مطبوعات كل كتاب إلى مؤسسة الأحباش. وتدل على ذلك رسالة سلطانية مؤرخة في ٧ شوال ١٢٩١ / ١٧ نونبر ١٨٧٤ مرسله من المولى الحسن إلى القائد الجيلاني بن حم يخبره فيها بامتناع الطيب الأزرق عن إرسال عشر الكتب المطبوعة للأحباس. ورد في ملاحق أحد الكتب رسالة بخط المولى حسن يقول فيها: "إن ناظر القرويين الطالب الشامي يطالب الطيب الأزرق الذي يطبع كتب المطبعة بفاس بعشر الكتب التي طبعها للحبس"^(٥٩). ثم يأمر المولى الحسن في الذات

المعلمين الذين يطبعون الكتب العلمية بفاس المحمية من كل بأس، وتفقد شغلهم وعملهم فيها^(٥٩).

تتخذ هذه المراقبة أبعاداً مختلفة وتمس جوانب متباينة. الجانب الأول شكلي متعلق بجودة طباعة الكتب، فالظهير العزيمي يحث المحتسب على مراقبة ما يُطبع، وبعبارة الظهير: "أن لا يطبعوا كتاباً إلا بعد إتقان صنعة وجودتها". أما الجانب الثاني فيتعلق بمضمون الكتاب. وهذه المراقبة للمضمون هي الأخرى متعددة المستويات، فالمستوى الأول موضوعي متعلق بضرورة مطابقة الكتاب المطبوع لنسخته الأصلية، فلا بد في هذا المستوى: "أن يبالغوا في تصحيح أصله على يد المصححين العارفين بالفن المطبوع كتابه". أما المستوى الثاني في مراقبة محتويات الكتب، فيتدخل فيه طرف آخر وهم القضاة، بحيث أن الطابعين مطالبون بطبع الكتب المطابقة للشرع، والقائمون على تمرير أحكام الشرع هم القضاة، ومن هذا المنظور فالكتاب قبل أن يصل إلى المطبعة لا بد أن يمر بين أيدي القضاة لفحص محتواه وإصدار الحكم بخصوص نشره.

وهناك جوانب أخرى تتعلق بتنظيم طباعة الكتب. فقد نص الظهير العزيمي على الامتناع عن إعادة طبع كتاب مطبوع إلا بعد مضي سنتين على طبعته الأولى. على أن الظهير ينص على الدور التقني المحض لمن يسميهم بـ "المعلمين المباشرين للطبع"، ذلك أن هؤلاء تنتهي مهمتهم في العمل التقني للطبع دون أن يتجاوزوه إلى التسويق. وقد شدد على القائمين على حوانيت الكتب بعدم التعامل المباشر مع هؤلاء المعلمين، سواء كانت نسخة الكتابة أصلية أو محرفة، ونص على إنزال العقوبات الشديدة لمن وجدت بيده نسخة من الكتاب المطبوع سواء كان طبيعياً أو بائعاً، ورد في الظهير الشريف: "من وجد بيده من المعلمين أو المشتريين المذكورين نسخة من الكتاب المطبوع، أو نسخ على خلاف الشروط المذكورة، يعاقب العقاب الشديد"^(٦٠)، كما يكون من حق المخزن مصادرة كل نسخة تروج على غير هذا السبيل. وهذا يعني أن المخزن أو من يكلف من قبل المخزن هو القائم على عملية تسويق الكتب، وهو الوسيط بين الطابعين وأرباب حوانيت الكتب. ويوضح الظهير العزيمي الغاية من هذا التنظيم الذي ارتضاه

المانع أن تكون هذه المطبعة هي التي نشرت معظم مؤلفات محمد الكتاني الذي يسمى عند الكتانيين بالشهيد، حيث إنه توفي في السجن سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) بسبب معارضته للسياسة المخزنية.

ولعل هذا التسرب للأفكار ذات التوجه الصوفي الممزوج باهتمام سياسي، هو الذي حمل المولى عبد الحفيظ سنة ١٩٠٩ على اتخاذ قرار بموجبه تتم مصادرة كل المطابع وجعلها تحت إشرافه المباشر. وهكذا وُجدت في فترة حكمه مطبعتان اثنتان، إحداهما ليوثوغرافية والأخرى تيبوغرافية. كان مكان تواجد المطبعة الليوثوغرافية هو الموقع المعهود لها بـ "جزام برقوقة" في مدينة فاس، بينما دخلت المطبعة السلوكية القصر الملكي. وذكر ابن زيدان مجموعة من الأعمال التي طبعت في هذه المرحلة ومنها "مشرب العام والخاص" لأبي علي الحسن اليوسي و"حواشي ابن زكري مع تكميلاتها" لمحمد بن المدني جنون و"مفتاح الأقفال ومزيل الأشكال" لمحمد بن قاسم السجلماسي وغيرها^(٥٧).

خامساً: تقاطع الثقافي والسياسي

(الظهير العزيمي)

يشكل الظهير العزيمي محطة أساسية في تاريخ الطباعة بالمغرب. فقد أصدر السلطان المولى عبد العزيز ظهيراً شريفاً من أجل مراقبة الأمور المتعلقة بالطباعة الحجرية في فاس وذلك سنة (١٣١٤هـ/١٨٩٧م). وعند تحليل مضامين هذا الظهير الشريف يلاحظ أن هذه المراقبة التي دشنها تدخل في إطار عمل رقابي موروث عن العصر الوسيط، أعني بذلك أنها تندرج تحت اختصاص ومهام مؤسسة الحسبة^(٥٨). فالحسبة في العصر الوسيط الإسلامي هي نوع من المؤسسة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا فالظهير الشريف يعطي الأوامر بإخضاع المنشورات لمؤسسة الحسبة من أجل ضبط عملها على عدة مستويات، ورد في الظهير: "يعلم من شريف كتابنا هذا أعز الله أمره وخلص في الصالحات ذكره أننا بحول الله وقوته كلفنا خديمنا المحتسب محمد بن حفيد الشامي بحرفة

الحسن الأول، فقال أنه قام بعملين اثنين: استخلاص الجبايات من الرعية بالعسف، وإعطاءها للأجانب. ويلاحظ أن المراسل خلط بين المولى محمد بن عبد الرحمن والمولى الحسن حين نسب هزيمة حرب تطوان (١٨٥٩-١٨٦٠) للآخر، يقول: "وكانت أيامها كلها منقسمة إلى عملين عظيمين وهما سفك دماء الرعايا لأخذ أموالهم ودفعها للأجانب على وجه الترضية ولم يصدر عنه أدنى عمل لإصلاح المملكة".^(٦٥)

ومن أجل تدارك هذا الثلم في سمعته قام المولى الحسن بطبع كتاب مرتضى الزبيدي "إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين"، وإهدائه لعلماء الدين في مختلف أقطار العالم الإسلامي. وكان كتابا ضخما في ثلاثة عشر جزءاً، ويذكر المنوني أن الكتاب نُشر سنة ١٣٠٤ هـ في الفترة التي كانت المطبعة تحت إشراف العربي الأزرق وأخيه الطيب الأزرق، وتولى تصحيح الكتاب كل من عبد الله البدراوي وأحمد بن الخياط الزكاري وعبد الملك العلمي والتهامي جنون^(٦٦).

أما عن توظيف الطباعة من قبل بعض الأسر من أجل الدفاع عنها وعن مصالحها وامتيازاتها باعتبارها أسر تنتمي إلى خاصة المجتمع المغربي، فيشير فوزي عبد الرزاق إلى الكتانيين، يقول: "في مطلع سنة ١٨٩٦ كانت الزاوية الكتانية بزعامة كل من عبد الكبير ومحمد الكتاني تستفيد من استعمال الطباعة"^(٦٧)، ويرى الباحث أن هؤلاء استعملوا هذه التقنية من أجل الرفع من مكانة زاويتهم الصوفية، وإكسابها الحظوة، والنفوذ، والشهرة. ولعل ذلك الصراع بين الكتانيين والدولة، حيث كانت هذه الأخيرة ترى في الأسرة الكتانية منافساً وخصماً؛ هو الذي جعل المولى عبد العزيز يصدر الظهير المنظم للطباعة، وفرض الرقابة على النشر بطلب ترخيص مسبق من قاضي مدينة فاس بدلا من المحتسب، ذلك أن هذا الأخير غالباً ما كان يختار من الوسط التجاري، ومن السهل التأثير على قراراته. وبالمثل قام المخزن في فترة لاحقة مع المولى عبد الحفيظ بمصادرة مطبعة عبد السلام الذويب سنة ١٩٠٩، بالنظر إلى العلاقة التي كانت تجمع هذا الرجل بالزاوية الكتانية، حيث كانت معظم الكتب التي تطبع في هذه المطبعة هي لرجال الزاوية الكتانية، أو الزاوية المعينية (نسبة لماء العينين)

فيقول إنه يتحرى: "أن تبقى حرفة المطبعة التي هي آلة انتشار العلم متقنة العمل مصونة الجانب من عوارض الخلل".^(٦٨)

ويرى عبد الله العروي أن هذا الظهير العزيمي، في الواقع، كان ذا مفعول عكسي. ذلك أنه أعاق انتعاشة الحركة الفكرية، خصوصاً حين جعل من القضية مشرفين ساهرين على الإذن بنشر الكتب. يقول العروي: "انضاف هذا العامل إلى عوامل أخرى فحدث من عدد المطبوعات وتنوع مواضيعها"^(٦٩). وبهذا فقد ساهمت الطباعة في ترسيخ وتمتين البنية الثقافية السائدة في المغرب. وباستثناء كتاب "تحرير أصول هندسة أقليدس" لنصير الدين الطوسي والذي راج في المغرب مع الدفعة التي أعطاها محمد بن عبد الرحمن للعلوم الرياضية وإعادة الاعتبار لها من أجل تحقيق نهضة علمية، فإن الكتب التي طبعت في المطبعة الحجرية في مكناس ثم في فاس لا تخرج عن كونها كتب مدرسية لطلبة القرويين، أو كتب مفاخرية للإشادة بسياسة السلاطين الدينية، أو كتب منقبية غايتها التعريف ببعض الأسر المنتمية إلى طبقة الخاصة من أجل تعزيز حضورها في النسيج الاجتماعي في زمن كان الاستعمار الوشيك يهدد بوضع اجتماعي مباين.

ولا يقدم عبد الله العروي أمثلة تاريخية لهذين البعدين في حضور الطباعة في مغرب ما قبل الاستعمار وإنما يذكر ذلك في الفصل الوجيز الذي خصصه للطباعة من كتابه "الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية" بأسلوب مجرد. والواقع أنه يمكن أن نجد في سيرة المولى الحسن مصداقاً لما ذكره العروي. ذلك أن هذا السلطان الذي عرفت ولاية حكمه تصاعد وتيرة العنف الممارس في إطار "حركاته" الكثيرة^(٦٩) قد احتاج بالفعل إلى تلميع صورته في العالم الإسلامي، ذلك أن أخبار حملاته المتتالية كانت قد انتشرت، ومما يدل على ذلك أن الأصدقاء بلغت الشيخ النهضوي رشيد رضا وعلق على بعض التقارير الصحفية المنشورة في صحف مصرية مشككا في حقيقتها، فقال: "وما كنا نظن أن ملوكها [المغرب] بهذه الدرحة التي ذكرها [التقرير]، بل لانزال نظن أن في وصفه لهم مبالغة"^(٦٤)، وهذا بعد أن عرّض أحد المراسلين التونسيين في مصر بسيرة

جديدة تحدث ثقباً في جدار المعرفة الموروثة عن العصر الوسيط. ولتلمس هذا التحول في نوعية الكتب المطبوعة، يمكن أن نأخذ نموذج مدينة باريس ونقارن بين تاريخين اثنين: ١٥٠١ و ١٥٤٩. لقد كان عدد الكتب الدينية المطبوعة سنة ١٥٠١ هو ٥٣ كتاباً، بينما الكتب الكلاسيكية ٢٥ كتاباً، غير أنه في سنة ١٥٤٩ ستثقل كفة الكتب الكلاسيكية بـ ٢٠٤ كتاب، ولم يتجاوز عدد الكتب الدينية المطبوعة ٥٦ كتاباً^(٧٠).

وعلى العموم فإن المواضيع التجديدية التي طُبعت بالطباعة العصرية في المغرب هي في حكم النادر، إذ معظم المؤلفات التي طُبعت تنتمي إلى حقول معرفية وسيطية، وهي لا تختلف لا في موضوعها ولا في طبيعة مقاربتها عن التأليف المعتادة في العصر الوسيط، ولهذا يغلب على هذه التأليف طابع التحشية والشرح. ويمكن أن نسجل ظهور بعض المواضيع الجديدة، ونضرب هنا ثلاثة نماذج. النموذج الأول من الكتابات السياسية ذات الراهنية وقتئذ، حيث إن التهديد الاستعماري حفز في المؤلفين المغاربة ميكانيزمات دفاعية بتأليف كتب تحذر من الوقوع في براثن الاستعمار وتدعو إلى المقاومة. ومن ضمن هذه المؤلفات كتاب محمد جعفر الكتاني الموسوم "نصيحة أهل الإسلام" (١٩٠٨). فقد كان هذا المؤلف متأثراً بفكرة الجامعة الإسلامية، وفحوى هذه الفكرة كما يقول فوزي عبد الرزاق: "هي العمل على توحيد جهود المسلمين للوقوف في وجه الحملة الاستعمارية التي تشنها الدول الغربية على العالم الإسلامي"^(٧١).

الموضوع التجديدي الثاني الذي وجد طريقه إلى المطبعة كذلك هو البحث في أصول الترقى وممارسة نقد للمنظومة الثقافية الموروثة عن العصر الوسيط. ومنها كتاب "أصول أسباب الترقى الحقيقي" لأحمد الصبيحي، وإن كان مثل هذه المواضيع تأخر ظهورها إلى ما بعد الحماية، فهذا الكتاب صدر سنة ١٩١٧. إن هذا الكتاب هو برنامج توجيهي لبيان الخلل الذي تخلل البنية العلمية والثقافية في المغرب، وفيه دعوة إلى توسيع أفق الاشتغال العلمي. ففي العلوم الدينية يشير إلى أن علوماً أهملت بشكل كبير في الثقافة المغربية مثل علم التفسير والحديث. ولا يخفى أن هذه الدعوة تتضمن أصول السلفية التي دعت إلى العودة للمصدرين القرآن والسنة

والتي كانت تتفق مع الزاوية الكتانية في بعض القواسم المشتركة وأهمها معاداة الأوروبيين والدعوة إلى الاستفادة من تجربة العثمانيين.

خاتمة

نقرأ لعبد الله العروبي وهو يجمل الدور الذي قامت به الطباعة: "مجمل القول إن الطباعة ظلت رهينة مسالك الثقافة التقليدية"^(٦٨). الموقف نفسه يسجله جرمان عياش، حيث يرى أن المطبعة لم تؤد الأدوار الثورية التي أدتها في البلدان الأوربية، يقول: "إن المطبعة الحجرية لم تكن تؤدي إلى وقوع أية قطيعة مع الماضي من شأنها أن تدل على التغيير"^(٦٩). وبالفعل فقد كانت الكتب التي طُبعت هي كتب تنتمي إلى الثقافة التقليدية التعليمية بالخصوص، ولم تتفتح إلا نادراً على كتب علمية، على أن هذا الكتاب الوحيد الذي أشرنا إليه سائفاً وهو "أصول هندسة أقليدس" ينتمي إلى الرياضيات الوسيطة، أما العلم الحديث في القرن التاسع عشر فقد أحدث قطائع وقطع أشواطاً هائلة في تطوير المعرفة العلمية.

ويمكن ملاحظة أنه حتى الكتب التي لا تخلو من بصمة إبداعية في الكتابة التاريخية لم تجد طريقها إلى الطباعة. لقد عاصر دخول هذه التكنولوجيا الحديثة مؤرخين وازنين في الإسطوغرافيا المغربية: محمد أكنسوس وأحمد الناصري. ونجد نوعاً من علاقة التجاهل المتبادل بينهما، فهما معا لم يشيرا لا من قريب ولا من بعيد لحدث دخول الطباعة إلى المغرب، وفي المقابل فالقائمون على هذا المشروع تجاهلوا كتبهما ولم يطبعوها على الطباعة الحجرية على أهميتها التاريخية. وطبع كتاب الناصري "الاستقصا" -للمفارقة- في القاهرة لا في فاس.

إن الباحثين الذين تناولوا إشكالية الطباعة في المغرب كانت توجههم بعض المسبقات، وعلى رأسها الدور الذي اضطلعت به الطباعة في أوروبا. فقد كانت هذه التكنولوجيا أداة ساهمت في خلق دينامية ثقافية جديدة، وعملت كذلك على إتاحة المعرفة لشريحة واسعة من طبقات المجتمع. على أن هذه المعرفة كانت معرفة

فأمرناهم بتعريب الكتاب المذكور وإخراجه من الظلمات إلى النور"^(٧٥).

غير أن ما أثار استغراب محمد المنوني هو عدم نشر هذا الكتاب في المطبعة المحمدية لما صار المولى محمد بن عبد الرحمن سلطانا للمغرب، متسائلاً عن دواعي تراجع السلطان عن مشروعه في ترجمة المؤلفات العلمية التي تعكس روح العصر، مع أن الثقافة المغربية في تلك الظرفية الحرجة كانت في أمس ما تكون حاجة إلى الأخذ بالعلوم التجريبية، يقول المنوني: "ولو أعيد النظر في هذا التعريب ونشر في عصره، لكان المغرب قد أسدى إلى رجال الفلك العرب يداً لن تتسى، وهنا لا أتمالك أن أتساءل عن السبب الذي حال دون مراجعة هذه الترجمة ونشرها على ميسر الحاجة لهذا حينئذ بالخصوص"^(٧٦). وقد رأت لطيفة الكندوز أن إعراض المولى محمد بن عبد الرحمن عن هذا المشروع العلمي الواعد كان مسaire منه للمناخ الثقافي السائد والذي يتنفس برئتي التقليد ومناهضة الجديد. ثم ليقينه بعدم إقبال جمهور القراء وقتئذ على هذه المعارف الحديثة"^(٧٧).

أما النموذج الثالث، فهو مساهمة الجرائد والصحف التي كانت تُطبع هي الأخرى على المطابع في إثارة مواضيع جديدة كل الجدة لم يكن للمغاربة عهد بها طوال العصر الوسيط الطويل. ومن النماذج الدالة على ذلك التطرق لإشكالية الدستور، وهي من الأفكار السياسية الجديدة الوافدة على المغرب. وعلى الرغم من أن هذا الموضوع معروف في الأدبيات السياسية القديمة عند اليونان، كما استجد الاهتمام به على نحو كبير في العصر الحديث بأوروبا، فإننا لا نكاد نعثر في الكتابات المغربية السياسية على وعي بالإشكالية الدستورية إلى حدود القرن العشرين. وبالخصوص مع عزل المولى عبد العزيز وتولية المولى عبد الحفيظ مع ما رافق ذلك من عقد آمال لإنشاء نظام سياسي يحاكي في بنيته وهيكله الأنظمة السياسية الحديثة. ومن هنا أتت فكرة المناذاة بوضع دستور مغربي. فقد عبرت الحركة الإصلاحية التي قادت هذا التغيير السياسي عبر جريدة "لسان المغرب" عن رغبتها في إحلال نظام سياسي يستمد من التجربة الغربية. وبعد أن نشرت عقد البيعة للمولى عبد

واعتمادهما مباشرة بدل الاقتصار على المختصرات والاكتفاء بكتابة حواشي عليها. وأما الوجه الثاني لهذه الدعوة فهو وضع الأصبع على تجاهل العلوم الطبيعية والرياضية. وأمام هذا الموضوع يشير الصبيحي إلى أن علماء القرون الماضية اعتنوا غاية الاعتناء بهذه العلوم وألفوا فيها، لكن لم يعد بالإمكان الاكتفاء بما ألفه علماء المسلمين في هذه الحقول العلمية بالنظر إلى أن "بعض العلوم السابقة كالطبيعية والرياضية والاستعمارية قد مهر فيها الأوروبيون مهارة عجيبة وتفننوا في تحقيقها وتتيقحها تفننا صير ما تقدم فيه لأسلافنا السابقين في طبي الإهمال"^(٧٢).

وعطفاً على هذا التجديد العلمي المفقود الذي ذكره الصبيحي؛ لابد من الإشارة إلى أن همة سيدي محمد بن عبد الرحمن كانت قد سمت وتطلعت لما كان ولياً للعهد لترجمة الكتب العلمية وخصوصاً في الفلك والهندسة والرياضيات. وقد ذكر محمد المنوني اعتماداً على بعض المصادر أن من الكتب التي ترجمت نجد بعض مؤلفات "إسحاق نيوتن" في الفلك وذلك من طرف ترجمان إنجليزي أعلن إسلامه"^(٧٣). وكذلك ذكر ترجمة جماعية لكتاب ضخمة من تأليف عالم فلك فرنسي عاش في القرن الثامن عشر اسمه "جوزيف جيروم لالاند" وعُنوانت ترجمته بـ "الجامع المقرب والنافع المغرب"، ولم يشر في النسخ المخطوطة للعنوان الأصلي للكتاب باللغة الفرنسية. وقد كتب تقديم هذا الكتاب ولي العهد محمد بن عبد الرحمن، وعبر فيه عن حس علمي تقدمي وعن عناية خاصة بالعلوم الحقة ووعي تام بأهميتها في النهوض. ومما جاء في هذا التقديم عن الأهمية العلمية للكتاب المترجم وفي تعداد محاسنه وفوائده: "واعتمد مؤلفه والتزم التحرير البالغ غاية الغايات، والتوقيف على كل العويصات وكشف الخفيات، وتأبيد المسائل بالحجج الواضحة اليقينية، والأشكال الهندسية، والأمثلة العددية، والأقيسة الجبرية"^(٧٤). كما يذكر سيدي محمد أن بلاطه كان قبلة للعارفين بالألسن المختلفة، وأن اجتهادهم في الترجمة كان قائماً على قدم وساق، وبتعبيره: "حتى أصبحت حضرتنا العزيزة كعبة النجباء الحذاق، ومطافاً للعلماء من جميع الآفاق: من كل عارف بالألسنة والأقلام، متهيئ لاكتساب الكمالات بالاستعلام،

الإحالات المرجعية:

- الحفيظ، وأفصحت عن آمالها لقيادة هذا السلطان للتغيير المنشود، أردفت ذلك بقولها: "وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته أن يمنح أمتة نعمة الدستور ومجلس النواب وإعطاءها حرية العمل والفكر لتقوم بإصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية".^(٧٨)
- (١) محمد المنوني، **تاريخ الوراقاة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة**، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩١)، ص ١١.
- (٢) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، [د.ت.])، ج ٢، ص. ٩٧٣.
- (٣) **نفسه**، ج ٢، ص. ٩٧٣.
- (٤) **نفسه**، ج ٢، ص. ٩٧٤.
- (٥) القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٦٧)، ج ٤، ص. ٧٨٣.
- (٦) المنوني، **تاريخ الوراقاة... م.س.**، ص. ١٧.
- (٧) **نفسه**، ص. ١٨.
- (٨) **نفسه**، ص. ٢١.
- (٩) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٩٧)، ص. ١٢٨.
- (١٠) المنوني، **تاريخ الوراقاة... م.س.**، ص. ٣١.
- (١١) محمد المنوني، **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، (الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧)، ص. ٢٥٦.
- (١٢) **نفسه**، ص. ٢٥٦.
- (١٣) عبد الكريم سكيرج، "الخط العربي المغربي"، **مجلة الثقافة المغربية**، ١٩٤١، ص. ٦٩.
- (١٤) **نفسه**، ص. ٦٩.
- (١٥) محمد المغراوي، "الخطوط المغربية في المخطوطات والوثائق"، **مجلة كلية الآداب الرباط**، ع. ٣١، ٢٠١١، ص. ٦٥.
- (١٦) انظر، مادة "الزمام" في: أحمد شوقي بنين ومصطفى طوبي، **معجم مصطلحات المخطوط العربي: قاموس كوديكولوجي**، (مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ٢٠٠٣)، ص. ١٢١.
- (١٧) الونشريسي، **المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب**، (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ١٩٨١)، ج ١١، ص. ١٠٢.
- (١٨) لطيفة الكندوز، **الطباعة والنشر بالمغرب (١٨٦٥-١٩٥٦)**، (الرباط: دار أبي رقراق، ٢٠١٤)، ص. ٨٠.
- (١٩) المنوني، **تاريخ الوراقاة... م.س.**، ص. ٢٢٩.
- (٢٠) **نفسه**، صص. ٢٣٠-٢٣١.
- (٢١) **نفسه**، ص. ٢٣٢.
- (٢٢) بهيجة سيمو، **الإصلاحات العسكرية بالمغرب (١٨٤٤-١٩١٢)**، (الرباط: المطبعة الملكية، ٢٠٠٠).
- (٢٣) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار: ضريبة الترتيب (١٨٨٠-١٩١٥)**، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠١٠).
- (٢٤) محمد الطاهر الكردي، **تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه**، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الجلبى، ١٩٥٤)، ص. ١٩٣.
- (٢٥) **نفسه**، ص. ١١٠.
- (٢٦) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب: تاريخ الطباعة في المغرب (١٨٦٥-١٩١٢)**، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم

- (٥٢) الكندوز، **الطباعة والنشر بالمغرب... م.س.**، ص ١٢٦.
- (٥٣) **نفسه**، ص. ٤١١.
- (٥٤) **نفسه**، ص. ٤١١.
- (٥٥) **نفسه**، ص. ١٣٢.
- (٥٦) **نفسه**، ص. ١٣٢.
- (٥٧) ابن زيدان، **النهضة العلمية... م.س.**، ص. ١٣٢.
- (٥٨) يقيم مايكل كوك فصلاً بين النزعة المؤسسية للأمر بالمعروف والنهي عن المکر وهو ما يسمى في التراث الإسلامي بالحسبة، وبين النزعة الفردية التي يتولاها أفراد إما علماء دين أو غيرهم، يقول: "يجب أن أبين منذ البداية أن اهتمامي ينصب على واجب الأفراد، وإني لا أهتم إلا عرضاً بدور الحكام في النهي عن المنکر أو بالاحتساب والحسبة".
- Michael Cook, *Commanding Right and Forbidding Wrong in Islamic Thought*, (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), p. 12.
- (٥٩) محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث... م.س.**، ج. ١، ص. ٢٤٧.
- (٦٠) المنوني، **مظاهر... م.س.**، ج. ١، ص. ١٤٧.
- (٦١) **نفسه**، ج. ١، ص. ١٤٧.
- (62) Abdellah Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830 – 1912)*, (Casablanca: Centre culturel arabe, 2009), p. 203.
- (٦٣) يذكر ابن زيدان تسع عشرة حركة للمولس الحسن، انظر: ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨)، ج. ٢، ص. ٣٢٣-٣٢٤.
- (٦٤) رشيد رضا، **مجلة المنار**، المجلد ٢، ١٨٩٩، ص. ١٢٥.
- (٦٥) **نفسه**، ص. ١٢٦.
- (٦٦) المنوني، **مظاهر... م.س.**، ج. ١، ص. ٢٢٢.
- (٦٧) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب... م.س.**، ص. ١٦٧.
- (68) Abdellah Laroui, *Les origines...* op. cit., p. 204.
- (69) Ayache, « L'apparition de l'imprimerie au Maroc »... op. cit., p. 159.
- (70) L. Febvre et H. Martin, *L'apparition du livre*, (Paris: Albin Michel, 1958), p. 400.
- (٧١) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب... م.س.**، ص. ٢٦٣.
- (٧٢) **نفسه**، ص. ٢٦٧.
- (٧٣) المنوني، **مظاهر... م.س.**، ج. ١، ص. ١٤٥.
- (٧٤) **نفسه**، ج. ١، ص. ١٤٨.
- (٧٥) **نفسه**، ج. ١، ص. ١٤٩.
- (٧٦) **نفسه**، ج. ١، ص. ١٥٠.
- (٧٧) الكندوز، **الطباعة والنشر بالمغرب... م.س.**، ص. ٣٨٣.
- (٧٨) الدستور المغربي آخر مشروع قومي في عهد الاستقلال، **مجلة المغرب الجديد**، الجزء ٦، السنة الأولى، شعبان ١٣٥٤هـ/ نوفمبر ١٩٣٥م، ص. ٢-٣. نقلاً عن: الكندوز، **الطباعة والنشر بالمغرب... م.س.**، ص. ٢١٣.
- الإنسانية بالرباط، سلسلة: نصوص وأعمال مترجمة رقم ٣، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح، ١٩٩٦)، ص. ٥١.
- (٢٧) محمد المهدي الوزاني، **النوازل الجديدة الكبرى**، تحقيق محمد السيد عثمان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٤)، ج. ١١، ص. ٣٣٦-٣٣٧.
- (٢٨) عبد الحفيظ الفاسي، **معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب**، تحقيق عبد المجيد خيالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢)، ج. ١، ص. ٤٩.
- (٢٩) **نفسه**، ج. ١، ص. ٤٩.
- (٣٠) الطيب بياض، **رحالة مغاربة في أوروبا بين القرنين السابع عشر والعشرين: تمثيلات ومواقف**، (تطوان: باب الحكمة، ٢٠٢٠).
- (٣١) محمد الصفار، **صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا (١٨٤٥-١٨٤٦)**، دراسة وتحقيق: سوزان ميلر، تعريب: خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم ٢، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح، ١٩٩٥)، ص. ٢٠٨.
- (٣٢) **نفسه**، ص. ٢١٠.
- (٣٣) إدريس العمراوي، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، تقديم وتعليق زكي مبارك، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٣٤.
- (٣٤) المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، (الرباط: مطبعة الأمانة، ١٩٧٣)، ج. ١، ص. ٢٠٥.
- (٣٥) المختار السوسي، **خلال جزولة**، (تطوان: المطبعة المهدية، [د.ت.])، ج. ٤، ص. ١٢٠.
- (٣٦) روجي لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد الأخضر ومحمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢)، ج. ٢، ص. ٦٨١.
- (٣٧) المنوني، **مظاهر... م.س.**، ج. ١، ص. ٢٣٩.
- (٣٨) ابن زيدان، **الدرر الفاخرة بآثار الملوك العلويين بفاس الزاهرة**، (الرباط: المطبعة للاقتصادية، ١٩٣٧)، ص. ١٠٦.
- (٣٩) حميد الصولبي، "الطباعة ورهان التحديث بالمغرب المعاصر"، **المناهل**، ع. ٨٤، ٢٠٠٨، صص. ٦٥-٦٦.
- (٤٠) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب... م.س.**، ص. ٢٤.
- (٤١) السوسي، **خلال سوس... م.س.**، ج. ٤، ص. ١٢٠-١٢١.
- (٤٢) المنوني، **مظاهر... م.س.**، ج. ١، ص. ٢٣٤-٢٣٥.
- (٤٣) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب... م.س.**، ص. ١٤١.
- (٤٤) المنوني، **مظاهر يقظة... م.س.**، ج. ١، ص. ٢٠٨-٢٠٩.
- (٤٥) **نفسه**، ج. ١، ص. ٢٠٩-٢١١.
- (٤٦) الكندوز، **الطباعة... م.س.**، ص. ١٣٧.
- (٤٧) **نفسه**، ص. ١٢٥.
- (٤٨) ابن زيدان، **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية**، تحقيق مصطفى الشابي، (الرباط: المطبعة الملكية، ٢٠١٦)، ص. ٧٢.
- (49) Germain Ayache, «L'apparition de l'imprimerie au Maroc», *Hespéris - Tamuda, Revue de la faculté des lettres et des sciences humaines de Rabat*, Vol 5, fasc. Unique, 1964, p. 151.
- (50) Germain Ayache, «L'apparition de l'imprimerie au Maroc»... op. cit., p. 159.
- (51) Gaetan Delphin, *Fès: son université et l'enseignement supérieur musulman*, (Paris: E. Leroux, 1889), p. 86.

الوافد المغاربي بالبلاد التونسية مسارات التمييز المجالي والاندماج الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر

د. ماهر عافي

أستاذ تعليم بولاية سوسة

دكتوراه في التاريخ الحديث

جامعة سوسة – الجمهورية التونسية

مُلخَص

يبحث هذا المقال في حضور الوافد المغاربي بالبلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر، مركزاً على مسارات التمييز المجالي والاندماج الاجتماعي عبر دراسة حالات إقليم زغوان ومجالي الفحص والجبيبية. ويستند البحث إلى وثائق أرشيفية متنوعة من دفاتر الإحصاء والجباية والمراسلات الإدارية، بما يتيح إعادة تركيب البنية الديموغرافية والاجتماعية لهذه الجاليات الوافدة. يكشف المقال عن تنوع أصول الوافدين بين مغاربة فاسيين وسواسة ومراكشيين، إضافة إلى الطرابلسية والغربة الجزائريين، مع تباين حجم حضورهم بين المجالات المدروسة. فقد شكلت بلدة زغوان نقطة استقطاب بارزة للمغاربة، بينما تميزت منطقة الفحص والجبيبية بسيطرة العروش الطرابلسية، في حين ظل العنصر الجزائري محدوداً نسبياً. كما أظهرت الجداول الإحصائية أن اندماج هذه الجماعات لم يكن متجانساً، بل تأثر بعوامل المجال الزراعي والاقتصاد المحلي، خاصة أن سهول الجهة مثلت فضاءً خصباً للزراعة والرعي واستقطبت قوى عمل وافدة. ويبرز المقال أيضاً دور الزوايا وخاصة الزاوية العزوزية- في تيسير استقرار الجالية المغربية وربطها بالمجتمع المحلي، إضافة إلى مساهمة بعض الأفراد في الانخراط داخل المجالس الشرعية والهياكل الإدارية المخزنية. كما توضح الدراسة مشاركة الوافدين في الحراك الاجتماعي والانتفاضات، وعلى رأسها أحداث ١٨٦٤، بما يعكس تجذرهم ضمن النسيج الاجتماعي المحلي. خلص البحث إلى أن الهجرة المغاربية دعمت البنية الديموغرافية والاجتماعية للبلاد التونسية وأسهمت في تنمية الفضاءات الحضرية والريفية، وأبرزت قدرة المجتمع المحلي على استيعاب الوافدين، بما جعل التجربة المغاربية عنصراً فاعلاً في مسار بناء المجتمع التونسي خلال العهد الحديث.

كلمات مفتاحية:

بلدة زغوان؛ منطقة الفحص؛ المجالس الشرعية؛ البلاد التونسية؛ الوافدون المغاربة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٩ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.472582

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ماهر عافي، "الوافد المغاربي بالبلاد التونسية: مسارات التمييز المجالي والاندماج الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد الرابع والسبعون، ديسمبر ٢٠٢٥، ص ١٥٠ - ١٦٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical



Corresponding author: saberafi@yahoo.fr

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تتنتمي إلى "وطن رياح" المشتمل أيضاً على بلدة مجاز الباب وبلدة تستور التي تعد أكبرها خلال القرن التاسع عشر. ويتصل عمل رياح بعمل الحاضرة^(١). وقد ظلت هذه المجالات منطقة استقطاب بشري هامة خاصة بالنسبة للجماعات ذات أنماط العيش الزراعية والرعية^(٢).

ولعل القرب الجغرافي من حاضرة البلاد التونسية جعل من بلدة زغوان وأريافها الممتدة حولها بالفحص والجيبينية خاصة مجالاً مستقطباً منذ القدم لعدد هام من اللاجئين الأندلسيين والمغربيين والطرابلسية والغرابية الجزائريين الذين استمر توافدهم طيلة العهد الحديث وحتى المعاصر. إلا أن هذا التوافد كان متفاوتاً سواء كمياً أو في مستوى توزيعه الجغرافي وهو ما نلاحظه خاصة بالنسبة للوافدين من المغرب الأقصى مثلما يوضحه الجدول التالي حول النسيج الاجتماعي لبلدة زغوان خلال أواسط القرن التاسع عشر.

جدول رقم (١)

النسيج الاجتماعي ببلدة زغوان سنة ١٢٧٢ ١٢٧٦ هـ ١٨٥٥ ١٨٦٠^(٣)

النسبة المئوية	مجموع البالغين الرشد	الفئة
١٠,٦٢%	٢٧	الأندلسيين
٧,٠٨%	١٨	الحنفية
٢٠,٨٦%	٥٣	المغاربة
٣١,٤٩%	٨٠	جماعة البلدية
٣,٥٤%	٩	العبيد
٩,٨٤%	٢٥	أهل زاوية سيدي مدين اللعلا
٤,٧٢%	١٢	أهل سيدي سالم وسيدي عبد الرحمان القارصي
١١,٨١%	٣٠	جماعة اليهود بزغوان
١٠٠%	٢٥٤	المجموع

لم يحظ الوافد المغاربي بالبلاد التونسية رغم أهمية دوره الحضاري والتاريخي بالعناية اللازمة من قبل الدراسات المختصة^(٤). لذلك سنحاول من خلال مشاركتنا في هذه الندوة الدولية حول الهجرة إلى البلاد التونسية دراسة بعض التأثيرات المجالية والاجتماعية التي رافقت الحضور المغاربي بزغوان والفحص والجيبينية. وهي مناطق تعرفها الجغرافيا بالامتداد السهلي الشاسع والخصب نسبيا مقارنة بمناطق السباسب والصحراء بالبلاد التونسية. والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان أولاً إلى أي مدى نقبل بمصطلح وافد مغاربي في ظل مجال أو بلاد مغربية؟

تصبح هذه الكلمة جائزة إذا اعتبرنا التحولات الجغرافية السياسية التي عرفتها البلاد المغاربية نفسها طيلة الحضور العثماني^(٥). كما يصبح من الجائز الحديث عن وافد مغاربي إذا اعتبرنا إصرار دفاتر الإحصاء والإعانة ومراسلات المشايخ والدفاتر العدلية المحفوظة بدور الأرشيف الوطني على تسميات مثل طرابلسية ومغاربة وجزائريين غرابية^(٦). مع ما رافق الحديث عن هذا الوافد المغاربي في علاقته بالعناصر المحلية من تصورات تفاضلية لدى بعض المستشرقين خاصة تعطي أفضلية طرف على آخر دون مستندات علمية دقيقة خاصة إذا تعلق الأمر بالجالية الأندلسية^(٧). سنحاول اختزال دراستنا في محاور أساسية تتعلق أولها بدراسة الوضع الديموغرافي والاجتماعي لهؤلاء الوافدين وخصائص توزيعهم المجالي من خلال بعض المعطيات الإحصائية التي وفرتها لنا بعض الدفاتر الجبائية المودعة بالأرشيف الوطني التونسي^(٨). أما المحور الثاني فيتعلق بدراسة دور هؤلاء الوافدين في نشأة عدد من القرى بزغوان والفحص وخاصة بالجيبينية التي تحولت اليوم إلى إحدى أهم المراكز الحضرية بالجهة.

أولاً: بلدة زغوان: نسيج اجتماعي مغاربي متنوع؟

تتنتمي بلدة زغوان جغرافيا إلى إقليم الشمال من البلاد التونسية وقد تميزت المنطقة منذ القدم بخصوبة سهولها وامتدادها. أما إداريا فإن بلدة زغوان ظلت

بلدة زغوان بالمغاربة الفاسيين؟ ولعل ذلك راجع إلى أهمية مدينة فاس المغربية ومكانتها في ذاكرة الكتبة والإخباريين في تونس. وتشير جل المصادر إلى أن السواسة قد مثلوا تاريخيا من أكثر المجموعات البشرية المغربية تنقلاً داخل الفضاء المغربي بحكم الأوضاع المعيشية الصعبة بإقليم السوس التي تعد منطقة مجدبة دافعة للهجرة منذ القدم. إلى جانب ذلك عرف عن السوسي حب المغامرة والسفر منذ القدم بهدف تحسين وضعه الاجتماعي والمادي.^(١٠)

والواقع أن الجالية المغربية تمثل أقلية ديموغرافية ببلدة زغوان. وهي تشبه إلى حد ما الجالية الأندلسية^(١١) من حيث التركيز الجغرافي والمحدودية العددية وهو ما يوضحه الجدول التالي حول توزع المغاربة بالبلاد التونسية خلال أواسط القرن التاسع عشر.

جدول رقم (٢)

توزع المغاربة بالبلاد التونسية سنة ١٢٨٢هـ-١٨٦٥م^(١٢)

المنطقة	عدد البالغين الرشد القادرين على أداء الإعانة
زغوان	٤١
طبرية	٣٠
سليمان	١٦
منزل تميم	٢٦
منزل أبي زلفة	٣٥
دار شعبان ونابل وبني خيار	١١
بنزرت	٩٤
رأس الجبل	٨
الدخلة المعاوية	٢٤
مرناق	٢٣
تستور	١٥
ماطر	٤٦
أحواز ماطر	٣٩
المرسى	٣٩
المجموع	٤٤٧

يتكون النسيج الاجتماعي ببلدة زغوان من حوالي ثمانية فرق أو فئات اجتماعية بعضها أصيل البلدة وبعضها الآخر وافد عليها. وهي فئات متفاوتة الوزن الديموغرافي فضلاً عن تفاوت مكانتها الاجتماعية وحضورها التاريخي وارتباطها بتاريخ بلدة زغوان. تشير جل دفاتر الإحصاء إلى الأندلسيين والحنفية والمغاربة والبلدية والعييد وأهل زاوية سيدي مدين اللعلا وأهل سيدي سالم القارصي وسيدي عبد الرحمان القارصي وجماعة اليهود. ويمثل مجموعهم حوالي ٢٥٤ فرد مطالب بأداء ضريبة الإعانة سنة ١٢٧٢هـ. أي حوالي ١١٥٠ نسمة إذا اعتمدنا المؤشر الإحصائي ٤,٥ بالنسبة للعائلة الواحدة. ولعل أهم عنصر مغربي وافد نجد ما يسميهم الدفتر بالمغاربة الفاسيين. فمن هم؟ وماهي أهم العوامل الفاعلة في حضورهم ببلدة زغوان؟

١/١- الوافدون المغاربة أو "المغاربة

الفاسيين القاطنين ببلدة زغوان"

ويطلق عليهم الدفتر تسمية "المغاربة الفاسيين القاطنين زغوان" أي أصيلي مدينة فاس. وعددهم حوالي ٥٣ نفر قادر على أداء ضريبة الإعانة أي حوالي ٢٤٠ نسمة حسب إحصاء سنوات ١٢٧٢ و ١٢٧٦ هـ-١٨٥٥م. وأهم هذه العائلات هي السوسي، التواتي، الدراوي، المكناسي، الملاوحي، المسكني وغيرها. ويبدو أن جلها تقريبا استقر ببلدة زغوان. أما خارج البلدة فإن الدفاتر الجبائية لا تحصى لنا إلا بعض العائلات المغربية قليلة العدد والتي تمكنت في فترة لاحقة من الاستقرار ببعض الدشر والقرى الصغيرة المجاورة للبلدة مثلما هو حال "المكرم الحاج المؤدب علي بزاوية بنت سعيدان والحاج عبد القادر الحيان بالفتح والمكرم محمد الصبايحي المراكشي بواد الصبايحية والحاج مبروك الدكالي بواد الرمل والحاج مبارك القبيل بمنزل تليل". ولا نجد معطيات إضافية حول المغاربة بمناطق أخرى خارج بلدة زغوان.^(٩)

تجدر الإشارة إلى أن الجالية المغربية الوافدة على البلاد التونسية لم تقتصر على مدينة فاس فقط، بل شملت أيضاً أقاليم مغربية مختلفة مثل إقليم توات ومراكش وخاصة سوس. رغم تشبث دفاتر إحصاء سكان

الضعيفات المحبسة بالوطن القبلي وزغوان وبنزرت وغيرها من أملاك عائلات مدينة تونس ومؤسساتها الدينية^(١٥). ولعل هذه العوامل وغيرها لعبت دورا كبيرا في استقطاب منطقة زغوان لوافدين جزائريين غرابة أيضاً إلى جانب موجات من المهاجرين أصيلي إيالة طرابلس. والجدير ملاحظته هو أن هذه الجالية تفوق الجالية المغربية في مستويين الكم والتوزيع الجغرافي؟

٢/١- بلدة زغوان بين أقلية جزائرية وهيمنة

طرابلسية

لا تشير جل دفاتر إحصاء السكان ببلدة زغوان التي اطلعنا عليها إلى الوافدين الغرابة أي الجزائريين. ولا يبدو أنهم كانوا يمثلون مكونا بشريا بارزا من مكونات النسيج الاجتماعي بالبلدة خلال فترات الإحصاء على الأقل. لكن يبدو أن الدفتر الذي تم إعداده خلال فترة الحماية يشير إلى الغرابة بزغوان لكن لا يميزهم بإحصاء محدد، بل أوردتهم صحة الوصائية حيث وصل عددهم الإجمالي إلى حوالي ٧٦٦ نسمة خلال سنة ١٨٩١م^(١٦). فهل يعود هذا المزج بين العنصر المحلي والعنصر الوافد حالة التعايش التي ربطت بين الطرفين؟ أم إلى انتماء العنصرين إلى مكون إداري واحد؟ لا يورد الدفتر معطيات إضافية حول هذه المسألة. في المقابل تشير دفاتر إحصاء عرش الغرابة وهي دفاتر قليلة العدد إلى تواجد وافدين غرابة منتشرين ببلدة زغوان وخاصة بمنطقة ذراع بن جودر خلال الفترة المتراوحة بين ١٨٥٧ و ١٨٦٣ حيث تقلص عددهم من ٥٨ خيمة إلى ٣٤ خيمة وتشير هذه المعطيات إلى فرق الحرازة وأولاد منها^(١٧). ولا تورد مجمل هذه الدفاتر الإحصائية معطيات إضافية حول توزيع هؤلاء الغرابة بالمناطق الأخرى بزغوان وعمل رياح بصفة عامة. والجدير بالملاحظة أن عدد الجزائريين الغرابة قد عرف تناقصا مستمرا ببلدة زغوان رغم تركيز أعداد مهمة منهم بمنطقة الكاف وجندوبة وبنزرت وماطر والقيروان^(١٨). كما مثلوا الغرابة أقلية ديموغرافية مقارنة بالوافدين الطرابلسية المستقرين بزغوان وهو ما يوضحه الجدول التالي:

يؤكد الجدول التالي شدة تركيز الجالية المغربية بإقليم تونس الشمالية وخاصةً الوطن القبلي وبنزرت وأحواز الحاضرة. حيث تتصدر منطقة بنزرت وماطر الصدارة في استقطاب الوافدين المغاربة المستقرين بها تليها زغوان وطبرية. ثم بعض قرى الوطن القبلي وخاصة سليمان ومنزل بوزلفة ودار شعبان ونابل وبنو خيار والدخلة المعاوية. والجدير بالملاحظة أن بلدة تستور التي عرفت منذ القدم باستقطاب الوافدين الأندلسيين بأعداد وافرة لم يمثل حضور الوافدين المغاربة بها إلا أقلية بشرية محدودة جدا لم تتجاوز ١٥ نفرًا خاضعًا لأداء ضريبة الإعانة. ومهما يكن من أمر تفاوت توزيع الجالية المغربية بين مناطق الشمال التونسي ومدى قدرة المجالات ومدن الشمال وقراء على استقطاب هذه الجالية الوافدة، فإن السؤال يظل مطروحاً حول عوامل استقرار وافدين مغاربة بزغوان؟ وهل يمكننا المصادر التاريخية التي بحوزتنا من تحديد تاريخ دقيق لتوافد هذه الجالية المغربية على البلاد التونسية؟

يشير عدد من الباحثين إلى أن تواجد البلاد التونسية على طريق الحج جعل منها مجالا مستقطبا لجالية مغربية مهمة نسبياً ذلك أن عدد من الحجاج خيروا بعد قضاء فريضة الحج الاستقرار بزغوان والشمال الغربي والوطن القبلي عامة خاصة بعد تأسيس زاوية علي عزوز ذي الأصول المغربية والذي توفي سنة ١٧١٠م^(١٩). والجدير بالملاحظة في هذا الإطار أن هذه الزاوية مثلت منذ نشأتها مجال ربط بين الوافدين من المغاربة على البلاد التونسية والسكان المحليين. كما تدرجت علاقة هذه الزاوية بالمحليين من الزيارة والتبرك إلى الأخذ والتعلم. ولعل من أبرز إنجازاتها خلال فترة أزمة سياسية هو انتقالها من محطة على طريق الحجاز إلى مجال إحياء للطريقة الشاذلية خاصة بعد تأسيس فروع لها بالوطن القبلي والحاضرة والشمال الغربي^(٢٠).

إلى جانب استقطاب الزاوية العزوية للجالية المغربية بزغوان أو للبعض منها على الأقل يبدو أن خصوصية الهياكل العقارية الفلاحية بجهات الشمال مثلت مجالا لاستقطاب قوى عمل مختصة في حراسة البساتين الشاسعة وصيانة حقول الزيتون خاصة تلك

التونسية باعتبار أهمية عاملي القرب الجغرافي ونفاذية الحدود الغربية^(٢١). وقد ظل الغرابة الجزائريين يمثلون عنصراً قليل العدد مقارنة بهيمنة الوافدين الطرابلسية وهو ما سنلاحظه بوضوح بجهات الفحص والجيبينية.

ثانياً: الفحص - منطقة استقرار الوافدين الطرابلسية مند القدم؟

تتميز منطقة الفحص المجاورة لبلدة زغوان بإمتداد سهولها وبالفلاحة السقوية باعتبار أهمية روافد وادي مليان الذي يشق سهولها. تشير كلمة الفحص لغويا إلى الأرض الممتدة والشاسعة^(٢٢). لذلك مثلت المنطقة إحدى أهم مناطق استقرار العشائر ذات الأصول الطرابلسية وتضم العروش التي ضبطها لنا الدفتر عدد ٢٩٦٧ وهي العمائم وترهونة والرقيعات والعجيلات والفروح والعمائم والبريكات والرميثات والسعادة والجبارنة وأولاد عقيبة وأولاد سيدي نصر وعرش فرجان الخوازم. تتفق جل المصادر مع ما تورده "مدونة توزع القبائل التونسية" التي أعدتها الإدارة الفرنسية بعد انتصاب الحماية بالبلاد التونسية في إطار حصرها المشيخات الترابية والفرق القبلية المحلية منها والوافدة بالجهة.

جدول رقم (٤)

إحصاء الوافدين الطرابلسية بالفحص

سنة ١٨٩٠ - ١٨٩١ م

جدول رقم (٣)

الوافدون من الغرابة والطرابلسية بزغوان سنة ١٨٩٣
١٨٩٤^(١٩)

الفرق	مكان النزول	عدد البالغين الذكور	العواجز والنساء والأولاد	المجموع
الغرابة والوسالتيية	بلد زغوان	غير متوفر	٧٦٦	٧٦٦
الطرابلسية	دشرة زاوية	١٠٩	٢٧٢	٣٨١
العجيلات	أحواز زغوان	٧٨	١٨٠	٢٥٨
المجموع العام				١٤٠٥

يمكننا تحديد عدد الغرابة الجزائريين بزغوان في حدود ٢٦٠ نسمة إذا اعتبرنا عدد وسالتيية بلدة زغوان قد بلغ حوالي ٥٠٠ نسمة سنة ١٨٥٩ استنادا إلى بعض الدراسات المنجزة حول "شحات أهل وسلات" حيث تشير هذه الدراسة إلى أنه سكن بلدة زغوان عدد من الوسالتيية بين ١٧٢٨ و ١٧٣٥ ثم غادروها وعادوا إليها سنة ١٧٦٢ ليستقروا بها نهائيا^(٢٠). ولا يمثل الغرابة الجزائريين وفق هذه المعطيات إلا نسبة ضئيلة لا تتجاوز ١٥ بالمائة من مجموع الوافدين على بلدة زغوان أي الطرابلسية والوسالتيية. في المقابل تبرز هيمنة الطرابلسية على بلدة زغوان حيث يقدر عددهم ب ٦٣٩ نسمة ويمثلون حوالي ٤٥ بالمائة من المجموع العام المقدم بالجدول السابق. وذلك إذا اعتبرنا فصيل العجيلات إحدى الفصائل التابعة لعروش الطرابلسية. وتتوزع هذه المجموعات بين دشرة زاوية وأحواز بلدة زغوان. فما هي العوامل المفسرة لتوافد الغرابة على بلدة زغوان؟

لئن لا يمكننا ربط هجرة الوافد المغاربي عامة بتاريخ دقيق باعتبار تدخل العوامل الفاعلة في الهجرة واختلافها من مكان لآخر. فإن بعض المصادر التاريخية المتعلقة بهجرة الجزائريين تؤكد دور أزمة ١٨٣٠ أي تاريخ التدخل الاستعماري الفرنسي للجزائر في مغادرة عدد هام من الجزائريين لبلادهم ونزولهم بالبلاد

الفرق	مكان النزول	عدد البالغين الذكور	العواجز والنساء والأولاد	المجموع
البريكات	كدوة الشعير	٧١	٢١٨	٢٨٩
الرقيعات	هنشير بوكريم	٥٢	١٢٠	١٧٢
عرش ترهونة	هنشير كدوة الشعير	١٤٤	١٨١	٣٢٥
عرش العمايم	هنشير بغبغه وبوالاحواض	٢٢٧	٤٦٥	٦٩٢
الرميثات والفروح	هنشير عين دجاجة	١٨٨	٢٣٨	٤٢٦
السعادة والجبارنة	الفحص والشرشارة	١٥٥	٤٥٥	٦١٠
أولاد عقيبة وأولاد سيدي نصر				
عرش فرجان الخوازم	بالفحص وسمنجة	١٢٣	٣٨٥	٥٠٨
المجموع العام	٩٦٠		٢٠٦٢	٣٠٢٢

المجموعات القبلية أو بصفة دائمة بالنسبة لبعض العشائر التي حافظت على تواجدتها إلى اليوم بعد تحول عدد كبير من هذه الهناشير والسهول الرسوبية إلى قرى ومدامر وحتى مدن صغيرة تشهد توسعا حضريا مستمرا.

ثالثاً: الجببينة أو "جببينة الطرابلسية": هيمنة الوافدين من الطرابلسية؟

تقع "الجببينة" بسهل ممتد بالجنوب الشرقي لولاية زغوان وهي تبعد عنها حوالي ٧٤ كلم. حافظت "الجببينة" على هذه التسمية إلى حدود سنة ١٩٦٧ حيث تغير اسمها رسمياً فأصبحت تسمى "الناظور".^(٢٦) تؤكد الذاكرة المحلية أن تسمية "جببينة" أو جببينة الطرابلسية تعود في الأصل إلى أن المنطقة مثلت قديماً محطة استراحة لبعض تجار طرابلسية على الطريق الرابطة بين طرابلس والقيروان والحاضرة التونسية. تضيف الرواية أنه خلال فترة لا نعلمها بدقة تعرض بعض هؤلاء التجار إلى مرض وبائي أدى إلى وفاة عدد منهم فتم دفنهم على مقربة من "هنشير جببينة". وهو ما قد يفسر -حسب زعم الرواة- تسمية "جببينة الطرابلسية".^(٢٧)

من جهتها تشير دفاتر العشر إلى لفظ "جببينة" في إطار "بيان هناشر الفلاحة سنة ١٨٥٧م". وتشمل خمسة هناشر وهي: فدان الضل وزقيدان والجببينة ووادي القصب وصوار. أما الدفتر عدد ٣٩٦٧ فيشير بدوره إلى توطن فريق وريمة لقرية الجببينة. فمن هي وريمة؟

يُعدّ الوافدون من عروش طرابلس بالفحص حوالي ٣٠٢٢ نسمة. وتحتل منطقة الفحص المرتبة الأولى إن في مستوى تنوع تركيبة الفرق الطرابلسية أو على المستوى الديموغرافي بعمل زغوان. وتمثل هذه الفرق حوالي ٧١,٣٤% من مجموع عدد الطرابلسية بالمجال المدروس. وتحتل العمايم الصدارة ديموغرافيا حسب ما أورده الدفتر الإحصائي عدد ٣٩٦٧^(٢٨).

تعود أصول عشيرة العمايم إلى أولاد عوين ويقيم بعضها بزليطن وبعضها الآخر بمدينة طرابلس^(٢٩). هاجر بعض فروعها إلى البلاد التونسية وانتشرت بمناطق مختلفة خلال فترة لا نعلمها بدقة كافية. تشير بعض الدفاتر الجبائية إلى تواجد العمايم بالساحل التونسي حيث بلغ عددهم حوالي ٢٦٤ فرد بالغ مطالب بالمجبي بقيادة المنستير خلال سنة ١٨٥٩م^(٣٠). وتشير جل الدراسات إلى أن العمايم ووريمة وترهونة تعد من أقدم العشائر الطرابلسية التي برزت بالبلاد التونسية خلال العهد الحديث حسب المصادر الجبائية.

والملاحظ أن سهول الجببينة وزقيدان وزواغة وجبل الوسط والخضراء وسمنجة وغيرها من المجالات السهلية مثلت إحدى أهم المجالات الخصبة التي توفر مساحات هامة لتعاطي الزراعة الحبوبية إضافة إلى ما تمثله هذه السهول من مساحات رعوية شاسعة وممتدة حفزت عدد من هذه العروش الوافدة على استغلالها والارتباط بها سواء بصفة موسمية بالنسبة لبعض

جدول رقم (٥)

الفرق المستوطنة للجيبينية سنة ١٨٩٠ - ١٨٩١^(٢٨)

الفرق	متوسط عدد المواشي المغروسة أجنة	عدد المواشي المزروعة نعمة بتراب المشيخة	عدد الرقاب التي تؤدي المجبى	عدد العواجز والنساء والأولاد بالمشيخة	مجموع عدد الرقاب
فريق وريمة من الطرابلسية	٣	١٢٥	١٦٥	٤١٠	٥٧٥

وغيرها^(٢١). فإن هذه الهجرة تعكس أهمية الحراك البشري الذي ميز الزحافات البشرية من الجنوب إلى الشمال طيلة فترات تاريخية نظرا لاختلاف الظروف الطبيعية والمناخية والحاجة إلى إيجاد بدائل في إطار نمط عيش يعتمد على الزراعة والرعي بالأساس. ويبدو أن هذه العروش الوافدة من الجنوب أوجدت بدائل لها مما يفسر اختيارها منطقة الشمال الغربي والشرقي بالأساس للاستقرار والتوطن.

رابعاً: الوافد المغاربي والعناصر المحلية:**قطيعة أم تفاعل واندماج؟^(٢٢)****١/٤- الوافد المغاربي: دعم متواصل للنسيج****البشري المحلي**

تحتاج معالجة هذه الاشكالية إلى دراسة معمقة ولا تسمح الأطر المنهجية والوثائقية المحددة لهذه الدراسة حول المنطقة حالياً بالإجابة عن كل ما تطرحه جدلية علاقة المحليين بالوافدين من قضايا تتصل بأنماط العيش والزواج والمصاهرة والعلاقات الاجتماعية التي قد تؤلف بين هذا المزيج من العناصر البشرية الوافدة والمحلية. لذلك سوف نقتصر على تحديد بعض ملامح ما ميز علاقة الوافدين بالمحليين من خلال ما توفره بعض المصادر الأرشيفية من معطيات ديموغرافية واجتماعية وخاصة من خلال ما يقدمه الجدول التالي حول:

ترجع أصول قبيلة "وريمة" إلى ايلة طرابلس حيث استقر بعض فروعها بجهات زوارة والعجيلات في حين تحول بعض فروعها إلى البلاد التونسية حيث يشير دفتر جبائي يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر إلى تواجد عرش وريمة برقبة أولاد سديرة بالشمال الغربي التونسي^(٢٩). لا ندري لماذا اقتصر الدفتر على "وريمة"؟ والحال أن دفاتر عشر "جيبينية" خلال القرن التاسع عشر تشير إلى "وريمي وترهوني وطرابلسي وعجلي وعمامي" يستغلون مساحات زراعية متفاوتة الأهمية سواء بسهول الجيبينية أو بالفحص خاصة؟

استمر تواجد عرش "وريمة" بالبلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر لكن انتشارها شمل بعض مناطق الساحل التونسي ولم يقتصر تواجدها على الجيبينية بعمل زغوان، بل نجدها بهنشير الحضر بعمل سوسة (وريمة الزياينة ووريمة صويليت) وتراب سرس أولاد زيد وضواحي هنشير شبية بعمل المهدية^(٣٠). ولعل هذا الانتشار بين جهات مختلفة بين الشمال الغربي ثم بالساحل لاحقاً يعكس ارتباط حركية هذه العروش الوافدة بمناطق الشمال التي تتميز بمحظوظية طبيعية متميزة. فمأهي أبرز العوامل المفسرة لهجرة هذه العروش من ايلة طرابلس إلى الايلة التونسية؟

دون الاطالة في عرض أهم العوامل المفسرة لهجرة عروش أصيلة ايلة طرابلس واستقرارها بالبلاد التونسية خلال مرحلة لاحقة لضيق المجال ثم لتنوع أصول الفرق الوافدة واستمرار هذه الهجرات منذ القدم حيث إن الأمر لم يقتصر على "وريمة" فقط، بل شمل عروش ترهونة وورفلة والعماميم وقماطة والعجيلات

جدول رقم (٦)

التركيبة الاجتماعية والديموغرافية بزغوان
والفحص والجيبينة سنة ١٨٩٠ - ١٨٩١ م^(٣٣)

الفئات	الوسالتيّة والغرابية	الطرابلسيّة	رياح	الهامة	الأعراض	العروش الرقاق	عروش أخرى	المجموع العام
العدد	٧٦٦	٤٢٣٦	٢٣٠٢	١٤٣٤	١٨١	١١٩١	١٦٤٤	١١٧٥٤
النسبة المئوية	٦,٥	٣٦	١٩,٥٨	١٢,٢٠	١,٥٣	١٠,١٣	١٣,٩٨	١٠٠

من جهة أخرى تشير بعض الدراسات التي أنجزت حول الوضع الديمغرافي بمنطقة مجردة السفلى في منتصف القرن التاسع عشر إلى أن الطرابلسية وخاصة منها عشائر سيلين وطرود وفرجان قد مثلوا أغلبية سكان مجالات زراعة الحبوب والرعي بالمنطقة حيث بلغ عدد الخاضعين منهم لضريبة المجبى حوالي ٤٢١٦ فرد أي حوالي ١٨ ألف و٩٧٢ نسمة سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٧م^(٣٦). وتوفر أغلب هذه المجموعات الطرابلسية المستقرة بهذه المنطقة أفواج الخماسة العاملين على هناشير عائلات مدينة تونس ومؤسساتها الدينية كما حافظ بعضهم على طابع التنقل مع مواشيهم بين الشمال والجنوب حسب الفصول وحالة المراعي وظل بعضهم الآخر تحت الحماية الرسمية من قبل بعض وجهاء المخزن الذين كانوا يكلفونهم برعاية قطعانهم الخاصة من الإبل^(٣٧).

ولعل هذا الحضور المتميز للطرابلسية الوافدين على البلاد التونسية يفسر إلى حد ما ارتفاع نسبة الجنايات في صفوفهم من قبل المحليين خاصة خلال فترة الممتدة من سنة ١٧٠٥ إلى سنة ١٨٤٠م^(٣٨). ولئن لا يمكننا الاطمئنان إلى أن صفة الغريب والبراني كانت وراء ارتفاع نسبة جنايات القتل وتوتر العلاقات بين الوافدين والمحليين مثلما ذهبت إلى ذلك بعض الدراسات التاريخية. فإن ارتباط عدد من العروش الطرابلسية الوافدة بعلاقات انتاج زراعية ورعوية مع قرويين محليين^(٣٩) قد يفسر إلى حد ما ارتفاع حالة العنف المتبادل بين الطرفين خلال الفترة المدروسة.

لئن عرفت المنطقة هيمنة الوافدين الطرابلسية مقارنة مثلاً بالوافدين المغاربة والغرابية، فإن هذه التركيبة البشرية عرفت كذلك حضور عروش أصيلة قبائل رياح والهامة والأعراض وعدد من العروش الرقاق الأخرى والطياشة. والجدير بالملاحظة أن احصاء عدد النساء والأطفال والعواجز والبالغين من الذكور يكشف أن حضور هؤلاء الوافدين لم يقتصر على أفراد منعزلين ومشتتين، بل شمل عائلات بأكملها بدأت تدريجياً وطيلة العهد الحديث "تتحيز مجاًلاً مخصوصاً". كما أن تنوع أنماط الانتاج من شراكة وخماسة ووقافة ومغارسنة ومراقبة للهاشير والمستغلات الزراعية تعكس حاجة الطرفين إلى التبادل. مع ما نتج عن علاقات التملك والجوار الطويلة من "تعايش وممالحة" ومصاهرة تواصلت إلى اليوم.

ويبدو أنه نتيجة تجذر بعض الوافدين المغاربة ببلدة زغوان نجح بعضهم في الاندماج التدريجي داخل ما يسمى بالبلدية. ورغم ما يعنيه مصطلح البلدية من صفة الانغلاق على الذات بفعل الإحساس بالنفوق الاجتماعي نتيجة عوامل مختلفة أهمها قدم الاستقرار والارتباط بالمدينة^(٣٤) مقارنة ببقية الفئات الأخرى الوافدة أحياناً كثيرة. فإن تواتر ألقاب من الوافدين المغاربة داخل فصيل بلدية بلدة زغوان مثل الطرابلسي والمصراطي إلى جانب ألقاب مثل الوسلاتي والساحلي والجريدي والقيزاني والزغواني... وغيرهم^(٣٥) يعكس انفتاح الجماعات المحلية وقدرتها على استيعاب الوافدين كما تكشف عن قدرة الجماعات الوافدة على التكيف مع الأوضاع الجديدة والتأقلم معها.

٢/٤-الوافد المغاربي: اندماج تدريجي ضمن المجالس الشرعية والأطر الإدارية المخزنية

تشير جل المصادر التاريخية وكتب التراجم التاريخية إلى نجاح عدد من الفاعلين المغاربة منذ بداية الحديث في التمتع داخل الخطط الشرعية والقضائية فضلاً عن الاندماج داخل الأطر الإدارية المخزنية بالإيالة التونسية. ولئن لا يتسع المجال في هذا الإطار إلى تعداد عدد هؤلاء الفاعلين نظراً لضيق المجال، فإننا نذكر بالحظوة المتميزة التي وجدها بعض هؤلاء الفاعلين من المغاربة والطرابلسية داخل المجالس الشرعية منذ بداية العهد الحديث وخاصة خلال القرن الثامن عشر. حيث تشير المصادر إلى نجاح أحمد الشريف البرانسي ذي الأصول الجزائرية في التمتع داخل المجلس الشرعي باعتباره عضواً به طيلة الفترة الممتدة من سنة ١٧٥٨ إلى سنة ١٧٧٣^(٤٠). وكذلك حظي بالخطبة نفسها أحمد الماكودي ذي الأصول الفاسية المغربية خلال عهد علي باشا^(٤١). ويُعدّ تقلد هذه المناصب العليا في الدولة إحدى مظاهر افتتاح سلطة المخزن على العناصر الوافدة كما يعكس سعي بعض العناصر الوافدة على التميز العلمي والمعرفي وتأكيد الولاء والطاعة لسلطة المخزن رغم بقاء هذه الخطط الشرعية والإدارية طيلة العهد الحديث تحت سيطرة العنصر المحلي غالباً^(٤٢).

إلى جانب ذلك نجح عدد من الفاعلين ضمن الوافدين المغاربة في الاندماج فعلياً ضمن أطر التسيير الإداري الجهوي والمحلي بعدد من المدن والبلدات من البلاد التونسية وحتى داخل العروش والمشايخات من ذلك مثلاً ما أورده بيان بلدية مدينة باجة حيث نجد الشيخ محمد العربي الجلجلي شيخ المدينة^(٤٣). ولعل اندماج بعض هؤلاء الفاعلين من الأعيان والأفراد يعكس بدوره الاندماج الذي أوجدته بعض المجموعات والعروش الوافدة وتجذر استقرارها بمجالاتها الجديدة بالإيالة التونسية حيث لم تعد هذه المجموعات المغربية الوافدة مستقلة أو منعزلة عن التأطير الإداري المخزني بالبلاد التونسية خلال العهد الحديث. ولعل هذا الارتباط الوثيق بالسلطة المركزية والذي لا يمكن اختزاله في

مستوى أداء المجبي والعشر وغيرها من الأداءات الجبائية يعكس إلى حد ما محاولة الهياكل الإدارية والمخزنية الانفتاح على الآخر الوافد المغاربي خاصة من خلال تحفيزه على الاستقرار والتعمير المجالي. وقد أوجد عدد من الفاعلين المغاربة وخاصة الطرابلسية نتيجة هذه السياسة مكانة خاصة داخل أطر التسيير الإداري المخزني مثل القيادة والمشيخة والخفاوة حيث وردت قيادة الطرابلسية مثلاً ضمن القيادات التي تحظى بالرتبة الثامنة ضمن مراتب القيادات حسب المرتب الشهري في (١٢٧٨هـ / ١٨٦١م) إلى جانب قيادات الكعوب والقوازين والقيروان ونفات وتبرسق وجندوبة والخمامسة وغيرهم^(٤٤) إلى جانب اندماج فاعلين من بين هؤلاء الوافدين المغاربة داخل المؤسسة العسكرية نفسها من ذلك مؤسسة الصبايحية والمزارقية.

من جهة أخرى تكشف بعض المراسلات الإدارية اندماج بعض الفاعلين من عشائر الطرابلسية مع الوقائع الاحتجاجية التي اندلعت خلال العهد الحديث وخاصة خلال انتفاضة ١٨٦٤ مع فاعلين من العناصر المحلية التي عرفت بقدوم استقرارها بالبلاد التونسية وبتجذر علاقتها بالسلطة السياسية.

٣/٤-الوافد المغاربي: مشاركة فاعلة في الحراك الاحتجاجي الاجتماعي

عرفت مساهمة الوافدين المغاربة تطوراً هاماً كذلك في موجة الاحتجاجات الاجتماعية الهادفة إلى استعادة التوازنات الاجتماعية والمادية المختلة بالبلاد التونسية خلال أزمة القرن التاسع عشر وخاصة خلال انتفاضة ١٨٦٤ حيث عملوا على التحالف مع الجماعات المحلية المحتجة ضد مضاعفة ضريبة الإعانة. وهو ما تكشفه مراسلات عديدة من ذلك ما أورده محمد بن ونيس كاهية وجق الجريد إلى إسماعيل صاحب الطابع المكلف بالرابطة مخبراً إياه قدوم "مشايخ نفات وأعيانهم ومشايخ أولاد عون وأعيانهم ومشايخ أولاد سعيد وأعيانهم والبعض من الطرابلسية وأولاد يحيى إلى مدينة القيروان واجتماعه بهم ووصايته لهم بالسعي في الصلح..."^(٤٥).

قد تطفو أحيانا إلى السطح كلما تأزمت الأوضاع السياسية بالبلاد خاصةً مثلما حصل بين محاولة وريمة التحالف مع فصيل الطرابلسية لضرب قبائل المثلث والسواسي من جهة ثانية. ويبدو أن فاعلين من الطرفين المحلي والوافد غالبا ما تتجح في اختراق هذه النزاعات العشائرية التي تهافتت ونقص مفعولها تدريجياً بفعل عاملي الاندماج الاجتماعي والتحييز المحلي والانتقال من المجالات الاثنية والعشائرية الضيقة إلى مجالات تربية غير متجانسة اجتماعياً واقتصادياً لكنها تبحث عن تحقيق توازناتها المفقودة بفعل حالة توسع دائرة التفقر العام الذي عرفته جل البلاد المغاربية الواقعة تحت سيطرة الاستعمار الخارجي. ولعل مساهمة الوافدين المغاربة في الحراك الاحتجاجي الذي عرفته الايالة التونسية خلال هذه الفترة بالذات يعكس محاولات هؤلاء في تأكيد مسارات الاندماج الاجتماعي والتحييز المحلي لدى عدد هام من الوافدين المغاربة.

إلى جانب ذلك تكشف مراسلة أحمد زروق بوعلي كاهية القيروان وعلي بن خليفة بن راشد قايد نفات إلى خميس بن محمد خليفة الطرابلسية أنه "... قد وقعت حلقة عند جلاص والهمامة وماجر يوم الخميس الفارط عن التاريخ بحاجب جعفر من عمل أولاد سنداسن وقد أتوا عرب رياح وأولاد سعيد والبعض من الطرابلسية الذين قاطنين بالجبيبة مروا على القيروان قاصدين لحق الجمعية المذكورة... ثم إنهم صاروا يتكلمون معهم في جلب أنفار رجالة كبار للقيروان ليقع الانفصال بها وأنهم لا يؤدون إلا العشر والزكاة..."^(٤٦). ولعل مساهمة هؤلاء الوافدين المغاربة في الحراك الاحتجاجي بالبلاد التونسية خلال أحداث سنة ١٨٦٤ يعكس إلى حد ما تجذر هؤلاء بمجالاتهم وحالة الارتباط الفعلي بالجماعات المحلية وإحساسهم بوحدة المصير.

أما خلال فترة فشل الانتفاضة ورغم مشاركة البعض الآخر من الطرابلسية في محلة أحمد زروق في مواجهة انتفاضة الساحل صحبة العساكر النظامية سنة ١٨٦٤^(٤٧) وتكبد عدد هام منهم خسائر بشرية مهمة خلال مرحلة محاولة السلطة المركزية فرض نظامها وهزم المنتفضين^(٤٨). فإن فاعلين من الوجاهات المحلية والأخرى الوافدة على حد سواء عملوا على الحد من النزاعات القبلية التي قد تأخذ أحيانا كثيرة طابعاً عشائرياً موسعاً وهو ما تكشفه مراسلة محمد أمير الأمراء عامل سوسة إلى مصطفى خزندار في ٢٥ ذي الحجة ١٢٨٠ هـ غرة جوان ١٨٦٤ مخبرا إياه بلوغ "... بعض الأوباش لما سمعوا بإغارة أولاد موسى من السواسي على وريمة التي كنا عرفنا بها سيادتكم قبل هذا توهموا أن وريمة قتلت أنفارا من المثلث في المعركة. وأولاد موسى هم الذين أخبروهم بذلك ونسبوا ما صدر منهم إلى وريمة. فأتوا إلى أولاد موسى يريدون تجديد الغارة على وريمة. وبلغنا أيضاً أن وريمة استنجدت بالطرابلسية ولم يتقابلا. فتكلمنا مع من قدم إلينا من المثلث في رد أوباشهم عن ذلك وفهمناهم ما في هذا الأمر من زيادة التعب وقلة الراحة. فأجابوا لذلك..."^(٤٩).

والجدير ملاحظته من خلال هذه المراسلة الهامة هو تلاشي دائرة الحماية القبلية والنزاعات العشائرية التي

خاتمة

الإحالات المرجعية:

(١) تبدو الدراسات التاريخية التونسية الحديثة حول حضور المغاربة والمشاركة بالبلاد التونسية وبلاد المغرب العربي قليلة مقارنة بالبحوث التاريخية حول حضور الجاليات المغاربية ببلاد المشرق. للمزيد انظر حوار المشاركة والمغاربة الجزء الأول والثاني وزارة الأعلام مجلة العربي الكويت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦. انظر كذلك عبد الرحيم (عبد الرحمن)، **المغاربة في مصر في العصر العثماني** (١٥١٧-١٧٩٨)، المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، تونس ١٩٨٢.

(٢) انظر حول هذه المسألة على سبيل الذكر: العروي (عبد الله)، **مجلد تاريخ المغرب** المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٠، التميمي عبد الجليل، التشكل الإداري والجغراسياسي للولايات العثمانية بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب ١٥٧٧-١٥٨٨، ورد بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد خاص نوفمبر ١٩٩٧ ص ٤٠١-٤٧٦. بن سليمان (فاطمة)، **الإيالة التونسية بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر نشأة المجال**، أطروحة دكتوراه كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١٤٤. تم نشره تحت عنوان: **الأرض والهوية: نشوء الدولة الترابية في تونس ١٥٧٤-١٨٨١**، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٩. انظر التري عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون بإفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٩، ايفانوف نيقولا، **الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤**، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، دار الفارابي بيروت لبنان، طبعة ٢، سنة ٢٠٠٤.

(٣) الدفاتر الجبائية المخصصة لعروش الطرابلسية تتجاوز عددا الدفاتر المخصصة للمغاربة والجزائريين. للمزيد انظر الفخفاخ المنصف، **موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي**، منشورات الأرشيف الوطني التونسي، تونس ١٩٩٠.

(٤) التميمي (عبد الجليل)، "تأثيرات الموريسكيين - الأندلسيين في المجتمع المغاربي إيالة تونس نموذجا" ورد في **حوار المشاركة والمغاربة** الجزء الأول وزارة الأعلام مجلة العربي الكويت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ص ٥٢-٦٥.

(٥) الفخفاخ المنصف، **موجز الدفاتر الإدارية...** مرجع سابق.

(٦) الخامس (محمد بيرم)، **القطر التونسي في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تحقيق علي الشنوفي وعبد الحفيظ منصور ورياض المرزوقي، بيت الحكمة قرطاج سنة ١٩٨٩، ص ٥١.

(٧) تَعَدَّ منطقة رياح وتستور ومجاز الباب وزغوان حوالي ٣ آلاف و٧٨ شخص مطالب بضرية الإعانة سنة ١٢٧٧هـ. للمزيد انظر:

Ganiage (J), «La population de la Tunisie vers 1860: Essai d'évaluation d'après les registres fiscaux» in **population** n°, 1966.p882

(٨) **الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٦٢٧ سنة ١٢٧٢ - ١٢٧٦** ١٨٥٥ - ١٨٦٠ إحصاء سكان رياح ومجاز الباب وتستور ومنطقتها لأداء الإعانة.

(٩) **الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ١٠٢٣**.

(١٠) يرى بعض الباحثين أن سلوك المغامرة والهجرة لدى سواسة المغرب الأقصى يشبه إلى حد ما سلوك الجرابية في تونس.. للمزيد حول

لئن مثلت الهجرة اليوم أزمة حقيقية في مستوى العلاقات الدولية وفي علاقة الشرق بالغرب بصفة خاصة^(٥٠) فإن هجرة المغاربة إلى المشرق^(٥١) أو هجرة الطرابلسية والمغاربة والغرابية الجزائريين إلى البلاد التونسية طيلة العهد الحديث مثلت دعماً فعلياً للنسيج الاجتماعي ديموغرافياً واجتماعياً وحتى مادياً ورمزياً باعتبار انفتاح المجتمع المحلي على الآخر وقبوله له فضلاً عن قدرة الوافد على التكيف مع الأوضاع الجديدة التي وفد عليها^(٥٢). ولعل تبادل الحاجات بين الطرفين المحلي والوافد بالبلاد التونسية طيلة العهد الحديث دعم مسارات التحيز المجالي والاندماج الاجتماعي. كما ساهم في تدعيم سيروية بناء الدولة وتشكل المجتمع المرتبط بها حيث لعب فاعلين منهم دوراً فاعلاً في تعمير المدن والبلدات وفي إحداث القرى والدشر الصغيرة بالبلاد التونسية. كما ساهمت هذه العناصر الوافدة في مزيد انفتاح العناصر المحلية على مجال المبادلات من خلال توسيع فضاء المبادلات الداخلية والخارجية طيلة العهد الحديث.

ومهما يكن من أمر التحولات التي عرفتتها حركة الهجرة خلال العهدين الحديث والمعاصر. فإن هذه الدراسة سمحت لنا بالكشف عن خصائص الرابطة المجالية وحقيقة التواصل البشري بين البلدان المغاربية طيلة العهد الحديث. كما ساهمت هذه الدراسة في الكشف عن أهم التحولات التاريخية التي عرفتتها حركة السكان والمجموعات القبلية المحلية منها والوافدة ومدى مساهمتها في دعم الرصيد المادي وغير المادي لمجال البلاد التونسية.

(٢٦) توجد المقبرة اليوم بمدخل المدينة على الطريق الرابطة بين منطقة "سيسب" والناظور. ولعل تواجد المقبرة بمرتفع صخري جعلها تستقطب اهتمام هؤلاء المزارعين المستقرين بالهشير لاختيارها بهدف دفن موتاهم.

(٢٦) حسب ما أوردته نشرة بلدية الناظور سنة ١٩٩٠-١٩٨٥.

(٢٧) عافي ماهر، من الجبينية إلى الناظور: دور الجالية المغاربية في تعمير الدواخل التونسية خلال العهد الحديث. القرنين ١٨ و١٩، ورد بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، السنة الخامسة والعشرون، عدد ٤٩ أكتوبر ٢٠١٤.

(٢٨) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ١٣٠٨، ٣٩٦٧-١٨٩٠-١٨٩١ م. (٢٩) أغستيني (هنريكو دي)، سكان ليبيا القسم الخاص بطرابلس الغرب، تعريب خليفة محمد التليسي، دار الثقافة ببيروت ١٩٧٥، ص ٣٣٨، عن الماجري (عبد الكريم)، هجرة... مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٢٩) عافي ماهر، من الجبينية إلى الناظور... مرجع سابق. (٣٠) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٣٩٦٧، ويضم الدفتر أسماء العمال لجل عمالات البلاد والخلفاوات والمشايخ وتاريخ ولايتهم وأسماء العروش والفرق الراجعة إليهم بالنظر والأماكن التي يقطن بها كل عرش أو فريق أو الدشرات والمدن وعدد المواشي المحروثة والمغروسة بالأشجار وعدد الأشخاص الذين يؤدون المجهن وجمعت الأعمال حسب دائرات المراقبة المدنية وقع الإحصاء سنة ١٣٠٨ - ١٨٩٠-١٨٩١ م.

(٣١) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٣٩٦٧، بتاريخ ١٨٩٠-١٨٩١ م. يذكر الوزير السراج أن من بطون هواره مسراتة وترهونة وغريان ومجريس وهراغة وورفلة ووشاتة. وكان مواطن هواره في قديم الزمان ببلاد طرابلس إلى تخوم برقة. الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، الحل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة دار الغرب الاسلامي ١٩٨٥، الجزء الثالث، ص ٧٦.

(٣٢) يطرح مفهوم الاندماج الاجتماعي في الدراسات الاجتماعية والتاريخية والسياسية قضايا عديدة. وهو مفهوم لا يزال حسب بعض الباحثين يكتنفه الكثير من الغموض باعتبار تعلقه بالسياسي والاجتماعي وقضايا الهجرة والهوية الثقافية. يطرح الاندماج أحياناً في مقابل الإقصاء والتمييز والعنصرية... كما يطرح أحياناً أخرى ليعني الترابط والتبعية المتبادلة. ويمكن التمييز بين أربعة أنماط وهي الاندماج الثقافي والاندماج السلوكي أو المعياري والاندماج التواصلية وأخيراً الاندماج الوظيفي... للمزيد حول هذه النقطة انظر بوخريص (فوزي)، الاندماج الاجتماعي والديمقراطية نحو مقارنة سوسيولوجية، ورد بمؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، انظر الرابط <https://www.mominoun.com/tags>

(٣٣) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٣٩٦٧.

(٣٤) بالبشروش توفيق، ربيع الغريان أضواء عن أسباب ثورة علي بن غداهم سنة ١٨٦٤، بيت الحكمة، قرطاج ١٩٩١، ص ٤٢.

(٣٥) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٦٢٧.

(٣٦) الشريف (عبد الله)، الوضع الديمغرافي بمنطقة مجردة السفلى في منتصف القرن التاسع عشر، ورد بجماعي، الديموغرافيا التاريخية في تونس والعالم العربي، دار سراس للنشر والمعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر بتونس ١٩٩٣، ص ١٠٤.

هذه النقطة انظر الماجري (عبد الكريم)، هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجاونة إلى تونس (١٨٣١-١٩٣٧)، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس الطبعة الأولى ٢٠١٠. ص ٢٦٩ وما يليها.

(١١) يمثل الأندلسيون بزغوان حسب الدفتر عدد ٦٢٧ جالية ضعيفة الحجم البشري خلال أواسط القرن ١٩ ولا يمثل حجمها سوى ١١% من مجموع سكان بلدة زغوان واقتصرت على بعض العائلات أشهرها: عائلات الحجيج، الدرقاوي، شطية، بن سليمان، محفوظ، العروجي واليواب وغيرها.

(١٢) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٩٤٩.

(١٣) نجمي (عبد الله)، تنقل الأفكار والمعارف بين المغرب وتونس على عهد الدولتين المرادية والحسينية الشيخ علي بن عزوز مولاي زغوان نموذجاً ورد انتقال الأفكار والتقنيات في المغرب والعالم المتوسطي منشورات كلية آداب والعلوم الإنسانية الرباط سلسلة الرباط ٢٠٠٨، ص ٥٧-٨٩.

(١٤) المرجع نفسه أعلاه.

(١٥) الماجري عبد الكريم، هجرة... مرجع سابق، ص ٣١٢ وما يليها.

(١٦) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٣٩٦٧، ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠-١٨٩١ م.

(١٧) لا يقدم معطيات اضافية حول هوية هؤلاء الغاربة هل المقصود بهم الوافدين الجزائريين كما هي عادة التصنيف المعتادة من قبل مصادرها التاريخية وحتى الشفوية منها أم المقصود بهم المغاربة يشير بعض الدارسين إلى أن هنا غموض كبير لدى الكتبة بالدفاتر الجبائية حول الغاربة والمغاربة. وان كلمة الغربي لا تحيل بالضرورة على الجزائريين. للمزيد حول هذه النقطة انظر الماجري (عبد الكريم)، هجرة... مرجع سابق، ص ١١٧ و٢٩٩ وما يليها.

(١٨) الماجري عبد الكريم، هجرة... مرجع سابق، ص ١١٨ وما يليها.

(١٩) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٣٩٦٧، ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠-١٨٩١ م.

(٢٠) تعود أصول وسالتية زغوان إلى خمس أولاد اسماعيل وخمس تيفاف. وتعرضوا إلى أزمة ديموغرافية حادة سنة ١٨٦٧. سيطر الوسالتية على بلدة زغوان ديموغرافيا وبلغ عددهم حوالي ٥٣٤ نسمة سنة ١٨٨٥ يقطنون تسعين منزلاً. للمزيد انظر المكني عبد الواحد، شتات أهل وسلات من ١٧٦٢ حتى بداية القرن العشرين، دار سحر للنشر، ص ٧٢ وما يليها.

(٢١) الماجري عبد الكريم، هجرة... مرجع سابق، ص ١٨١.

(٢٢) حسن (محمد)، الجغرافيا التاريخية لأفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢١.

(٢٣) في الحقيقة يحتاج إحصاء جملة الوافدين الطرابلسية إلى البلاد التونسية إلى عمل مستقل يأخذ بعين الاعتبار كل الدفاتر الجبائية المتعلقة بهذه العروش والمودعة بالأرشيف الوطني وهي دفاتر عديدة تمثل رصيد هام لتحديد البنية الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء الوافدين ولا يمكننا اللطمئنان إلى التقديرات التي تم تقديمها إلى حد الآن من قبل بعض المؤرخين.

(٢٤) الماجري عبد الكريم، هجرة... مرجع سابق، ص ١٨١.

(٢٥) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٩٠٠، سنة ١٢٧٥ هـ. ذكره الجلاصي محمد، هجرة الطرابلسية... مرجع سابق، ص ١٥٧.

- (٣٧) المرجع نفسه، ص ١١٠.
- (٣٨) بن طاهر (جمال)، الفساد وردعه بالبلاد التونسية الرجح المالي وأشكال المقاومة والصراع ١٧٠٥ - ١٨٤٠، منشورات كلية الآداب بمنوبة سنة ١٩٩٥، ص ٢٤٧ وما يتبعها.
- (٣٩) المرجع نفسه، ص ٢٤٧.
- (٤٠) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ١٧٦٨ والدفتر عدد ٣٣٩٧. انظر: الهويدي (سلوى)، أعوان الدولة بالولاية التونسية: الأفراد المجموعات شبكات العلاقات ١٧٣٥ - ١٨١٤، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس ٢٠١٤، ص ١٠٤.
- (٤١) الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد ٦٩، ص الهويدي سلوى، أعوان... مرجع سابق، ص ١٠٤.
- (٤٢) الهويدي (سلوى)، أعوان... مرجع سابق، ص ٩١.
- (٤٣) الماجري عبد الكريم، هجرة.. مرجع سابق، ص ١٢١.
- (٤٤) المكتبة الوطنية قسم المخطوطات، الدفتر ٣٣٩٧ / ٢ ورد بالبشروش توفيق، ربيع... مرجع سابق، ص ٤٢.
- (٤٥) الأرشيف الوطني التونسي، وثيقة بتاريخ ٣٠ ذي القعدة ١٢٨٠، ٧ ماي ١٨٦٤م. وردت بالبشروش توفيق، ربيع... مرجع سابق، ص ٢٣٤.
- (٤٦) الأرشيف الوطني التونسي، وثيقة بتاريخ ٢ ذي الحجة ١٢٨٠، ٩ ماي ١٨٧٤م. وردت بالبشروش توفيق، ربيع... مرجع سابق، ص ٢٥٨.
- (٤٧) الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، ملف ٩٨٣، صندوق ١٧٩ وثيقة ١٠٦ ذكرها اللطيف (علي)، انتفاضة الساحل التونسي سنة ١٨٦٤ محلة زروق ومعركة القلعة الصغيرة، منشورات المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص ٥٥.
- (٤٨) اللطيف (علي)، انتفاضة الساحل... مرجع سابق، ص ١٤٨.
- (٤٩) الأرشيف الوطني التونسي، وثيقة بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٢٨٠هـ غرة جوان ١٨٦٤م. وردت بالبشروش (توفيق)، ربيع ... مرجع سابق، ص ٣٦١.
- (٥٠) يطرح بعض الباحثين في علم الاجتماع أن منع السفر لغير المرغوب فيهم بواسطة التأثير يعطل المثاقفة وذلك بتعليق العلاقات بين الأفراد الحاملين لثقافات مختلفة وعلاقات تبادل رمزي وثقافي، انظر: محسن بوعزيزي، تعطيل المسافرين وجولان العلامة: معضلة المثاقفة في سياق العولمة، ورد جماعي، الثقافة والتحرر، الدار العربية للكتاب، سنة ٢٠٠٦، ص ١٧٨.
- (٥١) عبد الرحيم (عبد الرحمان)، المغاربة في مصر في العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨)، المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، تونس ١٩٨٢.
- (٥٢) أورد الجلاصي (محمد) في كتابه هجرة الطرابلسية للبلاد التونسية بين النصف الثاني من القرن ١٨ والنصف الأول من القرن ٢٠، دار رسلان للطباعة والنشر، سوسة ٢٠١٤. العشرات من الألقاب زعم أنها ألقاب التونسيين من أصل طرابلسي، ص ٦١ - ٧٥، دون أن يقدم أي مستند علمي دقيق. والحال أن عامل الانتماء المشترك الثقافي والرمزي والديني بين العناصر الاجتماعية المكونة للنسيج المغاربي ببلاد المغرب يجعل من الفرز في مستوى تسمية الأماكن والألقاب أمراً عسيراً. ذلك أن عدد كبير من الألقاب تتكرر ببلدان المغرب.

المخزن والأزمات المائية بمجال الأطلس الكبير الغربي خلال القرن التاسع عشر

محمد اتفروين

طالب باحث بسلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض - المملكة المغربية



ملخص

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على بعض الجوانب المرتبطة بالهاجس الأمني المائي ضمن التدخلات المخزنية لحل بعض الأزمات المائية بمجال دير الأطلس الكبير الغربي، هذه الأزمات المائية التي كانت لها آثار وانعكاسات على المجال والإنسان وعلى الواقع الاقتصادي والسياسي كذلك، حيث كانت تشكل منشأ للعديد من النزاعات والخلافات بين العديد من القبائل، مما عمق الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كذلك. وقد برزت مظاهر هذه الأزمة بشكل جلي، خلال سنوات الجفاف وما رافقها من أوبئة ومجاعات. ولذلك حاول المخزن التدخل وفقاً لعدة خلفيات ومرجعيات، وعبر أشكال مختلفة من أجل تجنب المجموعات البشرية للاقتتال وفرض هيمنة المخزن، والعمل على تأمين الحد الأدنى من حاجيات الأفراد والمجموعات البشرية من الماء والعمل على إعادة تقسيمه على مختلف المستعملين كلما دعت الضرورة إلى ذلك، من خلال الإنعام المائي ومن خلال إعادة تقسيم الموارد المتاحة بشكل يضمن الحقوق الفردية والجماعية في هذا المورد الحيوي، كما يعمل المخزن كذلك على إقرار الأعراف والضوابط الشرعية المعتمدة في التوزيع والاستعمال بين كل الأطراف المعنية لتجاوز النزاعات والخلافات في استغلال هذه الموارد.

كلمات مفتاحية:

الأزمة المائية؛ التحكم المخزني؛ الأمن المائي؛ الإنعام المائي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٩ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.407448.1253

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد اتفروين، "المخزن والأزمات المائية بمجال الأطلس الكبير الغربي خلال القرن التاسع عشر"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عترة - العدد الرابع والسبعون، ديسمبر ٢٠٢٥، ص ١٦٣ - ١٧٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: outfarouin980@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في دورية كان 4.0 Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

١/١-الأزمات المائية على واد نفيس خلال
القرن التاسع عشر انعكاس للأزمات
المناخية

يقصد بالأزمة المائية تلك التوترات التي يعيشها الأفراد بسبب عدم التوفر على الموارد المائية الكافية لتلبية الحاجيات والمتطلبات الضرورية، نتيجة القلة والندرة، إما لأسباب طبيعية مناخية مرتبطة بالجفاف وشح الأمطار أو لأسباب بشرية واجتماعية مرتبطة بهيمنة فئة على الحقوق المائية دون الفئات الاجتماعية أو المجموعات البشرية الأخرى. وقد عاشت العديد من القبائل بمجال دير الأطلس الكبير الغربي هذه الأزمات خلال فترات مختلفة من تاريخ استقرارها بالمجال بسبب تكرار ظاهرة الجفاف والمجاري المائية المشتركة، كما الشأن بين قبيلة كدميوو الجبلية وقبيلة أولاد مطاع السهلية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حول مياه واد أمزميز.

تقع قبيلة أولاد مطاع بالمجال السهلي للحوز غرب واد نفيس يحدها غربا قبيلة وزكيطة وسكتانة وشمالا القبائل العربية وغربا قبيلة فروكة وجنوبا قبيلة كدميوو التي تشترك معها في بعض الموارد المائية. تمتد بدورها بأعالي الروافد الغربية لواد نفيس وعلى طول امتداده نحو مجال الدير وعلى جزء من سهل الحوز، وتحدها شرقا قبيلة كندافة ووزكيطة وشمالاً قبيلة أولاد مطاع وقبيلة فروكة وغربا قبائل مزروضة ومجاط وجنوبا قبائل أيت سميك وإداوزداغ.

ومن خلال ملاحظة امتداد قبيلتي أولاد مطاع وكدميوو (انظر الخريطة رقم (١) بالملحق) أنهما تشتركان في جزء من المجالات الحدودية بينهما، كما تشتركان في استغلال بعض المجاري المائية وخاصة السواقي كالساقية "العرجا" وساقية "توفليست"^(١) وغيرهما من الشعاب والمجاري الجافة النازلة نحو أراضيهم. وتشكل السواقي المشتركة إحدى أهم القضايا التي أثارت الخلاف بين القبيلتين، كما كانت موضوع تدخل أطراف متعددة خاصة المخزن وممثليه من أجل إيجاد حل للخلافات والنزاعات الناشئة حول مياهها.

شكلت الأزمات المائية إحدى التحديات التي واجهت المخزن والقبائل على حد سواء خلال فترات تاريخية مختلفة من تاريخ المغرب، حيث ثنائية الندرة والوفرة المائية تتأرجح بين الفترات الزمنية القصيرة كالفصول والفترات الزمنية الطويلة الممتدة على طول السنة الفلاحية أو أكثر، في نظام مناخي تشكل فيه ظاهرة الجفاف ظاهرة بنيوية، زاد من حدة هذه الأزمات المائية العديد من العوامل المرتبطة بالتحركات القبلية والتنقلات البشرية والهجرات، ومختلف التحولات المجالية والاقتصادية والاجتماعية والصحية المرافقة لها، بحثاً عن الأمن والاستقرار، وعن الموارد المائية والمجالات الرعوية، والسيطرة على مواقع المراقبة والتحكم في المجال، وأمام هذه التحديات المناخية والبشرية عمل المخزن على تدبير هذه الأزمات المائية بالتدخل فيها عبر اعتماد عدة اليات وأدوات واتخاذ عدة قرارات حماية للحقوق المائية للأطراف المتضررة، وفرضاً لهيئة المخزن. وتختلف أساليب التدخل المخزني لتدبير هذه الأزمات حسب السياق السياسي والمعطى المناخي والمجالي. فما تجليات الأزمات المائية بمجال واد نفيس؟ وما مظاهر وأشكال التحكيم المخزني في قضايا الماء بين الأطراف المتنازعة؟ وما الآليات والتدابير المعتمدة لتدبير الأزمات المائية بالمجال؟

أولاً: الأزمات المائية بمجال دير الأطلس
الكبير الغربي والتدخل المخزني خلال
القرن التاسع عشر

عرف مجال واد نفيس وقوع عدة خلافات حول الماء خلال القرن التاسع عشر، وكانت هذه الخلافات غالباً ما تنشعب بين قبائل العالية وقبائل السافلة، كما كانت تنشعب بين مستعملي المياه على السواقي النازلة من مختلف روافد واد نفيس كالذي وقع بين قبيلتي كدميوو وأولاد مطاع الذي يعد من أبرز الخلافات التي استأثرت باهتمام المخزن خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

ونظراً لكون مجال القبيلة بالساقفة يتسم بانتشار المناخ الشبه الجاف^(٧)، حيث قلة التساقطات وازدياد الحرارة صيفا وهبوب رياح قوية أحياناً^(٨)، فإن قبيلة أولاد مطاع تضطر إلى الاعتماد على موارد مائية خارج حدودها في أغلب الأوقات، مما يطرح لديها إشكالات على مستوى التعبئة والتزود بالحاجيات الضرورية من هذه المادة الحيوية.

أمام هذه الوضعية المناخية المتسمة بالندرة والشح، تتكرر ظاهرة الجفاف في الحوز وفي تاريخ المغرب بشكل عام وبصفة دورية كل ثماني سنوات وبصفة غير منتظمة^(٩)، (١٨١٨م / ١٨٢٤-٢٥م / ١٨٣٨ / ١٨٤٩-٥٠ / ١٨٥٩...) ويرافقها في الغالب ظواهر أخرى كالمجاعات والأوبئة. فظاهرة الجفاف البنيوية وما تخلفه من أزمات مائية، تكون سببا في وقوع حالة اللأستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، مما يؤثر بشكل سلبي على الدولة والمجتمع بسبب النزاعات التي تنشب بين مستعملي مياه السواقي وما ينتج عن ذلك من اقتتال يفرض على المخزن التدخل لقطع مادة الخلاف بين الأطراف المتنازعة.

مراحل النزاع القبلي حول الماء على الساقفة العرجا على واد أمزميز

تعتبر الساقفة العرجا إحدى القنوات المشتركة بين قبيلة كدميو وقبيلة أولاد مطاع، وتمتد على الضفة اليسرى لواد أمزميز من أراضي كدميو في اتجاه التجمعات البشرية لـ "أسكون" ثم "أكادير نايت يوس" ثم "تكنزوين" وقد اختير مأخذها على بعناية كبيرة على واد أمزميز^(١٠)، لتلج بعد ذلك إلى أراضي أولاد مطاع وخاصة أراضي فخذة القراقب^(١١) وهي إحدى الفخدات الست المكونة للقبيلة.

وتعتبر الساقفة العرجا إحدى المصادر الأساسية التي تعتمد عليها قبيلة أولاد امطاع للتزود بحاجياتها الأساسية من الماء ولتأمين متطلباتها خلال فترات الندرة والشح، سواء في الاستعمال المنزلي وتربية الماشية أو لسقي بعض المزروعات الفلاحية.

تعود فصول النزاع بين قبيلتي أولاد مطاع وقبيلة كدميو حول مياه رافد واد أمزميز والسواقي الخارجة منه إلى فترات طويلة سابقة للقرن التاسع عشر، فالعلاقة بين السهل والجبل تزداد توترا مع ضعف السلطة المركزية، حيث يقوم أهل الساقفة بالضغط على سكان وقبائل المجالات الجبلية ربما للسيطرة على مصادر المياه وعلى المحاصيل وفرض الإتاوة عليهم، وقد وقعت خلافات كثيرة في هذا الصدد بين القبائل المصمودية والأعراب المجاورين لهم بمحيط أمزميز، مما يبرز التوتر الدائم الذي توجد عليه العلاقة بين الطرفين خلال فترات سابقة^(١٢).

وخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر بقي الخلاف مستمرا وإن تغيرت الوثيرة نظراً لتغير الظروف السياسية والسياقات المتحركة في هذه النزاعات؛ وإن قد بقي الخلاف مستمرا حول مياه السواقي المشتركة وبشكل متجدد. حيث إن بعد كل أزمة مائية بسبب تأخر للتساقطات وتوقف للجريان المائي نحو سكان الساقفة، يبدأ الخلاف مما يستدعي التفاوض من أجل تجاوز هذه الأزمة إما بشكل مباشر أو بتدخل أطراف أخرى.

فمجال واد نفيس من الناحية المناخية يتسم بانتشار مظاهر الجفاف، وهي ظاهرة عامة تشمل مجال الحوز ككل والذي يتسم بارتفاع الحرارة وارتفاع نسبة الجفاف من الجبيلات إلى قدم الأطلس الكبير^(١٣)، خلافا للمجالات الشمالية (شمال الجبيلات) المتسمة بالاعتدال نسبياً. وتتزايد ظاهرة الجفاف غرب واد نفيس بشكل جلي^(١٤). كما تتأرجح كمية الموارد المائية بمجال الحوز بين الوفرة والندرة حسب الفصول وحسب كمية التساقطات السنوية، إضافة إلى وجود عوامل أخرى تؤثر بشكل سلبي على ممارسة النشاط الفلاحي ومختلف الأنشطة البشرية، كالرياح ودرجة التشميس والارتفاع التضاريسي، مما يسمح بتزايد ارتفاع الحرارة^(١٥)؛ مما يدفع إلى الاعتماد على السقي بشكل كبير من أجل إنقاذ الموسم الفلاحي والتمكن من تحقيق الاكتفاء الذاتي الغذائي، فهذه المعوقات المناخية هي التي تقلص من إمكانية حصول موسم فلاحى جيد^(١٦).

حاولت التدخل من أجل وضع حل وسط يرضي الطرفين يحمي حقوق ومكتسبات مختلف مستعملي مياه الساقية موضوع الخلاف.

تتمثل الحجج والإثباتات ذات الصبغة العرفية التي بنى عليها أولاد مطاع موقفهم لإقناع المنازعين لهم بالسماح لهم باستعمال مياه واد أمزميز عبر الساقية المذكورة وبدون مضايقات في الاستغلال المستمر لهذه الموارد ولفترات طويلة، حيث تمكنوا من وضع اليد وحيازة^(١٣) الحصص المائية بشكل مستمر ومتواصل لفترة غير يسيرة، وهي فترة كافية في نظرهم تمكنهم من الظفر بحق مكتسب، لا يمكن سحبه منهم حسب ما هو معمول به عرفاً شرعاً كذلك.

فبعد أن كان الاستغلال يقتصر على فائض الماء الذي لا يستغله أهل العالية، ومع طول فترات الاستغلال وإقامة العديد من المظاهر المؤشرات الدالة على التعمير والاستقرار الدائم من عمران وأنشطة زراعية وإصلاح للأراضي والطرق وغيرها من المؤشرات الدالة على الاستقرار الطويل، أصبح أمر الاقتصار على فائض الماء الزائد عن أهل كدميو غير مقبول في نظرهم، في ظل تزايد الحاجة إلى الماء لتلبية مختلف مستلزمات العيش والاستقرار المستمر والتزايد الديمغرافي وتوسع الأنشطة الزراعية. حيث تعتبر هذه المؤشرات أدلة وحجج يفرضها الواقع على أهل كدميو وغيرهم بالقبول بشركاء لهم في مياه واد أمزميز سواء على وجه الخير أو بشكل إلزامي.

فمجال قبيلة أولاد مطاع يفتقر إلى المياه الكافية لتغطية متطلبات الناس وبهائمهم بالدرجة الأولى "والحالة أن بلدهم المذكورة لا ماء بها خصوصا القرايب منها إلا من الساقية المذكورة (الساقية العرجا) ولا عين ولا سواقي لبعد الماء بأرضها غاية..."^(١٤)، مما يستوجب العمل على السماح لهم باستغلال مياه واد أمزميز النازلة منه الساقية العرجا إلى بلادهم.

هذا الاستعمال المستمر لهذه الموارد جعل من أهل السافلة ذوو حقوق ثابتة عرفا وشرعا مما جعلهم يتشبثون بها، والاحتجاج ورفع الشكايات إلى الجهات المعنية عند كل عملية قطع للماء من قبل أصحاب العالية. فغياب موارد مائية بالمجال يجعل لقبيلة السافلة

فلاستغلال المشترك لمياه الساقية عرفت تغيرات وتحولات خلال فترات تاريخية طويلة، حيث أن استقرار أولاد مطاع بالمجال التي تشغله شمال قبيلة كدميو، كان نتيجة أوضاع سياسية وتدافع قبلي مستمر، فلم يكن استقرار أولاد مطاع بمجال يتسم بالندرة المائية بقرار اختياري وإنما لأسباب أخرى مرتبطة بعلاقاتها بالمخزن والقبائل المجاورة والتي تنافسها في السيطرة على المجال والموارد لاسيما وأن قبيلة أولاد مطاع عرفت تقلبات كثير خلال تاريخها.

غير أنه يمكن التمييز بين مرحلتين أساسيتين في الخلاف بين أولاد مطاع وقبيلة كدميو حول مياه الساقية العرجا هما، أولا، مرحلة استغلال فائض الماء والذي يسمح فيه أهل كدميو للماء بالمرور نحو السافلة لوفرته بالواد وقلة استعماله بالعالية، ويكون ذلك غالبا في سنوات الوفرة. ولم يُعرف إن كان هناك اتفاق بينهما على تقسيم محدد أو تنازل على حصص مائية لهم خلال هذه المرحلة^(١٥). أما خلال فترات الندرة فتعريف مياه الساقية بعض التذبذب خاصة خلال فترات الجفاف حيث يضطر أهل العالية إلى قطع هذه المياه على أهل السافلة مما يخلق خلافات ونزاعات بينهما حول عدم السماح للماء بالمرور نحو السافلة. ثم مرحلة ثانية تم فيها اعتبار أهل السافلة شركاء في ماء الساقية العرجا، وهي المرحلة التي جاءت بعد إصدار ظهير سيدي محمد بن عبد الله سنة (١٢٠٠هـ/١٧٨٦م) ومكنهم من حقوق مائية ثابتة، غير أن النزاع لم يتوقف حيث يتجدد عند كل عملية قطع للماء من طرف أهل العالية، فتكثر الاحتجاجات، غير أن بعد هذه المرحلة أصبح لأولاد مطاع بعض الحجج الإضافية للإدلاء بها عند الترافع وإقناع الأطراف الأخرى بأحقيتهم في تلك الحقوق المائية.

٢/١- أشكال التدخل المخزني لحل الأزمة

المائية على واد نفيس بين قبيلة أولاد مطاع وقبيلة كدميو

بعد فشل الحلول المحلية بين أولاد مطاع وقبيلة كدميو، لإيجاد حل للنزاع حول استعمال مياه واد أمزميز، تم رفع القضية إلى مستويات أخرى والتي

مائية عبر الساقية العرجا والتي كتبت تحت إشراف قاضي الجماعة بمراكش وبحضور الأطراف المتنازعة، والشهود والأعيان من القبائل غير المتنازعة من الشبانات والشراردة^(١٧)، ممن لهم المعرفة والدراية بأصل الخلاف وفصوله ولهم كذلك المعرفة التامة بالمجال والقبيلة وبموضوع الساقية والأعراف المنظمة لأمر السقي ومختلف القواعد الاجتماعية المنظمة للشأن المائي القبلي.

وقد كان أولاد مطاع يطمحون من خلال هذه الوثيقة حسم الخلاف بينهم وبين كدميو، حيث جاء " في شهادة النفر التسعة الشبانات والشراردة... يعرفون إلى الآن المواضع التي كان يجر الماء فيها إلى الآن كل ذلك في علمهم وصحة يقينهم بالمجاورة والمخالطة والإطلاع بالورود والصدور استفساراً تاماً قيده عنهم شاهداً به عليهم بآتمه وعرف بهم...^(١٨)، حيث تم استفسار الشهود من المطلعين والعارفين بالمجال ومختلف التفاصيل المرتبطة بمياه الساقية العرجا، من القبائل المجاورة، الشراردة والشبانات.

وقد شهد الشهود أنهم يعرفون القبيلتين المتنازعتين ويعرفون كذلك الساقية العرجا المعرفة الكافية شرعاً، كما يعلمون كذلك أن لأولاد مطاع وبيدهم حصصاً مائية على الساقية المذكورة يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه، كما يعلمون كذلك عدد هذه النوبات بأوقاتها وأيامها متداولة بين مختلف المستعملين والمالكين للحصص المائية على هذه الساقية^(١٩). وكان الهدف من استدعاء هؤلاء الشهود من هذه القبائل، ممن لهم إطلاع بأمور السقي والنوبات المائية على الساقية العرجا هو تحري الدقة والموضوعية خاصة وأن بعض أعيانهم يقومون باستغلال بعض النوبات المائية الخاصة بأولاد مطاع لسقي جنانهم وبساتينهم، وقد جاءت شهادتهم مدعمة لموقف وحجج أولاد مطاع، مما ساعد في تثبيت الحقوق المتنازع حولها لفائدة هؤلاء الآخرين.

وإلى جانب هذه الوثائق والحجج والاثباتات المعتمدة للإدلاء بها من أجل المرافعة على الحقوق المائية لأولاد مطاع يمكن إضافة وثائق أخرى قد تساهم في الدفاع والمرافعة عن هذه الحقوق وهي الرسائل المخزنية الموجهة من أجل النظر في حلول لهذه الأزمات أو حث

حقوقاً مائية ثابتة لا يمكن التفاوضي عنها كحق الشفة الذي هو الحق في إطفاء العطش، من الحقوق المكفولة والواجب منحها لأهل أولاد مطاع.

ومع استمرار الخلافات وعدم اقتناع أصحاب العالمة بالحقوق المكتسبة من طرف أولاد مطاع والعمل على قطع الماء خلال فترات الشح والندرة، وتجاوز الأمور مستويات التفاهم بين الطرفين ومع رفع الشكايات إلى الجهات المعنية اضطرت السلطة المخزنية إلى التدخل ووضع حل يحفظ حقوق الطرفين معاً، والذي عرف إصدار ظهائر عدة من أجل وضع حد لهذه الخلافات ومراعاة لوضعية قبيلة أولاد مطاع المناخية والمجالية والسياسية.

فبعد صدور هذه الظهائر أصبحت أولاد مطاع تتوفر على أقوى الحجج والأدلة لإثبات حقوقها المائية على الساقية العرجا واستعمالها عند التفاوض والتراجع على حقوقها المائية، والتي تم فيها الاعتراف لهم بها وهي " جميع الثلاثة الأيام السبت والأحد والإثنين... حسبما سطر بظواهر بأيديهم من ساداتنا الأجلة الملوك الشرفاء...^(٢٠). ومن خلال هذا الإنعام أصبحت هذه الحقوق ثابتة فانتقلوا من مرحلة الاستعمال العرفي لمياه واد أمزميز إلى استعمال قانوني بموجب هذه الظهائر الصادرة عن السلاطين العلويين بدءاً بسيدي محمد بن عبد الله الذي أصدر ظهيراً يخول لهم حقوقاً مائية لمدة ثلاثة أيام على الساقية العرجا بلباليها بتاريخ ٢٣ شوال ١٢٠٠هـ / ١٨ غشت ١٧٨٦م، ثم جاءت بعدها ظهائر أخرى تعترف لهم بنفس الحقوق دون تغيير على مضامينها.

وتشكل هذه الظهائر حُججاً قوية لتثبيت الملك بصفة عامة والملك المائي بصفة خاصة، حيث لا يتم الفصل عند القضاة بين الأطراف المتنازعة حول هذه الحقوق إلا بعد التأكد من عدم وجود ظهائر في ملكية الأطراف المتنازعة للرجوع إليها وقراءة مضامينها وتنفيذها كما يشار إلى ذلك في ختام هذه الظهائر^(٢١).

ورغم صدور هذه الظهائر لم يقتنع أصحاب العالمة بما جاء فيها، وبقيت الاحتجاجات والمناوشات مستمرة بين الطرفين، مما دفع بأولاد مطاع إلى العمل على وضع وثيقة إضافية تثبت ما يتصرفون فيه من موارد وحصص

إليها بسبب محدودية الوسائل والتقنيات المستعملة في عمليات التنقيب والحفر عن الماء، فمنهم من حاول استغلال المياه الجوفية فلم يتمكن من ذلك حيث " أن بعضهم حفر في داره الى أن أعياه الحفر فلم يجد للماء رائحة... "(٢٤).

استعمال وسائل تخزين المياه من صهارج ومطافي (٢٥) لتجميع المياه لفترات الشح والندرة خاصة الفصول الجافة أو خلال تأخر الأمطار، حيث يتم استعمال مياه الساقية في تعبئة هذه الخزانات "... ويعمرون منه المطافي بديارهم لسقيهم وسقي بهائمهم..." (٢٦)، فاستعمال المطافي والخزانات غالبا ما ترتبط بمجالات الندرة لتخزين المياه لوقت الحاجة، الشيء الذي يتبين من خلال بناء هذه المنشآت داخل المنازل، ومن جهة أخرى لتجنب الاستعمال الجماعي لتخفيف الضغط على المنشآت المشتركة وأكثر ترشيدها في استعمال هذه المياه، وذلك لكون الاستغلال الخاص أو الاستعمال العائلي للمطافية يكون أكثر عقلانية وترشيدها في الاستغلال مقارنة مع بعض المنشآت ذات الاستعمال الجماعي، فضلا عن كون الإمكانات المحدودة والتقنيات التقليدية لن تمكن المجموعات البشرية الكبرى من إقامة منشآت كافية لهم جميعاً، ربما لهذا تم اعتماد هذه المطافيات بالمنازل، وجعل أرباب الأسر يتكفلون بتخزين حاجياتهم من الماء بمنازلهم.

وهذا المجهود المبذول للوصول إلى الماء وتحقيق الاكتفاء الذاتي منه هو ما جعل أهل قبيلة أولاد مطاع يستشعرون قيمة هذه المادة والعمل على حماية ما توفر لديهم منها رغم قلتها بالمقارنة بحاجياتهم المتزايدة، لذا عمدوا إلى إخراج وإظهار كل ما توفر لديهم من حجج من أجل إقناع الأطراف التي تولت مهمة التحكيم على مساندتهم وإقناعهم بحججهم وأدلتهم للتمكن من تثبيت هذه الحقوق والضغط على أهل كدميوية بغض الطرف وعدم قطع الماء عنهم والاعتراف لهم بهذه الحقوق المكتسبة بفعل الاستقرار الطويل بالمجال والاستعمال المستمر لموارد واد أمزميز والالتزام بمضامين الظواهر المنعم بها عليهم.

خدام المخزن على تنفيذ مضامين الظواهر حماية لحقوق المهديين بالعطش (٢٧)، وإظهارا لهيبة المخزن وقوته، نظراً لما قد يخلفه التراخي في تنفيذ مثل هذه القرارات من آثار سلبية على استقرار الأوضاع السياسية والمعيشية للأفراد والجماعات.

٣/١- تجليات الأزمة المائية بمجال واد

نفيس ودير الأطلس الكبير الغربي

تتجلى مظاهر الأزمة المائية على واد نفيس في:

كثرة النزاعات بسبب الشح والندرة المائية، حيث يقوم أصحاب العالية بقطع الماء على أصحاب السافلة، وهي عملية تتكرر بشكل دائم الشيء الذي يرفضه المتضررون بالسافلة، فاضطروا إلى الترافع عن حقوقهم فأظهروا ما بيدهم من إثباتات وظواهر لتأكيد أحقيتهم في هذه الموارد، الشيء الذي تم تأكيده من خلال الوقوف لدى قاضي الجماعة بمراكش وما تبين من خلال ما بيدهم من وثائق "حسبما سطر بظواهر بأيديهم من ساداتنا الأجلة الملوك الشرفاء... من أيام سيدنا ومولانا سليمان..." (٢٨) كما جاء في إحدى الوثائق المحلية.

ندرة الماء بمجال أولاد مطاع، وهذا ما يظهر من خلال العديد من المؤشرات المناخية وكذا بعض الإشارات التاريخية الواردة في بعض الوثائق المحلية " والحالة أن بلدهم المذكورة لا ماء بها خصوصا القراقب إلا من الساقية المذكورة (العرجا)..." (٢٩)، لعدم وجود المياه الجارية خلال الفترات الجافة إلا من الساقية العرجا التي تزودهم بحاجياتهم من الماء لكونها تتغذى من "عين إمي ن تلاً" على رافد "أنوكال"، وذلك للاستعمالات الضرورية، إضافة إلى قلة المياه الجارية لوجودهم بمجال شبه جاف لا يصله الجريان خلال الفصول الجافة أو خلال فترات توقف الأمطار، كما تعرف المنطقة ضعفا في التساقطات المطرية مقارنة مع المجالات المتواجدة شرق واد نفيس.

كثرة عمليات التنقيب والحفر على الماء التي يقوم بها سكان فخذة القراقب دون التمكن من الوصول إليه وتحقيق الاكتفاء الذاتي منه في الاستعمالات اليومية لهم، إذ " ولا بئر ولا عين ولا سواقي لبعد الماء بأرضها غاية..." (٣٠). وكذلك بعد المياه الجوفية وصعوبة الوصول

مثل هذه المجتمعات هو الحاكي عن القصص والأحداث التي عاشوها عبر مراحل تطورها واستقرارهم، وهو الحاكي كذلك (المجتمع) عن الماء ومن خلاله^(٢٨).

ترتبط الظرفية العامة للإنعام المائي على أولاد مطاع بوضع سياسي ومناخي خاص، فخلال إصدار ظهير الإنعام المائي في عهد سيدي محمد بن عبد الله سنة (١٧٨٦م/١٢٠٠هـ)، كانت هذه المرحلة لاتزال تعرف بعض المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمتمثلة في تمرد الجيش وبعض القبائل ضد السلطة المركزية، وما يشكله ذلك من صعوبات أمام الحاكم أو السلطان الذي يضطر إلى إظهار السخاء تجاه بعض القبائل والعفو عن المعارضين والعمل على استقطابهم لتثبيت أمور الحكم، ومنهم قبيلة أولاد مطاع والتي كانت ضمن القبائل المخزنية.

٢/٢- الإنعام المائي وسيلة من وسائل حل الأزمات المائية بين القبائل

يستغل أولاد مطاع موارد مائية على الساقية "العرجا" لمدة طويلة "حسبما سطر بظواهر بأيديهم من ساداتنا الأجلة (الأجلاء) الملوك الشرفاء... من أيام سيدنا ومولانا سليمان..."^(٢٩)، وقد أنعم عليهم بظواهر^(٣٠) تثبت ملكهم لهذه الحصص المائية بأيامها ولياليها، وقد صدرت ظواهر عديدة تمكن من استعمال مياه هذه الساقية خلال فترات سابقة لفترة حكم المولى سليمان، فمنها من يعود إلى الفترة السعدية لكنها صدرت لفائدة زاوية أولاد سيدي أحمد أموسى بالقراب بمجال أولاد مطاع، أما القبيلة فقد استفادت من ظهير صادر عن سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل (١٧٥٧م/١٧٩٠م)، صدر بتاريخ ٢٣ شوال ١٢٠٠هـ/ ١٩ غشت ١٧٨٦م، والذي ينص على ثلاثة أيام من المياه لفائدة قبيلة أولاد مطاع، على الساقية العرجا وهي السبت والأحد والإثنين، والعمل على تنفيذ هذه المضامين دون مخالفة^(٣١).

وقد اتسمت السنة التي أصدر فيها السلطان سيدي محمد بن عبد الله هذا الظهير بقلّة التساقطات وانتشار الجفاف^(٣٢)، وهو تاريخ يتزامن مع فترة فصل الصيف حيث تزايدت الحاجة إلى المياه، وربما لانقطاع الماء

ثانيًا: مظاهر سياسة الأمن المائي في التدخل المخزني على واد أمزميز

١/٢- خصوصية الظرفية المناخية والمجالية وانعكاسها على الأطراف المتنازعة

يعتبر استقرار قبيلة أولاد مطاع في مجال يفتقر إلى الموارد المائية الكافية للاستعمالات الخاصة بالقبيلة نتيجة تأثير عوامل سياسية ومجالية وكذا وجود ضغوطات قبلية كبيرة نتيجة التحركات المجالية التي عرفتها القبائل بمجال الحوز خلال الفترات المختلفة، وذلك ارتباطاً بالسلطة المركزية أو بالتحالفات القبلية المحلية.

وفي سياق توفير الحدود الدنيا من الموارد المائية تندرج الظواهر المتعلقة بالإنعام المائي على قبيلة أولاد مطاع. وقد تعددت الاعتبارات والدوافع التي كانت وراء الإنعام المائي على القبيلة، ولكن يبقى العامل الأساسي هو قلة الماء وندرته بالمجال مما دفع بالسلطين إلى الإنعام على القبيلة بحصص مائية دائمة حيث أخذ هؤلاء السلطين الوضعية المناخية والخصوصية المجالية بعين الاعتبار وعملوا على التفاعل مع مطالب القبيلة " وهذا هو رعاها ساداتنا الملوك أدام الله مجدهم فأوجبوا للقبيلة المذكورة (أولاد مطاع) ما ذكر من الماء المذكور (الأيام الثلاثة السبت والأحد والإثنين) في الساقية المذكورة (العرجا)..."^(٣٣)، فهذه الرعاية التي حظي بها هؤلاء هي التي جسدت من خلال إلزام قبيلة كدميو على التخلي على هذا النصيب من الماء لفائدة قبيلة أولاد مطاع، الذي كان المخزن من خلاله يهدف إلى العمل على تحقيق الاستقرار والأمن للطرفين وتهدئة الأوضاع بصفة عامة.

غير أن ظروف الاستقرار هذه لن تتحقق إلا بتحقيق الأمن الغذائي وتلبية الحاجيات الضرورية للعيش، إذ أن الأمن الغذائي مرتبط بتحقيق الأمن المائي، وهذا الأخير يعتبر الأساس في توفير الأغذية وتنويعها وانتعاش التجارة والمبادلات، فإنعام المخزن يأتي في سياق هذه الدينامية والحرص على توفير الحاجيات الضرورية من الماء للمتضررين لما له من أهمية في الحياة وارتباطها به، خاصة في البيئات بالتميزة بالشح والندرة، فالماء في

فالامتياز المائي المخول لأولاد مطاع في هذا السياق المناخي والاجتماعي والسياسي يعتبر ثروة مهمة وحظوة اجتماعية تخدم مصالح السلطة المركزية لاستقطاب سياسي في مرحلة لا تزال فيها بعض مظاهر الأزمة السياسية التي عرفها المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل مستمرة، خاصة وأن هذا الامتياز منح في مجال يعتمد على ممارسة النشاط الفلاحي وما يمثل الماء من أهمية في مثل هذه الحالات. فضلا عن تدعيم الاستقرار السياسي واستقطاب القبيلة وما تلعه من دور في هذا المجال المتسم بكثرة النزاعات بين القبائل وكثرة تحركاتها في المجال والاعتماد عليها في مراقبة وضبط المجال من قبل المخزن.

وفي مراحل لاحقة أصدرت ظهائر أخرى خلال فترات حكم السلاطين المتعاقبين بعد سيدي محمد بن عبد الله منها، ظهيران أُصدرا في عهد المولى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢م)، الأول بتاريخ ٢١ شوال ١٢١٥هـ/ ٢٧ فبراير ١٨٠٤م^(٢٤)، والثاني بتاريخ ٣ رجب ١٢٢٢هـ/ ٦ شتبر ١٨٠٧م^(٢٥)، ويتضمنان نفس المضامين الواردة بظهير سيدي محمد بن عبد الله، حيث أبقى على الحقوق المائية لقبيلة أولاد مطاع على واد أمزميز عبر الساقية العرجا وذلك خلال أيام السبت والأحد والإثنين كما سبق تحديدها.

ثم بعد ذلك صدر ظهيرين خلال فترة حكم المولى عبد الرحمان بن هشام (١٨٢٢م/ ١٨٥٩م)، الأول بتاريخ ٢٢ شوال ١٢٤٤م/ ٢٧ ابريل ١٨٢٩م، والثاني بتاريخ ٣ صفر ١٢٤٢م/ ٦ شتبر ١٨٤٦م^(٢٦)، وتتضمن نفس المضامين، دون تغيير.

ومن خلال ما سبق يتضح أن مسألة الماء على واد أمزميز كانت تثير الكثير من الخلافات والسجلات مما جعل مدتها تطول، فرغم إصدار الظهائر وحث المعنيين على الالتزام بمضامينها وتهديد المخالفين بأشد العقوبات^(٢٧)، لم يكن ذلك كافيا لقطع مادة الخلاف بين الطرفين، لكون النزاع تتدخل فيه متغيرات مناخية واجتماعية ونفسية وسياسية... فيُثار الخلاف عند كل انقطاع للماء فيتجدد الصراع بينهما وترفع الشكايات إلى السلطان أو خليفته بمدينة مراكش.

وكثرة الاحتجاجات من أصحاب الساقية على أصحاب العالية هو ما دفعه إلى الإقرار بهذا الحق في استغلال مياه هذه الساقية في هذه الفترة كذلك والجدير بالذكر أن هذه الساقية تتغذى بالإضافة إلى مياه الواد بمياه "عين إمي - ن - تلاً" على واد "أنوكال" جنوب أمزميز وهي ذات صبيب مهم.

وقد اقتطعت هذه الكمية من ماء الساقية على وجه الدوام والاستمرار، دون مراعاة فترات الوفرة والندرة، فهي حقوق دائمة ومستمرة، ينبغي الالتزام بها من قبل أصحاب العالية حيث جاء الظهير واضحا في هذا الصدد، وذلك لإزالة اللبس وأسباب الخلاف بينهما، ويعتبر إصدار هذا الظهير إيذانا بالانتقال من مرحلة الاستعمال العرفي لهذه الموارد إلى مرحلة الاستعمال القانوني لها، بحكم أهمية وقانونية الظهير السلطاني وما يخوله من حقوق لا تسقط إلا بوثيقة مماثلة، كما يتم الاعتراف بهذه الحقوق في إطار تجديد الظهائر التي تصدر عند الاقتضاء (بيعة سلطان جديد أو وقوع نزاع أو بطلب من المستفيدين في بعض الأحيان...) حيث يعبر عنها بعبارات واضحة مثل "تجديد ما بيدهم من ظهائر" وهي عبارة شاملة لكل الحقوق الامتيازات الممنوحة لهم من قبل السلاطين السابقين. كما فرض هذا الظهير كذلك على القبيلة المنافسة الاعتراف بحقوق أهل الساقية واعتبارهم شركاء في استعمال مياه الساقية وواد أمزميز كذلك.

ويهدف هذا الاعتراف المخزني من خلال هذا الظهير إلى مساعدة القبيلة على تجاوز بعض الصعوبات المرتبطة بالتزود بالماء التي تطرحها الندرة والشح الناتج عن المناخ بالمجال، وكذلك تجاوز الإكراهات التي عرفتها المرحلة من امتداد سنوات الجفاف والمجاعات سبع سنوات بعد سنة ١٧٧٦م، حيث استمرت الندرة المائية بسبب تذبذب التساقطات وتأخرها عن مواعيدها في بعض الأحيان وتعمقت الأزمة المائية وقل الإنتاج الفلاحي، إلى أن اضطر المخزن إلى توزيع المساعدات على القبائل (الأموال)، ومنعت الحبوب من التصدير بعد سنة ١٧٧٥م^(٢٨).

تحقيق أمن مائي لفائدة قبيلة أولاد مطاع المتضررة من الأزمات المائية التي تقع بين الفينة والأخرى، لأسباب مناخية سبقت الإشارة إليها، أو بشرية مرتبطة بالاستعمال المكثف لهذه المياه بالعالية خاصة لدى مستعملي المياه بالعالية من فلاحي قبيلة كدميو.

فمن خلال مقارنة هذه الحصص المائية بين الطرفين يتضح بشكل جلي بعض أسباب استمرار النزاع حول الماء بين القبيلتين، إذ تم اقتطاع جزء مهم من الموارد التي تستغلها قبيلة كدميو على واد أمزميز، الذي تم فيه منح نفس عدد أيام السقي للطرفين (التساوي في الحقوق بين أهل العالية وأهل السافلة). مما أثر على حصص الملاك الأصليين من فلاحي قبيلة كدميو بالمجال الجبلي وكذا بالمجال السهلي الذي يسيطرون عليه، مما قد يفرض إعادة النظر في توزيع الحصص المائية وأوقاتها لدى مستعملي مياه الساقية بالعالية، كما ستؤثر عملية الاقتطاع هذه كذلك، على كمية الإنتاج الفلاحي للفلاحين الكدميوين. هذا السخاء المخزني في هذا الإنعام المائي، قد يكون فيه دور وتأثير لوضعية القبيلة نفسها والتي تصنف ضمن القبائل المخزنية والتي لها علاقات وارتباطات بالخدمة المخزنية منذ مدة، فاقطاع هذه النسبة والتي تجعل لأهل العالية ولأهل السافلة نفس المقدار، وذلك لمساعدة أولاد مطاع على توفير الحاجيات الأساسية من الماء من شرب واستعمال منزلي وتوفير الحاجيات الأساسية من المنتجات الفلاحية كالحبوب والزيتون وغيرها لتحقيق الأمن الغذائي والاستقرار الداخلي وتقوية نفوذها بين القبائل والتفرغ لخدمة المخزن.

٣/٢- حماية الحقوق الأساسية للأفراد

والجماعات في الحصول على الماء

عمل المخزن على حماية الحق الشرعي للفرد في الحصول على الحد الأدنى من الماء لحماية الحق في الحياة وحفاظاً عليها، وهو المعروف في الفقه الإسلامي بحق "الشفة"، ويقصد به من الناحية الفقهية والشرعية الحق في إطفاء العطش وإرواء البهائم وأخذ الماء في الجرار وما شابهها من الأوعية بهدف الاستعمال المنزلي وتربية الدواجن والاغتسال وغير ذلك مما تدعو الحاجة

هذه الحالة التي تتسم بالاضطراب في العلاقة بين القبيلتين دفعت بأولاد مطاع إلى العمل على توثيق ما يبيدهم من ملك مائي مستغل من خلال اللجوء إلى قاضي الجماعة بمراكش، الذي أشرف على توثيق هذه الحقوق^(٣٨)، بتاريخ ٣٠ شوال ١٢٧٥هـ / ٠١ يونيو ١٨٥٩م، وبعد فترة تتجاوز المائة سنة من النزاع والخلاف حول استغلال جزء من مياه الساقية العرجا على واد أمزميز بعد صدور ظهير سيدي محمد بن عبد الله ١٧٨٦م.

أبرز كاتبها الوثيقة أن أولاد مطاع يعترف لهم الآخرون من قبائل مختلفة، بتملكهم لهذه الحصص على الساقية المذكورة، و"يشهدون أنهم (الشهود من الشبان والشراودة) يعلمون لهم (أولاد مطاع) ويبيدهم وفي حوزهم وتحت تصرفهم... جميع الثلاثة الأيام السبت والأحد والإثنين بلياليها متداولة ثمانية أيام تدور حيث دار الزمان [المقسم] ... إليها ماء الساقية المذكورة العرجاء حسبما سطر بظواهر بأيديهم..."^(٣٩). وبذلك فشهادة الشهود المذكورون من القبائل المجاورة اعترفوا وعلموا أن قبيلة أولاد مطاع كانت تحوز ملكاً مائياً على الساقية العرجا المعلوم سدها ومجال امتدادها لديهم، وبذلك يعتبر الإشهاد بحوز أو حيازة هذا الملك شرطاً أساسياً في تملك هذه الحقوق عرفاً وشرعاً وقانوناً.

هذا الملك المائي الممنوح لفائدة قبيلة أولاد مطاع عبارة عن ثلاثة أيام بلياليها وهي السبت والأحد والإثنين (ست فرديات)، ثلاث فرديات ليلية وثلاث فرديات نهائية مستمرة ومتداولة تدور حيث دار الزمان^(٤٠)، حيث أصبحت مطلقة ولا تتوقف أبداً، فأصبحوا بذلك شركا في مياه الساقية ومصدرها مع قبيلة كدميو. وتمثل هذه الكمية حوالي ٤٣% من مياه الساقية، بينما يستفيد باقي المستعملين من الكمية المتبقية وهي ٥٧%، وهي موزعة على قبيلة كدميو لها ثلاثة أيام من الإثنين مساء إلى الخميس مساء (ست فرديات)^(٤١)، ثم زاوية القراقب^(٤٢)، (أولاد الشيخ - سيدي موسى)^(٤٣).

فهذا الإنعام المائي مكن أولاد مطاع من الحصول على ملك مائي بضغط من المخزن الذي يذيل كل الظواهر الصادرة بضرورة تنفيذ مضامينها وتنبيه المخالفين وتهديدهم بأشد العقوبات. وذلك من أجل العمل على

يتم ذلك إلّا في حالة الفيض والجريان أي استعمال ما فاض عن حاجة أصحاب العالية خلال فترات الوفرة.

٤/٢-الحث والعمل على الاستغلال

المشترك والمستدام للموارد المائية

اهتدت الأطراف المستعملة لمياه واد أمزميز إلى اتفاق يسمح لهم باستغلال هذه الموارد بعد نزاع عمر طويلاً وزاد من إمكانيات بروزه وتجدهه قسوة الجفاف وامتداده لفترات طويلة وحدوثه بصفة دورية، وقد توصل المتفقون من قبيلة أولاد مطاع وقبيلة كدميو إلى استغلال المياه المتنازع حولها وفق مجموعة من الشروط تبعا لظروف الوفرة والندرة حسب الفصول والفترات، إذ لكل مرحلة تدبير خاص بها، وذلك لضمان استفادة أولاد مطاع من مياه الساقية حسب الأيام المحددة والمنصوص عليها في الظواهر السابقة وحسب المفروض واقعيًا والإبقاء لهم على هذه الحقوق الممنوحة دون التراجع عنها، والعمل على التدبير والاستغلال المشترك بينهما لهذه المياه تجنباً للاقتتال، فتم الاتفاق على ما يلي:

خلال الفترة الممتدة ما بين ١٥ أكتوبر إلى ١٥ يونيو: وهي فترة الوفرة من السنة الفلاحية العادية من حيث التساقطات، يأخذ خلالها أولاد مطاع مياه الساقية العرجا ولا يمكن أن تتزود باقي السواقي إلا بعد أن تكون الساقية المذكور مملوءة ولمدة ثلاثة أيام^(٤٨)، وخلال هذه الفترة يسمح فيها باستعمال هذه المياه لمختلف الأغراض ومتطلبات الحياة لدى القبيلة بما فيها سقي الأشجار والمغروسات بمختلف أنواعها.

- الفترة الممتدة من ١٥ يونيو إلى ١٥ أكتوبر: وهي فترة الندرة والخصائص في السنة، حيث الفصول الجافة كفصل الصيف وبداية الخريف في المناطق الشبه الجافة بالعروض المعتدلة، بسبب تراجع التساقطات وارتفاع الحرارة وتضاؤل الجريان وتوقفه في بعض المجاري والسواقي، حيث لا يسمح لهم إلّا أن يأخذوا من مياه واد أمزميز عبر الساقية العرجا إلّا ما يلي حاجياتهم ومستلزماتهم الأساسية والمتمثلة في الشرب وجمع الماء لماء خزاناتهم لسقيهم وسقي بهائمهم^(٤٩) دون استعماله في سقي المغروسات والأشجار، كما تم الاتفاق على ذلك، نظرا لكون الكميات المتوفرة من الماء لن تفي لهم

إليه في ظروف العطش العادية، وحق الشفة حق ثابت فقها لغير مالك النهر أو المجرى، ويستند ثبوته والاستفادة منه إلى عدم، التسبب في ضرر للمالك الخاص للنهر ومجره^(٤٤)؛ وهو حق ثابت للضرورة دفعا للأذى عن الناس وسداً لحاجاتهم ومتطلباتهم الأساسية مع مراعاة حقوق المالكين الأصليين للواد ومياهه والحرص كذلك على عدم التسبب في ضياعها^(٤٥).

وجدير بالذكر أنه في حالة وجود مجرى مائي وحيد ولا بديل عنه، لا ينبغي منع الأفراد والجماعات من الوصول إلى الماء، لما يشكله ذلك من خطر عليهم وعلى ماشيتهم بسبب العطش وبالتالي فذلك يمس المتضرر في حقه الأساس الذي هو الحق في الحياة. كما أنه في حالة التعنت والمنع فإن الفقه والشرع يبيح للمتضرر التصدي للمانع خاصة وإن كان الماء لا يزال على إباحته الأصلية التي يكون فيها لكل إنسان الحق بالشفة والشرب^(٤٦).

ونظراً للخلافات التي كانت بين قبيلتي أولاد مطاع المتضررين وقبيلة كدميو مالكي المجرى المائي والتي أفضت إلى وقوع نزاعات متعددة كما سبقت الإشارة، فرضت على المخزن كسلطة حاكمية وعلى رأسها السلطان التدخل لفرض الأمور الشرعية والعرفية المعمول بها لحماية الحقوق الفردية والجماعية في الوصول إلى الماء وتلبية الحاجات الضرورية وفقا لما يخوله الشرع وإعمالا له وذلك نظرا لكون الساقية هي مصدر الماء الوحيد لهم " والحالة أن بلدهم المذكورة لا ماء بها خصوصا القراقب... ولا بئر ولا عين ولا سواقي لبعد الماء بأرضها غاية... " ^(٤٧)، والحالة هذه والتي لا يوجد فيها إلا مصدر واحد للتزود بالماء والذي هو الساقية العرجا، كان للمخزن وللسلطان الدور الأساس في فرض نصيب من مياه الساقية لفائدة أولاد مطاع لاستعمالها لتلبية حاجياتهم ومتطلباتهم ومختلف الاستعمالات المنزلية من اغتسال وتنظيف ونحوها عبر ملء الخزانات أو المطافي وتخزين المياه لاستعماله في أوقات الجفاف عند تأخر أو توقف التساقطات وانقطاع الجريان. مع الالتزام في مثل هذه الوضعيات بعدم استعمال هذه المياه في سقي المغروسات والأشجار ولا

وهذه الأدوار التحكيمية قد شملت جوانب مختلف من الحياة خاصة ما يرتبط بالموارد الاقتصادية للقبائل كالمراعي، والماء والأرض وغيرها، فخلال منتصف القرن التاسع عشر قام المخزن بمهام تحكيمية متعددة بدير الأطلس الكبير، وتتعلق الأولى بمجال واد "إمي - ن - تَانوت"، بين قبائل أولاد بوالسبع وقبائل هنفيفية على إثر النزاع حول الأرض، ففي مجاعة سنة ١٨٥٠ اضطر أهل هنفيفة إلى مغادر أراضي كانت لهم، فاحتلتها عائلات من أولاد بوالسبع ورفضوا مغادرتها بعد رجوع أصحابها إليها، مما أوجع الخلاف بينهما، فأرسل السلطان سنة ١٨٥٤م لجنة للتقصي تتكون من ثلاثة عدول للنظر في الجوانب الشرعية للقضية وضابطين من جيشه كممثلين للسلطة، فبعد التحقيق تبين أن الأرض تتوفر على أدلة سابقة لفترة تواجد أولاد بوسبع بها من أشجار ومطمورات مدفونة وبنائات قديمة تشهد على عتاقها وقدمها، حيث اعتبرت كشواهد وأدلة لإثبات ملكية أهل هنفيفة لها، ولم يتم الاكتفاء بالأدلة المنطقية والتي تثبتتها الآثار القائمة، بل تم استدعاء الشهود من القبائل المجاورة والمحايمة خاصة قبيلتي سكساوة وإدويران، حيث أدلى إدويران بشاهدة مدعمة للنتائج المتوصل إليها من طرف اللجنة، أما سكساوة فلم يحدد موقفها من المشكلة^(٥٢).

ونفس الشيء بالنسبة للتدخل المخزني في النزاع حول الماء بين قبيلتي كدميوة وأولاد مطاع حول مياه الساقية العرجا على واد أمزميز، فقد تميز تدخله بإتباع منهج اتسم بالتدرج في إيجاد الحل المناسب بين الطرفين المتنازعين. فبعد أن فشل الحل الودي المحلي بين الطرفين، وخلال مرحلة تم فيها الاكتفاء بالمراقبة والتتبع، وبعدها، قام المخزن بالتدخل عبر إصدار الظواهر وتبنيه الرافضين بالعقوبات التي قد تلحقهم في حالة مخالفة مضامين هذه القرارات السلطانية، وهي منهجية تكررت كذلك عند التدخل المخزني لحل النزاع حول الماء على أسيف المال بين كدميوة ومزوضة وأعيد التعاقد على نوع آخر من التوزيع، كما وقع نزاع آخر خلال نفس الفترة بين قريتي "إماريغن" و"تاسا ويركان" بقبيلة وزكيتة، حيث تم الإتفاق على توزيع جديد للماء المشترك بين الطرفين ، وإعادة إقتسام ماء ساقيتي

بالحاجيات الأخرى وتجنباً كذلك لتعميق الأزمة المائية بكلا المجالين العالية والسافلة.

وبذلك يكون ترتيب الأولويات في استغلال مياه الساقية تجنباً لأزمة مائية حادة وشديدة قد تنعكس سلباً على الطرفين معا، حيث أُعطيت الأولوية لتلبية الحاجيات الأساسية من شرب للأفراد والجماعات وماشيتهم ومختلف الاستعمالات المنزلية من نظافة وغيرها، ثم استعمال فائض الماء في ممارسة الأنشطة الفلاحية والتي يتم الاقتصار عليها في الغالب خلال الفترات الخاصة بممارسة هذه الأنشطة كفصل الشتاء وفصل الربيع.

ومن خلال مختلف التدخلات التي قام بها المخزن والخطوات المتبعة في حل الأزمة المائية بين أولاد مطاع وكدميوة وفق المبادئ والشروط المذكورة، يتضح أن هاجس الأمن المائي لدى المخزن كان من بين الهواجس التي وجّهت الكثير من قراراته أثناء التدخل لفض مثل هذه الخلافات، وهي خطوات اعتمدت كذلك في نزاعات مماثلة حول الماء على واد القيهررا بين قبيلتي إدويران وسكساوة، وقبيلة أولاد أبي السباع، وكذلك على واد أسيف المال بين قبيلة كدميوة وقبائل مزوضة وفروكة ومجاط خلال نفس الفترة، مما يبين عمق الأزمات المائية بالمجال الواقع غرب واد نفيس وتفاقمها مع سنوات الجفاف.

ثالثاً: المقاربات المخزنية لحل الأزمات المائية على واد نفيس

١/٣- التحكيم المخزني كآلية لحل النزاعات

حول الماء

يعتبر الدور التحكيمي من بين الأدوار الأساسية التي يقوم بها المخزن أو من ينوب عنه في بعض الحالات كالزوايا والأشراف والصلحاء وغيرهم ممن لهم الحظوة الدينية للقيام بهذه المهمة وبتكليف منه في بعض الأحيان^(٥٠)، وذلك لتحقيق الأمن والاستقرار والتعايش السلمي بين القبائل، وجعل مختلف القبائل في وضع يمكنها من الاستفادة من تنظيم شمولي، والمحافظة على بقائها^(٥١)، كهدف مبدئي وواقعي يسعى المخزن إلى تحقيقه.

الزاوية قوية إلّا والمخزن يجد أرضية صلبة لتثبيت أقدامه^(٥٦) بمجالات نفوذها.

فمن خلال هذا الأسلوب الذي يتبعه المخزن والمتمثل في وظيفة التحكيم، يعتبر السلطان بذلك صانعا للسلم بين القبائل والأطراف المتنازعة، وغالبا ما يتدخل لممارسة هذه الوظيفة، إما بقرار ذاتي سيادي منه، أو بطلب من القبائل المتنازعة. ويتوج تدخله هذا بعقد محضر رسمي وبحضور وشهادة العديد من الشرفاء والعلماء والجنود ورجال السلطة وغيرهم ممن لهم الحظوة والتأثير في المجتمع، وتبقى وظيفة التحكيم هذه من بين الوظائف التي تقوي من شرعية السلطان السياسية والدينية وتبوءه مكانة متعالية عن المجتمع وباقي الفئات^(٥٧).

٢/٣- القواعد العرفية كآلية لتدبير الأزمة

المائية بين القبائل

العرف لغة هو المعروف والمألوف المستحسن، اصطلاحاً عند الفقهاء هو "كل ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطبائع السليمة بالقبول، ولا فرق بين العرف والعادة عند جمهور الفقهاء، فهما عندهم بمعنى واحد"^(٥٨). وتعتبر الأعراف من أكثر الممارسات اعتماداً في تدبير المسألة المائية بالبادية المغربية، وهو كذلك عبارة عن مختلف القواعد والضوابط التي يحتكم إليها الناس من أجل تنظيم استغلال الموارد المائية المشتركة بينهم، تجنباً للنزاع والخلاف كما يتضمن كذلك بعض العقوبات لردع المخالفين.

يعتبر العرف أو العادة من المكونات التي يعمل المخزن على احترامها ويؤسس لذلك ويدافع عنه من خلال كتاباته ومراسلاته للأطراف المعنية إن كان تطبيق تلك الأعراف يخدم مصالحه كما جاء في إحدى المراسلات نحو زاوية أولاد مطاع "فيجرون على عادتهم المألوفة لهم من قديم"^(٥٩).

فأثناء تدخله في النزاع في قضايا الماء بين القبائل فتعتبر هذه الأعراف هي القواعد والضوابط المحتكم إليها في الغالب لكونها هي المعتمدة في عمليات تنظيم الأمور المرتبطة بالسقي وتقسيم الماء بين المستعملين. فالمألوف في النزاع الحاصل بين أولاد مطاع وكدميو

"تدلالة" و"سالم" المشتركين بين آيت يحيى وآيت واودانوست على واد أمهاصر قرب دمنات (١٨٥٩م)^(٥٣). وكذلك التدخل في النزاع حول الماء بين قبيلة إدويران وأولاد بوالسبع على واد القيهر خلال نفس الفترة تقريبا (١٨٦٥-١٨٦٨م).

بعد فشل المساعي المحلية لإيجاد حلول مناسبة بين الأطراف المتنازعة، ترفع القضايا إلى جهات أعلى وأقوى لفرض الحل المناسب بالنظر في مصالح الأطراف كلها، وللتوصل إلى حلول مقبولة واقعيًا يتم إرسال لجان إلى مكان وقوع الحادث لتقصي الحقائق ورفع التقارير إلى السلطان أو خليفته بمراكش، وغالبا ما تكون هذه اللجان مشكلة من ممثلين لوجهة النظر الشرعية من عدول أو قضاة وممثلي السلطة المخزنية من قواد أو عسكريين ثم العارفين بالعرف المحلي والأعيان لتتبع وتقضي مختلف المعلومات المرتبطة بموضوع النزاع وإحضار الشهود من القبائل المجاورة وخاصة المحايدة والتي لا تعتبر طرفا في النزاع، وإنجاز تقرير شامل حول الموضوع وعرضه على السلطان الذي سيتخذ القرار الملائم بناء على خصوصية كل وضعية من هذه الوضعيات.

فعلى واد أمزميز مثلا، تم تقسيم الماء بين كدميو وأولاد مطاع بمنح أولاد مطاع ثلاثة أيام للسقي مقابل ثلاثة أيام مماثلة لكدميو ويوم واحد لزاوية القراقب بأولاد مطاع؛ بينما على واد القهرا مُنح الخمس (١/٥) لأولاد بوالسبع في مياه الواد، أما النزاع على أسيف المال فقد منح فيه الثلث لكدميو والثلثان للقبائل الأخرى وهم مجاط وفروكة ومزوضة^(٥٤)، وهي كميات متفاوتة حسب خصوصية النزاع ومجاله، ومحيطه البشري، وسياقه المناخي، والسياسي.

يتضح من خلال تتبع مسارات هذه النزاعات أن المخزن يحاول تتبع أسلوب خاص يتمثل في "المراقبة والمعاقبة" (كما عبر عن ذلك ميشيل فوكو)، إذ لا يلجأ إلى الأسلوب الثاني إلا بعد استنفاد الحل الأول لكل إمكانات تصريفه والتي يدخل ضمنها توظيف الزوايا والأولياء، واعتبارهم جهازا للضبط والإخضاع خاصة في المناطق التي لم تكن تدين له بالولاء^(٥٥)، حيث كان المخزن حريصاً على استغلال واستثمار ما تراكمه الزوايا من رأسمال رمزي في تدعيم تدخلاته، فكلما كانت

٣/٣-الشرع كخلفية مؤطرة للتدخل المخزني لحل الأزمات المائية

من خلال المهمة والمكانة التي يحظى بها السلطان كحاكم يرتبط بالرعية بموجب عقد للبيعة المبني على التزام الحاكم بتطبيق الشرع وتدبير أمور الرعية وفقه، وما يخوله له ذلك من ممارسته لمهام وسلط متعددة، فإنه يعتبر أعلى سلطة قضائية يمكن اللجوء إليها، في القضايا التي ترفع إليه. وقد مارس هذه السلطة من خلال البث في العديد من القضايا، خاصة تلك المتعلقة بالنزاعات حول الأرض، والماء، والمراعي، وغيرها.

فالموضعية الاعتبارية للسلطان كحاكم وكأعلى سلطة قضائية، غالباً ما ترفع إليه القضايا المستعصية للاطلاع عليها والنظر فيها واتخاذ القرار بشأنها. فالسلطان كإمام يقوم بأمور الناس الدينية والدنيوية، ويجمع بين يديه كل السلط الدينية والإدارية والسياسية والقضائية^(١٠)، ويمثل أعلى هذه السلط في مجال نفوذه، مما يخول له النظر في جميع القضايا بما فيها المستعصية^(١١)، واتخاذ القرار المناسب وفق السياق وخصوصية الحالات المعروضة عليه بعد المعرفة التامة بمختلف حيثياتها، من خلال الشكايات ومن خلال اللجان التي يتم توجيهها من قبله إلى أماكن النزاع وإعداد تقارير عنها.

أما القرار المتخذ في الفصل في النزاع بين أولاد مطاع وكدميوية والمتمثل في منح ثلاثة أيام لكل فريق منهم، سواء أصحاب العالية أو أصحاب السافلة على حد سواء واليوم المتبقي فهو لزاوية أولاد سيدي أحمد أموسى بزاوية القراقب ومجال أولاد مطاع، يبدو أن هذا القرار ربما أُتخذ لاعتبارهم شركاء في استعمال مياه الساقية، فقسم الماء بينهم وجعل لكل واحد منهم ثلاثة أيام من السقي، حيث اكتسبت أولاد مطاع هذا الحق بحكم الاستعمال المستمر لهذه المياه وتعمير الأرض و استغلالها من زراعة وعمران ومختلف مظاهر الاستقرار وبالتالي فهم شركاء في الماء معهم.

أما بالنسبة لفترة الجفاف الفصلية، والتي يتم فيها الالتزام بتزويد أولاد مطاع بما يحتاجونه من ماء لسقيهم وسقي مواشيهم وملء خزاناتهم، ربما مبني على الرأي

حول مياه الساقية العرجا، إن أولاد مطاع يستغلون مياه الساقية خلال فترات الوفرة بدون أي مضايقة من طرف أصحاب العالية الكدميويين، لكن بمجرد تراجع الكميات النازلة عبر الواد وتناقص الكميات لواصله نحو السافلة يبدأ الخلاف بينهما والاحتجاج من أجل إطلاق بعض الماء بالساقية، ويتطور هذا الخلاف إلى مواجهات مما يستدعي تدخل المخزن. وهذا التدخل يكون بناء على ما هو واقع وما يفرضه الواقع وما هو محتكم إليه بينهم وما يفرضه الشرع.

فالعادة والعرف عندهم في هذه الحالة هي استعمال المياه خلال فترات الوفرة، أما الاستثناء هو قطع الماء خلال فترات الندرة نظراً لطول مدة الاستغلال وإقامة العمران، وهذه الندرة غالباً ما تكون مناخية تمتد إلى السنة أو أكثر، أو فصلية تشمل جزءاً من السنة فقط، فتزيد العوامل البشرية من تفاقمها لتزايد الحاجة إلى المياه بالعالية خلال هذه الفترات وكذا العوامل الطبيعية بسبب ارتفاع نسبة التبخر واستهلاك الأرض للماء بكثرة خلال الفترات المشمسة. فكان توجه المخزن هو الإبقاء على الحصص المائية والسماح بالمرور له كما العادة، لأسباب ترتبط بتوفير الحدود الدنيا من الماء لتلبية المتطلبات الأساسية لأهل السافلة المتضررين. وهذا ما حاولت الظواهر تثبيته من خلال منع أهل العالية من قطع الماء على أهل السافلة، لأن العادة لديهم هي استعمال واستغلال هذه المياه قبل إصدار ظهير ١٧٨٦م، الذي نص عليها بهدف حسم الخلاف بينهم فجاء داعماً لحق أولاد مطاع المتضررين.

فمن خلال هذه الحالة يبدو أن الظواهر السلطانية قد نقلت العرف المتفق عليه في استعمال مياه واد أمزميز إلى حقوق منصوص عليها في ظواهر سلطانية تعتبر أقوى الحجج والإثباتات في تثبيت ملكية الحصص المائية، إذ لا يتم الفصل عند القاضي بين الأطراف المتنازعة حول هذه الحقوق إلّا بعد التأكد من عدم وجود ظواهر في ملكية الأطراف المتنازعة للرجوع إليها وتنفيذ مقتضياتها.

وبذلك يكون التدخل المخزني مؤطرا بقواعد عرفية وشرعية تجعل التدخل وفقه مقبولا من طرف المتنازعين، وإن كانت آثار الظروف المناخية تدفع إلى تجاهل هذه الأعراف والاحتكام إلى القوة وممارسة الضغوط على بعض الأطراف لانتزاع بعض مواردها وحقوقها المائية الشيء الذي يدفع بالمخزن إلى التدخل عبر أجهزته الرسمية وغير الرسمية لإرجاع المياه إلى مجاريها.

خاتمة

يتضح من خلال ما سبق أن الأزمات المائية التي عرفها المجتمع المغربي كانت في أغلبها لأسباب مناخية، ناتجة عن قلة التساقطات أو توقفها لبعض الشهور أو السنوات، مما جعل العوامل البشرية ومحدودية الوسائل التقنية تعمق من نتائجها وآثارها على المجتمعات المحلية، مما دفع بالسلطة المركزية ممثلة في السلطان إلى التدخل من أجل تجاوز هذه الأزمات وإيقاف الخلافات بين الأطراف المتنازعة وإصدار حقوق مائية عبر ظواهر سلطانية تمكن من ضمان الاستفادة من حصص مائية مستمرة لتجاوز أزمات العطش التي تبرز بين الفينة والأخرى ببعض المجالات المغربية، وخاصة المناطق الشبه الجافة كمجال دير الأطلس الكبير الغربي المراكشي.

وتأتي التدخلات المخزنية في سياق مناخي وقبلي وسياسي واقتصادي مركب، اعتمد خلالها منهجية خاصة متممًا فيها الحلول المحلية ومختلف المصالحات التي يقوم بها من ينوب عنه سياسياً وروحياً من شيوخ الزوايا والصلحاء وغيرهم وموجها ومرشداً لتدخلاتهم، أو عن طريق إيفاد لجان مكونة من قضاة وعدول وأصحاب السلطة وشيوخ وأعيان وشهود تحل بالمجال لحل النزاع أو رفع التقارير عن ملابسات الحادث وادعاءات كل طرف، للنظر فيها واتخاذ القرار المناسب والملائم حسب الظروف والسياسات، وذلك لحسم الخلاف وحماية لحقوق الأطراف المتنازعة ورفع الضرر عن المتضررين، إذ يشكل هاجس الأمن المائي محورياً خلال هذه الفترة بحكم ارتباطه بالأمن الغذائي المحلي والحد من التحركات القبلية الرامية إلى تقوية النفوذ والزحف على المجال وما يمثله ذلك من تهديد للاستقرار

الفقهي الذي يرى أن "المنقطع (الماء) يؤخذ منه ما يذخر والدائم يؤخذ منه ما يستعمل..."^(٦٢)، وهي الحالة المنطبقة على وضعية أولاد مطاع فمع تغير حال الماء بين الاستمرار في الجريان والانقطاع بسبب الوضعية المناخية العامة التي تميز مجال الحوز والأطلس الكبير الغربي، تم الاتفاق في حالة الانقطاع بالاكْتفاء بأخذ ما يملؤون به خزاناتهم وما يذخرونه لأوقات الحاجة. وهذا ينطبق مع الحق الأساسي في الماء وهو حق "الشفه" المخول شرعاً، وهو الحق في الماء والحق في إرواء العطش، وهي وضعية تقع فيها قبيلة أولاد مطاع خلال فترات الندرة، مما يستوجب حماية حقها في إرواء العطش لحمايتها وحماية مواشيها. وهذا ما تمت مراعاته من خلال التدخلات المخزنية التي تضغط على قبيلة كدميو بالسماح للماء بالمرور للماء خزاناتهم وأوعيتهم لادخار الماء وإرواء عطشهم؛ لذا عمل السلاطين العلويين خاصة منذ عهد سيدي محمد بن عبد الله على رفع الضيق والشدة التي تحصل لقبيلة أولاد مطاع بسبب انقطاع الماء لأسباب مناخية وبشرية فألزموا أهل العالية بترك الماء نازلاً عبر الساقية العرجا "فأوجبوا للقبيلة المذكورة (أولاد مطاع) ما ذكر من الماء المذكور (الأيام الثلاثة) في الساقية المذكورة (العرجا)"^(٦٣)، ومن خلال هذا الإلزام سيتم التخلص أو التخفيف على الأقل من الإكراهات البشرية المسببة لانقطاع الماء عن الساقية ولو جزئياً، حيث ستبقى المناوشات وعدم القبول والاستسلام للقرار المتخذ، وهذا ما لوحظ من خلال بروز خلافات بين الطرفين في مراحل لاحقة؛ أما في حالة الدوام واستمرار الماء في الساقية أو الواد، يؤخذ الماء للاستعمال في مختلف الحاجيات بما فيها سقي الأشجار وممارسة مختلف الأنشطة الفلاحية.

أما التدخل المخزني على واد القيهر بين إدويران وسكساوة، وأولاد أبي السباع، ما بين (١٨٦٥م-١٨٦٨م) فقد كان التقويت في البداية الزاماً عرفياً لأولاد أبي السباع، وبعد استعصاء الأمر جعله تقويتاً قانونياً -أي بإصدار ظهير- وكان المقدار المأمور به لا يتجاوز الخمس وهو حق شرعي للسلطان التصرف فيه"^(٦٤).

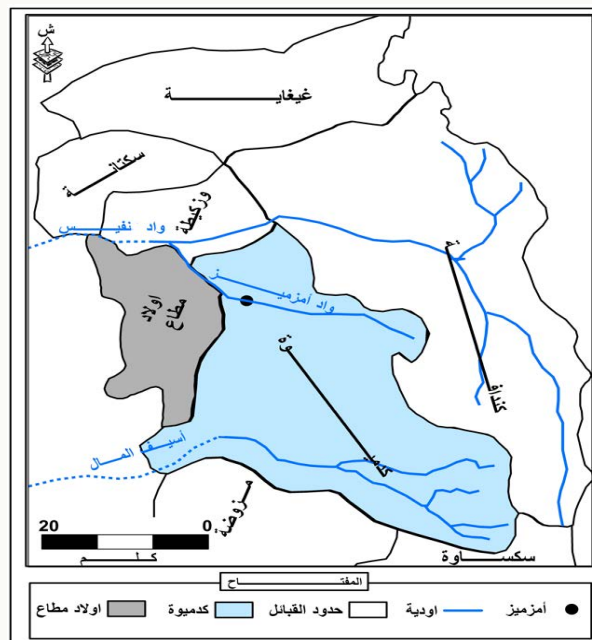
الإحالات المرجعية:

السياسي للمغرب عامة في ظل تزايد الضغوط الخارجية التجارية والعسكرية.

الملاحق

الخريطة (١)

امتداد قبائل كندافة وأولاد مطاع بمجال واد نفيس



المصدر (بتصرف):

Ahmed Bellaoui, les pays de l'Adrar n Dern

- (١) تمتد سواقي توفليست والساقية العرجا من مجالات كدميوة حاملة للماء نحو الساقلة الى ان تصل الى مجالات قبيلة أولاد مطاع، فالساقية العرجا يقع سدها على واد امزميز وهي الأهم والأكثر صبيبا، بينما توفليست فتأخذ الماء من عين امي ن تلا بعالية واد انوكال أحد روافد واد امزميز الذي يعتبر بدوره رافدا من روافد واد نفيس.
- (٢) الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، الجزء الاول، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، الطبعة الثانية، ص ١٢٥ - ١٢٦.
- (3) Durand M., « La région de Marrakech et du sud marocain », **Revue de la géographie du Maroc**, VI 1927, p : 105.
- (4) Ahmed Bellaoui, **les pays de l'Adrar n Dern, étude géographique du haut atlas de Marrakech**, livre 1, thèse pour le doctorat d'état es lettres et science humaines, université de tours, 1989, p 82.
- (5) Jean Dresch, « Le Haut Atlas occidentale », **Aspect de la géomorphologie du Maroc**, notes et mémoires du service géologique, N° 96, 1 vol. 1952, p : 116.
- (6) Jaques Berque, **Structures sociales du Haut Atlas**, presses universitaires de France, Vendôme 1935, p. 144.
- (٧) يتسم مناخ مجال أولاد مطاع بتساقطات سنوية تصل الى حوالي ٢٢٠ ملم سنويا وحرارة مرتفعة صيفا تصل الى ٤٠ °. رجة وشتاء الى ٨٠ درجات، كما تعرف هبوب رياح قوية أحيانا تتجاوز ٦٠ كلم /ساعة، مما جعلها تعرف نقصا في الموارد المائية وازدياد متطلباتها من السقي والاعتماد على مياه المجاري المائية بالعالية التي تقع مصادرها بمجال قبيلة كدميوة، كالساقية العرجا وتوفليست...
- (٨) أحمد هوزالي، "مادة أولاد مطاع"، **معلمة المغرب**، الجزء العشرون، مطابع سلا، ١٩٨٩، ص: ٧١٧٨.
- (9) Ludovic De Campou, **Un empire qui croule le Maroc contemporain**, Librairie Plon, Paris 1886, p : 50.
- (10) Rieu M., **usages, institution**, op.cit, P 27.
- (١١) القراقب: هي احدى الفخذات الست المكونة لقبيلة أولاد مطاع الى جانب فخذات المرحجة واولاد احمد وتايزلت وتاسنة وتزفريت.
- (12) Rieu M., **usages, institution**, op.cit, P 27.
- (١٣) الحيازة من الحوز، أي وضع اليد على الشيء والتصرف فيه، ومن اركان الحيازة الخمسة اليد والنسبة وطول المدة والتصرف عدم وجود منازع.
- (١٤) وثيقة محلية رقم ١٩، محضر لدى قاضي الجماعة بمراكش حول استغلال مياه الساقية العرجا، بتاريخ ١٩ شوال ١٢٨٥هـ/ ٢١ ماي ١٨٥٩م.
- (١٥) وثيقة محلية رقم ١٩. م.س.
- (١٦) غالباً ما يتم الامر بتنفيذ مقتضيات الظهير باستعمال عبارات واضحة وصارمة حيث يؤمر العمال والولاة وغيرهم من الواقفين على تنفيذ مضامين هذه الظواهر والعمل به دون نقصان ولا زيادة، وبمل ومن يخالفه فيعاقب على تقصيره في ذلك.
- (17) Rieu M., **usages, institution**, op.cit, P 29.
- (١٨) وثيقة محلية رقم ١٩. م.س.
- (١٩) الوثيقة نفسها.

(43) Rieu M., **usages, institution**, op.cit, P28.

(٤٤) أحمد إد الفقيه، **نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي (شعرا، وعرفا، وتشريعا)**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص: ٩٥.

(٤٥) المرجع نفسه، ص: ٩٦.

(٤٦) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٤٧) وثيقة محلية رقم ١٩. م. س.

(48) Rieu M., **usages, institution**, op. cit, P 32.

(49) Ibidem.

(٥٠) قامت زاوية متصلوحت بدور الوسيط في نزاعات مختلفة وبأماكن متعددة، ونذكر هنا الدور الذي قامت به كوسيط بين المخزن والرحامنة المتمردين عليه حوالي ١٨٦٢م/ ١٢٧٨هـ، ورغم أن المهمة لم تحقق النجاح المطلوب وبات بالفشل بحكم هيمنة الرحامنة وقوة تأثيرها على قبائل الحوز.

(٥١) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناسرين المتحددين، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص: ١٥٠.

(٥٢) عياش، **دراسات**، م. س. ص: ١٥٠.

(٥٣) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان ١٨٥٠-١٩١٢)**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠١١، ص: ٢٠٩.

(٥٤) محمد زرهوني، **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (١٨٦٣/١٢٨٠ - ١٨٧٣/١٢٩٠)**، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٨، ص: ٢٩٠.

(٥٥) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب ١٨٨٠-١٩١٥**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص: ٨٨.

(٥٦) محمد المازوني، **المنظومة المخزنية ومؤسسة الزاوية**، مؤسسة افاق، مراكش، ٢٠٢٤، الطبعة الأولى، ص: ١٨٢.

(٥٧) عبد اللطيف أكنوش، **السلطة والمؤسسات السياسية بمغرب اللامس واليوم**، مؤسسة بئشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص: ١٠٩.

(٥٨) عمر الجيدي، **مباحث في المذهب المالكي بالمغرب**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص: ٢٢٣.

(٥٩) رشيد الخنيفري، **أولاد مطاع بحوز مراكش القبيلة في رحاب الزاوية**، مؤسسة آفاق، مراكش، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، ص: ١٣٠.

(٦٠) يعتبر الحاكم أو السلطان اماما وحاكما ويعمل على القيام بأمور الناس وفق الشرع وعقد البيعة التي تمت بموجبها مبايعته بها، ويمثل أعلى السلط في البلاد العسكرية والإدارية والقضائية، فبالنسبة للسلطة القضائية فقد كان بعض السلاطين يستقبلون شكايات الناس في أيام محددة من الأسبوع كما الشأن بالنسبة للحسن الأول الذي خصص يومي الأحد والثلاثاء لاستقبال شكايات الناس.

(٦١) عبد الله العروي، **الأصول الثقافية والاجتماعية للوطنية المغربية ١٨٣٠-١٩١٢**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٦، ص: ١٥٣.

(٦٢) ابي الحسن علي الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق احمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، الطبعة الاولى، ١٩٨٩، ص: ٢٣٦.

(٦٣) وثيقة محلية رقم ١٩. م. س.

(٦٤) زرهوني، **العلاقات بين السلطة والسكان**، مرجع سابق، ص: ٢٩٣.

(20) Rieu M., **usges, institutions**, op.cit, p : 40

(٢١) وثيقة محلية رقم ١٩. م. س.

(٢٢) الوثيقة نفسها.

(٢٣) الوثيقة نفسها.

(٢٤) الوثيقة نفسها.

(٢٥) المطافي أو النطافي، مفردا مطفية وهي عبارة عن خزانات يتم اعدادها لتخزين المياه بالمجالات حيث الندرة المائية، تقام لها حفر لتسهيل نقل المياه اليها عبر السواقي تبني باستعمال المواد الصلبة كالحجارة واستعمال مواد مقاومة كالجير وخلطه بمواد أخرى ليكتسب المتانة والصلابة، وتعبأ بمياه الامطار او السواقي بتقنيات مضبوطة حفظا لطهارة الماء ونقاؤه لاستعماله في مختلف الحاجيات المرتبطة بالشرب والطهارة وغيرها.

(٢٦) وثيقة محلية رقم ١٩. م. س.

(٢٧) وثيقة محلية رقم ١٩. م. س.

(28) Geneviève Bedoucha, **l'eau, l'amie du puissant une communauté oasienne du sud tunisien**, éditions des archives contemporaines, paris, 2eme Edition, 2014. P 16.

(٢٩) وثيقة محلية رقم ١٩. م. س.

(٣٠) الظهير: كلمة تعني العون لغة، واصطلاحاً كل قرار صادر عن الامراء الحكام ويسمى كذلك الصك او السجل، ويعتبر الامراء الموحدون اول من استعمل هذه الكلمة للتعبير عما يصدرونه من قرارات لأصحابهم واعوانهم وغيرهم من الرعايا على وجه الانعام وجزاء لهم ورضى عنهم او على وجه الاستظهار بالكتاب في شؤون الدولة او الشؤون الخاصة. وقد استمر استصدارها خلال فترات الحكام العلويين وكانت ذات مواضع متعددة منها ظواهر التوقير والاحترام وظواهر تنظيمية وأخرى تمكن من تفويت بعض الممتلكات خاصة الحقوق المائية لبعض الفئات من اعيان، وقبائل، وشيوخ الزوايا، وغيرهم.

(31) Rieu M., **usages, institution**, op. cit, P 34.

(٣٢) اتسمت سنة ١٧٨٦م بقلّة التساقطات وانتشار الجفاف، كما سبقتها فترة عرفت انتشار الجفاف والمجاعات امتدت منذ ١٧٧٦م، ودامت حوالي سبع سنوات، وكانت فترة صعبة على المجتمع المغربي عامة، حيث اضطر فيها السلطان الى توزيع الخبز والقوت على الناس وخاصة الفقراء، كما أقرض القبائل الأموال، ومنعت الجبوب من التصدير بعد ذلك لما استمر الجفاف وتكرر خلال سنة ١٧٨٩م.

(33) Charles Bois, « années de disettes, années d'abondance sècheresses et pluies au Maroc », **Revue de l'union internationale de secours**, janvier 1948, p 3-p71, p 43.

(34) Rieu M., **usages, institution**, op. cit, P 34.

(35) Ibidem.

(36) Ibidem.

(37) Ibidem.

(38) Rieu M., **usages, institution**, op. cit, P 34.

(٣٩) وثيقة محلية رقم ١٩. م. س.

(٤٠) الوثيقة نفسها.

(٤١) الفردية هي حصة مائية تبلغ ١٢ ساعة وبها فردية ليلية ونهارية، وتقسم بها الى النصف والربع وغيره.

(٤٢) القراقب: هي إحدى فخذات قبيلة أولاد مطاع، وبها توجد زاوية أولاد سيدي أحمد أموسى.

تحليل الميزانيات المالية التاريخية باستخدام الخوارزميات الذكية دراسة مقارنة لإيرادات ومصروفات إيران (١٩٢٥ – ١٩٢٦) أنموذجاً

أ.د. أحمد شاكر العلاق

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة الكوفة
جمهورية العراق



ملخص

تبحث هذه الدراسة في التحولات المالية الجوهرية التي شهدتها إيران خلال فترة انتقالية حاسمة، حيث تطبق منهجيات الخوارزميات الذكية لتحليل الموازنات المالية للعامين ١٩٢٥ و ١٩٢٦، اللذين يمثلان نهاية العهد القاجاري وبداية العهد البهلوي. تستخدم الدراسة التحليل الكمي والنوعي معاً، إذ تكشف الخوارزميات الذكية عن أنماط تحويلية واضحة في هيكل الإيرادات والنفقات الحكومية، كما أظهرت النتائج تنوعاً متزايداً في مصادر الإيرادات، خاصة مع بداية الاعتماد على الموارد النفطية، وإعادة توزيع النفقات لصالح مشاريع التحديث والبنية التحتية. يكشف التحليل المقارن عن تحسن تدريجي في المؤشرات المالية، بما يشمل تعزيز التوازن المالي وانخفاض الاعتماد على الاقتراض الخارجي، تؤكد الدراسة أن هذه الفترة شكلت نقطة انطلاق للتحديث المالي الحديث في إيران، مع إرساء أسس نظام اقتصادي أكثر تنظيماً وكفاءة، كما تقدم هذه المقاربة نموذجاً مبتكراً لدمج التقنيات الحديثة في البحث التاريخي، مما يوفر فهماً أعمق للتطورات الاقتصادية في المنطقة خلال القرن العشرين.

كلمات مفتاحية:

إيران؛ الذكاء الاصطناعي؛ موازنة مالية؛ الخوارزميات؛ الموازنات المالية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٥

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.472607



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد شاكر العلاق. "تحليل الميزانيات المالية التاريخية باستخدام الخوارزميات الذكية: دراسة مقارنة لإيرادات ومصروفات إيران (١٩٢٥-١٩٢٦) أنموذجاً". - دورية كان التاريخية-. السنة الثامنة عشرة- العدد الرابع والسبعون: ديسمبر ٢٠٢٥. ص ١٧٩ – ١٩٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: ahmed.alallaq@uokufa.edu.iq
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان التاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع للأغراض تجارية أو ربحية. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تُعدُّ دراسة التاريخ المالي أداة أساسية لفهم تطور الاقتصادات والمؤسسات المالية عبر الزمن، يهدف هذا البحث إلى تحليل الموازنات المالية لإيران خلال عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦، مستخدماً الخوارزميات الذكية كأداة تحليلية لاستخلاص الأنماط والاتجاهات من البيانات التاريخية، مع التركيز على المقارنة بين الإيرادات، النفقات، والسياسات المالية في تلك المدة.

الإطار النظري: يستند البحث إلى مفهوم تحليل التاريخ المالي باستخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي، مثل التعلم الآلي وتحليل البيانات الضخمة، لفهم ديناميكيات الموازنات التخطيطية، إذ يُعرّف التحليل المالي التاريخي بأنه دراسة شاملة للمؤشرات الاقتصادية، مثل الناتج المحلي، التضخم، وهيكلية النفقات، لتقييم الأداء المالي في سياق اقتصادي وسياسي محدد^(١).

المنهجية: تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستفادة من الخوارزميات الذكية لمعالجة البيانات المالية التاريخية لإيران في عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦. شملت البيانات مصادر الإيرادات (الضرائب، النفط، التجارة) والنفقات (البنية التحتية، الدفاع، الخدمات العامة) وتمت مقارنة الموازنات لتحديد التغيرات في الأولويات المالية والسياسات الاقتصادية، مع التركيز على تأثير الإصلاحات الاقتصادية في فترة رضا شاه^(٢). إذ اعتمدنا على منهجية تقوم على خمس طرق كالآتي:

جمع البيانات التاريخية ← التلخيص والتصنيف ← النمذجة الاقتصادية ← التحليل الدوافعي ← الاستخلاص المقارن

هذه المراحل تمثل منهجية منظمة في البحث العلمي التاريخي والاقتصادي وأهميتها تكمن في:

الأهمية المنهجية: بناء أساس معرفي موثوق، إذ أن جمع البيانات التاريخية يوفر الأساس الضروري لفهم الأنماط والتطورات عبر الزمن، مما يمكن الباحثين من وضع الظواهر الحالية في سياقها التاريخي المناسب. ضمان جودة البحث: مرحلة التنقيح والتصنيف تزيل التحيزات والأخطاء، وتضمن اعتماد البيانات الدقيقة والموثوقة فقط، مما يرفع من مستوى المصداقية العلمية.

فهم العلاقات المعقدة: النمذجة الاقتصادية تساعد في فهم التفاعلات المعقدة بين المتغيرات المختلفة وتحويل البيانات الخام إلى نماذج قابلة للتحليل والفهم. الأهمية التطبيقية: دعم اتخاذ القرارات، فالتحليل الخوارزمي يوفر أدوات متقدمة لاستخراج الأنماط الخفية والاتجاهات، مما يساعد صانعي القرار على فهم الوضع بشكل أعمق.

التقييم المقارن: الاستخلاص المقارن يمكن من مقارنة النتائج عبر فترات زمنية أو مناطق جغرافية مختلفة، مما يساعد في تحديد العوامل الأكثر تأثيراً والدروس المستفادة.

هذه المنهجية ضرورية لإنتاج بحوث علمية موثوقة تساهم في فهم الظواهر الاقتصادية والاجتماعية وتقديم توصيات مبنية على أسس علمية متينة.

المنافشة: تُبرز الدراسة قدرة الخوارزميات الذكية على تحليل البيانات التاريخية بدقة، مما يتيح فهماً أعمق للسياسات المالية في سياقات اقتصادية متغيرة، تُظهر المقارنة بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ تحولاً في الأولويات الاقتصادية، مدفوعاً بالإصلاحات الحديثة في إيران.

المصادر المعتمدة: يُعتبر المصدر الرئيس المستخدم في البحث، وهو "مجموعه قوانين موضوعه ومصوبات دوره بنجم قانونكذاري" الصادر عن مطبعة مجلس الشورى الوطني الإيراني، مرجعاً أساسياً وموثوقاً لدراسة الموازنات المالية لإيران خلال الفترة المذكورة، إذ يوثق القوانين والتشريعات المالية الرسمية من ١١ شباط ١٩٢٤ ولغاية ١٠ شباط ١٩٢٦، يوفر بيانات دقيقة ومباشرة عن السياسات المالية والاقتصادية التي أقرها المجلس الوطني في تلك الحقبة، أهميته تكمن في كونه وثيقة رسمية تعكس القرارات التشريعية والمالية في سياق الإصلاحات الاقتصادية في إيران، مما يجعله أداة حيوية لتحليل الأولويات المالية والاتجاهات الاقتصادية بدقة ومصداقية. كما تم الاستعانة ببعض المصادر الإنكليزية والفارسية التي وضحت بعض الفقرات وتاريخ المراحل التي مرت بها إيران خلال مدة البحث.

أولاً: قانون الميزانية المالية العامة لعام

١٩٢٥

في إيران، جاء هذا القانون ليضع إطاراً قانونياً واضحاً يهدف إلى تحقيق استقرار مالي وتنمية اقتصادية مستدامة من خلال ضبط وتنظيم الموارد المالية للدولة، إذ شكل قانون الميزانية لعام ١٩٢٥ بداية مرحلة جديدة في تاريخ المالية العامة الإيرانية، حيث مهد الطريق لتحديث النظام المالي وتحسين الرقابة على الأموال العامة، وهو ما تم تعزيزه في قانون الميزانية لعام ١٩٢٦ بتوسيع المواد وتنظيم العمليات المالية بشكل أدق. وسوف نعتمد على المادتين الأولى والثانية (الإيرادات والمدفوعات) فقط في تحليلنا لما ورد فيهما من معلومات مهمة.

شهدت إيران في فترة ١٩٢٥ و ١٩٢٦ تحولات مالية وإدارية مهمة، حيث تم وضع قوانين جديدة تنظم الميزانية العامة للدولة، كانت هذه القوانين تهدف إلى تحسين إدارة الموارد المالية وتحديد أولويات الإنفاق الحكومي بطريقة أكثر فعالية وشفافية، يُعد قانون الميزانية لعام ١٩٢٥، الذي يتألف من ١٦ مادة، نقطة انطلاق مهمة في تاريخ المالية العامة الإيرانية، إذ وضع أساساً أولية لتنظيم الإيرادات والنفقات الحكومية. أما قانون الميزانية لعام ١٩٢٦، المكون من ٢١ مادة، فقد جاء لتعزيز وتطوير النظام المالي بما يتوافق مع التطورات الاقتصادية والسياسية في البلاد، مما يعكس توجه الدولة نحو تحديث بنيتها المالية وتحسين الرقابة على الإنفاق العام.^(٣)

تؤدي الميزانيات المالية العامة دوراً مركزياً في تحقيق الاستقرار المالي للدولة وضمان استخدام الموارد بشكل كفء لخدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية^(٤)، فخلال مرحلتي ١٩٢٥ و ١٩٢٦، كانت الموازنات الإيرانية تعكس محاولة لتوحيد النظام المالي وتحديثه اذ ركزت على:

- تنظيم الإيرادات والنفقات: توفير إطار قانوني واضح لجمع الإيرادات وتحديد الإنفاق الحكومي.
- تحسين الرقابة المالية: زيادة الشفافية والمساءلة في إدارة الأموال العامة.
- تعزيز الاستقرار المالي: الميزانية كأداة لضبط الإنفاق وتقليل العجز المالي.
- دعم خطط التنمية الوطنية: توجيه الموارد نحو مشاريع استراتيجية تعزز البنية التحتية والخدمات العامة.
- التأقلم مع التغيرات الاقتصادية والسياسية: التحديث القانوني الذي يعكس تطور إدارة الدولة.

تمت المصادقة على قانون الميزانية المالية العامة في إيران لعام ١٩٢٥ في ١ كانون الثاني عام ١٩٢٥، وقد تكون القانون من ١٦ مادة موزعة بين تنظيم الإيرادات والنفقات وكيفية صرفها وتوزيعها على جميع الوزارات

المادة الأولى - الإيرادات المقدرة كما يلي: (٥)

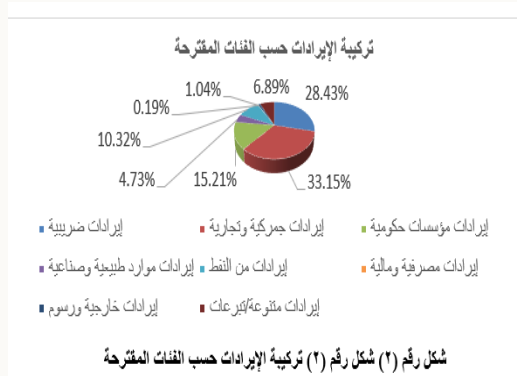
المبلغ (تومان)	بند الإيراد	الوزارة
3275000	الضرائب المباشرة	وزارة المالية
556,960	صافي الأملاك والأراضي	
3,334,895	الضرائب غير المباشرة	
7,082,440	الجمارك	
30,000	دار السك	
40,000	الإيرادات المتفرقة	
2,595,985	وزارة المالية (عينية)	
241,150	إيرادات التصديقات والاعترافات الرسمية	وزارة الخارجية
14,000	إيرادات إدارات الأمن	وزارة الداخلية
120,000	إيرادات المحاكم	وزارة العدل
825,000	إيرادات البريد	وزارة البريد والتلغراف
994,899	إيرادات التلغراف	
282,000	إيرادات خدمة النقل	
40,000	إيرادات المدارس	وزارة المعارف والأوقاف
8,7000	تبرعات غذائية للفقراء	
30,000	جزء من الرواتب لستة أشهر أولى من السنة	
1,500	إيرادات الطوابع	
1,400	إيرادات الآثار القديمة	
50,000	إيرادات الجسور	وزارة الفوائد العامة (الأشغال العامة)
25,00	مؤسسات الرهن	
650,500	الطرق المعبدة	
248,000	السكك الحديدية	
76,496	المناجم	
75,000	الغابات	
8,400	إيرادات معامل الطاقة الكهربائية	
60,000	إيرادات سفن البخار في بحيرة أورمية	
9,826	إيرادات الهاتف	
36,324	إيرادات متنوعة	
46,750	مجلس الشورى الوطني - إيرادات المطبعة	
2,400,000	إيرادات شركة النفط الإيرانية البريطانية في الجنوب	
20,000	إيرادات البنك الشاهنشاهي إيران	
23,686,425	إجمالي الإيرادات	

تدقيق الاتساق: فجوة غير مفصلة، التفسير المنطقي

عند جمع كل الأرقام يكون المجموع الفعلي هو (23,258,525) تومان، بينما إجمالي الإيرادات المذكور في الجدول هو (23,686,425) تومان، هذا يعني أن هناك فجوة قدرها (٤٢٧,٩٠٠) تومان، أي أن المجموع المدوّن أكبر من مجموع الأرقام الفعلية.

تفسير هذه الفجوة؟ يمكن تفسير هذه الفجوة بعدة اتجاهات كالآتي:

التركيب العام هنا يُظهر اقتصاد دولة تموّله التجارة والضرائب غير المباشرة بدرجة عالية، مع كتلة معتبرة من الإيرادات العينية والريع النفطي، هذا بحدّ ذاته فرضية، فالدولة تميل إلى موارد يسهل جبايتها سياسياً (جمارك، غير مباشر) أكثر من توسيع القاعدة الضريبية المباشرة.



- الإيرادات المعتمدة على التجارة والجمارك تشكل أكبر حصة. (~33%)
- الإيرادات الضريبية تشكل حوالي ٢٨% من الإجمالي.
- النفط يأتي في المركز الثالث بحوالي ١٠%.
- الإيرادات من الموارد الطبيعية والصناعية ما زالت محدودة (<5%) رغم المساحة الجغرافية الكبيرة.

المادة الثانية: النفقات المعتمدة^(٦)

المصروف السنوي (تومان)	الوصف
4,227,00	البلاط الملكي ومجلس الوزراء وجمالة الملك
540,000	مساعداة لمحمد علي ميرزا ^(٧)
440,134	مجلس الشورى الوطنى
451,72	رواتب الوزراء وأعضاء مجلس الوزراء
920,0000	وزارة الحربىة
307,0000	وزارة المالية
875,000	النفقات الاجتماعية لوزارة المالية
2,100,000	وزارة الداخلية
1,620,000	وزارة البريد والتلغراف
620,000	وزارة العدل
810,000	وزارة الفوائد العامة (الأشغال العامة)
752,000	وزارة الخارجية
663,630	وزارة المعارف والأوقاف والصناعات المستخرفة
136,370	الصحة الوطنىة

١. التفسير التاريخى

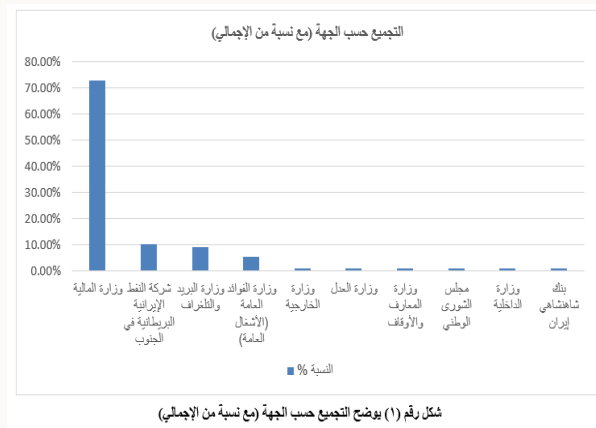
- الحساب اليدوي: قبل الحواسيب، كانت الحسابات يدوياً أو بالآلات الميكانيكية، ما يزيد احتمال الأخطاء خاصة مع الأرقام الكبيرة.
- بنود غير مفصلة: أحياناً تُضاف إيرادات متأخرة أو تقديرات لم تُسجّل تفصيلياً في الجداول.

٢. التفسير الاقتصادى

- تحويل العملات والكسور: الاختلافات تظهر عند تقريب الإيرادات من وحدات فرعية إلى الوحدة الرئيسية.
- الإيرادات غير النقدية: مثل التبرعات العينية، تُقدّر وتُضاف للإجمالي رغم عدم ظهورها بالتفصيل.
- التضخم المتعمد: أحياناً تُرفع الإيرادات المتوقعة لإظهار الاستقرار المالى أمام الدائنين.

٣. تفسير منطق الخوارزميات

- فجوة ناتجة عن قيم مفقودة: ما يعني أن بعض البنود أو القيم غير مسجلة أو مفقودة، فالمجموع الكلى يظهر أكبر من مجموع البنود المفصلة.
- تعديل رقمى متعمد: يشير إلى رفع الإجمالي قليلاً بشكل مقصود دون تعديل البنود الفردية، كنوع من "إضافة انحياز" للبيانات.
- أنماط رقمية شاذة: يعني ظهور أرقام غير معتادة أو صغيرة جداً مقارنة بالمجموع الكلى، مما يوضح أن الفجوة غالباً بسبب بند كبير غير مدرج وليس أخطاء صغيرة.



استخدام منهجية الذكاء الاصطناعي التحليلي
(Pattern Recognition / Anomaly Detection)
النظام الخوارزمي اكتشف فرقاً ثابتاً قدره
٤٨٦,٠٠٠ تومان بين المجموع اليدوي والمجموع الآلي،
لتحديد أسباب الفجوة في المصروفات السنوية وفق
الأرقام التاريخية نتبع الخطوات التالية:

المصروف السنوي (تومان)	الوصف
190,000	مخصصات للموظفين في وضع الانتظار ("منتظرين للخدمة")
30,000	اعتمادات لمكافحة مرض الكادميري
633,281	سداد ديون الدولة
252,000	اعتمادات لمصاريف غير متوقعة
80,000	المعاشات، المصاريف التعليمية، والتكاليف المتفرقة
100,000	اعتمادات للبعثة الأمريكية وفقاً لشروط العقد
22,814,287	المجموع الكلي

مجموع الأرقام حسب الجمع اليدوي
(23,300,287) تومان، اما المجموع المدوّن في الجدول
(22,814,287) تومان، ما يعني وجود فجوة
 $23,300,287 - 22,814,287 = 486,000$ تومان.

تفسير الفجوة المالية وفق منطق التفسير التاريخي
والاقتصادي والخوارزمي:

١. التفسير التاريخي

- أخطاء التدوين اليدوي: الأرقام المكتوبة يدوياً
قد تحتوي على أخطاء صغيرة تؤدي للفجوة.
- التقارير الأولية مقابل التعديلات: المجموع
النهائي قد يُعدّل بعد المراجعة أو خصم
مصروفات غير معتمدة.
- أسباب سياسية أو إدارية: أحياناً تُعدّل الأرقام
لإظهار السيطرة على الإنفاق أو إخفاء
مصروفات حساسة.

٢. التفسير الاقتصادي

- تفاوت التقديرات: بعض البنود تقديرية مثل
المعاشات أو المساعدات.
- نفقات غير مسجلة أو مؤجلة: الفجوة قد تعكس
أقساطاً أو مصروفات لم تُدرج بعد.

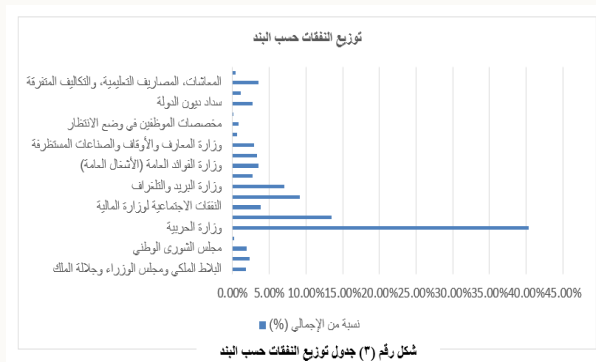
الخطوة ١: تصنيف البنود حسب الحجم

الفئة	نطاق المبلغ (تومان)	البنود	المبلغ (تومان)
كبيرة جدًا	$\geq 3,000,000$	وزارة الحربية	9,200,000
		وزارة المالية	3,070,000
كبيرة	1,000,000 – 3,000,000	وزارة الداخلية	2,100,000
		وزارة البريد والتلغراف	1,620,000
متوسطة	500,000 – 1,000,000	البلاط الملكي	422,700
		مساعدات لمحمد علي ميرزا	540,000
		مجلس الشورى الوطني	440,134
		النفقات الاجتماعية لوزارة المالية	875,000
		وزارة العدل	620,000
		وزارة الفوائد العامة	810,000
		وزارة الخارجية	752,000
		وزارة المعارف والأوقاف	663,630
صغيرة	$< 500,000$	الصحة الوطنية	136,370
		الموظفين في وضع الانتظار	190,000
		مكافحة مرض الكاديميري	30,000
		سداد ديون الدولة	633,281
		اعتمادات لمصاريف غير متوقعة	252,000
		المعاشات، المصاريف التعليمية، والتكاليف المتفرقة	800,000
		اعتمادات للبعثة الأمريكية	100,000
		رواتب الوزراء وأعضاء مجلس الوزراء	45,172

خلاصة تحليل الذكاء الاصطناعي

(AI Analysis Summary)

- الفجوة صغيرة (١٠٪، ٢٪ من المجموع)، وليست خطأ كبيراً في الإنفاق الفعلي.
- الأخطاء المحتملة: إدخال رقم ناقص/زائد في رواتب الوزراء أو خطأ كتابي في المصاريف المتفرقة/المعاشات.



ومن ملاحظة الشكل أعلاه تبين لنا ان البنود الأكبر من حيث الإنفاق كانت لوزارة الحربية بواقع (٤٠%)، وزارة المالية بواقع (١٣%)، وزارة الداخلية بواقع (٩%)، وزارة البريد والتلغراف بواقع (٧%)، اما البنود الصغيرة (<1%) فهي تمثل النفقات الطارئة أو المساعدات

الخطوة ٢: التركيز على البنود الصغيرة والمتوسطة

- الفجوة (٤٨٦,٠٠٠ تومان) صغيرة نسبياً، ما يستبعد البنود الكبيرة.
- السبب المحتمل: خطأ في إدخال رقم واحد من البنود الصغيرة أو المتوسطة، مثل:
- المعاشات والمصاريف المتفرقة: مكتوبة ٨٠٠,٠٠٠، قد تكون خطأ كتابي.
- رواتب الوزراء وأعضاء مجلس الوزراء: مكتوبة ٤٥,١٧٢، قد تكون ٤٥١,٧٢٠، ما يغطي جزء كبير من الفجوة.
- مساعدات صغيرة أو اعتمادات غير متوقعة أضيفت أو حُذفت عن طريق الخطأ.
- الخطوة ٣: اقتراح البند المحتمل المفقود أو الخطأ الاحتمال الأكبر: خطأ كتابي في رواتب الوزراء أو بند المعاشات/المصاريف المتفرقة.
- الفجوة تتوافق مع تصحيح رقم صغير أو متوسط.

أهميتها من كونها أداة لترسيخ مبدأ التخطيط المالي السنوي، وإضفاء الطابع المؤسسي على إدارة المال العام، فضلاً عن كونها عكست أولويات الدولة الناشئة الحديثة التي أراد رضا شاه بهلوي تشكيل معالمها في إيران مع تسلمه السلطة^(٨)، حيث حددت بدقة حجم الإنفاق على الأمن، والإدارة، والخدمات، ومصادر التمويل المتاحة.

المادة الأولى - الإيرادات المتوقعة:^(٩)

الخاصة، اذن معظم الفجوة المحتملة التي لاحظناها سابقاً تقع ضمن البنود الصغيرة أو المتوسطة، أي أنها لا تؤثر بشكل كبير على النسبة الكلية، لكنها مهمة للمراجعة الدقيقة.

ثانياً: الميزانية العامة لإيران عام ١٩٢٦

تمثل موازنة عام ١٩٢٦ محطة أساسية في تاريخ الإدارة المالية لإيران، إذ كانت من بين الميزانيات المنظمة التي وضعت وفق هيكل قانوني محدد، وتكوّنت من 21 مادة شملت بنود الإيرادات والنفقات بالتفصيل. جاءت

المجموع	المبلغ (تومان)	نوع الإيراد	الجهة الحكومية
	3,497,000	الضرائب المباشرة النقدية	وزارة المالية
	480,207	ضرائب الأملاك الحكومية النقدية	
	1,270,900	الضرائب العينية من الأملاك والضرائب المباشرة	
	3,890,422	الضرائب غير المباشرة	
	9,135,00	الجمارك	
	150,000	سك العملة	
	16,065	الجلود (بوستين)	
18,899,594	10,000	متفرقات	
150,000	150,000	رسوم وثائق الهوية وجوازات السفر	وزارة الخارجية
15,000	15,000	إيرادات دوائر التنظيم	وزارة الداخلية
100,000	100,000	رسوم المحاكم وتسجيل الوثائق	وزارة العدل
	800,000	إيرادات البريد	وزارة البريد والبرق والهاتف
	100,000	إيرادات النقل الحكومي	
1,675,000	77,500	إيرادات البرق	
	40,000	عوائد المدارس	وزارة المعارف والأوقاف
	90,000	عوائد التومان والدينار	
135,000	5,000	عوائد النمر والعنائق	
	2,500	عوائد مؤسسات الرهن	وزارة الفوائد العامة
	20,000	من التراب الأحمر	
	750,000	الاعنار	
	350,000	السكك الحديدية والملاحة	
	55,000	المعادن	
	20,000	الغابات والمياه	
	2,000	مصانع الكهرباء	
	2,000	الهاتف	
	4,000	المتفرقات	

المجموع	المبلغ (تومان)	نوع الإيراد	الجهة الحكومية
	25,000	شؤون الأسماك	
1,231,000	500	مدرسة الصباغة	
46,000	46,000	عوائد من المطبعة والحدائق وغيرها	مجلس الشورى الوطني
	2,500,000	عوائد من نفط إيران وبريطانيا في الجنوب	عوائد متفرقة
2,516,000	16,000	حصة الدولة من البنك الشاهنشاهي	
24,767,594			المجموع الكلي للإيرادات
تومان			

تحليل توزيع الإيرادات حسب الجهة

الجهة الحكومية	إجمالي الإيرادات (تومان)	النسبة من الإجمالي
وزارة المالية	18,899,594	76.3%
وزارة الخارجية	150,000	0.6%
وزارة الداخلية	15,000	0.06%
وزارة العدل	100,000	0.4%
وزارة البريد والبرق والهاتف	1,675,000	6.76%
وزارة المعارف والأوقاف	135,000	0.54%
وزارة الفوائد العامة	1,231,000	4.97%
مجلس الشورى الوطني	46,000	0.19%
عوائد متفرقة (نفط + بنك)	2,516,000	10.16%
المجموع الكلي	24,767,594	100%

والبرق والهاتف، بينما باقي الجهات تسهم بإيرادات هامشية نسبياً.

الجدول اعلاه يوضح أن وزارة المالية هي المصدر الرئيسي للإيرادات، يليها العوائد المتفرقة والبريد

تفصيل وزارة المالية (ودلالاته الهيكلية)

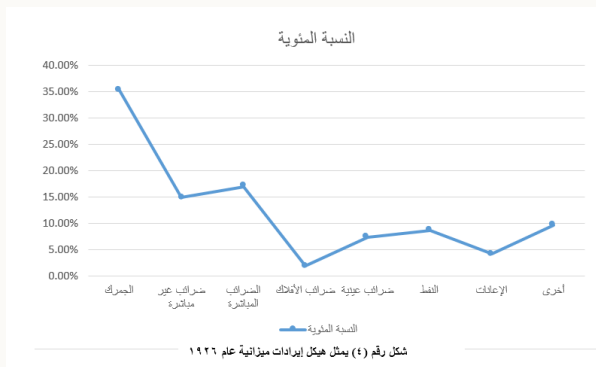
البند	المبلغ (تومان)	% من الإجمالي	% من وزارة المالية
الضرائب المباشرة النقدية	4,397,000	17.76%	23.27%
ضرائب الأملاك الحكومية النقدية	480,207	1.94%	2.54%
الضرائب العينية من الأملاك والضرائب المباشرة	1,270,900	5.13%	6.73%
الضرائب غير المباشرة	3,890,422	15.71%	20.59%
الجمارك	8,685,000	35.07%	45.95%
سك العملة	150,000	0.61%	0.79%
الجلود	16,065	0.06%	0.09%
متفرقات	10,000	0.04%	0.05%
المجموع	18,899,594	76.3%	100%

الضرائب غير المباشرة (١٥,٧%)، عوائد النفط (١٠,١%)، وإيرادات البريد/البرق/الهاتف مجتمعة

أكبر خمسة بنود منفردة في الميزانية هي: الجمارك (٣٥,١%)، الضرائب المباشرة النقدية (١٧,٨%)،

الغابات والمياه) تُظهر اقتصاداً زراعياً-ريعيًا مع ملامح تصنيع ونقل ناشئة.

- تنوع محدود ومخاطر تركّز: اعتماد $\approx 85\%$ من الإيرادات على خمسة بنود يجعل المالية العامة عرضة لصدّات التجارة الخارجية والسياسات الضريبية وأسعار النفط.
- مؤشرات على اتساع الجهاز الإداري: تعدد الرسوم الصغيرة (الطوابع، المطبعة، المتفرقات) يدل على ترسخ آليات التحصيل وتنامي القدرة الإدارية، وإن كانت مساهمتها محدودة.



هذا الشكل يوضح أن الجمر كان أكبر مصدر للإيرادات بنسبة ٣٥,٣%، تليه الضرائب المباشرة بنسبة ١٧,٠%، ثم الضرائب غير المباشرة بنسبة ١٥,٠%.

المادة الثانية - المصروفات المعتمدة حسب الجهات الحكومية.^(١٠)

(٦,٨%). هذه الخمسة تشكل نحو ٨٥,٤% من إجمالي الإيرادات، ما يعكس تركّزاً عالياً في مصادر محدودة.

مؤشرات بنوية ودلالات تاريخية

- تركّز مالي قوي في وزارة المالية: إذ أن أكثر من ثلاثة أرباع الإيرادات تأتي عبرها، بما يعكس مركزية التحصيل الضريبي والجمركي ودور الخزنة كقلب النظام المالي.
- الاعتماد على التجارة الخارجية: الجمارك هي المصدر الأكبر منفرداً ($\approx 35\%$)، ما يشير إلى اقتصاد شديد الارتباط بحركة الواردات/الصادرات وتقلبات التجارة العالمية.
- مزيج ضريبي متوازن نسبياً: الضرائب المباشرة ($\approx 17,٨\%$) إلى جانب الضرائب غير المباشرة ($\approx 1٥,٧\%$) يشي بسياسة تجمع بين تحصيل الدخل والثروة من جهة، والضرائب على الاستهلاك/التداول من جهة أخرى.
- النفط كرافد صاعد لا مهيمن: يشكل النفط نحو ١٠% من الإجمالي؛ مهم لكنه غير مهيمن مقارنة بالجمارك والضرائب، بما يعكس مرحلة انتقالية قبل تغوّل الربيع النفطي.
- عوائد المرافق العامة الحديثة: وزارة البريد والبرق والهاتف تسهم بنحو ٦,٨%، ما يعكس بدايات تمييز البنى التحتية الاتصالية وتوسّع الدولة الخدمية.
- طابع اقتصادي مزدوج: بنود وزارة الفوائد العامة (الأغنام، السكك والملاحه، المعادن،

المبلغ (تومان)	الجهة / وصف المصروف
440,700	البلاط والكابينة السلطانية وحضرة ولي العهد
429,266	مجلس الشورى الوطني
59,475	كابينة رئاسة الوزراء
9,400,000	وزارة الحرب
67,300	نفقات إقامة المبتعثين العسكريين في الخارج، وعودة المبتعثين السابقين، وإرسال الجدد
558,000	قوات الأمن (أمنية)
3,212,094	وزارة المالية ومصارييف إدارة الطرق والشوارع
975,000	نفقات طارئة لوزارة المالية

المبلغ (تومان)	الجهة / وصف المصروف
1,582,000	وزارة الداخلية
1,678,000	وزارة البريد والبرق
620,000	وزارة العدل
751,827	وزارة الفلاحة والتجارة والمنافع العامة، بما فيها اعتمادات مكافحة الأمراض الحيوانية
75,154,828	وزارة الخارجية
773,138	وزارة المعارف والأوقاف والصناعات المستظرفة
136,370	الصحة العامة
195,000	رواتب المنتظرين للخدمة المدنية
1,876,189	سداد الديون العامة
165,000	نفقات طارئة للحكومة
800,000	رواتب ونفقات متنوعة
155,000	اعتماد للبعثة الأمريكية
90,000	نفقات مجلس المؤسسان ^(١١)
24,715,907	المجموع الكلي

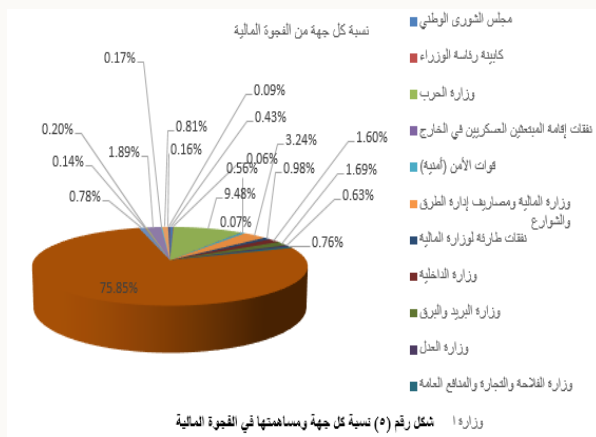
بالإحصاءات، أو قيود محاسبية صارمة على

بعض البنود.

- فجوة بهذا الحجم تؤثر على التخطيط المالي، وقد تدل على تضخم أو مشاكل في تقدير الإيرادات مقابل النفقات.

٣. التحليل الخوارزمي

- الفجوة تشير إلى بيانات متناقضة أو ناقصة، ما يصعب معه التنبؤ الدقيق بالنفقات المستقبلية.
- البنود الكبيرة يمكن وضع علامات عليها كقيم شاذة^(١٢) (Outliers) لتحديد مصادر الفجوة.



ومن الملاحظ على الجدول أعلاه وجود فجوة بين

المجموع الفعلي 99,119,187 تومان والمجموع المذكور في الجدول 24,715,907 تومان وهي فجوة كبيرة جداً. يمكن تحليلها بعدة أبعاد:

١. التحليل التاريخي

- الفجوة قد تكون نتيجة أخطاء في التوثيق أو الطباعة.
- في الموازنات القديمة، الأرقام غالباً تُسجل بالآلاف أو الملايين بشكل غير دقيق، مع خلط بين فروع الوزارات.
- بعض البنود الكبيرة (وزارة الحرب والمالية) قد تحتوي مصروفات مؤجلة أو اعتمادات خارج الميزانية، بينما المجموع النهائي يشمل الأرقام المعتمدة فقط.

٢. التحليل الاقتصادي

- الإنفاق العسكري والمالي كان ضخماً مقارنة ببقية المصروفات، ما يعكس اقتصاداً مركزياً.
- المجموع النهائي الأقل من مجموع البنود قد يشير إلى نقص الشفافية، تلاعب

ثالثاً: مقارنة بين ميزانيتي عام ١٩٢٥ و١٩٢٦ قراءة رقمية ذكية

يشكل تحليل الموازنات العامة أداة محورية لفهم أولويات الدولة واتجاهاتها الاقتصادية، وفي هذا البحث، سوف نجري مقارنة كمية ونوعية بين ميزانيتي عامي 1925 و 1926 باستخدام منهجية "القراءة الرقمية الذكية"، التي توظف تقنيات التحليل الإحصائي والخوارزمي لاستخلاص الأنماط والفروق الجوهرية بين العامين، تهدف هذه المقارنة إلى رصد التحولات في هيكل الإيرادات والنفقات، وقياس مدى التغير في توزيع الموارد، بما يعكس الأبعاد السياسية والاقتصادية لتلك المرحلة المبكرة من تاريخ إيران.

تُعرف القراءة الرقمية الذكية للبيانات التاريخية بأنها منهجية تحليلية متعددة الأبعاد تستخدم التقنيات الرقمية المتقدمة لاستخراج المعاني العميقة من المجموعات الإحصائية التاريخية وتفسيرها ضمن سياقاتها الزمنية والمكانية والاجتماعية، إذ تتجاوز هذه المنهجية القراءة السطحية للأرقام إلى فهم الأنماط الكامنة والعلاقات السببية والتحولات البنيوية التي تعكسها البيانات الكمية.

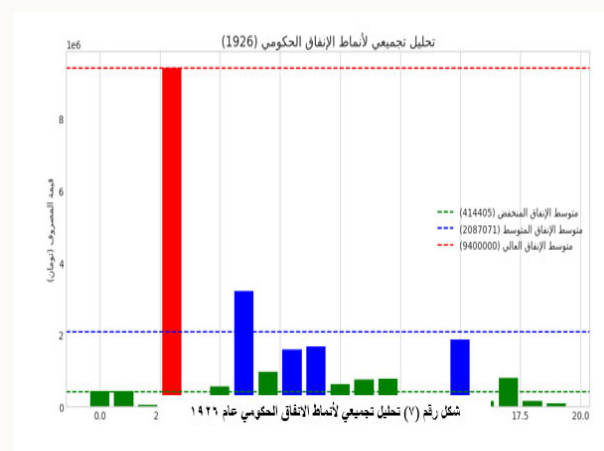
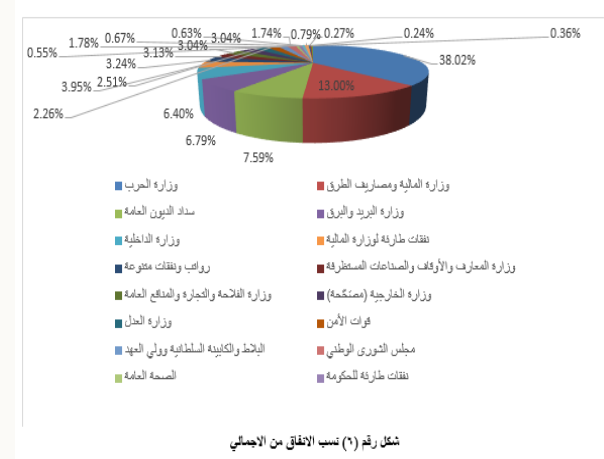
سوف نستند في عملنا على محورين مهمين أولاً، التحليل السياقي العميق الذي يربط البيانات بالظروف التاريخية المحيطة بها، مما يمكن من فهم العوامل المؤثرة في تشكيل هذه الأرقام. ثانياً، التصور البياني التفاعلي الذي يحول البيانات الخام إلى تمثيلات بصرية ديناميكية تكشف عن الاتجاهات والانحرافات والتغيرات الهيكلية عبر الزمن.

أولاً: المقارنة بين إيرادات إيران ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وفق البنود المتشابهة، مع الفرق في المبالغ والنسب المئوية:

الشكل أعلاه يوضح البنود ومقدار مساهمتها في الفجوة بين مجموع البنود الفعلي 99,119,187 تومان والمجموع النهائي المدون 24,715,907 تومان بحيث يظهر الفرق لكل بند كنسبة من الفجوة الإجمالية.

وبالتالي يمكن ملاحظة الاتي:

- أكثر البنود مساهمة في الفجوة هي وزارة الخارجية (٧٥,١٥٤,٨٢٨ تومان) ووزارة الحرب (٩,٤٠٠,٠٠٠ تومان).
- الفجوة الكبرى (حوالي ٧٤ مليون تومان) تقريباً 75٪ من مجموع الفجوة بسبب بند وزارة الخارجية وحده.
- البنود الصغيرة تساهم أقل من ١٪ لكل منها.



البند (١٩٢٥)	النسبة % ١٩٢٥	البند (١٩٢٦)	النسبة % ١٩٢٦	فرق المبلغ (تومان)	فرق النسبة
وزارة المالية ضرائب مباشرة	14.09%	وزارة المالية - ضرائب غير مباشرة	16.47%	+615,422	+2.38 نقطة
وزارة المالية ضرائب غير مباشرة	14.35%	وزارة المالية - ضرائب غير مباشرة	16.47%	+555,527	+2.12 نقطة
وزارة المالية صافي الأملاك والأراضي	2.40%	وزارة المالية - ضرائب الأملاك الحكومية نقدية	2.03%	-76,753	-0.36 نقطة
وزارة المالية - الجمارك	30.48%	وزارة المالية - الجمارك	38.67%	+2,052,560	+8.19 نقطة
وزارة المالية - دارالسك	0.13%	وزارة المالية - الجمارك	38.67%	+9,105,000	+38.55 نقطة

- بند "صافي الأملاك والأراضي" انخفض قليلاً، مما قد يعكس بيع أصول أو تراجع في جباية هذا النوع من الإيراد.
 - هناك بعض البنود في ١٩٢٦ لا يوجد لها مقابل مباشر في ١٩٢٥ (مثل إيرادات الأسماك أو التراب الأحمر)، مما يعني تغيراً هيكلياً في مصادر الدخل.
- ثانياً: المقارنة الوظيفية لإيرادات إيران ١٩٢٥ و ١٩٢٦

تحليل خوارزمي للبيانات

- أكبر نمو نسبي كان في إيرادات الجمارك +8.19 نقطة كنسبة من الإجمالي، مما يعكس توسعاً في التجارة الخارجية أو زيادة الرسوم.
- الضرائب المباشرة وغير المباشرة كلاهما ارتفع، لكن الزيادة الأكبر كانت في غير المباشرة، ما قد يشير إلى زيادة الاعتماد على الرسوم والاستهلاك بدل الضرائب على الدخل أو الأملاك.

التصنيف الوظيفي	المبلغ ١٩٢٥ (تومان)	النسبة % ١٩٢٥	المبلغ ١٩٢٦ (تومان)	النسبة % ١٩٢٦	فرق المبلغ (نقطة)	فرق النسبة
إيرادات حكومية إدارية	46,750	0.20%	46,000	0.19%	-750	-0.006
إيرادات متنوعة	3,031,135	13.04%	2,807,065	11.88%	-224,070	-1.16
اتصالات ونقل	2,111,725	9.09%	979,500	4.15%	-1,132,225	-4.94
بنية تحتية وإنتاج	959,220	4.13%	879,000	3.72%	-80,220	-0.41
تعليم وثقافة	159,900	0.69%	135,000	0.57%	-24,900	-0.12

ثالثاً: مقارنة وتحليل المدفوعات في ميزانيتي إيران ١٩٢٥ و ١٩٢٦

في الجدول أدناه سوف نعطي مقارنة تفصيلية لبنود المدفوعات الرئيسية في ميزانيتي إيران لعامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦، مع إبراز التغيرات النسبية لكل بند.

ومن الملاحظ على الجدول أعلاه ان أكبر تراجع نسبي كان في الاتصالات والنقل انخفاض بنسبة ٤,٩٤ نقطة من الإجمالي، كذلك الإيرادات المتنوعة أيضاً فقدت بعض الحصة من الميزانية (-١,١٦ نقطة)، اما البنية التحتية والإنتاج والتعليم والثقافة تراجعنا قليلاً جداً، واخيراً الإيرادات الحكومية الإدارية بقيت شبه ثابتة.

البند / الجهة الحكومية	مدفوعات ١٩٢٥ (تومان)	مدفوعات ١٩٢٦ (تومان)	التغير (تومان)	النسبة المئوية للتغير	ملاحظات
إجمالي المدفوعات	22,814,287	24,715,907	+1,901,620	+8.34%	زيادة عامة في الإنفاق.
وزارة الحربية	9,200,000	9,400,000	+200,000	+2.17%	تبقى البند الأكبر في الميزانية، مع زيادة طفيفة.
وزارة المالية ونفقاتها (بما في ذلك الطارئة وإدارة الطرق)	3,945,000	4,187,094	+242,094	+6.14%	زيادة في نفقات المالية وإدارة الطرق ونفقاتها الطارئة.
وزارة الداخلية	2,100,000	1,582,000	-518,000	-24.67%	انخفاض ملحوظ في ميزانية الداخلية.
سداد الديون العامة	633,281	1,876,189	+1,242,908	+196.26%	أكبر زيادة نسبية، مما يشير إلى أولوية سداد الديون.
وزارة البريد والتلغراف	1,620,000	1,678,000	+58,000	+3.58%	زيادة طفيفة تعكس استمرارية الخدمات.
وزارة العدل	620,000	620,000	0	0.00%	استقرار في الإنفاق على وزارة العدل.
وزارة المعارف والأوقاف والصناعات المستظرفة	663,630	773,138	+109,508	+16.50%	زيادة جيدة في الإنفاق على التعليم والأوقاف.
وزارة الفوائد/الزراعة والمنافع العامة	810,000	751,827	-58,173	-7.18%	انخفاض طفيف، مع تغيير في نطاق الوزارة.
البلاط والمؤسسات العليا	467,872	500,175	+32,303	+6.90%	زيادة في نفقات البلاط ورئاسة الوزراء (مجموع بندي ١٩٢٦: البلاط والكابينة + كابينة رئاسة الوزراء).
وزارة الخارجية	752,000	810,548 (معدل)	+58,548	+7.78%	زيادة معتدلة (تم تعديل الرقم لعام ١٩٢٦ ليتناسب مع إجمالي الميزانية).
نفقات طارئة/غير	252,000	165,000	-87,000	-34.52%	انخفاض في

البند / الجهة الحكومية	مدفوعات ١٩٢٥ (تومان)	مدفوعات ١٩٢٦ (تومان)	التغير (تومان)	النسبة المئوية للتغير	ملاحظات
متوقعة					مخصصات النفقات الطارئة.
الصحة الوطنية/الصحة العامة	136,370	136,370	0	0.00%	استقرار في الإنفاق على الصحة.
رواتب المنتظرين للخدمة المدنية	190,000	195,000	+5,000	+2.63%	زيادة طفيفة.
نفقات ومعاشات متنوعة	800,000	800,000	0	0.00%	استقرار.
اعتماد للبعثة الأمريكية	100,000	155,000	+55,000	+55.00%	زيادة ملحوظة في الاعتماد للبعثة الأمريكية.
بنود جديدة في ١٩٢٦:					
نفقات المبتعثين العسكريين في الخارج	N/A (غير متوفر)	67,300	N/A	N/A	بند جديد يخص الإنفاق العسكري الخارجي.
قوات الأمن (أمنية)	N/A	558,000	N/A	N/A	بند جديد يظهر اهتماماً بقطاع الأمن الداخلي.
نفقات مجلس المؤسسان	N/A	90,000	N/A	N/A	بند جديد.
بنود ملغاة في ١٩٢٦ (مقارنة بـ ١٩٢٥):					
مساعداً لمحمد علي ميرزا	540,000	N/A	-540,000	-100.00%	توقف هذه المساعدات.
رواتب الوزراء وأعضاء مجلس الوزراء (منفصلة)	45,172	N/A	-45,172	-100.00%	قد تكون أدرجت ضمن بنود أخرى في ١٩٢٦.
اعتمادات لمكافحة مرض الكاداميري	30,000	N/A	-30,000	-100.00%	يبدو أن هذا البند قد ألغي أو دمج.

التي نفهمها بها بدلاً من ذلك، فإن الذكاء الاصطناعي يركز على تحليل الأنماط، تحديد الشذوذات، وتحديد العلاقات داخل البيانات.

١. تحليل إجمالي الإنفاق

يشير الارتفاع في إجمالي المدفوعات من ٢٨٧,٢٨٤,٨١٤ تومان في عام ١٩٢٥ إلى ٢٤٠,٧١٥,٩٠٧ تومان في عام ١٩٢٦، أي بزيادة قدرها ٨,٣٤%، إلى

وإذا قمنا بتحليل الجدول من التحليل التاريخي - الاقتصادي ومن منظور خوارزميات الذكاء الاصطناعي يوفر لنا نظرة عميقة على التغيرات في أولويات الإنفاق الحكومي في إيران بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦، فعندما نتحدث عن تفسير خوارزميات الذكاء الاصطناعي، فإننا لا نعني أنها تفهم التاريخ أو الدوافع البشرية بالطريقة

مسؤوليات الأمن الداخلي بدلاً من أن تكون النفقات مدمجة تحت وزارة الداخلية بشكل واسع، ربما تم تخصيص ميزانية منفصلة لوحدات أمنية معينة، مما يعكس نهجاً أكثر تفصيلاً في إدارة الأمن. وبالتالي بالمثل ان هذه الانخفاضات الكبيرة في وزارة الداخلية تُعتبر أيضاً نقاط بيانات مثيرة للاهتمام تتطلب مزيداً من التحقيق

- وزارة المعارف والأوقاف: الزيادة بنسبة ١٦,٥٠% في ميزانية وزارة المعارف والأوقاف والصناعات المستظرفة هي إشارة إيجابية نحو الاستثمار في رأس المال البشري والتعليم والثقافة، فالنظريات الاقتصادية الحديثة تؤكد على أهمية التعليم في تحقيق التنمية الاقتصادية المستدامة وزيادة الإنتاجية على المدى الطويل. وهو ما اكدت عليه البيانات التاريخية من ان إيران شهدت طفرة نوعية في تحديث المؤسسات التربوية والتعليمية عهد رضا شاه بهلوي^(١٤)

- تحديد الاتجاهات والعلاقات (Trend & Relationship Identification):

المعتدلة في ميزانية وزارة الخارجية وزيادة ٥٥% في اعتماد البعثة الأمريكية تشير إلى نشاط دبلوماسي متزايد وربما تعزيز العلاقات الدولية، خاصة مع القوى الغربية، هذا يعكس جهود إيران لتعزيز مكانتها على الساحة الدولية^(١٥). اذ تمكنت خوارزميات الذكاء الاصطناعي تحديد أن هناك تركيزاً متزايداً على الاستقرار المالي (سداد الديون) وربما تعاوناً مستمراً مع كيانات خارجية (البعثة الأمريكية).

- نفقات طارئة/ غير متوقعة: الانخفاض الكبير في نفقات طارئة/غير متوقعة قد يشير إلى تحسن في التخطيط المالي الحكومي، أو انخفاض في حالة عدم اليقين التي تتطلب مخصصات طارئة كبيرة.

- تغييرات في البرامج: إلغاء بنود مثل "مساعدات لمحمد علي ميرزا" واعتمادات لمكافحة مرض الكاديميري" يدل على تغير في الأولويات الحكومية، إما بانتهاء الحاجة لهذه البرامج أو بدمجها ضمن بنود أخرى.

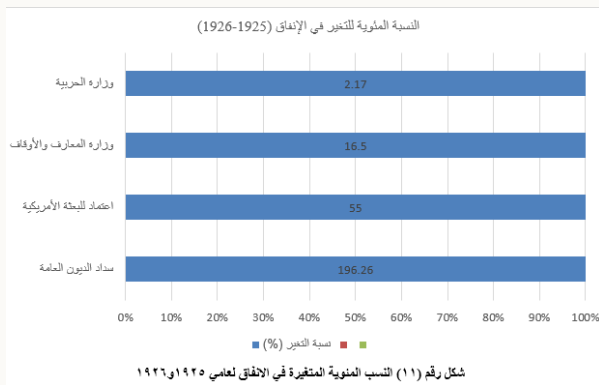
اتجاه عام نحو توسيع الدور الحكومي أو مواجهة ضغوط تضخمية، من منظور اقتصادي معاصر، هذه الزيادة يمكن أن تعكس سياسة مالية توسعية، والتي قد تهدف إلى تحفيز النمو الاقتصادي، أو قد تكون استجابة لارتفاع تكاليف تقديم الخدمات الحكومية.

٢. تحليل الإنفاق القطاعي والأولويات الاقتصادية

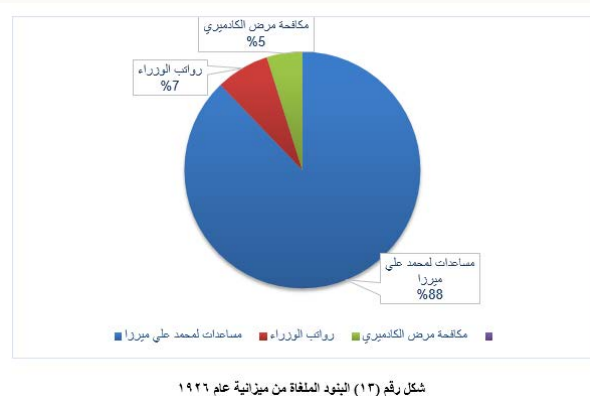
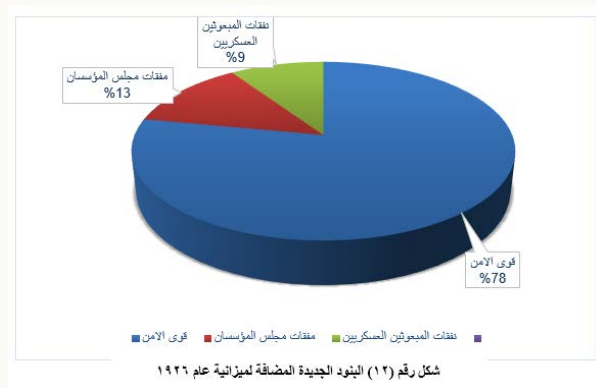
- وزارة الحربية: لا تزال وزارة الحربية تستحوذ على الحصة الأكبر من الميزانية، مع زيادة طفيفة بنسبة ٢,١٧%، مما يؤكد أن الأمن القومي والدفاع كانا على رأس أولويات الدولة في تلك الفترة، هذا يتوافق مع النظريات الاقتصادية التي تشير إلى أن الدول في مراحل التكوين أو عدم الاستقرار الإقليمي غالباً ما تخصص جزءاً كبيراً من ميزانيتها للإنفاق العسكري لضمان السيادة والاستقرار. وهو ما يتوافق مع البيانات التاريخية من ان رضا شاه بهلوي بعد تسلمه للسلطة عام ١٩٢٦ سعى وبشكل جدي الى تقوية وتحديث المؤسسة العسكرية بكل صنوفها وتشكيلاتها^(١٦).

- اكتشاف الشذوذ: (Anomaly Detection) فيما يتعلق بسداد الديون العامة، اذ كانت الزيادة الأكثر دراماتيكية في بند سداد الديون العامة، بنسبة ١٩٦,٢٦%. هذه القفزة الهائلة تشير إلى التزام حكومي قوي بالاستقرار المالي وإدارة الدين العام، من منظور اقتصادي، سداد الديون يعزز الثقة في الاقتصاد الوطني، وقد يقلل من تكلفة الاقتراض المستقبلي، ويحسن التصنيف الائتماني للدولة، قد يكون هذا مؤشراً على جهود لتعزيز الاستقرار الاقتصادي الكلي. وبالتالي فقد لاحظت خوارزمية الذكاء الاصطناعي أن هذه الزيادة في سداد الديون العامة هي شذوذ كبير مقارنة بالبنود الأخرى، هذا يشير إلى حدث غير عادي أو تحول سياسي/مالي مهم.

- وزارة الداخلية وقوات الأمن: شهدت وزارة الداخلية انخفاضاً ملحوظاً بنسبة ٢٤,٦٧%، بينما ظهر بند جديد ومهم هو قوات الأمن (أمنية) بقيمة ٥٥٨,٠٠٠ تومان، هذا قد يشير إلى إعادة هيكلة أو فصل في



وما يمكن ملاحظته انه لم تكن التغييرات مجرد زيادة أو نقصان في الأرقام، بل شملت ظهور بنود إنفاق جديدة بالكامل وإخفاء أخرى، مما يرسم صورة واضحة لتبدل أولويات الدولة. ولعل من بين البنود الجديدة والمألوفة ومجموع مخصصاتها المالية:



باختصار، قامت خوارزمية الذكاء الاصطناعي بتمييز "ماذا حدث؟" بكميات دقيقة وتحديد النقاط الشاذة والأنماط، لكنها ستحتاج إلى معرفة تاريخية بشرية لتفسير "لماذا حدث؟" و"ماذا يعني ذلك؟"

باختصار، يكشف تحليل هذا الجدول عن تحولات في السياسة المالية الإيرانية بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦، مع استمرار الأولوية للأمن، ولكن مع تركيز متزايد على الاستقرار المالي من خلال سداد الديون، وتخصيص موارد إضافية للتعليم والدبلوماسية، وإعادة هيكلة الإنفاق الأمني الداخلي. يمكن لخوارزميات الذكاء الاصطناعي أن تعزز هذا التحليل بشكل كبير من خلال تحديد الأنماط والتنبؤات والكشف عن الشذوذ، مما يوفر فهماً أكثر شمولاً ودقة للتوجهات الاقتصادية.

نظرة على ميزانية إيران: مقارنة بين عامي 1925 و 1926

تحليل يجرى لتطور أولويات الإنفاق الحكومي خلال فترة جمهورية في تاريخ إيران.

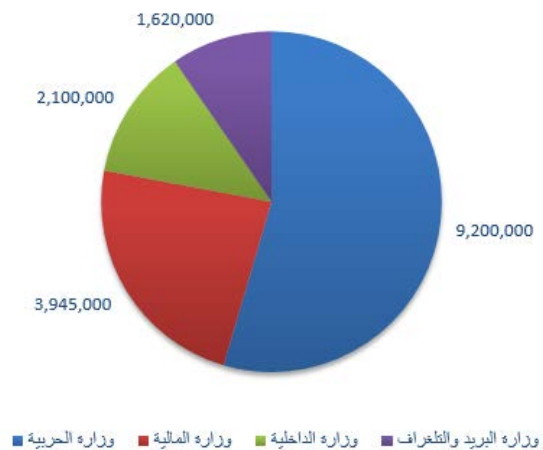
إجمالي مدفوعات 1926
24,715,907
تومان

نسبة النمو في الإنفاق
8.34%+
بين 1925 و 1926

إجمالي مدفوعات 1925
22,814,287
تومان

شكل رقم (٨) نظرة عامة على الفرق بين ميزانية عام ١٩٢٥ و ١٩٢٦

توزيع مدفوعات ميزانية إيران لعام 1925



توزيع مدفوعات ميزانية إيران لعام 1926



جدول يوضح مقارنة المصروفات والإيرادات لعامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ ونسبة العجز المالي

السنة	المصروفات	الإيرادات	العجز	نسبة النفط (%)
1925	22,814,287	23,486,425	672,138	10.22
1926	24,715,907	24,767,594	51,687	10.09

تحليل الاتجاهات: قصة الفائض المتآكل

على الرغم من نمو الإيرادات، إلا أن نمو المصروفات كان أسرع بكثير، مما أدى إلى انخفاض حاد وخير في فائض الميزانية بين عامي 1925 و 1926. هذا الاتجاه يمثل تحدياً رئيسياً للاستقرار المالي.



شكل رقم (١٥) تحليل الاتجاهات لعامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦

يكشف الرسم البياني أعلاه عن انهيار مالي درامي خلال عام واحد فقط، بدأت الإيرادات عام ١٩٢٥ عند مستوى مرتفع يقارب ٦٧٠,٠٠٠ وحدة، لكنها تراجعت بشكل حاد ومستمر لتصل إلى حوالي ٥٠,٠٠٠ وحدة بنهاية عام ١٩٢٦، مما يمثل انخفاضاً بنسبة تزيد عن ٩٠٪.

النقاط الرئيسية: الانحدار الحاد والثابت يشير إلى أزمة منهجية وليس مجرد تذبذب موسمي، هذا النمط يدل على فقدان مصدر رئيسي للدخل أو تغيير جذري في الظروف الاقتصادية أو السياسية. السرعة المتسارعة للانخفاض تشير إلى عدم وجود آليات حماية أو استراتيجيات تصحيحية فعالة خلال تلك الفترة.

الدلالات المحتملة: قد يعكس هذا التراجع تأثير الأحداث السياسية الكبرى في المنطقة خلال منتصف العشرينات، أو تغييرات في السياسات التجارية، أو ظروف اقتصادية عالمية مثل التحضيرات لأزمة ١٩٢٩. هذا المنحنى يمثل قصة تحذيرية حول هشاشة الأنظمة المالية وأهمية التنوع الاقتصادي لتجنب الانهيار المفاجئ.

تحليل النتائج الرئيسية

- زيادة المصروفات: ارتفعت من ٢٢,٨١٤,٢٨٧ في ١٩٢٥ إلى ٢٤,٧١٥,٩٠٧ في ١٩٢٦ (زيادة ١,٩٠١,٦٢٠)
- زيادة الإيرادات: ارتفعت من ٢٣,٤٨٦,٤٢٥ في ١٩٢٥ إلى ٢٤,٧٦٧,٥٩٤ في ١٩٢٦ (زيادة ١,٢٨١,١٦٩)
- تحسن العجز: انخفض من ٦٧٢,١٣٨ في ١٩٢٥ إلى ٥١,٦٨٧ في ١٩٢٦ (تحسن ٦٢٠,٤٥١)
- نسبة النفط: انخفضت قليلاً من ١٠,٢٢٪ إلى ١٠,٠٩٪



التحول بين العامين يُظهر انتقال جزء من الموارد من القطاعات الخدمية إلى خدمة الدين وبنود متنوعة، مع استمرار أولوية الأمن والدفاع في السياسة المالية للدولة.

خاتمة

التاريخية، وصعوبة مقارنة البيانات مع سياقات اقتصادية حديثة بسبب اختلاف المعايير المحاسبية. لذا، يُوصى في المستقبل بتوسيع نطاق البحث ليشمل فترات زمنية أطول، ودمج مصادر بيانات مكملية (مثل السجلات الأرشيفية غير الرقمية)، وتطبيق خوارزميات أكثر تطوراً مثل الشبكات العصبية العميقة لمعالجة البيانات غير المتجانسة، كما يُمكن تعميم هذا النموذج على دراسات مماثلة لدول أخرى في مرحلة التحديث المبكر، مما يفتح آفاقاً بحثية لفهم تأثير السياسات المالية التاريخية على التطور الاقتصادي الطويل الأمد. في النهاية، تؤكد هذه الدراسة أن دمج الذكاء الاصطناعي مع الدراسات التاريخية ليس مجرد تطبيق تكنولوجي، بل هو جسرٌ معرفي يُثري فهمنا للماضي ويسهم في بناء سياسات مالية أكثر استنارة في الحاضر، مما يجعله نموذجاً رائداً يستحق التوسع والتطوير في الأبحاث الأكاديمية والتطبيقية على حد سواء.

في ختام هذه الدراسة التي ركزت على تحليل الميزانيات المالية التاريخية لإيران للفترة (١٩٢٥-١٩٢٦) باستخدام الخوارزميات الذكية، يمكن القول إن البحث قد حقق أهدافه في دمج المنهجيات الحديثة لعلوم البيانات مع الدراسات التاريخية المالية مُقدِّماً نموذجاً تطبيقياً يُبرز قدرة التحليل الكمي المتقدم على كشف أنماط وعلاقات قد تغيب عن الدراسات التقليدية. فقد أظهرت النتائج أن استخدام خوارزميات مثل تحليل السلاسل الزمنية، ونماذج التجميع (Clustering)، وخوارزميات التعلم الآلي (مثل شجرة القرار والانحدار المتعدد) ساهم في تحديد اختلالات جوهرية بين الإيرادات والمصروفات خلال تلك الفترة، خاصة هيمنة المصروفات العسكرية والإدارية على حساب الاستثمارات التنموية، وتفاوت مصادر الإيرادات التي اعتمدت بشكل كبير على الضرائب المباشرة والواردات، مما يعكس تحديات هيكلية في الاقتصاد الإيراني آنذاك.

ومن خلال المقارنة بين أداء الخوارزميات المختلفة، تبين أن نماذج التعلم الآلي غير الخاضعة للإشراف مثل (K-Means) كانت فعّالة في تصنيف بنود المصروفات إلى مجموعات ذات سياق اقتصادي متماسك، بينما أظهرت نماذج الانحدار قدرةً على التنبؤ باتجاهات الإيرادات مع دقة ملحوظة، رغم محدودية البيانات المتاحة، وهذا يؤكد أهمية اختيار الأدوات الخوارزمية المناسبة وفقاً لطبيعة البيانات والأسئلة البحثية، وهو ما يُعد إضافة معرفية للباحثين في كلا المجالين: التاريخ المالي وعلوم البيانات.

إلى جانب ذلك، تُسهم هذه الدراسة في فهم سياق اقتصادي حاسم في مرحلة التأسيس المبكر لدولة البهلوي، حيث تعكس الميزانيات تحولات جذرية في إدارة الموارد المالية في ظل محاولات التحديث والمركزية، مما يوفّر رؤى قيّمة لفهم جذور التحديات الاقتصادية المعاصرة في إيران. ومع ذلك، لا تخلو الدراسة من بعض القيود، أبرزها نقص التفاصيل الدقيقة في السجلات

الهوامش والإحالات:

تنشأ من عمليات توليد مختلفة وغالباً ما تحتوي على معلومات مهمة حول الحالات الشاذة الأساسية في جمع البيانات أو سلوك النظام، يعد فهم القيم المتطرفة أمراً ضرورياً لتحليل البيانات وتفسيرها بدقة، حيث يمكن أن تؤثر على النماذج الإحصائية وتؤدي إلى استنتاجات مضللة إذا لم يتم تناولها بشكل صحيح.

Aggarwal, C.C. (2013). An Introduction to Outlier Analysis. In: Outlier Analysis. Springer, New York, NY. https://doi.org/10.1007/978-1-4614-6396-2_1

(١٣) للتفاصيل يُنظر: شرهان، ر. ج. (2005). المؤسسة العسكرية الإيرانية في عهد رضا شاه بهلوي ١٩٢١-١٩٤١ [رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة البصرة.

(١٤) للتفاصيل يُنظر: الشرع، م. ح. خ. (2015). التطورات الاجتماعية في إيران (1925-1941). الجامعة المستنصرية.

(١٥) لقد اعتمدت إيران منذ عام ١٩١١ على المستشارين الماليين الأجانب وتحديدًا الأمريكيين وكان على رأسهم المستشار المالي وليام مورغان شوستر، ثم تبعه عدد من الخبراء الماليين ممن تولوا رئاسة الخزنة المالية الإيرانية ونخص بالذكر منهم المستشار ارثر ميلسبو الذي استمر عمله في إيران حتى ما بعد تسلم رضا شاه العرش. للتفاصيل يُنظر:

البكاء، طاهر. خلف. (٢٠٠٠). محاولتا الدكتور ارثر ميلسبو في اصلاح (1) دراسات في التاريخ والاثر. الاقتصاد الإيراني

Alalaq, A. (2021). The impact of Morgan Schuster's financial mission in Iran 1910-1912 AD, a historical study. Kufa Journal of Arts, 1(39), 305-340.

<https://doi.org/10.36317/kaj/2019/v1.i39.788>

(١) يتضمن التحليل المالي التاريخي تطبيق تقنيات التحليل المالي لفهم وتفسير الأحداث والاتجاهات المالية السابقة، يستخدم هذا النهج لتقييم الأداء المالي والظروف الاقتصادية للفترة التاريخية، غالباً عن طريق فحص البيانات المالية وبيانات الميزانيات العامة والبيانات الاقتصادية الأخرى من الماضي، ويمكن أن يوفر التحليل المالي التاريخي رؤى حول الاستقرار المالي والملاءة المالية وأداء الكيانات أو الاقتصادات بمرور الوقت، ويمكن استخدامه أيضاً لرسم أوجه التشابه مع الظروف المالية الحالية.

Khetal, P., & Sardar, H. C. (2022). A Study on the Analysis of Financial Performance with reference to PTL Enterprises Ltd. RESEARCH REVIEW International Journal of Multidisciplinary, 7(2), 56-66. <https://doi.org/10.31305/rrijm.2022.v07.i02.009>

(٢) للتفاصيل عن الواقع الاقتصادي في إيران عهد رضا شاه بهلوي يُنظر: الدليمي، ن. ج. م. (2002). الأوضاع الاقتصادية في إيران ١٩٢٥-١٩٤١. رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد.

(٣) مطبعة مجلس شورى ملي. مجموعة قوانين موضوعه ومصوبات دوره بنجم قانونكذاري، از ٢٢ دلو ١٣٠٢ تا ٢١ بهمن ١٣٠٤، جاب سوم، ايان ماه ١٣٥٠، اداره كل قوانين.

(4) (Holynskyy, Y. (2017). The Importance of Financial Management Principles in the State Budget Execution. Annals of Spiru Haret University. Economic Series, 17(4), 19-28. <https://doi.org/10.26458/1742>

(٥) مطبعة مجلس شورى ملي. مجموعة قوانين موضوعه ومصوبات دوره بنجم قانونكذاري، ص ٣٤٢-٣٤٥.

(٦) مطبعة مجلس شورى ملي. مجموعة قوانين موضوعه ومصوبات دوره بنجم قانونكذاري، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٧) وهو شاه إيران المخلوع بعد تموز عام ١٩٠٩م، وكان من بين الشروط التي تم الاتفاق عليها معه والحكومة الإيرانية وروسيا القيصرية هو تقديم مساعدات عينية له مادام بالمنفى في روسيا. عن الموضوع يُنظر: ملكزاده، م. (1332). تاريخ انقلاب مشروطيت إيران (ج. ٦، ص. ٩٧). تهران: بي جا.

(8) (Alalaq, A. S. (2024). The Fall of the Qajar Dynasty in Iran in 1925: Conditions and Prerequisites.

(٩) مطبعة مجلس شورى ملي. مجموعة قوانين موضوعه ومصوبات دوره بنجم قانونكذاري، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(١٠) مطبعة مجلس شورى ملي. مجموعة قوانين موضوعه ومصوبات دوره بنجم قانونكذاري، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(١١) مجلس المؤسسان تم تشكيله بتاريخ ١٥ كانون الأول عام ١٩٢٥ وكان الهدف من ورائه هو البت في مسألة الغاء حكم الاسرة الفاجارية. للتفاصيل يُنظر: محمود دلفاني، انتخابات مجلس مؤسسان (قسمت دوم)، "كنجينة اسناد" (مجله)، تهران، ١٣٧٩ ش، شماره ٣٩ و ٤٠، سال دهم، ص ٦٤.

(١٢) القيم الشاذة، أو القيم غير الطبيعية، هي نقاط بيانات تنحرف بشكل كبير عن النمط المتوقع داخل مجموعة البيانات ويمكن أن

مكتب المغرب العربي في القاهرة ودوره في دعم حركات التحرر بشمال إفريقيا محاولة بيبليوغرافية ١٩٤٧ - ٢٠٢٣

حمزة معروف

باحث بسلك الدكتوراه التاريخ الحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحسن الثاني - المملكة المغربية



ملخص

تعددت الكتابات حول مكتب المغرب العربي في القاهرة، وتنوّعت من حيث المرجعيات الوطنية؛ إذ ساهم مؤرخون وباحثون من المغرب والجزائر وتونس في تناول هذه التجربة الوجدانية الرائدة، كلّ من زاويته الوطنية والتاريخية الخاصة، مما أغنى الموضوع وأبرز تنوع المقاربات والسرديات، فإذا كان الباحثون المغاربة قد ركّزوا على الدور المغربي في تأسيس المكتب، وعلى رموزه البارزين مثل أمحمد بن عبود، والطيب بنونة، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، وتناولوا البعد الوجداني للمكتب وأثره في النضال الوطني المغربي، إضافة إلى التركيز على الدعم المصري والتنسيق الإعلامي والدبلوماسي، فإن الكتابات الجزائرية توسّعت في إبراز البعد المغربي للمكتب، وعلاقته المباشرة بدعم الكفاح المسلح الجزائري، خاصة بعد سنة ١٩٥٤، حين أصبحت الجزائر مركزاً للنقل النضالي. كما ركّز بعض الباحثين الجزائريين على تحليل التباينات السياسية داخل المكتب، ودراسة أدوار الزعماء الجزائريين فيه، أما المساهمات التونسية، فقد تمحورت حول إبراز إسهام تونس في المشروع المغربي، والدور الفاعل لشخصيات مثل صالح بن يوسف، كما كشفت عن العلاقة بين لجنة تحرير المغرب العربي والتجربة التونسية في مقاومة الاستعمار الفرنسي، مع الإشارة إلى الخلافات السياسية التي برزت لاحقاً.

كلمات مفتاحية:

مكتب المغرب العربي؛ وحدة المغرب العربي؛ النضال المغربي المشترك؛
المقاومة المغربية؛ التحرر الوطني؛ محمد بن عبد الكريم الخطابي

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٥ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٩ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.404416.1247

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حمزة معروف، "مكتب المغرب العربي في القاهرة ودوره في دعم حركات التحرر بشمال إفريقيا: محاولة بيبليوغرافية ١٩٤٧ - ٢٠٢٣"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد الرابع والسبعون، ديسمبر ٢٠٢٥، ص ١٩٩ - ٢٠٧.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: maaroufhamza289@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الأربعينيات من القرن العشرين. وقد برز هذا المكتب، الذي تأسس بالقاهرة سنة ١٩٤٧، كمحطة محورية جمعت قوى التحرر الوطني في كل من المغرب والجزائر وتونس، مساهماً في تنسيق الجهود السياسية والإعلامية والدبلوماسية داخل المحيط العربي والدولي. وقد حظي مكتب المغرب العربي باهتمام عدد من المؤرخين والباحثين، خصوصاً في الدراسات التي تناولت أبعاد الكفاح المغربي المشترك، والعلاقات بين حركات التحرر المغاربية والدول العربية، وعلى رأسها مصر. وتوزعت الببليوغرافيا الخاصة بالمكتب على مصادر متنوعة، منها الوثائق الدبلوماسية، والمذكرات الشخصية لزعماء الاستقلال، والدراسات التاريخية التي حاولت تحليل الدور السياسي والإعلامي الذي لعبه المكتب، إضافة إلى ما راكمته الصحافة العربية آنذاك من مضامين تُبرز أنشطته وتحركاته.

وتُعتبر أعمال مؤرخين من أمثال امحمد بن عبود، علال الفاسي، مقلاتي عبد الله، وعبد الكريم غلاب، فضلاً عن بعض الباحثين الفرنسيين والإنجليز، من بين المراجع الأساسية التي أرّخت لنشأة المكتب، وظروف تأسيسه، وأثره في تطوير التعاون المغربي على طريق الاستقلال.

رغم الأهمية التاريخية والسياسية لمكتب المغرب العربي في القاهرة باعتباره إطاراً تنسيقياً بين الحركات الوطنية في المغرب العربي ومركزاً للدبلوماسية النضالية ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني، إلا أن الإنتاج العلمي حوله لا يزال متفرقاً ومحدوداً من حيث التوثيق والتحليل، إلى أي حد تُمكننا المصادر والمراجع المتوفرة من الإحاطة بدور مكتب المغرب العربي في القاهرة؟ وما هي حدود التناول الببليوغرافي لهذا الموضوع في الأدبيات التاريخية؟

إن هذه الببليوغرافيا تسعى إلى تسليط الضوء على أهم المصادر والمراجع التي تناولت "مكتب المغرب العربي"، من أجل المساهمة في فهم أعمق لطبيعته ووظائفه، ومكانته داخل سياق التحرر المغربي في منتصف القرن العشرين.

لا يمكن لأي بحث علمي أو دراسة أدبية أو اجتماعية أن تكتمل دون إلمام الباحث بالمصادر الببليوغرافية المتعلقة بموضوعه، ودون دراية، ولو جزئية، بفن الببليوغرافيا، من هذا المنطلق، تصبح دراسة الببليوغرافيا عنصراً مشتركاً لا غنى عنه في مختلف التخصصات الأكاديمية، ومن الضروري أن يلم بها كل باحث، مهما كان مجال اهتمامه. فهي ضرورة معرفية سواء تعلق الأمر بالرياضيات، أو الجيولوجيا، أو التاريخ، أو الطب، أو غيرها من العلوم، ولا يقتصر تعلم الببليوغرافيا على المتخصصين فيها، الذين يعالجونها كعلم وفن له مبادئه وقواعده ومباحثه، بل يمتد أيضاً إلى سائر الباحثين الذين يعتمدون عليها كأداة لاستكشاف مصادر المعلومات، حتى وإن لم يتعمقوا في تفاصيل إعدادها وأساليبها وتقنياتها المتنوعة^(١).

تُعدّ الببليوغرافيا، كعلم وفن، ركيزة أساسية في تطور البحث العلمي وتقدم المعرفة، إذ تُيسّر القوائم الببليوغرافية الموضوعية والعامّة على حد سواء— الوصول إلى أبرز الأعمال المنشورة في موضوع معين، مما يوفر على الباحث وقتاً وجهداً كبيرين. فلا يمكن لأي بحث علمي أن يكتمل دون الاطلاع على ما سبق نشره في مجاله، باعتبار ذلك شرطاً لجمع المعلومات الضرورية وبناء دراسة رصينة ومتكاملة^(٢).

يشكل التطور في الدراسات الببليوغرافية محور اهتمام الباحثين، نظراً لدورها الحيوي في ابتكار أساليب وتقنيات تساعد على التحكم في الانفجار المعلوماتي المتسارع. فالببليوغرافيا تمثل أداة أساسية لضبط وتنظيم المعرفة الإنسانية في زمن يتضاعف فيه إنتاج المعلومات بوتيرة غير مسبقة^(٣)، والدراسة التي نقدمها هنا هي مدخل بسيط لموضوع معقد ومتشعب لا يكاد يمر يوم إلا ونسمع عن مؤتمر دولي لدراسة جانب من جوانبه، والأمر يتعلق بمكتب المغرب العربي في القاهرة.

يُعدّ "مكتب المغرب العربي" واحداً من أبرز الهياكل التنظيمية التي أُنشئت في سياق النضال المغربي المشترك ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني خلال

أولاً: بيبليوغرافيا الدراسات المنجزة عن مكتب المغرب العربي في القاهرة

١/١- أهم الكتب

- أمزيان محمد، محمد بن عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠١١.
- أكرم بوجمعة، الأمير عبد الكريم الخطابي وظروف تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، بدون سنة.
- بن عبود امحمد، المراسلات السياسية للشهيد امحمد أحمد بن عبود (1946-1949)، منشورات مؤسسة الشهيد، تطوان، ٢٠١٦.
- بن عبود امحمد، مركز الأجانب في المغرب: دراسة قانونية لوضعية الأجانب في المغرب قبل عهد الحماية وخلالها، منشورات عكاظ، ط٣، ١٩٨٣.
- بن عبود امحمد، عملية تحرير محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال النصوص، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط١، يوليو ٢٠١١.
- بن عبود امحمد، النضال الوطني للشهيد امحمد أحمد بن عبود: شهادات ووثائق، منشورات جمعية تطاون أسمير، ١٩٩٧.
- بن عبود امحمد، مكتب المغرب العربي في القاهرة: دراسات ووثائق، الرباط، مطابع عكاظ، ١٩٩٢.
- بن جلون عبد المجيد، "الثلاثة الذين استشهدوا في كراتشي"، مجلة 21 يناير، القاهرة، ١٩٥٠.
- بنونة المهدي، المغرب: السنوات الحرجة، منشورات الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، جدة، ١٩٨٩.
- بوهليلة إدريس (تقديم وتخريج)، مؤتمر المغرب العربي المنعقد بالقاهرة ١٥ - ٢٢ فبراير ١٩٤٧، منشورات الشهيد امحمد بن عبود، تطوان، ٢٠٢٠.
- الجابري محمد عابد، فكرة المغرب العربي أثناء الكفاح من أجل الاستقلال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٩.
- الجمل شوقي، المغرب العربي الكبير، الطبعة الثانية، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ١٩٩٧.
- جيهاد عبد الرحمان جاد، "مصر وقضية استقلال المغرب"، ضمن تاريخ العلاقات المغربية المصرية،
- ج٢، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠١٨.
- الديب فتحي، عبد الناصر وثورة الجزائر، دار المستقبل العربي، مصر، ط١، ١٩٩٠.
- الدرويش محمد، الوحدة المغاربية في ذاكرة الحركات الوطنية والتحريرية، منشورات فكر، الرباط، ٢٠٠٨.
- داهش محمد علي، دراسات في الحركات الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤.
- راشد أحمد إسماعيل، تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٤.
- راشد عبد الله، كفاح المغاربة في سبيل الاستقلال والديمقراطية، الشركة الجديدة للمطابع المتحدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤.
- الرشيد إدريس، ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة، تونس، ١٩٨١.
- السعود عبد العزيز، الاستعمار الإسباني في المغرب: المقاومة المسلحة والنضال الإصلاحي والسياسي الوطني، ج٢، منشورات مؤسسة الشهيد بن عبود، ٢٠١٧.
- الشريف محمد والهبطي محمد ياسين (تتسيق)، نشاط الحركة الوطنية المغاربية في المشرق العربي (1945-1949)، منشورات مؤسسة الشهيد، تطوان.
- الصافي محمد، الحركات التحريرية المغاربية: أشكال الكفاح السياسي والمسلح ١٩٤٢-١٩٥٦، إفريقيا الشرق، ٢٠١٧.
- الصفار حسن، حزب الإصلاح الوطني ١٩٣٦-١٩٥٦: دراسة تحليلية، منشورات المندوبية السامية، ٢٠٠٦.
- الطود الهاشمي، خيار الكفاح المسلح، حاوره أسامة الزكاري، ط١، طنجة، ١٩٨٩.
- الطريق أحمد، الحركة الوطنية المغربية وعلاقاتها بالشرق العربي، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠٠٩.
- العراقي الغالي، وحدة المغرب العربي في ذاكرة المقاومة المغربية، الذاكرة الوطنية، عدد خاص، الرباط، ٢٠٠٢.

- عبد الله الطاهر، الحركة الوطنية التونسية: رؤية قومية جديدة، ط ٢، دار المعارف، تونس، ١٩٧٨.
- علال الفاسي، حديث المغرب في المشرق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠١٢.
- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية، تطوان.
- غانم بون، مكتب المغرب العربي: النشاط الوحدوي وتحدياته (1947-1954)، جامعة ابن خلدون، تيارت، بدون تاريخ.
- غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٨٧.
- غلاب عبد الكريم، في الفكر السياسي، الشركة المغربية للطباعة والنشر، ١٩٩٣.
- غلاب عبد الكريم، القاهرة تبوح بأسرارها، دار الهلال، مصر، ١٩٥١.
- غلاب عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج ٣، دار المغرب العربي، ٢٠٠٥.
- غلاب عبد الكريم، قضية المغرب العربي الكبير، سلسلة كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٥٣.
- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية، تطوان.
- الفاسي علال، حديث المغرب في المشرق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠١٢.
- الفيلاي أنس (تتسيق)، أوجه ومظاهر التضامن والنضال المغربي-العربي المشترك (1930-1975)، مطبعة أصكوم، القنيطرة، ٢٠٢١.
- خيرية عبد الصاحب وادي، الفكر القومي العربي في المغرب العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٠.
- مبارك زكي، محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب، منشورات فيديريرانت، ط ١، ٢٠٠٣.
- محمد الدرويش، الوحدة المغاربية في ذاكرة الحركات الوطنية والتحريرية، منشورات فكر، ٢٠٠٨.
- محمد العربي الخطابي، مكتب المغرب العربي بالقاهرة ودوره في دعم حركات التحرر، منشورات كلية الآداب الرباط، ٢٠٠٧.
- المرنيسي عبد المجيد، الحركة الوطنية المغربية من خلال شخصية الأستاذ علال الفاسي، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٧٨.
- مقلاتي عبد الله، العلاقات المغاربية إبان الثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢، دار السبيل، ط ١، ٢٠٠٣.
- مقلاتي عبد الله، العلاقات الجزائرية المغاربية إبان الثورة، دار بوسعادة، ٢٠١٢.
- مقلاتي عبد الله، جيش تحرير المغرب العربي والثورة الجزائرية، منشورات مشعل الشهيد، ٢٠٠٤.
- المساري محمد العربي، المغرب ومحيطه، ج ١، مطبعة المناهل، الرباط، ١٩٨٤.
- الملي محمد، المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٣.
- وولف جان، ملحمة عبد الخالق الطريس: حقيقة الحماية الفرنسية الإسبانية بالمغرب، ترجمة محمد الشريف، مطبعة الطويريس، طنجة، ٢٠٠٣.
- يحيى جلال، أعلام العرب: عبد الكريم الخطابي، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٨.
- يحيى جلال، العالم العربي الحديث والمعاصر منذ الحرب العالمية الثانية، ج ٣، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٨.
- يحيى جلال، تاريخ المغرب الكبير: الفترة المعاصرة وحركات التحرير، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٥١.

٢/١-باللغات الأجنبية

- **Abi-Mershed Osama**, *France and the Arab World: Culture, Politics and the Legacy of Empire*, I.B. Tauris, 2021.
- **Ageron Charles-Robert**, *Histoire de l'Algérie Contemporaine*, PUF, Paris, 1979.
- **Benaboud Mhammad et Cagne Jaques**, *Le Congrès du Maghreb arabe de 1947 et les débuts du Bureau du Maghreb arabe, l'Opération Ibn Abdelkrim*, in *Revue d'Histoire Maghrébine*, Nos. 25-26, 1982.
- **Benjelloun Abdelmajid**, *Le mouvement nationaliste marocain dans l'ex-Maroc Khalifien (1930-1956)*, Imprimerie El Maarif Al Jadida, Rabat, 2011.

Égypte, Tome II, 1 Guillet, 31 décembre 1947, P.I.E Peter Lang, 2009.

- **Buedett ALP**, *Arab Dissident Movements 1905-1955*, vol. 4 (1947-1955), Archive Editions, 1996.

٣/١-المجلات

- ابن عبود أمحمد، "مكتب المغرب العربي في القاهرة: أول نواة للوحدة السياسية المغربية"، *المجلة التاريخية/المغربية*، العددان ٤١-٤٢، يونيو ١٩٨٦.
- البدوي حسن، "مذكرات الأمير الخطابي"، دورية *كان التاريخية*، السنة الثالثة، العدد السابع، ٢٠١٠، الجزء الثاني.
- العايب معمر، "التباين الأيديولوجي لقيادات لجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة"، دورية *كان التاريخية*، العدد ١٦، يونيو ٢٠١٢.
- الرويسي يوسف، "نشاط مكتب المغرب العربي، دمشق"، *المجلة/المغربية*، العدد ١٥-١٦، ١٩٧٩.
- بلقزيز عبد الإله، "القاهرة والمغرب العربي في الخمسينات"، *مجلة المستقبل العربي*، العدد ٣٤٤، بيروت، ٢٠٠٨.
- بن عبود محمد وجاه كاني، "مؤتمر المغرب العربي سنة ١٩٤٧ وبدايات مكتب المغرب العربي: عملية ابن عبد الكريم"، *المجلة التاريخية/المغربية*، الأعداد ٢٥-٢٦، ١٩٨٢.
- بناني عثمان، "النشاط السياسي للوطنيين المغاربة بالقاهرة في عام ١٩٤٧"، *مجلة النهضة*، دار توبقال للنشر، الرباط، ١٩٨٧.
- جلاوي سعيد، "مكتب المغرب العربي بالقاهرة من الائتلاف إلى الاختلاف ١٩٤٩-١٩٤٧"، *مجلة معارف*، العدد ١١، السنة ٢١، ٢٠١٦، ص ص ٢١٢-٢٣٥.
- ديقش يوسف وحواس محمد، "جيش تحرير المغرب العربي بين جهود النضال المغربي المشترك وواقع الاستقلالات القطرية" (1947-1956)، *المجلة التاريخية/الجزائرية*، المجلد ٦، العدد ٢، ٣١ دجنبر ٢٠٢٢، ص ص ٥٣٦-٥٦٣.
- **Benjelloun Abdelmajid**, *Aspects du Mouvement National Marocain. Écrits sur le Colonialisme Espagnol et le Mouvement Nationaliste Marocain (1912-1956)*, Haut Commissariat aux Anciens Résistants..., Imprimerie Accomm, 2019.
- **Chapoutot-Remadi Mounira**, *Les Nationalismes Maghrébins*, CNRS Éditions, 1990.
- **de Madariaga María Rosa**, *Abd el-Krim El khatabi: la lucha por la independencia*, Madrid, Alianza Editorial, 2009.
- **El Mansour Mohamed**, « Rôle d'Abdel-Krim dans la Lutte pour la libération nationale dans le Maghreb », in *Abdelkrim. Une épopée de la résistance*, Rabat, Fondation du Forum du Nord, 2018.
- **Gendzier Irene**, *Notes from the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East*, Columbia University Press, 1997.
- **Halstead John P**, *Rebirth of a Nation: The Origins and Rise of Moroccan Nationalism*, Harvard University Press, 1967.
- **Julien Charles-André**, *Le Maroc Face aux Impérialismes 1415-1956*, Editions Jaguar, Paris, 1987.
- **Kaddache Mahfoud**, *L'histoire du Nationalisme Algérien*, Tome 2, SNED, Alger, 1980.
- **Lacroix-Riz Annie**, *Les protectorats d'Afrique du Nord entre la France et Washington, du débarquement à l'indépendance, Maroc et Tunisie, 1942-1956*, in *Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine*, 1990, pp. 528-531.
- **Pervillé Guy**, *Les étudiants algériens de l'Université française (1880-1962)*, CNRS, 1984.
- **Rivet Daniel**, *Histoire du Maroc*, Librairie Arthème Fayard, France, 2012.
- **Stora Benjamin**, *La gangrène et l'oubli*, La Découverte, 1991.
- **Toumader Khatib**, *Culture et politique dans le mouvement nationaliste marocain au Machreq*, Publications de l'association Tétouan Asmir, 1996.
- **Wolf Jean**, *Maroc, la vérité sur le protectorat Franco Espagnol, l'épopée d'Abdelkhalak Torres*, Edif-Ballard, 1994.
- **Zartman William**, *The Political Economy of Morocco*, Praeger, 1980.
- **Documents Diplomatiques Français**, *Activités des leaders nord africains en*

- كنكا عبد الاله، المغرب وحرب التحرير الجزائرية: جوانب من الدعم والتضامن المغربي مع الجزائر، أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٢٣.
- الطيب منى لباز، "مظاهر النضال المغاربي المشترك 'لجنة تحرير المغرب العربي ١٩٤٨' أنموذجا"، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد ٢١، العدد ٠١، ٢٠٢١.
- عصامي محمد، "مكتب المغرب العربي بالقاهرة: تجربة وحدوية مبكرة"، مجلة التاريخ العربي، العدد ٢٢، ٢٠٠١.

٥/١-الندوات

- التازي محمد، الوطنيون ببلدان المغرب العربي، ضمن ندوة مغاربية" وحدة المغرب العربي في ذاكرة حركات المقاومة وجيش التحرير"، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير مطبعة الصومعة الرباط، عدد خاص صدر سنة ٢٠٠٢، ص ١٥٥.
- العقاد صلاح وآخرون، صدى الحركة الوطنية المغربية لدى الرأي العام المصري، ضمن ندوة "العلاقات التاريخية المصرية المغربية رصيد وآفاق"، منشورات جمعية أبي رقرق، سلا، ١٩٨٨، ص ١٩٦-٢٠٠.
- الهاشمي الطود، عن مشروع الثورة المغاربية، ضمن أعمال ندوة شمال المغرب إبان فترة الحماية وبداية عبد الاستقلال، الرباط، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، ٢٠١٤، ص ص ٢٠-٢٦.
- لجوء محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مصر: الابعاد والدلالات الوطنية والدولية، ندوة دولية من تنظيم المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بتسيق مع مؤسسة عبد الكريم الخطابي، بمدينة الحسيمة يومي ٢٨-٢٩ يوليوز ٢٠٠٤، ط ١، مطبعة فيديبرانت، دجنبر ٢٠٠٤.

٦/١-الجرائد

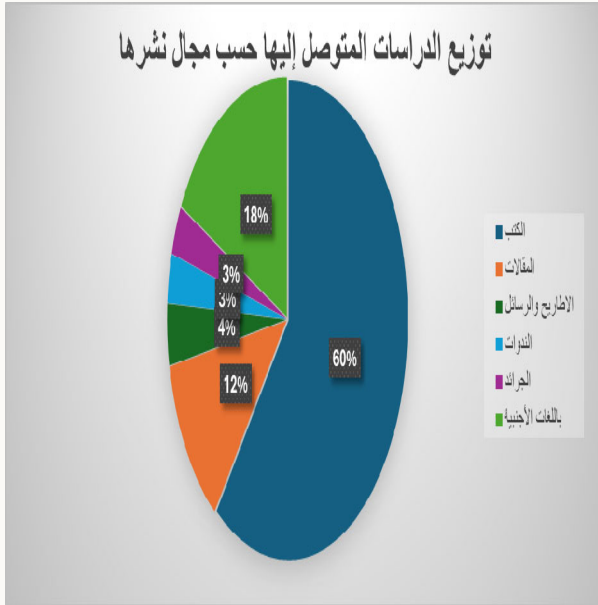
- الأمير عبد الكريم يلجأ إلى حمى الفاروق نزوله، جريدة الأهرام، رقم ٢٢٢٧٦، السنة ٨٣، بتاريخ ١٩٤٧ يونيو.
- انتهاء مؤتمر المغرب العربي، جريدة الأهرام، العدد ١٥٤، السنة ٢، ٩ مارس ١٩٤٧.

- نقادي سميرة، "مكتب المغرب العربي بالقاهرة من الذاكرة"، مجلة تاريخ المغرب العربي، جامعة وهران، عدد ١، يونيو ٢٠١٥.
- نواصر نصيرة وبوسليم صالح، "محطات من النضال التحرري المشترك بين المغرب الأقصى وتونس (1945-1956)، مجلة البحوث والدراسات، مجلد ١١، عدد ٢، ٢٠١٨.
- مبارك زكي والإدريسي علي، "في ذكرى تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي يناير ١٩٤٨"، مجلة هسبريس، ٢٠١٢.

٤/١-الأطاريح الجامعية والرسائل العلمية

- بوجمعة أكرم، محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير أقطار المغرب العربي (تونس، الجزائر، المغرب)، أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، ٢٠١٧.
- بلقاسم محمد، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي ١٩١٠ - ١٩٥٤، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ١٩٩٤.
- مالكي أمحمد، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه رقم ٢٠ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠.
- مومن العمري، شعار الوحدة ومضامينه في المغرب العربي أثناء فترة الكفاح الوطني، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٠.

العلاقات البينية بين أعضائه، وتفكيك رهاناته الإقليمية والدولية، وهو ما يفتح الباب أمام الباحثين لبذل مزيد من الجهود من أجل إعادة قراءة تاريخ المكتب من منظور وحدوي مغاربي أشمل.



من خلال هذه المحاولة الببليوغرافية تتضح أهمية "مكتب المغرب العربي" بالقاهرة باعتباره إحدى أبرز التعبيرات المؤسسية عن الروح الوحدوية التي جمعت حركات التحرر في شمال إفريقيا خلال فترة الاستعمار، لقد اضطلع هذا المكتب بدور محوري في التنسيق السياسي والإعلامي والديبلوماسي بين الوطنيين المغاربة، وفي نقل صوت الشعوب المغاربية إلى المنتديات الدولية والعربية، خاصة عبر مصر التي وفّرت له فضاءً حيويًا للحركة والتأثير.

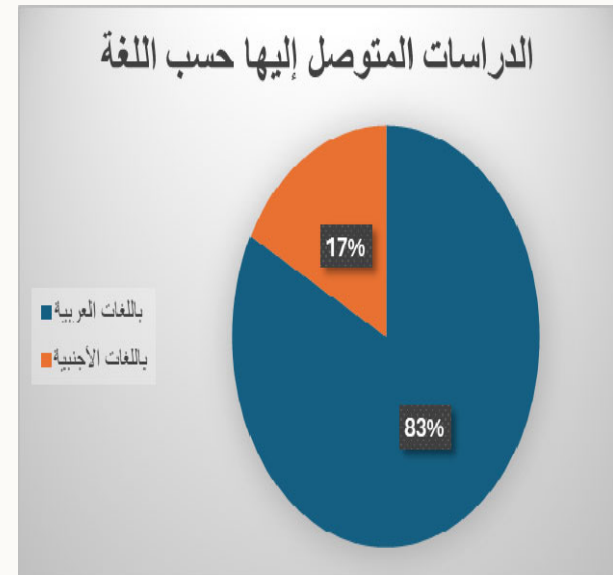
ورغم تعدد الإشارات إلى هذا المكتب في أدبيات المقاومة المغاربية، فإن الدراسات الأكاديمية المخصصة له ما تزال محدودة، إذ غالباً ما يرد ذكره بشكل عرضي ضمن سير ذاتية أو تحليلات عامة.

يتضح أن المغرب يحتل الصدارة بوضوح من حيث الدراسات المتوصل إليها، وذلك يعود إلى أن موضوع المكتب مرتبط بالنضال المغربي داخل المغرب وخارجه، كما أن هناك مؤرخين مغاربة مهتمين بتوثيق نشاط المكتب في القاهرة، وأغلب الدراسات والكتب تركز على الوثائق والدراسات التاريخية. خصوصاً غلاب عبد الكريم الذي كتب عن القاهرة وأسرارها، بالإضافة

- جاب الله منصور، الأمير عبد الكريم، جريدة الأهرام، رقم ٢٢٢٧٧، السنة ٨٣، بتاريخ ٢ يونيو ١٩٤٧.
- "مؤتمر المغرب العربي الأول"، جريدة رأي الشعب L'opinion du Peuple، عدد ٨، مارس ١٩٤٧.

ثانياً: خلاصات واستنتاجات

انطلاقاً من الدراسات المنجزة في الموضوع، يتبين هيمنة اللغة العربية نظراً لأن الموضوع يتعلق بثلاثة دول المغرب الجزائر وتونس، مع الإشارة أنه تم إغفال كثيراً من الدراسات خصصت له فقرة أو أسطر، وبالتالي تم تجاوزها وتم التركيز على التي تناولت منه جوانب متعددة.



تُظهر الحصيلة الببليوغرافية حول مكتب المغرب العربي حجم الاهتمام الذي حظي به هذا الإطار السياسي النضالي في الأدبيات التاريخية. فقد تم رصد ما مجموعه ٦٨ كتاباً، و١٤ مقالاً علمياً، و٥ أطروحات ورسائل جامعية، و٤ ندوات، و٤ مواد صحفية، إلى جانب ٢١ مرجعاً محرراً بلغات أجنبية. ويعكس هذا التنوع الكمي والنوعي أهمية المكتب في السياق المغربي لحركات التحرر الوطني، كما يدلّ على تعدد المقاربات المعتمدة في دراسته، بين الطرح التاريخي والسياسي والديبلوماسي. غير أن هذا الزخم لا يحجب بعض أوجه النقص في تناول الأكاديمي، لاسيما فيما يخص دراسة

والعائلات. على المستوى الدبلوماسي تتناول هذه المراجع العلاقات بين دول المغرب العربي والدول الأخرى، العمل الدبلوماسي في إطار الوحدة والتحرر، تحتوي على مراسلات سياسية، تحركات وحدوية، ودور مكتب المغرب العربي في القاهرة كمنصة دبلوماسية، وهي مفيدة لفهم كيفية استغلال القنوات الدبلوماسية لتقوية النضال الوطني.

في الأخير على الجانب الثقافي تركز على الأفكار القومية، الفكر السياسي، والشخصيات الفكرية التي أثرت في الحركات التحررية كما تناقش كيفية بناء الهوية المغربية، الأبعاد الثقافية للنضال، ودور الفكر في تحفيز الجماهير، وتساعد في إدراك البعد الفكري والروحي للنضال من أجل الاستقلال.

يتبين أن المحورين التاريخي والسياسي هما الأكثر تناولاً في الأدبيات المتعلقة بمكتب المغرب العربي والنضال المغربي، في حين تم الاهتمام بشكل أقل نسبياً بالمحورين الدبلوماسي والعسكري، رغم أهميتهما في التأريخ للتحرر المغربي، أما الاجتماعي فهو الأقل، مما قد يشير إلى نقص نسبي في الدراسات التي تركز على هذه الزوايا.

على مستوى الفترة الزمنية التي نشرت فيها هذه الدراسات يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل أساسية تعكس تحولات في مقاربة الباحثين لهذا الحقل:

المرحلة ١٩٨٠-١٩٩٠: كانت فترة مهمة لتوثيق النشاط الوطني والحركات التحررية مع دخول المراجع المغربية والتونسية.

المرحلة ٢٠٠٠-٢٠١٠: شهدت تركيزاً على دراسات مفصلة حول مكتب المغرب العربي في القاهرة، بدعم من مؤرخين مغاربة.

المرحلة الثالثة ٢٠١٠-٢٠٢٣: تركزت على إعادة تقييم الأحداث التاريخية ومؤتمرات الوحدة والتضامن، مع معالجة موضوع المكتب ضمن إطار أوسع.

ما يمكن ملاحظته أن أقدم المراجع ظهرت في المحورين التاريخي والثقافي في الخمسينات والستينات، المحور السياسي شهد تزايداً ملحوظاً بعد التسعينات، خصوصاً بعد ٢٠٠٠، معظم المراجع في المحاور العسكري والدبلوماسي نُشرت بعد الثمانينيات، بينما

لوجود مراجع مصرية معنية بالأحداث السياسية المغربية في القاهرة.

وفي المرتبة الثانية والثالثة نجد تونس والجزائر حيث يظهران اهتمام أقل لكن لهم مداخل مهمة خاصة من زاوية الوحدة المغربية والنضالات المشتركة، مثل دراسة الجزائري غانم بouden عن "النشاط الوحدوي"، والتونسي يوسف الرويسي له مرجع مهم "ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة".

ثالثاً: التصنيف حسب ميادين التخصصات التاريخية

وإذا ما حاولنا تصنيف هذه المراجع حسب ميادين التخصصات التاريخية: الاقتصاد، المجتمع، الثقافة، السياسية، العسكري والدبلوماسي، سنجد أنه فيما يخص الجانب التاريخي أن هذه الكتب تسلط الضوء على التاريخ العام للمغرب العربي، الحركات الوطنية، وحلقات مهمة في نضال الاستقلال، وتحتوي على توثيق للأحداث الكبرى مثل المؤتمرات، الفترات الحرجة، وتطورات الحركات التحررية، وهي مهمة لفهم السياق الزمني للنضالات وأدوار الشخصيات الكبرى.

فيما يخص الجانب العسكري تركز هذه المراجع على الكفاح المسلح، الحروب التحريرية، والاستراتيجيات العسكرية التي اتبعتها المقاومون، تشمل دراسات تفصيلية عن جيش تحرير المغرب العربي، الكفاح المسلح، ودور مكتب المغرب العربي في دعم النضال، وهي مفيدة لفهم البعد العسكري في صراع الاستقلال. بينما الجانب السياسي يناقش التحركات السياسية، الاستراتيجيات الدبلوماسية، والحركات السياسية داخل المغرب العربي وخارجه، كما تشمل تحليلات فكرية وسياسية حول الوحدة المغربية، دور الأحزاب السياسية، والروابط مع القوى العربية، وهي ضرورية لفهم البعد السياسي المعاصر الذي رافق النضال التحرري.

على المستوى الاجتماعي تركز هذه الدراسات تركز على الشهادات، الوثائق، وواقع المجتمعات المغربية خلال فترة الحماية والاستقلال، توضح كيف كان النضال مرتبطاً بالمجتمع، والتأثيرات الاجتماعية للكفاح، كما تساعد في فهم تأثير النضال على حياة الأفراد

إن مكتب المغرب العربي في القاهرة ليس مجرد صفحة من صفحات التاريخ السياسي للمنطقة، بل هو تجربة وحدوية حية، تختزل آمال النخب المغاربية في التحرر والتكامل. واستئناف البحث في هذا الموضوع، سواء عبر الببليوغرافيا أو الدراسات التحليلية، لا يمثل فقط محاولة لفهم الماضي، بل مساهمة في إعادة التفكير في مستقبل المغرب العربي ووحدته المنشودة. وناقلة القول، تجدر الإشارة إلى أن هذه الببليوغرافيا تبقى محاولة أولية، لا تدعي الإحاطة الشاملة بجميع الدراسات، وإنما جاءت ثمرة اطلاع شخصي، هدفه المساهمة المتواضعة في لفت الانتباه إلى هذا الموضوع ذي الأهمية التاريخية والسياسية في مسار وحدة المغرب العربي.

الإحالات المرجعية:

- (١) أبو بكر محمود الهوش، المدخل إلى علم الببليوغرافيا، منشورات المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١، ص ١١.
- (٢) صوفي عبد اللطيف، مدخل إلى علم الببليوغرافيا والأعمال الببليوغرافية، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٥، ص ١٦.
- (3) W. Boyd Rayward, Information Revolutions, the Information Society, and the Future of the History of Information Science, *Library Trends*, Volume 62, Number 3, Winter 2014, pp. 681-713, p 682.

المحور الاجتماعي شهد اهتماماً متأخراً نوعاً ما، خاصة في السنوات الأخيرة.

خاتمة

تُعد تجربة مكتب المغرب العربي في القاهرة محطة نضالية محورية في تاريخ التحرر الوطني لبلدان المغرب العربي، حيث جمع بين القادة الوطنيين من المغرب، الجزائر، وتونس، في إطار تنسيقي يهدف إلى مواجهة الاستعمار الفرنسي والإسباني بقوة موحدة. وقد لعب المكتب، منذ تأسيسه سنة ١٩٤٧ عقب مؤتمر القاهرة، دوراً فعالاً في تدويل القضية المغاربية، وتوحيد الخطاب التحرري في المحافل الإقليمية والدولية، مستفيداً من الدعم المصري، ومن زخم المرحلة التي تميزت بتصاعد حركات التحرر العالمية.

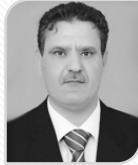
ومن خلال هذه المحاولة الببليوغرافية، يتبين أن الإنتاج التاريخي حول المكتب متنوع تراوح بين الدراسات الأكاديمية، والمذكرات الشخصية، والمقالات الصحفية، والوثائق الأرشيفية، لكنها موزعة، وتفتقر إلى دراسات تركيبية تربط بين ما هو تنظيمي وسياسي، بما هو إعلامي ودبلوماسي، ويفتح موضوع مكتب المغرب العربي عدة آفاق بحثية واعدة، من بينها:

- استكشاف الأرشيفات المغاربية والعربية والدولية خاصة المغربية، الجزائرية، التونسية والمصرية لاستجلاء أدوار غير موثقة بشكل كافٍ.
- تحليل الخطاب الإعلامي للمكتب، سواء في الصحافة المصرية أو في وسائل الإعلام الاستعمارية التي كانت تراقبه عن كثب.
- دراسة الأدوار الفردية لرموز المكتب (مثل امحمد بن عبود، محمد بن عبد الكريم الخطابي، الطيب بنونة) من خلال سيرهم وتجاربهم في المنفى.
- بحث العلاقات العابرة للحدود التي نسجها المكتب مع حركات التحرر في المشرق العربي وآسيا وإفريقيا.

مملكة لوثارينجيا باعتبارها مركزاً للتأثير العربي والعلمي في القرن الحادي عشر الميلادي

احسين حمد احسين محمود الفقيه

قسم الحضارة - كلية التاريخ والحضارة
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
البيضاء - دولة ليبيا



المقال

MARY CATHERINE WELBORN

Welborn, Mary Catherine. "Lotharingia as a Center of Arabic and Scientific Influence in the Eleventh Century." *Isis* 16, no. 2 (1931): 188-99.

هذا البحث مستل من مجلة إيزيس (ISIS) المجلد (١٦). العدد (٢) الصادر في عام ١٩٣١م. وهي مجلة أكاديمية دولية مخصصة لتاريخ العلوم والحضارة، وكانت تصدر كل ربع سنة عن جمعية تاريخ العلوم الأمريكية، وتمت طباعتها في مطبعة جامعة شيكاغو، الولايات المتحدة الأمريكية. تحتوي المجلة في مواضيعها على بحوث متخصصة في تاريخ العلوم عامة، وتاريخ العلوم عند المسلمين خاصة. وكان يتولى الإشراف على هذه المجلة وتحريرها المستشرق الشهير الدكتور: جورج سارتون. دكتوراه في العلوم وزميل مؤسسة كارنيجي بواشنطن. وهذا البحث في موضوعه هو دراسة تاريخية عن دور مملكة لوثارينجيا(*) الأوروبية السابقة في انتقال العلوم العربية الإسلامية من الأندلس والمشرق الإسلامي إلى أوروبا فترة العصور الوسطى، حيث كان هذا الانتقال هو المهد الرئيس لظهور حركة النهضة العلمية في أوروبا وازدهارها. واعتمد المستشرق في بحثه على منهجية البحث النقلي التحليلي المقارن، حيث دعم دراسته بمجموعة من المصادر والمراجع والمخطوطات، ووصل إلى استنتاج مفاده أن مملكة لوثارينجيا أثركبير في استقبال وتدريس العلوم العربية في إنجلترا خاصة وأوروبا عامة، ووضع في آخر البحث جدولاً مقارناً أثبت فيه تأثير كتب الفلكي المسلم "ما شاء الله" عن الإسطرلاب في علمي الرياضيات والفلك في أوروبا.

كلمات مفتاحية:

تاريخ إسلامي وسيط؛ حضارة إسلامية؛ تاريخ العلوم عند المسلمين؛
استشراق؛ تأثير العلوم العربية على أوروبا.

بيانات المقال:

تاريخ استلام الترجمة: ٢٤ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٥

doi 10.21608/kan.2025.472959 معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:

ماري كاترين ويلبورن، "مملكة لوثارينجيا باعتبارها مركزاً للتأثير العربي والعلمي في القرن الحادي عشر الميلادي"، ترجمة: احسين حمد احسين محمود الفقيه، - دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد الرابع والسبعون، ديسمبر ٢٠٢٥، ص ٢٠٨ - ٢١٥.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author h.alfageeh.s@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

حقوق الملكية الفكرية والترجمة والنشر: حقوق الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف. حقوق الترجمة العربية محفوظة © للباحث احسين حمد احسين محمود الفقيه، المترجم والدورية غير مسئول عن الآراء الواردة في النص الأصلي. النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها. غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.



ورغم أن هذا الاهتمام الخاص ظهر أولاً في لياج، إلا أنه كان حاضراً أيضاً في جوزز،^(٤) وكولونيا، وبروم، ولويس، وغيرها من مدن مملكة لوثارينجيا. وخلال الجزء الأخير من القرن العاشر وأثناء القرن الحادي عشر الميلادي، كان هناك تبادل نشط للرسائل والمخطوطات حول الموضوعات العلمية بين علماء هذه المدن، ومن الأخيرة إلى أماكن أخرى خارج لوثارينجيا، مثل رايشناو.

بدأ الاهتمام بعلم الفلك في لياج في عهد "يوراكلوس الساكسوني"^(٥) الذي كان أسقفاً من عام ٩٥٩م إلى عام ٩٧١م. ووفقاً لـ "رينيروس" (حوالي عام ١١٩٠م)، فقد درس "يوراكلوس" أولاً في كولونيا تحت إشراف رئيس الأساقفة "برونو"، شقيق "أورو الأول"، ثم تحت إشراف "راذيريوس"، أسقف فيرونا الشهير. وعندما أصبح أسقفاً؛ بدأ على الفور في تحسين المدارس في أبرشيته.^(٦) وبسبب نفوذه، زاد الاهتمام بالموضوعات العلمية بسرعة. ومن الواضح أنه لم يكن فلكياً ضعيفاً من خلال قصة رحلته إلى إيطاليا مع قوات "أوتو الأول" في عام ٩٦٨م. وفي الثاني والعشرين من ديسمبر، حدث كسوف للشمس وتمكن "يوراكلوس" من تهدئة قواته الخائفة من خلال طمأننتهم بأن هذه كانت مجرد ظاهرة طبيعية، وأن الشمس ستعود قريباً. يقول "رينيروس" أنه حصل على أفكاره الفلكية من "بليني"، و"ماكروبيوس"، و"خالسيدوس"، وكثيرين غيرهم، من المنجمين وكذلك علماء الفلك.^(٧)

كان علماء الفلك في أوروبا الغربية قبل نهاية القرن العاشر يعانون من إعاقة شديدة في عملهم بسبب افتقارهم إلى الأدوات المناسبة لإجراء الملاحظات. وحتى ذلك الوقت كانت أدواتهم الرئيسية هي الكرة اليونانية والمزولة الشمسية. وفي حساب تواريخ عيد الفصح والأعياد الأخرى المتحركة وأطوال السنوات والأشهر والأيام، اعتمدوا على دورات أو جداول عيد الفصح التي تأسست على تلك التي وضعها الإسكندرانيون في وقت سابق. وعلى الرغم من أنهم أدركوا لبعض الوقت قبل القرن العاشر أن حساباتهم لم تكن صحيحة، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحسينها لأنهم لم يتلقوا بعد من العرب نظريات وأدوات فلكية أفضل.

ونحو نهاية القرن العاشر الميلادي بدأت معرفة الإسطرلاب العربي تخترق الغرب اللاتيني. ومن المخطوطات التي تم اكتشافها حتى الآن، لا بد أن يكون علماء الهندسة وعلماء الفلك اللوثارينجيون قد استخدموا هذا الإسطرلاب أولاً. لقد ناقش البروفيسور "جيمس ويستفول تومسون" في بحثه: "إدخال العلوم العربية إلى اللورين في القرن العاشر" The introduction of Arabic science into Lorraine in the tenth century^(٨) مسألة العلوم العربية في الغرب اللاتيني. ولعل أفضل ما يمكن تلخيصه في استنتاجاته هو الاقتباسات التالية: "لقد تم إدخال العلوم العربية إلى مدارس اللورين وتم تهذيبها هناك في وقت لاحق قبل "جيربرت"،^(٩) إنني على قناعة بأن مدارس اللورين في النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي كانت بمثابة البذرة التي نبتت فيها بذور العلم العربي لأول مرة في أوروبا اللاتينية، والتي انتشر منها العلم إلى أجزاء أخرى من ألمانيا، وكما يشهد على ذلك "هيرمان كونتراكتوس" من رايشناو إلى فرنسا، وبشكل خاص إلى إنجلترا، بسبب تفضيل "كنوت الكبير" لرجال الكنيسة اللوثارينجية.^(١٠)

وليس من الغريب أن تكون مدارس لوثارينجيا من أقدم المراكز في أوروبا الغربية شمال جبال البرانس التي تبنت تعليم اللغة العربية، وذلك لأنه بالمقارنة بالمدارس الشهيرة في القرن العاشر، مثل رايشناو، وسان غال، وريمس، وباريس، وشارتر، وكولوني، فإن مدارس لياج كانت بارزة بشكل خاص بسبب حبها الحقيقي للمواد العلمية.

يستخدمون نوعاً من الإسطرلاب العربي الأصل. كما لا يوجد دليل من كتابات "جيربرت"^(١٤) أو "فولبيرت الشارترى"^(١٥) أو "آبون الفلوري"^(١٦)، وهم جميعاً مدرسون بارزون في تلك الفترة، على أنهم كانوا يستخدمون الأسطرلابات العربية في مدارسهم. لذا فلا بد أن "رادولف" قد وجد نموذجاً له في لوثارينجيا.

في الجزء الثاني من ما يسمى (Geometria Gerberti)^(١٧)، الذي أطلق عليه "تانيري" و"كليرفال" اسم (Geometricales diversitate)^(١٨)، هناك عدة فصول تحتوي على أوصاف للإسطرلاب الرباعي، وهو نوع طوره العرب واستخدموه في المسح. وفقاً لتانيري وكليرفال، تم جميع هذا الجزء الثاني من كتاب الهندسة بعد زمن "جيربرت". كما يقولان إن المخطوطة رقم (٧٣٧٧) الموجودة في المكتبة الوطنية هي أقدم نسخة تم اكتشافها حتى الآن والتي تحتوي على هذه المجموعة، والأهم من ذلك أن المقالة الخاصة بالإسطرلاب موجودة في تلك المجموعة من الرسائل المكتوبة في لوثارينجيا في القرن الحادي عشر.^(١٩) وعلى الرغم من أن "رادولف" لا يخبرنا بنوع الإسطرلاب الذي كان لديه، فمن المحتمل أنه كان من نفس النوع؛ حيث كان اهتمامه الرئيس هو الهندسة وكانت هذه الأداة الموصوفة في كتاب الهندسة تستخدم من قبل المهندسين والمساحين.

على الرغم من وجود أطروحتين أو ثلاث رسائل مجهولة المصدر حول الإسطرلاب،^(٢٠) فإن أول الرسائل التي لدينا أي معلومات مؤكدة بشأن مؤلفها هي تلك التي كتبها "هيرمان كونتراكتوس"،^(٢١) الراهب الأعرج من رايشناو. وُلد "هيرمان"، ابن الكونت "وولفردز الثاني" أو "ألساوزن"، في عام ١٠١٣ م. وفي حوالي عام ١٠٢٠ م أرسل إلى الدير حيث بقي فيه بقية حياته. وكان "معلم" مدرسة الدير في زمن هيرمان هو العالم الكبير "بيرنو" من مدرسة كلوني.^(٢٢) ولا نعرف شيئاً تقريباً عن حياة "بيرنو" حتى العام الذي خلف فيه "إيمو" في منصب رئيس دير بروم. ويزعم البعض أنه درس على يد "آبون الفلوري" قبل ذهابه إلى بروم، لكن هذا غير مؤكد على الإطلاق.^(٢٣) كان "بيرنو" شاعراً وموسيقياً وفيلسوفاً ولاهوتياً مشهوراً، وجذبت قدراته كعالم وقائد انتباه "هنري الثاني" الذي عينه في عام ١٠٠٨ م رئيساً لدير رايشناو. أخذ "بيرنو" معه إلى دير الجديد العديد من الكتب، وتحت تأثيره أصبح الرهبان

عند وفاة "يوراكلوس"، كان عالماً أكثر شهرة، وهو "نوتجر"^(٢٤)، الذي أصبح أسقفاً (٩٧١-١٠٠٨ م) وتحت إشرافه أصبحت لياج واحدة من أهم المراكز الفكرية في أوروبا. تلقى "نوتجر" تعليمه في سانت غال حيث كان علم الفلك والعلوم الأخرى ذات أهمية كبيرة، ومنذ شبابه أعطى وعداً بأن يصبح عالماً عظيماً. وقد أُطلق عليه "المؤسس الثاني لمدينة لياج"^(٢٥)، لأنه بنى العديد من الكنائس والأديرة والتحسينات والمستشفيات، واستورد أنواعاً مختلفة من الأشياء الفنية من العديد من البلدان. ولكن قبل كل شيء، كرّس اهتماماً كبيراً لمدارس لياج وشجع على دراسة الرياضيات وغيرها من المواد العلمية بقوة وأكثر من سلفه.^(٢٦)

بينما كان "نوتجر" أسقفاً، كان هناك العديد من علماء الفلك في لياج، على سبيل المثال "إنجلبرت" من سانت لورانس، وهو عالم فلك، بحث في عدد النجوم وحركات الشمس والقمر، وكذلك أسباب الزلازل والمد والجزر.^(٢٧) كان "رادولف" أحد المعاصرين المثيرين للاهتمام لإنجلبرت^(٢٨)، والذي نستمد من مراسلاته مع صديقه "راجيمبولد" من كولونيا عدة أدلة تتعلق بحالة الرياضيات في لوثارينجيا في بداية القرن الحادي عشر.

لا يُعرف سوى القليل جداً عن حياة "رادولف" باستثناء أنه قبل أن يصبح أحد المعلمين في مدرسة الكاتدرائية في لياج، درس مع "فولبيرت" في شارتر. ويمكن معرفة أنه كان مهتماً أيضاً بموضوعات الرياضيات من خلال مراسلاته (حوالي عام ١٠٢٥ م) مع صديقه "راجيمبولد"، "معلم" المدارس في كولونيا، وأنه كان مهتماً أيضاً بالموضوعات الرياضية. وتتناول هذه الرسائل بشكل أساسي مسائل الهندسة والحساب، لكن الرسالة الخامسة تحتوي على جزء ثمين للغاية من المعلومات المتعلقة بعلم الفلك. ويذكر له "رادولف" في هذه الرسالة أنه يمتلك إسطرلاباً، ويتابع حديثه قائلاً: "سأرسله إليك عن طيب خاطر حتى تتمكن من فحصه، لكنه نموذجي. فإذا كنت ترغب في معرفة ماهيته، فتعال إلى مهرجان القديس لامبرت، ولن تتدم على ذلك. وسيكون من غير المجدي بالنسبة لك مجرد رؤية إسطرلاب".^(٢٩) ومن المؤسف أن "رادولف" لا يقدم وصفاً للأداة ولا يخبرنا من أين حصل عليها؛ ومع ذلك، من خلال المخطوطات الأخرى الموجودة في هذه المنطقة، من المؤكد أن علماء الفلك اللوثارينغيين كانوا في ذلك الوقت

الإسطرلاب وأسماء الأبراج. وبما أن "هيرمان" نفسه لم يكن يعرف العربية بلا شك، فلا بد أنه استخدم ترجمات لاتينية تحتوي على كلمات عربية. وقد طبع بوبنوف جزءاً مجهولاً من مخطوطة تذكر الإسطرلاب وتحتوي على كلمتين أو ثلاث كلمات عربية، ويقول إنها كانت في يد مؤلف كتاب: "De Utilitatibus".^(٢١) ومع ذلك، فإن المقارنة بين الأطروحتين تُظهر أن هذه القطعة لا يمكن أن تكون المصدر الرئيس لمعلومات المؤلف، لأنها أقرب إلى مناقشة عامة لقيمة علم الفلك والموسيقى والموضوعات الأخرى للفنون الحرة السبعة، بينما يقدم كتاب: "De Utilitatibus" وصفاً محدداً ومفصلاً للغاية لبناء واستخدام الإسطرلاب ويحتوي على العديد من الكلمات العربية.

من المرجح أن "هيرمان" استخدم نسخاً من الترجمات اللاتينية لكتابي: "في بناء الإسطرلاب De constructione astrolabii" و"في استخدام الإسطرلاب De utilitate astrolabii" اللذين ألفهما الفلكي العربي "ماشاء الله MASHALLAH" كمصدرين رئيسيين له.^(٢٢) وحتى الآن لم يتم اكتشاف أي ترجمات لاتينية لأعمال "ماشاء الله" تم إجراؤها قبل زمن "هيرمان"، ولكن تم ذكر نسخة لاتينية من كتابه: "أسرار الأسطرلاب Secretorum astrorum" في كتالوج^(٢٣) يعود إلى القرن الثاني عشر لدير ويسوبرون الذي كان قريباً من رايشناو. ومن المحتمل أن تكون هذه المخطوطة موجودة في المكتبة لبعض الوقت قبل إعداد هذا الكتالوج، وأن هناك مخطوطات أخرى في نفس المنطقة. ولعدة أسباب يبدو من المرجح أن "هيرمان" كان لديه هذه الترجمات؛ أولاً لأن أعماله وأعمال "ماشاء الله" تحتوي على أوصاف لنفس النوع من الإسطرلاب، وهو الإسطرلاب الفلكي الرباعي، ولأن جميع فصول الأعمال تستخدم نفس الكلمات العربية،^(٢٤) بنفس التهجي، لوصف كل جزء من الأداة، ولأن نفس طرق استخدام الإسطرلاب المذكورة.

الكتاب الثاني من (De utilitatibus astrolabii) ليس أطروحة متصلة مثل الأول ولكنه عبارة عن مجموعة من الكتابات حول مواضيع مختلفة. يتناول الفصل الأول أداة لتحديد الوقت يرغب "هيرمان" في شرح استخدامها لأخ معين يُدعى "فيرينهار"، ربما هو الذي ذكره في كرونكون باعتبارها « راهب متعلم جداً من أوجيان ومكرس حقيقي للدين»،^(٢٥) الذي توفي حوالي عام ١٠٥٣م في رحلة حج

مهتمين للغاية بالموسيقى والرياضيات. وكان تلميذه الأكثر تقدراً هو "هيرمان كونتراكتوس" الذي جاء حماسه الأول لهذه الموضوعات بلا شك من "بيرنو".

من المحتمل أن "هيرمان" كتب أطروحتين عن الإسطرلاب، الأولى كانت بعنوان: (De mensura astrolabii)^(٢٤) (حوالي عام ١٠٤٨م) والتي كتبها بناءً على طلب أصدقائه الذين كانوا فضوليين للغاية بشأن هذه الأداة، وخاصة لإرضاء شخص معين؛ والذي ربما كان هو "بيرنو".^(٢٥) في هذا العمل يناقش هيرمان طريقة بناء نوع الإسطرلاب الذي أطلق عليه اللاتينيون اسم (زاخورا Walzachora)،^(٢٦) وهو شكل محسن من الشكل الكروي (الكرة المسطحة) الذي وصفه "بطليموس" في كتاب المجسطي (II, 8). في نهاية المقال، يقول "هيرمان" إنه ينوي لاحقاً مناقشة استخدام الإسطرلاب: "ولكن كم من المزايا التي يتمتع بها الناس في قراءة لائحة قياسات الإسطرلاب، وممارسة عبقريتهم في استخدام مثل هذه الأشياء، يجب الإشارة إليها في مكان آخر".

"Quas autem quantisve utilitates omnes praetaxatae habeant mesurationes libelum astrolapsus Legenti, et ingenium in hujusmodi rerum usu exercitanti, alias debet notificari"⁽²⁷⁾.

يبدو أن هذه النية قد تم تنفيذها في الرسالة الثانية المطبوعة في بيز، بعنوان: (De utilitatibus astrolabii)،^(٢٨) على الرغم من أن بعض الفصول لا يمكن أن تكون من تأليف "هيرمان".

في هذا العمل يناقش "هيرمان" قيمة واستخدام الإسطرلاب في علم الفلك والهندسة، "لن أنزعج من الكسل، بعد أن تنبأت بهذه الأشياء، فيما يتعلق بتفاصيلها المعمارية أو الميكانيكية وأسمائها، وحتى لا أتعثر في الكتابة كثيراً، سأحدث بإيجاز، لكي أتمكن من الوفاء بالوعد السابقة".^(٢٩) إن نوع الإسطرلاب الموصوف هنا هو الربع الفلكي، والذي تم صنعه بإضافة شريط البروج، ومواضع النجوم، والمقاييس إلى الربع المركب الذي كان أداة هندسية مثل تلك الموصوفة في ما يسمى بـ "الهندسة" لـ "جيربرت". يتناول الكتاب الأول من هذه الأطروحة مشاكل مثل العثور على موضع الشمس على مسار الشمس في أي يوم معين، ومواضع النجوم في ساعات معينة خلال أي ليلة معينة.^(٣٠) وفي هذا الكتاب، كما في أعمال "هيرمان" الأخرى، استخدمت العديد من الكلمات العربية للإشارة إلى أجزاء

لقد بذل "إيرل هارولد" جهوداً أكبر من أي شخص آخر لتشجيع التعلم اللوثارينغي في إنجلترا. فقد نجح في تأمين تعيين "والتر" أسقفاً لهيريفورد (١٠٦٠-١٠٧٩م)، وتعيين "جيزا" أسقفاً لويلز (حوالي عام ١٠٦٠م). ولكن أهم تعيين له كان تعيين "أثيلارد" من لياج رئيساً لكلية الكهنة التي أسسها في والتهم.^(٤٠) وكان "هارولد" قد سافر على نطاق واسع واكتشف أن مدارس لوثارينجيا والمدن الألمانية القريبة لم تكن أفضل كثيراً من مدارس إنجلترا فحسب، بل وأيضاً من مدارس فرنسا أو شمال إيطاليا في ذلك الوقت. وكان نظام الكليات العلمانية التي تضم مدارس أسسها "كروديجانج" من مitez هو النظام الذي تبناه "هارولد" في والتهم. واختار "أثيلارد" المتعلم الذي درس في لوثارينجيا و"أوتريخت" ليكون رئيساً للكلية.

وخلال عهد "ويليام الفاتح" و"ويليام روفوس"، كان اللوثارينجيون لا يزالون يُجلبون إلى إنجلترا. وقد دعا الفاتح إلى بلاطه "روبرت" من لورين، وهو عالم رياضيات بارز، والذي عُين أخيراً أسقفاً لهيريفورد في عام ١٠٧٩م. وكان معروفاً بعمله في المعداد وخاصة لأنه أحضر إلى إنجلترا كتاب "كرونون" Chronicon لماريانوس سكوتس الذي كتب بنفسه أطروحة حول مقدمته الفلكية. وكان "توماس بايو"^(٤١) عالماً آخر مثيراً للاهتمام في هذه الفترة، حيث ذهب إلى ألمانيا وإسبانيا لدراسة العلوم، ثم بعد أن أمضى بعض الوقت مع "أوبو" أو "بايو"، أرسله الأخير إلى لياج لاكتساب المزيد من المعرفة. وفي وقت الغزو النورماندي ذهب إلى إنجلترا مع "أوبو" وأصبح أخيراً رئيساً لبطريركية يورك في عام ١٠٧٠م.

لم يتم ذكر سوى عدد قليل من رجال الدين اللوثارينجيين الذين ذهبوا إلى إنجلترا في القرن الحادي عشر، ولكن من المهم أن نلاحظ أنهم كانوا جميعاً مهتمين بالرياضيات وعلم الفلك. ولكن لم يتم ذكر الأسطرلاب في إنجلترا إلا في زمن "والتشر المالفيرني"^(٤٢) (حوالي عام ١٠٩٢م). وكان "والتشر" أيضاً من اللوثارينجيين ووصل إلى إنجلترا حوالي عام ١٠٩١م. وبالتالي نرى أن إنجلترا وكذلك رايشناو تأثرت كثيراً بعلماء الرياضيات والفلك اللوثارينجيين، وأن أول إشارة إلى العلوم العربية جاءت منها.

ماري كاترين ويلبورن.

مكتبة هارفارد ١٨٩

كامبريدج، ماساتشوستس.

إلى أورشليم. وتتأول ثلاثة فصول^(٣٦) أخرى في هذا الكتاب مسألة محيط الأرض وفقاً لتقرير "ماكروسوس"، حيث يستخدم "هيرمان" العدد النسبي الأرخميدي لحساب القطر. بالإضافة إلى ذلك، يستخدم طريقة غير مباشرة موجودة أيضاً في الفصل ٥٦ من كتاب جيربرت: "الهندسة" (في الجزء المسمى الهندسة الذي ربما تم تجميعه في لوثارينجيا)، وفي رسالة "راجيمبولد". ووفقاً لـ "كانتور"، لم يستخدم "برنيليوس"، أحد طلاب "جيربرت"، هذه الكسور ولم تكن يونانية،^(٣٧) وبالتالي لدينا رابط آخر يربط "هيرمان" وعلماء لوثارينجيا. ربما قرأ رسالة "راجيمبولد" هذه من قبل "مينزو الكونستانسي"،^(٣٨) وهو طالب سابق لهيرمان، والذي أرسلها بعد ذلك إلى الأخير الذي أدرجها في كتاب: "De utilitatibus astrolabii" (الكتاب ٢، الفصل ٣). ويظهر هذا الفصل أيضاً علامات واضحة على التأثير العربي. إن كون كتاب الهندسة كان أحد المصادر الرئيسية لهذا الكتاب الثاني يتجلى أيضاً في حقيقة أن "هيرمان" أدرج فصلين كاملين في عمله، على سبيل المثال كتاب "هيرمان" الثاني. الفصل السادس، المقطع: (Ad mensurandam quamlibet in plano stantem altitudinem per suam ipsius umbram cum quadrato astrolabit)، هو يشبه حرفياً كتاب الهندسة لـ "جيربرت"، الفصل ٢١ (Pez). والمقطع: (Alius modus altitudinem rerum metiendi)، يشبه تماماً ما ورد في الفصل ٨٢ من كتاب الهندسة.

لم يمتد تأثير علماء الرياضيات والفلكيين اللوثارينجيين جنوباً إلى رايشيناو فحسب، بل امتد أيضاً غرباً إلى إنجلترا. فمنذ زمن "كنوت" وعلى مدار أجيال عديدة، كان العلماء اللوثارينجيين^(٣٩) يتمتعون بشعبية كبيرة في إنجلترا، وتم تعيينهم كرؤساء أساقفة ورهبان ومعلمين للمدارس. وقبل وفاة "كنوت"، كان "دودوك"، «دي لوثارينجيا أوريندوس»، قد أصبح بالسابق أسقفاً لسومرست (١٠٣٣م). وبحلول الوقت الذي أصبح فيه "دوبوك" أسقفاً لويلز، أصبح "هيرمان"، وهو لوثارينجياً آخر، أسقفاً لرامزي، وأصبح "ليوفريك" الذي تلقى تعليمه في لوثارينجيا أسقفاً لإكزتر (١٠٤٦-١٠٧٢م). وفي عهد الملك "إدوارد المعترف" كانت هناك مجموعة أخرى من رجال الدين هؤلاء، على سبيل المثال "ألبرت". وكان كل رجال الدين هؤلاء مهتمين بالعلم، وكان العديد منهم يحضرون معهم كتباً من بلادهم.

المادة	المصطلح
M H	Declinatio
M H	Denticulus
M H	Diametrum
M H	Dorsum astrolabii
M H	Equinoctial
M	Eclypsis
M	Fiducia
M	Gnomonus
M H	Gradus
M H	Intervalla
M H	Inaequales horis (i.e. Ezemenie)
M H	Latitudine
M	Limbus
M	Margarite
M	Margolabrum
M H	Mater
M H	Meridianum
M H	Nadayr
M H	Nadayz
M	Novella
M H	Plaga
M H	Plana sphaera
H	Crebra perforate
M	Tabula perforate
H	Perigraphiis inscriptionum) (—
M	Pinnule
M H	Ptolemy
M H	Quadrant
M H	Regio
M	Rethum
M H	Septentrionale
M	Spinas
M H	Umbra versa
M H	Umbrum
M H	Walzacora
H	Walzazene
M H	Zodiaci

الملحق

قائمة مقارنة المصطلحات المستخدمة فيما يتعلق بالإسطرلاب في كتاب: (De mensura astrolabii) لهيرمان كونتراكتوس ويرمز له بالحرف (H)، وكتابي: (De construtione astrolabu) و (De utilitate astrolabii)، و (Anon)، جزء للمسلم "ماشاء الله" ويرمز له بالحرف (M). و (Opera geometrica) مطبوع بواسطة بوبنوف في كتاب: (Gerberti) يرمز له بالحرف (A).

المادة	المصطلح
M H	Aequales horis (i.e. Muzzenine H)
M	Alhabor (i.e. ansa M)
M H	Alhanthabuth (alancabut)
M H	Allidada
H	Almagrip
M	Almenath
M	Almucantant
M H	Almucantherath
M H	Almuri (almeri)
H	Alnogiza
M H	Alpheraz
M H	Altitudines (i.e. Erufamazeat H)
M	Aranea
M H	Architoph (Alchitob H)
M H	Armillia
M H	Axis
M H	Azimuth
H	Botot altasab
H	Caballum (Muuses equis)
M	Camilla
H	Catezenuel
M	Cenith
M	Cimei
M H	Circinum
M	Claves
M H	Climatus
M H	Colurus

الإحالات المرجعية:

- J. B. PARDIAC, Histoire de St. كيرلس وديونيسيوس. Abbon, M. MANITIUS, op. cit., II, 664-672.
- (17) B. PEZ, Thes. anec. noviss., III, 11, 37-82, given by him as chapters 14-94- N. BUBNOV, Gerberti opera mathematica, Berolini, 1899.
- 18 TANNERY and CLERVAL, op. cit., 542.
- (١٩) هل كان من الممكن أن يعود جون الجوزي إلى لوثارينجيا بإسطرلاب أو أطروحة حول هذا الموضوع؟ راجع البروفسور: J. W. THOMPSON, op. cit., 188-190. ومن المهم أن نلاحظ أن جون كان في قرطبة، مركز التعلم العربي. وعلى الرغم من وجود عدد من المخطوطات العلمية المذكورة في كتالوج دير جوزي في القرن الحادي عشر، إلا أنه لا يوجد منها عنوان عربي. انظر: D. G. MORIN, Le catalogue des manuscrits de l'abbaye de Gorze au XIe siècle, in Revue Bénédictine, 1-14, XXII, 1905.
- (20) L. THORNDIKE, Magic and experimental science, I, chapter 30, New York, 1923. N. BUBNOV, op. cit., 370-375.
- (21) Bertholdi Annales, MGH.SS., V, 267 ff. A. HOLDER, Die Reichenauer Handschriften, III, 241-243, Leipzig, 1906-18. M. MANITIUS, op. cit., II, 756-777- M. CANTON, Vorlesungen über Geschichte der Mathematik, 13, 885-889, Leipzig, 1913. P. TREUTLEIN, Intorno ad alcuni scritti inediti relative al calcolo dell' abaco in Bull. di Storia d. Scienze Mat., X, 643-7, Rome 1877.
- (22) HERMANNUS CONTRACTUS, Chronicon, MGH.SS., V, 119. M. MANITIUS, op. cit., II, 61-71.
- (23) D. P. BLANCHARD says that BERNON did not study under Anno, Œuvres attribuées à Bernon de Reichenau, in Revue Bénédictine, XXIX, 98-107 (1912). The story of BERNON and IMMO is important as it shows contact between Reichenau, Prüm and Gorze at this time.
- (24) MIGNE, op. cit., CXLIII, 379-390. PEZ, op. cit., III, 11, 94-106.
- (25) A gloss on Ms. Digby 174, f. 210 says that this B. was a BERENGARIUS (cf. C. H. HASKINS, Studies in mediaeval science, Cambridge, 1927, 53), however it seems much more likely that it was his friend BERNON.
- (٢٦) يقول إرنست هونيجمان: إنه يأتي من وسط الكرة، وهو الجزء الأوسط من الأفلاك. ويقول أيضاً إن بروليمي استخدم فقط كلمة نصف الكرة الأرضية، وليس الإسطرلاب، والتي تم استخدامها لأول مرة في عصر فيلوبونوس. انظر: E. HONIGMANN, Die sieben Klimata und die Πόλεις ἐν ὅσῃσι, Heidelberg, 1929). وتفسير هيرمان للزاخورا هو كما يلي: "من يسعى إلى تعميق المعرفة بالعلم الفلكي والأفلاك السماوية والمعرفة العليا بالقياسات الهندسية من خلال البحث الجاد عن الحقيقة، والذي يسعى إلى التمييز بين أكثر الطرق يقيناً للساعات في أي مناخ، وكل

- * **لوثارينجيا:** مملكة خلفت الإمبراطورية الكارولنجية في العصور الوسطى. وكانت تضم اللورين ولوكسمبورج وسارلاند وهولندا ومعظم بلجيكا وألمانيا غرب نهر الراين. (المترجم)
- (1) Isis, 12, 184-194, 1929.
- (2) Ibid., 184.
- (3) Ibid., 191.
- (٤) للاطلاع على الإصلاح الجوزي والأنشطة الفكرية هناك في زمن جون الجوزي (حوالي عام: ٩٦٠م)، انظر: J. W. Thompson, op. cit., 188-189.
- (5) Rermnerus, Monachus S. Laurentii Leodiensis, Vita Euracli, I, in B. PEZ, Thes. anec. noviss., VI, 111, 155-166, 1721-1729.
- (٦) الراهب أنسلم في: (Lectones majusculis tradere 24)، يعطي صورة واضحة جداً عن يوراكلوس كمعلم.
- (7) REINERUS, op. cit., chapter 24.
- (8) G. KURTH, Notger de Liège et la civilisation as Xe siècle, a vols., Paris, 1905. H. PIRENNE, Histoire de Belgique, I3, 157, Brussels, 1909. M. MANITIUS, Geschichte der lateinischen Literatur des Mittelalters, II, 219-228, München, 1911- 1923.
- (9) G. KURTH, op. cit., 1, 130-169.
- (10) Ibid., 1, 251-209.
- (11) REINERUS, De claris scriptoribus, book I, chapter 9, in B. PEZ, Thes. anec. noviss., IV, I, 20-52.
- (12) P. TANNERY and Abbé CLERVAL, Une correspondance d'écclatres du XI siècle, in Notices et extraits des manuscrits, XXXVI, 487-543, 1899-1901. M. MANITIUS, op. cit., II, 778-781.
- (١٣) لا شك أن رادولف لم يكن ليرغب بهذه الدرجة في أن يرى راجيمبولد إسطرلابه لو كان من النوع اليوناني العادي.
- (١٤) في قائمة الأدوات الفلكية التي يقول ريتشر إن جيربرت استخدمها، لم يذكر إلا كرة صلبة، وهي أداة من صنع يوناني وليس عربي. ولو كان لديه إسطرلاب لكان ريتشر قد ذكره بلا شك، انظر: RICHERUS, Historia III, MGH. SS. IV, 617-618.
- (١٥) لا يوجد دليل في كتابات فولبيرت على أنه كان يعرف أي شيء عن الإسطرلاب العربي على الإطلاق، على الرغم من أن فيستر يدعي أنه كان يعرف الأسماء العربية للأبراج. C. PFISTER, De Fulberti Carnotensis episcopi vita et operibus, Nancy, 1885 ولمناقشة عمل فولبيرت، انظر: L. C. MAC KINNEY, Bishop Fulbert, Isis, 14, 285-300, 1930 لا توجد كلمات عربية في إشعار فولبيرت الموجز حول التقويم، في: MIGNE, Patrologia latina, CXLI, 347.
- (١٦) كتب آيون، تلميذ عالم الفلك بدير ريمي، من سان جيرمان وأوكسير، عن موضوعات فلكية ولكن لا يوجد أثر للإسطرلاب عربي أو أسماء عربية في أعماله. كان لا يزال يعتمد على بيذا ويوسابيوس ودوائر

ما يتعلق بها فليبحث ويتعلم هذه الزاخورا، أي الكرة المسطحة لبطليموس، أو الإسطرلاب، بالبحث الماهر، ويوصي بشدة بالبحث مستعيناً بالذاكرة، حتى أنه عندما يتعرف على أي خطوط ونقوش مكتوبة ومنقوشة عليها، فليحتفظ بكل واحدة منها باسمها". انظر: PEZ, III, 11, 110.

(27) Pez, cop. cit., III, 11, 106.

(28) Pez, op. cit., III, 110-139; also MIGNE, op. cit., CXLIII, 390-403.

(29) HERMANN, De utilitatibus, liber I.

(٣٠) تم وضع هذا الكتاب الأول بين الأعمال المشكوك في نسبتها لجيريت بواسطة ن. بوبنوف (op. cit, 109 ff) ولكن لعدد من الأسباب الواردة في هذه الورقة، يبدو من المرجح أن يكون قد كتبه هيرمان.

(31) N. Bubnov, op. cit., 109 ff. C. H. Haskins, op. cit. 51-53.

(32) MASHALLAH, d.c. 815-820. G. SARTON, Introduction to the history of science, 1, 531, Washington 1927. A Latin text of the thirteenth century and an English translation of the Latin has been published by R. T. GUNTHER, Early science in Oxford V, 137-192, Oxford 1929. HERMANN's Liber de utilitatibus, book 2, chapter 8 is very similar to the chapters 12 and 13 of the De utilitate of MASHALLAH; and his chapter 11 is similar to chapter 8 of MASHALLAH and chapter 7 like chapter 9.

(33) G. BECKER, Catalogi bibliothecarum antiqui 231, Bonn, 1885.

(٣٤) للمقارنة بين المصطلحات العلمية المستخدمة في القطعة المجهولة، وأعمال ماشاء الله، وأعمال هيرمان، انظر الملحق أدناه، ١٩٨.

(35) HERMANNUS CONTRACTUS, Chronicon, MIGNE, op. cit., CXLIII, 262.

(36) Pez, op. cit., chapters 2, 3.4.

(37) M. CANTOR, op. cit., 13, 885-889.

(38) M. MANITIUS, op. cit., II, 786-787. For a copy of this letter see E. DOMMLER, in Neues Archiv der Gesellschaft für ältere deutsche Geschichtskunde. V, 202, 206.

(٣٩) لمزيد من المعلومات التفصيلية عن هؤلاء اللوثارينجيين، انظر بشكل خاص: E. FREEMAN, Norman Conquest, 8 vols, Oxford 1867, and T. D. HARDY, Descriptive catalogue, 3 vols. London 1871, Rolls Series vol. 26.

(40) FREEMAN, op. cit., II, 451, 600. W. STUBBS, (editor), De inventione, IX; C. 15.

(41) HUCH THE CANTOR, History of four archbishops of York, in the The Historians of the church of York, edited by J. RAINE, II, 98-228, London 1886, Rolls series, 71. W. H. DIXON, Lives of the archbishops of York, 1, 146-158, edited and enlarged by J. RAINE, London 1863.

(42) C. H. HASKINS, op. cit., 113-117.

العرف بقبائل زِيَّان من خلال أرشيف المحاكم العرفية

١٩١٤ – ١٩٥٦

د. حنان اقشيبيل

دكتوراه في التاريخ المعاصر
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس
مكناس - المملكة المغربية



بيانات الأطروحة

الباحث:	حنان اقشيبيل	أطروحة لنيل الدكتوراه الوطنية
إشراف:	الأستاذ الدكتور لحسن أوري	في العلوم الإنسانية في موضوع:
التخصص:	التاريخ المعاصر	"العرف بقبائل زِيَّان من خلال أرشيف المحاكم
التاريخ:	يوليو ٢٠٢٥	العرفية ١٩١٤ – ١٩٥٦"
عدد الصفحات:	٤٠٠ صفحة	كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس،
لجنة المناقشة:	الدكتور سيدي محمد الكتاني، جامعة سيدي محمد بن عبد الله	جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس
	الدكتور محمد أويهي، جامعة محمد الخامس بالرباط	
	الدكتور علي علام، جامعة سيدي محمد بن عبد الله	
	الدكتور لحسن أوري، جامعة سيدي محمد بن عبد الله	
	الدكتور محمد بوكبوط، جامعة سيدي محمد بن عبد الله	

حاولت هذه الأطروحة رصد جانب من التراث اللامادي المرتبط بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل زيان الأمازيغية وسط المغرب خلال عهد الحماية من بوابة الأعراف. وذلك بتوظيف أرشيف المحاكم العرفية كمصدر لكتابة التاريخ المونوغرافي. استُهلّت الدراسة بتقديم المعطيات السوسيو اقتصادية لمجال الدراسة، وفصلت في قضايا الأحوال الشخصية في عرف قبائل زِيَّان خلال عهد الحماية. وناقشت طرق تدبير المحاكم العرفية لقضايا المعاملات التجارية، والديون، والرهن من خلال نماذج معبرة من سجلات هذه المحاكم. وسلّطت الضوء على أعراف العقار بقبائل زِيَّان، وطرق تدبيرها من طرف المحاكم العرفية. انتقلت مضامين الأطروحة بعد ذلك لمناقشة أعراف قضايا الزراعة والغراسة، والرعي من خلال أحكام السجلات. وعرجت بعدها على أعراف تدبير قضايا العنف والاعتداء وتنفيذ أحكامها. واختتمت فصولها بتحليل ودراسة أهم التحالفات والأوقاف العرفية بقبائل زِيَّان خلال عهد الحماية وبعض سبل تسميتها. ودُيّلَت الأطروحة بخاتمة عامة تضمنت خلاصات واقتراحات الباحثة.

كلمات مفتاحية: العرف؛ قبائل زيان؛ القضاء العرفي؛ المحاكم العرفية؛ الحماية؛ تاريخ المغرب المعاصر؛ عرض أطروحة

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.472960

الحماية وإجماع الباحثين في القانون المنظم للحياة الاجتماعية، دون أن تسجل عجزها عن مسايرة تطورات المجتمع رغم ما صاحبها من جدل فقهي ومجتمعي بين مؤيد ومعارض.

لقد نشأت الأعراف عن حاجة المجتمع، واستمدت مشروعيتها من حاجة الناس إلى ضبط علاقاتهم فيما بينهم، ومع جيرانهم. يعتبرها عدد لا بأس به من أمازيغ المغرب الطريق التي لا ينبغي الحياء عنها

مُقَدِّمَةٌ

كانت القبيلة حتى وقت قريب إحدى أهم ركائز المجتمع المغربي، لذلك من الطبيعي أن نجد اختلافا وتباينا بين أعراف القبائل المغربية، بل بين فخذة وأخرى داخل نفس القبيلة، لأن عشائرها كانت غالبا منطوية على نفسها وتمسكة بأعرافها، باعتبارها القانون الذي ينبغي أن ينتقل إلى غيرها لا العكس. وقد وجدت الأعراف منذ قرون طويلة قبل عهد

المؤرخين الذين يعتبرونه فرعاً من فروع القانون. ومن هنا جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ : "العرف بقبائل زَيَّان من خلال أرشيف المحاكم العرفية المحلية (١٩١٤-١٩٥٦)".

إذ ظل مجال الدراسة منطقة شبه مغيبة في المصادر المغربية لبعده عن المركز، لكن قبائله كانت حريصة على توثيق معاملاتها بمستندات رسمية مع ظهور المحاكم العرفية. ومن بينها محاكم مجال الدراسة الذي امتد بين واد بهت وواد كَرْو، وواد سرو، وامتدت من الناحيتين الشرقية والشمالية إلى تخوم آيت مَكِيل. وحصرناها زمنياً بمنعطفين حاسمين في تاريخ مجال الدراسة والبلاد ككل. يتعلق منعطف بداية الدراسة بدخول المستعمر الفرنسي لمدينة خنيفرة أواخر يونيو ٢٠١٤، واعتماده العرف الزياني منطلقاً لترسانة من القوانين العرفية المعيارية التي اعتمد جزء كبير منها في الأحكام الصادرة عن المحاكم العرفية. وتتجلى أهمية منعطف نهاية العمل سنة ١٩٥٦ في جلاء آخر المعمرين عن المنطقة والتخلي الرسمي عن القوانين العرفية لصالح مدونة الأحوال الشخصية بعيد الاستقلال. دون أن يعني ذلك التخلي عن الانطلاق من هواجس وحاجات الحاضر لربط تاريخ مجال الدراسة المدروس بحاضره واستشراف مستقبله. تمكنا خلال مرحلة التنقيب من جمع أزيد من ٣٥٠٠ حكم من مختلف المحاكم العرفية المحلية والأرشفات الجهوية، وأرشف بعض العائلات والأسر العريقة منها والعامة التي اعتنت بوثائقها. وهكذا تنوعت هذه الوثائق بين بين رسوم زواج، وطلاق، وقضايا بيع وشراء، ورهن، وشفعة عقارات، وقضايا تتعلق بضبط الأمن داخل القبائل، وتوثيق مكتوب للعهود، والتحالفات، والديون وغيرها مما سيأتي التفصيل فيه. وبالنظر لغياب عرف معياري، وسن كل اتحادية قبيلة لأعرافها الخاصة وفق ما فرضته الظروف المحيطة بها. ونظراً لراهنية الموضوع الذي باتت فيه الأعراف من الطرق البديلة لحل النزاعات، ومن المواضيع الشائعة في بحوث القانون والأنثروبولوجية القانونية، سواء في الدول الأنجلوسكسونية أو الفرنكوفونية. يفسرها اللجوء المتزايد للأفراد المتنازعين بمجال الدراسة إلى وساطة المؤسسات العرفية لسد نقائص وعراقيل قضاء الدولة، الذي يعتبر طريقاً شاقاً للمتقاضين، كثير المصاريف، طويل المساطر، معقد إجراءات التنفيذ. لذلك سنشرع في تحليل الموضوع انطلاقاً من الإشكالية الآتية:

مادامت فعالة في ضبط القضايا المجتمعية والاقتصادية، لكن تجدد القضايا فرض تجديد أعرافها، لأنها ليست مستقلة عن الواقع الاجتماعي، وذلك شرط ألا تتعارض مع الأعراف السابقة. وتبقى أعراف الاتحاديات القبلية مصدراً مهماً لإعادة قراءة التاريخ الجهوي، لكونها من الوثائق الغميسة أو الدفينة، إذ يستشف منها الباحث في التاريخ معطيات في غاية الأهمية. وهكذا يسمح التاريخ المونوغرافي بالمرور السلس من الجزئي إلى التاريخ الجمعي الكبير، ويمنح للمؤرخ فرصة اقتحام حقل الذهنيات والممارسات الرمزية والتمثيلات الجماعية للمجموعات الاجتماعية الأقل تأثراً بثقافة المدينة. لقد جاءت قبائل زَيَّان محملة برصيد عرفي لا بأس به من الاتحادية الأم آيت عطا، خاصة أعراف تدبير العنف. كانت أعرافهم في أول الأمر شفوية، وبدأ تدوينها بتوسع حركات المخزن وتزايد إشغاله بمجال الدراسة خاصة عن طريق القواد والقضاة. وكان (وما يزال) الإلمام بالأعراف والتقاليد المحلية ببلاد الأمازيغ معياراً لنجاح المرء في مهمته سواء كان عضواً في "الجماعة"، أو "أماغارا"، أو قاضياً، أو رجل إدارة عصرية.

أهمية الموضوع

تأخر الاهتمام بأعراف زَيَّان حتى أواخر القرن ١٩م عندما وصل إليها شارل دوفوكو في إطار عمليات الاستكشاف الممهدة للاستعمار الفرنسي. تلاه بعد ذلك عدد من الساسة والباحثين الكولونيين المهتمين بدراسة بنيت المجتمع المغربي بأدق تفاصيلها قبل معاهدة الحماية، ذلك عندما دونوا ونشروا جانباً مهماً من التراث العرفي الزياني على شكل تقارير سرية داخلية سترى فيما بعد طريقها للعموم عن طريق المجلات والجرائد وغيرها. وتزايد هذا الاهتمام مع وصول طلائع المعمرين إلى المنطقة، وظهور تخصصات جديدة عمقت البحث في مدى تجدره في قبائل الاتحادية، وسبل جعله متوافقا مع القوانين الفرنسية. وهكذا حظيت أعراف قبائل زَيَّان باهتمام الساسة الذين أطلقوا دراسات تفصيلية لأعراف المنطقة بعد وفاة موحى أوحمو الزياني، رغم أنهم لم يدونوا كل التفاصيل. وضمنت الرواية الشفوية المتواترة استمرار العديد من مظاهر هذه الأعراف حتى اليوم، أو على الأقل حتى وقت قريب، إذ تمكن من سد بعض جوانب النقص في دراستها.

من هنا بدأنا النبش في الأرشيف المحلي، والبحث عن بعض سبل تثمينه، خاصة أن البحث في سجلات القضاء العرفي من القضايا التي لم تستأثر باهتمام

إشكالية وأسئلة البحث

إلى أي حد يمكن لدراسة الأعراف المحلية أن تقدم للباحثين والمهتمين بتاريخ وتراث مغرب عهد الحماية تصورا شاملا عن عادات وتقاليد القبائل ومظاهر حياتها الاجتماعية، وطرق تدبيرها للعلاقات بين أفرادها ومع جيرانها؟

أطرتها الأسئلة الآتية:

- هل كانت الأولوية في التقاضي بزيان خلال عهد الحماية للشريعة الإسلامية أمام القانون العرفي؟ ولماذا؟
- هل كان ينبغي إلغاء الشرع وتطبيق العرف فقط؟
- هل انعكس إحداث المحاكم العرفية، إيجابيا أو سلبيا على حياة الزنانيين؟
- ما هي الإجراءات والتدابير التي كان معمولا بها لتيسير مواكبة الأعراف لروح عصرها؟

أهداف البحث

يروم هذا البحث:

- تجاوز التصور الضيق للأعراف المحلية، وإثارة انتباه الباحثين لأهمية الوثائق والممارسات العرفية في استخلاص معطيات في غاية الأهمية عن عادات وتقاليد القبائل وكذا تصورها للحياة الجماعية، وطرق ضبطها للعلاقات بين أفرادها ومع جيرانها.
- رصد الثابت والمتحول في بنية أعراف زيان.
- تعميق البحث في البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأمازيغي والمبادئ التي تحكمه.
- محاولة ملاءمة الخطاب التاريخي مع تزايد الوعي بالزمن التاريخي والتوجهات الجديدة للمجتمع التي تؤمن بالبحث الذي يتجاوز صدام أسوار الجامعة.

منهج البحث

اعتمدت مقارنة الموضوع على التوثيق التاريخي القائم على جمع، وتحليل، وتفسير، وتركيب المعطيات التاريخية المتناثرة في المصادر والمراجع والوثائق بشتى أنواعها. وسلكت المنهج الاستنباطي والاستقرائي في العديد من المحاور، حيث فرض علينا موضوع القبيلة الانفتاح على التاريخ الجهوي وتاريخ الوطن. ووظفنا أحيانا المنهج المقارن لإبراز أوجه الائتلاف والاختلاف بين عدة تجارب عرفية داخل الاتحادية نفسها، ومن خلال مقارنتها بتجارب أخرى. وكان للمقابلة الشفوية مع أمناء الحرف، وشيوخ القبائل، ومحافظي الأرشيفات، ومكاتب تنفيذ الأحكام نصيب

في سد بعض البياضات التي لم نعثر لها على وثائق داعمة.

أهم المصادر المعتمدة

تُعَدُّ سجلات المحاكم العرفية لكل من آيت كُرَات، وآيت حَرَكَات، وزيان، وإيُوحسُوس، وآيت سَكُوو، وسيدي بوعباد من أهم الوثائق الأصلية المعتمدة. إلى جانب المونوغرافيات التاريخية ك "كباء العنبر" و"تاريخ بلدة خنيفرة"، لمؤرخ زيان المعاصرة أحمد المنصوري، وأطروحة "إينولتان" التي لا يمكن لباحث مغربي في المونوغرافيات التاريخية الاستغناء عنها.

تنضاف إليها المصادر الأجنبية بالفرنسية وأهمها Tadla. Pays Zaïan, Moyen Atlas لصاحبه Peyronnet وأخرى معربة ك "التعرف على المغرب" للراهب الفرنسي المتنكر De Foucauld، و"أعراف قبائل زيان" للباحث الفرنسي Robert Aspinion/ذي استفاد من إلمامه باللغة المحلية لتقديم خلاصة إقامته بالمنطقة لمدة اثني عشر سنة. وساعدنا كتاب الجبل الأمازيغي للقبطان سعيد كنون في توثيق معطيات مهمة عن العادات والتقاليد والقضاء بمنطقة آيت اومالو عموما في المأكَل والمشرب والملبس والضيافة، والأسرة، والأحلاف... والمعارك العسكرية باعتبار المؤلف شاهدا عيان على ما دونه. إضافة إلى كتابه "صوت الجبل"، وكتاب "موحى وحمو الزناني" لفرانسوا بيرجي. و "البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي (١٩١٢-١٩٣٣)" للجنرال كيوم.

إلى جانب الكتب ساعدتنا المجلات الكولونيلية في الإمساك بالخطوط العريضة للموضوع كمجلة Archives Berbères بداية من ١٩١٥، خاصة مونوغرافيات بلاد زيان أو جزء منها. وHespéris، و"هيسبيريس ثمودا"، وجريدة السعادة، والموسوعات والمجموعات الوثائقية ك: "Encyclopédie Berbère"، ومعلمة المغرب، وموسوعة المقاومة...

الدراسات السابقة

تحقيقا للتراكم المعرفي المطلوب بشدة في أفق المساهمة في كتابة تاريخ تركيبي كان لابد من الاطلاع على ما وصل إليه الباحثون قبلنا في هذا المجال. ويكون هدفنا في تقديم الإضافة المنشودة واضحا. وهكذا أمكننا تحديد أهم الدراسات التي تمكنا الاطلاع عليها، والتي لها علاقة مباشرة بعملنا كالاتي:

يُعَدّ كتاب **أعراف قبائل زيان** لروبير أسبينيون من أهم الدراسات الفرنسية المعاصرة للفترة المدروسة. قدمت وصفا دقيقا لتجمعات المجتمع الأمازيغي، ومؤسساته القانونية.

قدم لنا الباحث شرف الدين أحمامي في أطروحته **القضاء بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: مقارنة تاريخية**^(١) فكرة عن أنواع القضاء بالمغرب خلال المرحلة التي درسها. بما في ذلك القضاء الشرعي، والقضاء المخزني، والقضاء العرفي... وعرج باقتضاب في جزء من الفصل الرابع على هيئات القضاء العرفي (إنفلاس، أمغار، ومؤسسة العافية)، ومؤسسات الحماية (ثايسا، ثاضا، تافركانت، والجماعة). وبسط بعض قواعد العرف.

وجاءت أطروحة الباحث عبد العزيز بودرة الموسومة **بالقضاء العرفي بالمغرب خلال فترة الحماية الفرنسية ١٩١٢-١٩٥٦م**^(٢) لدراسة القضاء العرفي بالمغرب بشكل عام. عرج فيها على الأعراف والمؤسسات العرفية الأمازيغية، وتطرق لإصلاحات القضاء العرفي بالمغرب خلال فترة الحماية.

وكانت أطروحة الباحث جواد التباعي المعنونة بـ **نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين**^(٣) منطلقا لتعميق البحث في أعراف زيان دون الخوض في التفاصيل التوضيحية لهذا التراث اللامادي.

وقدم لنا الشق المتعلق بالحياة الاجتماعية بزيان من أطروحة الباحث أقبوش إدريس المعنونة بـ **"جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية (١٩١٢-١٩٥٦)"**^(٤) بعض مؤشرات التحول الاجتماعي بقبائل زيان خلال عهد الحماية (الجماعة، أمغار، والمحاكم العرفية). وعرج على أشكال التكافل والظلم الاجتماعي بزيان، وعلاقة الشرع بالعرف فيها باقتضاب.

وأفادتنا أطروحة الذهبي المكي المعنونة بـ **"التحولات الاجتماعية والاقتصادية والمجالية عند زيان زمن الحماية"**^(٥) خاصة القسم الثاني عندما عرج على مكانة الشرع والعرف والشرفاء في القبيلة، وأهم المؤسسات والأوقاف التي كانت ترعى هذه الجوانب الروحية باقتضاب باعتبارها جزءا يسيرا من التحولات التي درسها.

وخصص الباحث حميد بالوش مبحثا من أطروحته الموسومة بـ **"الهوية الثقافية في التراث اللامادي المغربي: قبائل زيان نموذجا"**^(٦) لتجليات الأمن

والحماية من خلال أعراف زيان ومنشآتهم الأمنية. ذكر فيه بخصوصيات الحماية في العرف الزياني (الزطاطة، الشرف، الرفود، العار، وأفور) دون إبراز مظاهرها في المجتمع المدروس.

وقدمت لنا أطروحة الباحث محمود نور الدين المعنونة بـ **"الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل آيت عطا في الأطلس الكبير الأوسط من خلال سجلات المحاكم العرفية ١٩٢٤-١٩٥٦"**^(٧) إضاءات عن مؤسسات التحكيم بآيت عطا الأطلس الكبير، وخطوات إحداث وترسيم سلطات الحماية لمحاكمهم العرفية بعيد احتلال واويزغت سنة ١٩٢٢م. وأعطينا فكرة عن دور سلطات الحماية التحكيم التقليدية (الجماعة والزوايا).

خطة البحث

اقتضت مقارنة الموضوع والجواب على إشكاليته تقسيم العمل إلى ثمانية فصول مسبقة بمقدمة، ومذيلة بخاتمة.

جاءت مقدمة العمل مبينة لأهمية الموضوع وإشكاليته، وكذا المنهج المعتمد في الدراسة، ودراسة نقدية للدراسات السابقة، وأهم ملامح البيبليوغرافيا المعتمدة.

تطرق أول هذه **الفصول** للإطار المفاهيمي لبلاد زيان بتقديمه لدلالة أهم المفاهيم المؤطرة للأطروحة (التراث، العرف، الأرشيف المحلي، التثمين). وبسط الخصائص السوسيو جغرافية لمجال الدراسة. وخصص **ثانيها** لتوضيح لعلاقة بين الشريعة والعرف قبل الحماية، وسياق ظهور المحاكم العرفية ببلاد زيان، والتعريف بأهم مكوناتها وأصنافها، ومراحل التقاضي داخلها. وذلك في ثلاثة مباحث: ركز الأول على تأرجح قبائل زيان بين الشريعة والعرف قبيل فرض الحماية، وتتبع المبحث الثاني السياق التاريخي لظهور المحاكم العرفية بين ١٩١٤ و ١٩٣٤، وقدم المبحث الثالث قراءة في الجوانب الشكلية لعقود التوثيق الشرعي وعقود المحاكم العرفية بزيان حتى يسهل على القارئ فهم التدبير العرفي للقضايا.

وفصل الفصل **الثالث** في قضايا الأحوال الشخصية في عرف زيان خلال عهد الحماية مع التحليل والتعليق في خمسة مباحث: خصص الأول والثاني والثالث لأعراف الخطبة والزواج، وعالج المبحثان الرابع والخامس قضايا شائكة في المجتمع الزياني كالزنا، والتبني، والنسب والأبوة... ودور الأعراف في تدبيرها.

وتطرق الفصل **الرابع** لأساليب تدبير أعراف زيان لقضايا المعاملات التجارية، والديون، والرهن،

كبار السن والباحثين الشباب، وإرشادات الأستاذين المشرفين، وثلة من الأساتذة الأخيار تغلبنا على معظم هذه الصعوبات.

خاتمة

حظيت محاكم زيان العرفية عمومًا بعد تأسيسها مطلع ثلاثينات القرن الماضي - بغض النظر عن أهدافها الاستعمارية- بالقبول لليونتها وتكيفها مع تطور البنية الثقافية الاجتماعية والوضعية الاقتصادية للمنطقة، وذلك من خلال اعتماد قضاتها على مناديب، واستعانتهم بشهود وخبراء في المجال، وأعيان وقواد القبائل. يترجم نجاحها في الامتثال الكبير لقراراتها، وقدرتها على حل عدد كبير من القضايا من أول جلسة، أو بناء على تحكيم إيجابي من قضاتها بتنسيق مع الجماعة حيث تكون الجلسة الثانية غالباً للمصادقة على ما تم التوصل إليه. واستفادت في ذلك من حركة الانتجاع تنوع وتكامل المجال للتطور والازدهار بشكل تحكمت معه في تفاصيل الحياة اليومية للزيانيين رغم تضيق المستعمر. واستمرت علاقة أعيان زيان وطيدة بالسلطة المركزية كما كانت في عهد الملوك السابقين لمكانتهم ولقوة عصبيتهم.

لقد مكنتنا سجلات المحاكم العرفية من فهم جوانب عديدة من الحياة الاقتصادية لقبائل زيان من خلال أعرافهم الخاصة بتجارة الأرز والقطران اللذان كانا مصدر شهرة سكان جبل زيان التي بلغت الآفاق. ووفقَ التجار الوافدون والمستقرون بالمنطقة بين حجم المبيعات والديون وحرصوا على توثيقها ضماناً لحقوقهم عند ارتفاع حجم الديون أو نكار أصحابها. وفعلت الجماعة والمحاكم العرفية مستجدات الأعراف في تدبير قضايا مختلف أشكال الديون، خاصةً ديون المواشي والحبوب. وسجلت المحاكم خلال عهد الحماية عددًا محدودًا من قضايا تسديد الرهن وأداء الأمانة للالتزام غاليبتهم بالتعهدات.

كان لقضايا قضايا الأرض نصيب الأسد في سجلات المحاكم العرفية لأهميتها في ضبط الأمن والاستقرار في مجتمع مبني على التدافع القبلي، واعتبار تملك الأرض سواء عن طريق الشراء، أو الشفعة، أو القسمة والإرث وطلبات الإخلاء باللين أو بالعنف أحياناً... بل وحرمان النساء من الإرث تفادياً لخروج الملكية من العائلة لأنها بالنسبة لمعظمهم قضية وجود لا قضية حدود.

بينما سلط الفصل الخامس الضوء على أعراف العقار بقبائل زيان، وطرق تدبيرها من طرف المحاكم العرفية وعرضت مباحثه الخمسة قضايا شغلت حيزاً كبيراً من سجلات المحاكم العرفية كنزاعات الحدود والملكية المشتركة، والقسمة، والشفعة، وطلب إخلاء الأرض وتسجيل أو إلغاء بيعها.

وركز الفصل السادس فقد في مباحثه الثلاثة على قضايا الزراعة والغراسة، والسقي، والرعي من خلال الأحكام المدونة في ثانيا سجلات المحاكم العرفية.

وعرج الفصل السابع على أعراف تدبير قضايا العنف والاعتداء، وتنفيذ أحكامها الصادرة عن المحاكم العرفية بعد تصنيفها في أربعة مباحث: تطرقت بالتفصيل والتحليل والاستنتاج لقضايا الدية، والضرب والجرح، وقضايا الزنا والاعتصاب، وقضايا التعويض عن التفويض، وطلبات تنفيذ الأحكام، وأعراف قضايا قطع الطريق...

وتناول الفصل الثامن والأخير بالدرس والتحليل أهم التحالفات والأوقاف العرفية بقبائل زيان خلال عهد الحماية، مع تقديم نماذج لمبادرات تثمين التراث العرفي بالمنطقة.

وذيل البحث بخاتمة عامة تضمنت خلاصات ونتائج انتهى إليها تحليل ودراسة موضوع هذا العمل، وملاحق توضيحية، وفهرس للمحتويات.

جدير بالذكر ان هذا العمل لاقى صعوبات عديدة نجمل أهمها فيما يلي:

- صعوبة قراءة بعض الملفات التي تأكل جزء منها، وكثرت خرومه وتساقطت هوامشها، واعوجت أوراقها بسبب تسربات مياه الأمطار.
- صعوبة الترجمة، ونقص هنا صعوبة ترجمة كلمات وعبارات ترجمها كتاب المحاضر من الأمازيغية الأصل إما إلى الفرنسية أو العربية بشكل تغير معه رسم الكلمات
- قلة ملفات القضايا، حيث ضاع عدد كبير من الوثائق المساعدة على فهم بعض أعراف وعادات المجتمع الزياني قبيل دخول المستعمر لمدينة خنيفرة في يونيو ١٩١٤.
- صعوبة التعامل مع ذوي الحقوق والمستفيدين من القوانين عرفية، خاصةً عندما يتعلق الأمر بالحصول على معلومات ملموسة، أو وثائق كراء أو شراء قصد تأكيد المعلومات.

لكن ويفضل الله ومساعدة موظفي المحاكم والأرشيفات، والدعم الكبير من طرف أبناء المنطقة من

لقد عبر الزبانيون بكل الوسائل عن ارتباطهم الشديد بالأرض، لذلك سارعوا إلى توثيق أملاكهم بعد ظهور المحاكم العرفية بفعل محاربة السلطات الاستعمارية للعمليات العقارية غير المصرح بها. ودعمت السلطات الفرنسية الملكية الخاصة من خلال الاستعانة بطوبوغرافيين فرنسيين وتكوين طوبوغرافيين محليين بمدرسة أزرو. واستعانت المحاكم في حل عدد من قضايا العقار بالجماعة، وقضاة، وعرفاء، وخبراء وشهود، ومحكمين، وممثليين وأعيان، وممثلي السلطة... وأحيانا نزل كل أفراد المحكمة إلى الميدان. وأي عقار غير مقسم لا يمكن أن يخضع لأي معاملة (بيع، كراء، رهن...) إلا بتشاور بين جميع المالكين المشاركين أو بموافقة جميع هيئاته.

لم تكن تشكل المرجعية القانونية لوحدها وسيلة حل كل القضايا، بل كان لمؤسسات أخرى فرنسية تقنية وإدارية وعسكرية وطبية أدوار متفاوتة في تعديل الأعراف وتحديد حيثيات الأحكام وتوجيهها. وسجلنا في معظم القضايا استمرارية قيادة مجال الدراسة داخل نفس العائلة بالوراثة، وهو ما أثر على طبيعة الأحكام الصادرة مادام المدعى عليه في خدمة من يدفع أجرة القاضي. ونرجح أن هذا الأمر يفسر سبب تأخر رفع هذه القضايا بالنظر لاستمرارية ورثة المستوذين على الأراضي حكاما لمجال نفوذ المحكمة، وما أحدثه ذلك من تأثير على سير أطوار القضايا.

سجلنا قلة قضايا تدبير المياه بالمحاكم العرفية المحلية لكون أغلبها بسيطة، كان يتم الحسم فيها من طرف شيخ الماء "بو أمان". واستأثر الصراع حول مياه السقي بالنصيب الأوفر من تلك القضايا المسجلة بالمحاكم العرفية الابتدائية بزيان لما لها من أهمية في ضمان الكفاف والأمن الغذائي للقبيلة، دون أن ينفي ذلك وجود قضايا بشأن شرب المواشي والسكان. ولعل الحديث عن الزراعة والسقي لا يستقيم دون تتبع أعراف تدبير نزاعات وقضايا الرعي وما تسببه المواشي والحيوانات من أضرار، لذلك تعددت قضايا الزراعة والغراسة والرعي المعروضة أمام المحاكم العرفية. وبالعودة إلى السجلات يتضح أن معظم قضايا ضرر الحيوانات المعروضة على المحاكم العرفية بسيطة جدا. ومعظمها حدث في أزاغار حيث تسمح تركيبة التربة وطبيعة المناخ بإقامة حقول زراعية أكبر نسبيا مقارنة مع الجبل. هذا وتميزت أعراف تدبير أسواق المواشي بدقة كبيرة جعلتها تضمن استمراريته حتى اليوم.

كشف ما توفر لنا من التراث العرفي عن قدرات عارفي زيان في تدبير مختلف أشكال وقضايا العنف والاعتداء. وهكذا كانت دية القتل وسيلة للحد من الصراعات الداخلية، وجبراً لضرر ورثة الضحية، يتقاسمون بها بنفس طريقة ميراثها، لكن قيمتها مهما ارتفعت تبقى دون قيمة حياة القاتل خاصة الذكر وسط قبيلته. وفصلت ديات الضرب والجرح، ومختلف أنواع الكسور... وأسهمت في تراجع الانتقام العشوائي الذي تسبب أحيانا في حروب وعداوات قبلية طويلة الأمد. وكانت الأعراف المحلية أكثر تشددا في قضايا السرقة وقضايا منع المرتفقين من استعمال الطرقات باعتبارها تهديدا للأمن العام، بينما كان شرب الخمر استثناء لا يقاس عليه. والملاحظ أن قضايا طلبات تنفيذ الأحكام لم تستغرق أكثر من جلستين، وحق الطرفين طلب إعادة تشكيل لجنة قضاة التحقيق بدليل أن المحاكم استجابت لكل الطلبات في هذا الصدد.

وقد شكلت صياصي جبال زيان وسهولها الممتدة الأطراف قبلة للوافدين من خارج القبيلة قبائل وجماعات وفراذل فاتخذها بعضهم مستقرا كالشرفاء الذين استقر معظمهم على الحدود مع القبائل المجاورة، والمرابطون الذين اختاروا المناطق المحيطة بأم الربيع للقيام بأدوارهم الدينية، أرباب الزوايا الذين انشروا عبر كافة أنحاء قبائل زيان في فترات تاريخية مختلفة. واستقر بالمنطقة أيضا الرعاة، المهتمشون، المنفيون، الجنود، وبعض عابري السبيل... بفعل قدرتهم على الاندماج في اتحادية كانت في أمس الحاجة إلى سواعد إضافية لبناء مجدها. وجعلها آخرون بوابة عبور نحو مناطق أخرى (قبائل زعير، كُروان...) لصعوبة المنافسة على المراعي. لذلك فرضت ظروف انعدام الأمن استقطاب وحماية غرباء لتعزيز قوة القبيلة (إفكارصن، الشناكطية، إخرضان...)، والتعاقد مع آخرين لتوفير عقول أفرادها (فقهاء) وبث الحماسة المطلوبة فيهم. ونوع الزبانيون تحالفاتهم القبلية لخلق التكامل المطلوب وقت السلم، والتلاحم المفروض وقت الحرب. وسعوا لتطوير طرق العمل التعاوني فيما بينهم بقصد ضمان الألفة والاستقرار والأمان، وتبادل الخبرات والتجارب لضمان الاستغلال الأمثل للمجال.

الخلاصات الرئيسية

لقد توصل العمل إلى مجموعة من الخلاصات الرئيسية لعل أبرزها:

- لم تتأثر أعراف قبائل زيان الأمازيغية وسط المغرب كثيرا بأحكام القضاء الشرعي، مما جعل مجتمعهم يقدم صورة أكثر اكتمالاً في الحفاظ على العديد من الأعراف التي كانت سائدة قبل الاستقلال لدرجة أنها ترسخت في الذاكرة الجماعية وصارت قوانين تدبر بها علاقاتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية.
- كانت المواثيق والتحالفات وسيلة لإنهاء، أو على الأقل للتخفيف من حالة انعدام الأمن بين مجموعات قبلية من أصول مختلفة، فولها لتلونت مياه عالية أم الربيع بالدماء في اتحادية عرفت بأنها صعبة المراس.
- حظيت محاكم زيان العرفية بعد تأسيسها مطلع ثلاثينات القرن الماضي بالقبول، لليوتتها وتكيفها تدريجياً مع تطور البنية الثقافية الاجتماعية والوضعية الاقتصادية لسكان المنطقة الذين أقبلوا عليها بشكل متزايد.
- ساهمت عناية قبائل زيان بأعرافها في ضمان تدبير محكم لمختلف قضايا الأحوال الشخصية. ورصدت السجلات حلولاً مبتكرة للتزايد المستمر لقضايا متعددة ومعقدة أحياناً. كما نجح العرف الزياني في إرساء قواعد قانونية لتدبير قضايا الطلاق والهدايا والمتاع.
- تفادى عدد كبير من الزينيين تقديم قضايا الخيانة الزوجية أمام المحاكم العرفية دفعا للضرر المعنوي، باعتبارها أمراً داخلياً يعرض على "الجماعة" أو محكمة القايد ولا يستدعي نشر "غسيل" القبيلة أمام المحتل الأجنبي الذي ترك للفصل في القضايا التي تعجز "الجماعة" القبيلة عن حلها.
- مكنتنا سجلات المحاكم العرفية من فهم جوانب عديدة من الحياة الاقتصادية لقبائل زيان من خلال أعرافهم الخاصة بهذا الجانب
- كان لقضايا العقار نصيب الأسد في سجلات المحاكم العرفية لأهميتها في ضبط الأمن والاستقرار في مجتمع مبني على التدافع القبلي. وهو أمر طبيعي في اتحادية قبلية بني اقتصادها أساساً على الرعي والانتجاع والجري "وراء العشب الهارب".

- سجلنا في معظم القضايا استمرارية قيادة مجال الدراسة داخل نفس العائلة بالوراثة، حيث ارتقى موحى اوحمو الزياني من أمغار إلى " قائد" للمخزن على المنطقة، وبعد مقتله عين المستعمر عددا كبيرا من أبنائه المتعاونين معه قوادا وباشاوات على المنطقة طيلة مالا يقل عن ثلاثة أرباع عهد الحماية. وهو ما أثر في أحيان كثيرة على طبيعة الأحكام الصادرة مادام المدعى عليه في خدمة من يدفع أجرة القاضي.
- اعتبر العرف الزياني بيع الممتلكات غير المقسمة محظورا باستثناء الاتفاق بين جميع المالكين المشتركين أو تقسيم الأرض قبل البيع. شملت معظم قضايا النزاع "الأراضي الحراثية"، و"إحداث أو إغلاق أو تثبيت الطرق"، و"قضايا تغيير حدود البناء"، وبعض الأراضي الجماعية التي ظلت غير قابلة للتنازل.
- سجلنا قلة قضايا تدبير المياه بالمحاكم العرفية المحلية لكون أغلبها بسيطة، كان يتم الحسم فيها من طرف شيخ الماء "بو أمان". واستأثر الصراع حول مياه السقي بالنصيب الأوفر من تلك القضايا المسجلة بالمحاكم العرفية الابتدائية بزيان لما لها من أهمية في ضمان الكفاف والأمن الغذائي للقبيلة.
- يتضح أن معظم قضايا ضرر الحيوانات المعروضة على المحاكم العرفية بسيطة جداً. ومعظمها حدث في أزغار مقارنة مع الجبل. هذا وتميزت أعراف تدبير أسواق المواشي بدقتها ونجاعة أحكامها بشكل جعلها تضمن استمراريته حتى اليوم في حل معظم خلافات أرباب المواشي في أسواق المنطقة. إذ لازال قاضي السوق " بو السوق" هو الأمر الناهي في قضايا خلافات أسواق المواشي.
- كشف ما توفر لنا من التراث العرفي عن قدرات عارفي زيان في تدبير مختلف أشكال وقضايا العنف والاعتداء. وأسهمت في تراجع القصاص، والانتقام العشوائي الذي تسبب أحياناً في حروب وعداوات قبلية طويلة الأمد.

مقترحات لتثمين مظاهر التراث العرفي

وحرصاً على ضمان الوظيفة المجتمعية للتاريخ في فهم الحاضر واستشراف المستقبل قدمت الدراسة بعض المقترحات لتثمين مظاهر التراث العرفي التي ضمنت استمراريتها حتى تتماشى وروح العصر ك:

- إيلاء المزيد من الاهتمام للأعراف وإبراز دورها في صياغة النصوص القانونية المتعلقة بالأحوال الشخصية، وقضايا المعاملات الفلاحية والتجارية.
- رقمنة سجلات المحاكم العرفية عبر أنحاء تماشياً مع تطور العصر. وذلك ضماناً لاهتمام السلف بما تركه الخلف من تراث ثقافي زاهر يمكن استثماره في حل بعض مشاكل الحاضر والمستقبل.
- تجميع أرشيفات المحاكم العرفية في أرشيفات جهورية تتوفر فيها كل شروط حفظ الأرشيف، وفتحها في وجه الباحثين والمهتمين وفق قانون الأرشيف رقم ٩٩-٦٩ الصادر بموجب الظهير الشريف رقم ١٧٠٧-١٦٧ المؤرخ في ٣٠ نونبر ٢٠٠٧.
- تجنب الاختباء وراء المساطر الإدارية وغيرها من التبريرات البيروقراطية في زمن "الحق في الوصول إلى المعلومة".

نقر ختاماً أننا لم نخط بكل تلايب الموضوع، أو أنه استوفى كل حقه من الدراسة والتحليل. لكننا حاولنا - وفق ما أتيح لنا - أن نسلط الضوء على موضوع ظل حكراً على الدراسات الاستعمارية في حيز جغرافي شكلت منطلق أعراف المغرب ككل. إذ كانت وما تزال الأعراف إلى حدود اليوم تشكل جزءاً لا يتجزأ من ثقافة سكانه. لقد تعلق الزياتيون ببعض أعرافهم لدرجة أن بعض القواعد العرفية ما تزال سارية على الرغم من الترسانة القانونية للدولة. وحتى عندما تراجعت الأعراف بظهور الكتابة وأصبح يحتل الرتبة الثانية بعد التشريع والنصوص القانونية.

وحيث إن الأعراف جزء لا يتجزأ من الترسانة القانونية لجميع دول العالم وقف العارفون القائمون على الشأنين القضائي والثقافي بعد الاستقلال وقفات متعددة لتقييم حصيلة الترسانة القانونية التي تتوفر عليها البلاد. وهكذا تم إلغاء ظهير ٢٥ غشت ١٩٥٦ للمحاكم العرفية، لكنها عادت لتشمل المغرب بكامله بطريقة غير مباشرة من خلال ظهير ١٥ يوليوز ١٩٧٤ الذي عمم محاكم الجماعات والمقاطعات على مختلف أنحاء البلاد، وأصبح "حاكم الجماعة" امتداداً للمحكمة العرفية. استمر العمل به إلى أن عوض بقضاء القرب بموجب ظهير ١٨ فبراير ٢٠١١م. في حين لازالت بعض بنوده مستمرة في تشريعات التجارة وبعض التشريعات الاجتماعية كعلاقات الشغل، والعقود الفلاحية، وأحكام الجماعة، وتوزيع المياه... واستمر العرف يتقاسم مناطق النفوذ مع التشريع. كما بات العائق اللغوي عاملاً ينفر المتقاضين من القضاء، ويجعل منه جهازاً غريباً عن ثقافة المجتمع، بينما يسمح لهم العرف بحل نزاعاتهم بسرعة وبساطة بإجراءات بسيطة ومرنة وسهلة دون التقيد بأجال معينة أو مصاريف بفضل حكمة الوسطاء وتأثيرهم في المتنازعين، لذلك لازالت له المكانة الأولى خاصة في تشريعات التجارة وبعض التشريعات الاجتماعية وعلاقات الشغل والعقود الفلاحية على وجه الخصوص.

- (١) أحمامي شرف الدين، القضاء بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: مقارنة تاريخية، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، ٢٠٢١.
- (٢) بودرة عبد العزيز، القضاء العرفي بالمغرب خلال عهد الحماية الفرنسية ١٩١٢. ١٩٥٦، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، ك. آ. ع. إ. سايس، فاس، ٢٠١٩.
- (٣) التباعي جواد، نماذج من التراث الثقافي ببلد زِيَّان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ والتراث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس، ٢٠٢١.
- (٤) أقبوش إدريس، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زِيَّان خلال فترة الحماية (١٩١٢. ١٩٥٦)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ٢٠١٧.
- (٥) الذهبي المكّي، التحولات الاجتماعية والاقتصادية والمجالية عند زِيَّان زمن الحماية، بحث لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٢٣.
- (٦) بالوش حميد، الهوية الثقافية في التراث اللامادي المغربي: "قبائل زِيَّان نموذجاً"، أطروحة لنيل الدكتوراه في التراث الثقافي، كلية اللغات والآداب والفنون بالقنيطرة، ٢٠٢٣.
- (٧) محمود نور الدين، الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل آيت عطا في الأطلس الكبير الأوسط من خلال سجلات المحاكم العرفية ١٩٢٤. ١٩٥٦، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ والتراث الجهوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، ٢٠٢١.



2008 - 2025



<https://kan.journals.ekb.eg>

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

<https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449>
<https://www.facebook.com/historicalkan>